

أثر العرب والاسلام

في النهضة الأوروبية

أعدت هذه الدراسة
بإشراف مركز تبادل
القيم الثقافية بالتعاون
مع منظمة الأمم
المتحدة للتربية والعلوم
والثقافة (يونسكو)



2007

اهداءات ۲۰۰۱

ا.د. احمد أبو زيد

انثروبولوجي

أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية

أعدت هذه الدراسة بإشراف مركز تبادل
القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم
المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو)

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يمثل هذا الكتاب حلقة في سلسلة الجهود التي تبذلها الشعبة القومية لليونسكو في الجمهورية العربية المتحدة ، في نطاق تبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب .

وقد كانت الحلقة التي سبقت هذه لإخراج دليل بيليوجرافي للقيم الثقافية العربية ، وإعداده للترجمة إلى بعض اللغات الكبرى . ويجرى الآن إعداد حلقة تالية في صورة ترجمة لطائفة مختارة من المقالات العربية في القديم والحديث في مختلف نواحي الفكر والحياة .

والكتاب الحاضر . من جهة أخرى - يمثل إضافة جديدة إلى البحوث العلمية التي قام - ويقوم - بها علماء الغرب والشرق في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية ومنجزاتها ، ومكانها في تطور الحضارة الإنسانية العامة ، وما كان لها من صلات بحضارة الغرب الحديث وتأثير فيها .

وموضوع أثر الحضارة الإسلامية في ثقافة الغرب ومدنيته موضوع واسع متشعب النواحي ، احتل من دراسات العلماء المستشرقين . منذ أواخر القرن الماضي . مكانا بارزا . ومن الحق أن نقرر أنهم عبدوا طرقه ومناهجه ، وإن جهودهم فيه قد تنوعت : فكان منها الفردية التي تناولت موضوعا محدودا ، أو ظاهرة ، أو مرحلة ، أو علما من أعلام الفكر : كالبحث في المؤثرات الإسلامية في « الكوميديا الإلهية » لدانتي ، أو في أثر الموشحة العربية الأندلسية في الشعر الغنائي الأوربي ، أو تأثير آراء « ابن سينا » في الفلسفة الغربية في أوائل عصر الإحياء ، أو التاريخ للعلم العربي ومكانه في تطور العلم العالمي . أو تصوير النهضة العربية الإسلامية ومنجزاتها في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ؛ وكان منها الجماعية التي تعاونت فيها طائفة من الباحثين على دراسة تراث الإسلام في ميادينته الكبرى ، وبيان مسالكه إلى الفكر الأوربي . وإلى هذه الجهود الغربية تتكرر الإشارة في فصول هذا الكتاب ، والتنويه بقيمتها .



وقد شهدت الخمسون سنة الأخيرة منذ بدء النهضة الجامعية في البلاد العربية مشاركة جادة من علماء الشرق في هذا الميدان ظهرت بعض ثمارها — في مؤتمرات المستشرقين والمؤتمرات العلمية الدولية ، والندوات العالمية في الثقافة الإسلامية — في طائفة من البحوث التي كشفت عن جديد من النصوص والوثائق ونطاق التأثير والتأثر بين الفكرين الإسلامي والغربي كما أخرجت المطبعة العربية دراسات في الموضوع تناول بعضها منجزات الحضارة الإسلامية ومقوماتها ، وتناول بعضها آثار التراث الإسلامي في الحضارة الغربية .

ومن حسن الحظ أنه قد انقضت — أو كادت — تلك المرحلة التي كانت معالجة هذا الموضوع فيها يشوبها أحيانا شيء من التحامل والتعصب من جهة ، والرغبة في الدفاع عن الكيان وعن التراث القومي من جهة أخرى . وحلت

محلها مرحلة من العمل المتواصل في إحكام روابط التفاهم العالمى ، وفى اتخاذ دراسة الحضارات البشرية سبيلا إلى إبراز الوحدة الإنسانية ، ودافعا إلى التعاون الحقيقى فى إزالة الخصومات ، وتخفيف حدة الأطماع ، والسعى إلى إقرار السلام بين الأمم على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها وثقافتها ، ومنبها إلى أن الازدهار الحضارى الذى تنعم به بعض دول العالم فى العصر الحديث إنما هى حصيلة الجهود المتعاقبة للحضارات الكبرى التى تركت طابعها على تاريخ البشرية وتقدمها ، ومن حق الأمم جميعا أن تشارك فى خيراته ، وتفيد من مجالات تطبيقه ، وأن التاريخ الحضارى لبني الإنسان قائم على التعاون والأخذ والعطاء ، فلا محل فيه لشعور بالاستعلاء من جانب المعير ، أو بالغضاضة والنقص من جانب المستعير .

ولعل هذا المعنى هو الذى أشار البروفسور « كويلر يونج » إلى بعض جوانبه حين قال فى خاتمة بحث له عن « أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب المسيحى (١) » :

« وبعد فهذا عرض تاريخى قصيد به التذكير بالدين الثقافى العظيم الذى ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين — داخل هذه الألف سنة — نسافر إلى العواصم الإسلامية وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم

(١) ... بحث مطول بعنوان «The Cultural Contribution of Islam to Christendom» للبروفسور T. Cuyler Young الأستاذ (حينذاك) بقسم اللغات الشرقية وآدابها (ورئيسه الآن) بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، قدمه للندوة العالمية عن الثقافة الإسلامية «Colloquium on Islamic Culture in its Relation to the Contemporary World» التى عقدت فى برنستون ووشنطن سنة ١٩٥٣ بدعوة من جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس الأمريكى واشترك فيها عدد من علماء الشرق الإسلامى ، ومن علماء الغرب المعنيين بالدراسات الإسلامية . وقد نشرت ترجمة ذلك البحث مع مجموعة البحوث التى قدمت للندوة فى كتاب باللغة العربية (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة — بحوث ودراسات إسلامية» . محمد خلف الله أحمد — القاهرة ١٩٥٥)

وقد عقدت الحلقة الثانية من الندوة فى لاهور — باكستان سنة ١٩٥٧ — ٥٨ وتناولت بعض بحوثها أثر الإسلام فى نهضة الغرب ونشرت البحوث فى كتاب باللغات الأردية والعربية والانجليزية International Colloquium on Islamic Culture — Lahore 1960.

وفلسفة الحياة الإنسانية ، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام ، حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى أن تتفهمه وترعاه . كل هذا يجب أن يمازج الروح التي نتجها بها — نحن المسيحيين — نحو الإسلام تحمل إليه هدايانا الثقافية والروحية ، فلنذهب إليه — إذن — في شعور بالمساواة تؤدي الدين القديم .

ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدينا ما علينا بربحه ، ولكننا سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا في حب واعتراف بالجميل . »



كان هذا الروح الجديد من البواعث الأساسية للاقتراح الذي أقره المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثانية عشرة (نوفمبر — ديسمبر ١٩٦٢) — (وهو أن تتبنى الشعبة القومية لليونسكو في الجمهورية العربية المتحدة مشروع دراسة لأثر العرب والحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية ، تُعَدُّ باللغة العربية ثم تترجم إلى بعض اللغات الكبرى) .

وقد دعت الشعبة لجنة من علماء الجمهورية في مختلف ميادين المعرفة في الأدب والعلم والفلسفة والفن لوضع خطة المشروع وتنفيذه . وحددت اللجنة الهدف الرئيسي للمشروع بأنه الدراسة العلمية لنواحي الاتصال بين نتائج الحضارة العربية الإسلامية وأوروبا في أوائل عصر النهضة في مرحلة تمتد من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي ، وما تؤيده الشواهد والأدلة من نواحي تأثير الفكر الأوربي في ذلك العصر بمنجزات الفكر الإسلامي .

واختارت اللجنة من ميادين هذا التلاقى تسعة هي : الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية ، والطب ، والجغرافيا ، والمعارف الملاحية ، والتاريخ

والعمارة والتحف الفنية ، والموسيقى ، وعهدت بكل قسم إلى من يقوم به من علمائه .

وسارت معالجة هذه الميادين على النهج المقترح فعرض الباحثون - كل في موضوعه - لمنجزات الحضارة العربية الإسلامية في الموضوع ، والطريقة التي وصل بها ما وصل من تلك المنجزات إلى أوروبا ، ومواطن تأثير العلماء والمفكرين الأوروبيين بها - إن وجدت - في أوائل عصر النهضة - ولتقييم ذلك في ضوء البحث التاريخي المقارن .

وكان من الطبيعي أن تتكرر الإشارات في البحوث إلى معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا - وإن كان كل باحث قد نظر إليها من زاوية موضوعه - وأن يسجل الباحثون العرب في الموضوع نتائج دراسات زملائهم المستشرقين فيه ، موجهين اهتمامهم إلى ما جدد من بحوث ونشر في السنين الأخيرة من نصوص ومخطوطات على يد الباحثين المختصين من شرقيين ومستشرقين ، تلقى على الموضوع أضواء جديدة .



إن المدارس لبحوث هذا الكتاب ونتائجها يجد أنها تمثل إضافة ذات قيمة لدراسات الاتصال الحضاري : وتسير بالبحث في موضوع أثر العرب والحضارة الإسلامية في نهضة أوروبا إلى أحدث مراحله ؛ فقد تتبعنا الفصول التسعة - كل منها في موضوعه - المسالك التي نفذت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب في أول عصر النهضة وفي أثنائه ، من طريق الازدهار الثقافي لتلك الحضارة في بعض أجزاء أوروبا ، والانصهار الثقافي للسكان المسلمين والمسيحيين في نواح منها - وعلى الأخص في الأندلس ، وترجمة مئات الكتب العربية في مختلف ميادين العلم والفلسفة إلى اللغة اللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى ، والاعتماد على بعض تلك الكتب في الدراسات الجامعية الأوروبية إلى مرحلة متأخرة ، واتصال بعض الأوروبيين بالشرق

في أثناء الحروب الصليبية ، ومعيشتهم فيه ، وسماعهم من أهله ، ونقلهم من مؤلفيه ، وتقليد الغرب لأساليب الفن الإسلامي في عمارته وزخارفه وموسيقاه ، وبعض ألوان شعره واتجاهات قصصه ، وإفادة الملاحين والكاشفين الأوروبيين من معارف العرب البحرية والفلكية والجغرافية وكتبهم ، واستعارة اللغات الأوروبية كثيراً من الألفاظ العربية للدلالة على مختلف المفاهيم العلمية والعملية الجديدة .

وإذا كانت الفصول التسعة قد اشتركت في الصورة العامة التي حاول كل منها أن يرسمها في موضوعه ، وفي الموضوعية التي التزمته في عرض نواحي التأثير والتأثر ، فإن كلاً منها قد طوّع طريقة معالجته لمادة موضوعه ، وعرض وجهات من النظر في أساليب البحث في ذلك الموضوع ونتائج الدراسات السابقة فيه .

وشيء آخر حرصت هذه الفصول على أن تضيفه — كلما كان ذلك مفيداً وكاشفاً — وهو أن تتوسع في تحليل عناصر التشابه والتخالف في الجهة التي يرجح أنها كانت موضعاً للتأثير .

ولعل نظرة مجملة إلى بعض الخطوط الرئيسية لهذه الفصول توضح ما أشرنا إليه في خصائص معالجتها :

١ — ففي الفصل الخاص بالأدب — وهو ميدان كان يظن أن احتمال التأثير فيه قليل — نبه البحث إلى ما كان من الازدهار السريع للثقافة العربية في أسبانيا تحت الحكم الإسلامي ، وما حدث من عملية الامتزاج الاجتماعي والثقافي الواسع النطاق في المجتمع الأندلسي ، وما كان من انتشار اللغة العربية لغة ثقافة وأدب في ذلك المجتمع ، ومن شيوع اللغة اللاتينية المدرجة إلى جانبها بين المسيحيين والمسلمين الأندلسيين ، ثم ما نتج عن ذلك كله من ظهور لون جديد من الشعر الأندلسي في أواخر القرن الثالث الهجري — التاسع الميلادي — إلى جانب القصيدة العربية التقليدية ، هو الذي عرف بالموشحة ، وعنه تفرع

لون آخر أكثر إمعاناً في الشعبية هو الزجل ، وعن طريق هذا التطور الجديد استطاع الشعر العربي أن يترك أثراً ملحوظة في الآداب الأوروبية المجاورة .

وقد تتبع هذا الفصل جهود العلماء الغربيين إلى اليوم — وعلى الأخص في أسبانيا — في دراساتهم حول موضوع تأثير الموشحات الأندلسية في شعراء التروبادور البروفانسيين ، ومساهمة الباحثين من العرب المحدثين في هذه الدراسات ، ثم أضاف إلى ذلك نظرة تاريخية مقارنة للشعر الأوربي الغنائي وأبرز شخصياته في المراحل الأولى من نشأته ، وما كان طؤلاً مناته بالآلات بالحضارة العربية الإسلامية ، وقارن بين المقطوعات الأوربية الغنائية والموشحات ، مبرزاً ما بين هذه وتلك من أوجه التشابه وأوجه التخالف في الموضوعات وفي المفاهيم الشائعة . مشيراً إلى الكتب العربية التي يرجع أنها كانت ذات أثر في ذلك .

ثم عرض هذا الفصل المجموعات القصصية العربية التي وصلت أوربا في أوائل عصر النهضة ، وما عُرِف لها من ترجمات إلى اللاتينية ، مثل « كليلة ودمنة » وقصة « السندباد » ، وتبع آثارها في الأدب الأسباني وفي الآداب الأوربية المجاورة . وعرض للمقامات العربية وللقصص العربي الفلسفي والصوفي وترجماته ، و « لألف ليلة وليلة » والانتقال المبكر لبعض قصصها إلى الأدب الأسباني .

ووقف البحث وقفة خاصة عند كبيرين من أدباء أوائل النهضة الأوربية أحدهما كاتب وهو « دانتي » والآخر شاعر وهو « بوكاتشيو » وناقش ما للعلماء من آراء ونظريات في احتمال تأثر كليهما بالأدب الإسلامي .

ونخصص البحث الجزء الأخير منه للكلام عن الشعر الملحمي والمسرح ، ووقف عند ملحمة « السيد » وما لها من وشائج عربية . وأشار إلى ما أثبتته النصوص من أن ألوان الأدب المسرحي الإغريقي لم تكن مجهولة تماماً بين العرب ، وأن البلاد الشيعية قد ظهر فيها ضرب من المسرح سابق للمسرح الديني الذي

عرفته أوروبا المسيحية منذ القرن الثالث عشر ، وهو المعروف بمسرح
« الأملار » : وأن المجتمع العربي في خلال العصور الوسطى عرف مسرح
« خيال الظل » وهو ضرب من مسرح العرائس ، ورجّح — معتمداً على بعض
الشواهد — أن يكون العرب في الأندلس قد عرفوا الأدب التمثيلي وعالجوه .

وهكذا يعطينا هذا الفصل صورة حديثة شاملة للعلاقات الأدبية في مختلف
نواحيها بين الحضارة العربية الإسلامية والفكر الأوروبي في أوائل عصر النهضة ،
مفرقاً بين الثابت والراجع من ضروب التأثير .

٢ - ويُنيت خطة الفصل الخاص بالفلسفة على ثلاث نقاط رئيسية .
أولها خصائص الفلسفة الإسلامية ؛ والثانية انتقال جوانب من تلك الفلسفة
إلى الفكر الغربي ؛ والثالثة أثرها فيه . والنقاط الثلاثة تدور كلها حول
جوهر فكرة التأثير وتخدمها . في ناحية الخصائص أبرز البحث كيف
استطاعت الفلسفة الإسلامية بطابعها الديني أن تقترب من الفلسفة المدرسية ؛
وباعتدادها بالعقل البشري والبحث فيه أمكنها أن تثير في أوروبا في القرن
الثالث عشر حركة فكرية قوية ؛ وبما حاولته من التوفيق بين الفلسفة والدين ،
ثم بين فلسفتي أفلاطون وأرسطو عادت للفلسفة المسيحية طريق البحث
في هذين الميدانين ، ووجهت أنظار المسيحيين إلى « أرسطو » وحملتهم
على ترجمة كتبه ودراستها والتعليق عليها . وكان لما حققته الفلسفة الإسلامية
من التأخر بين العلم والفلسفة صدها في الفلسفة المسيحية في القرن الثالث عشر
وما بعده .

وحين عالج البحث انتقال الفلسفة الإسلامية إلى الغرب مهدّ الملاك
بالبحث عن وسائل النقل الحضاري بصفة عامة ، ثم انتقل إلى الحديث
عن ترجمة الكتب الفلسفية العربية إلى اللاتينية ، مفصلاً الكلام في هذا عن كبار
فلاسفة الإسلام « كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي » مؤرخاً لما ترجم
من كتبهم . مبيناً نهاية اللاتين بكل كتاب وأثره في تفكيرهم ودراساتهم

وفي القسم الثالث من هذا الفصل يلم البحث بخيوط الفكرة ، ويؤرخ
لانشغال الغربيين بها ويلخص ما كشف عنه الدرس من أثر الفلسفة الإسلامية
في الفلسفة الغربية في الجانبين المنهجي والموضوعي .

والسمة البارزة في هذه المعالجة أنها تضع أمام القارئ نماذج من القضايا
الفلسفية الكبرى كما أثارها الفلاسفة المسلمون ، وأصداء تلك القضايا في الفلسفة
المسيحية في عصر النهضة ، بعد أن اتصل الأوروبيون بحضارة العرب المسلمين
وتفكيرهم .

٣ - ونبه الفصل الخاص بالطب إلى خطأ القول : بأن الحضارة الغربية
كانت أرضاً جرداء حتى جاءها العلم اليوناني فرواها وأخصبها ؛ فقد كانت
للغرب علومهم الخاصة بهم كالفقه واللغة والنحو والعروض وعلوم التفسير
والحديث ، وقد أعدتهم هذه العلوم لاستقبال العلوم التي لم يكن لهم بها عهد .

وأيد هذا الفصل فكرة أن الحروب الصليبية - وقد كانت إحدى مواطن
الاتصال بين الحضارتين - لم تكن ذات شأن كبير في تأثير الطب العربي
في الطب الغربي ؛ ذلك أن أكثر الغربيين الذين شاركوا في الحملات الصليبية
كانوا قليلي الحظ من الثقافة ، ولم يكن بينهم عالم حقاً إلا « وليم الصوري
المؤرخ » . ولكن الموقف اختلف في الوطنيين الآخرين - صقلية والأندلس
فقد كان ملوك النورمان عناية بالعلوم العربية وترجمتها ؛ وقامت في الأندلس
حركة قوية للترجمة من العربية إلى اللاتينية ، تناولت كتب رجال العصر
الذهبي في الطب العربي : « كالأزى » ، و « علي بن العباس المحمدي » ،
و « ابن سينا » ، كما تناولت كتب مشاهير المشتغلين بالعقاقير الطبية « كابن
البيطار » ، و « داود الأنطاكي » . وقد بلغت هذه الحركة أوجها في
« طليطلة » في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تحت حكم « ألفونسو » ،
كما ظلت ترجمات بعض هذه الكتب ؛ « كالحاوي » « والقانون » « وكامل

الصناعة « تدرس في جامعات أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر .
وحاول البحث أن يجيب عن سؤال كثير تردده في الأوساط العلمية
في الموضوع وهو : ماذا أضاف العرب إلى الطب اليوناني ؟ وفي هذا نبه
البحث إلى خطأ المؤرخين في التقسيم القومي لتطور العلوم الطبية ، إذ أن
طبيعة هذه العلوم تجعل التقدم فيها عالمياً لا يتعلق ببلد بعينه . ثم لخص النواحي
التي تعد ذات شأن في الموضوع : فذكر أن العرب لم يحدثوا جديداً في فلسفة
الطب ، ولا في الكليات التي قام عليها ، وأنهم ظلوا على إيمانهم بالآخلاط
والقوى والأمزجة ، ولكنهم خالفوا « جالينوس » في بعض أشياء . وكان أكبر
ما عملوه في التشريح ووظائف الأعضاء هو ما عمله « ابن النفيس » في شرح
الدورة الدموية الصغرى ، وابتدعوا باب تدوين المشاهدات الدقيقة ، وعُنُوا
بالعقاقير عناية خاصة .

على أساس هذه النواحي وما ثبتت ترجمته من الكتب العربية إلى اللاتينية
في أوائل عصر النهضة ، وما سجله التاريخ من أقوال علماء الغرب منذ تلك
المرحلة لخص البحث ما أفاده الغربيون من الطب العربي بأنه : الكتب الجامعة
التي تتناول جميع العلوم الطبية المعروفة إذ ذاك وخير مثل لهذا « قانون
ابن سينا » ؛ والمادة العلمية الغزيرة في الطب الاكلينيكي . ويمثلها كتاب
« الحاوي للرازي » ؛ والعلم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة . — وقد ظل
كتاب « ابن البيطار » مرجعاً لها في أوروبا حتى أواسط القرن الثامن عشر ؛
ونخبة العرب في الجراحة — وكان كتاب « الزهراوى » فيها معروفاً عند معظم
من مارسوا الطب في أوروبا حينذاك ؛ ونظام البمارستانات التي عني الغرب
بإقامة المستشفيات على غرارها .

٤ — وتناول الفصل الخاص بالرياضيات والعلوم الطبيعية ميدانا واسعا
تعددت فيه البحوث ، وقامت الشواهد الدالة على ما كان لعلماء الحضارة
العربية الإسلامية فيه من سبق وأصالة . وهنا تصادفنا الأسماء الإسلامية

في التأليف الغربي الرياضي : « الخوارزمي والحازن وابن الهيثم » ممن نبه كثيرا من باحثي الغرب على أن كتبهم ظلت مراجع معتمدة لدى أهل الصناعة في أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر ؛ كما تصادفنا الإنجازات المحققة للعرب في علوم الحياة والكيمياء والصيدلة والتعدين .

ومن المعروف في هذه الميادين أن كتاب « القانون » لابن سينا — مثلا — ترجم إلى اللغات الأوروبية وطبع بها مرات ، وأن كتب « جابر » في الكيمياء ترجمت إلى اللاتينية وظلت المراجع المعتمدة في ميادينها عدة قرون ؛ وبعض العلماء الغربيين يعدون أبا بكر الرازي من مؤسسي الكيمياء الحديثة . وقد أضاف هذا الفصل إلى بحوث الغرب في التأثير العربي إشارات إلى بحوث بعض علماء العرب المحدثين ممن تعمقوا دراسة رياضيات « الخوارزمي » وبصريات « ابن الهيثم » وغيرهما .

هـ — وتحدث الفصل الخاص بالجغرافيا عن العوامل التي جعلت العرب في جاهليتهم يعنون بالمعارف الجغرافية والفلكية بحكم ظروف بيئتهم ، وفي إسلامهم بحكم اتساع رقعة الدولة وضرورة الوقوف على أحوال البلاد ومعرفة الطرق والمسافات ، وبحكم اعتماد بعض العبادات الشرعية على أحوال جغرافية وفلكية .

ووقف البحث وقفة خاصة عند الإدريسي وجهوده العلمية في بلاط « روجار » ملك صقلية ، واتخذ منها مثلا للتعاون الذي نشأ بين المسلمين والمسيحيين في ميادين الفكر ، وما نتج عن ذلك من ذبوع المعارف الجغرافية ، وأبرز ما كان للعرب من مساهمة فعالة في حركة الكشف الجغرافية وما سجلوه في كتب رحلاتهم من المعلومات عن اقتصاديات البلاد التي عرفوها وثروتها المعدنية وإنتاجها الزراعي وطرقها ومسالكها ، وعن السكان وحياتهم الاجتماعية . إلى غير ذلك مما أفاد منه الرخالون والرواد الأوروبيون في عصر النهضة .

كما وقف البحث كذلك عند شخصية الخبير الملاحي العربي «شهاب الدين ابن ماجد» الذي تعد كتبه في علوم البحار كتباً رائدة . وذكر نماذج من الأجهزة العلمية الدقيقة التي اخترعها العرب أو نقلوها عن غيرهم (كالإبرة المغناطيسية والمزولة الشمسية ، ونوّه بمعرفة العرب بالنجوم ومطالعها ومغاربها واستخدام مجموعتها في التعرف على الاتجاهات في عرض البحار ، مما لا تزال شواهد قائمة في كتب الملاحة الغربية في صورة الأسماء العربية المستعملة للنجوم .

ويشارك هذا البحث مع سائر بحوث الكتاب في التوقف تجاه بعض القضايا الخلافية التي لا توجد أدلة كافية لإثباتها أو نقضها ، ومن هذه في الميدان الجغرافي نسبة كشف أمريكا إلى العرب فقد تحفظ فيها البحث لعدم كفاية الأدلة .

٦ - وركزت بحوث المعارف البحرية على وقائع محددة تختص بالملاحة العملية يستدل منها على أن الحضارة العربية مدت للغرب يد المساعدة في هذا الميدان ، وأن أوروبا نقلت عن العرب بعض فنون قيادة السفن ، واسترشدت بالمعارف الملاحية العربية : فمن الثابت أن «فاسكو دي جاما» استعان بالمعارف الملاحية المترجمة عن العربية ، وبملاح عربي مسلم من الهند ، وبكتب عربية للملاحة استولى عليها من سفينة هندية . وقد ظل اسم الملاح «ابن ماجد» معروفاً على شواطئ بحر الهند حتى القرن الماضي ، كما ترك وثائق هامة للملاحة في البحار الشرقية أهمها كتاب «الفوايد في أصول البحر والقواعد» .

ووقف البحث موقف التحفظ من موضوع انتقال البوصلة من العرب إلى الأوربيين أو العكس إذ لم يجد من الأدلة ما ينفي أو يؤكد هذه القضية ؛ كما حذر من أن يؤدي التحمس للحضارة العربية إلى القول بإرجاع كل تقدم ملاحي في الغرب إلى أبناء تلك الحضارة .

وتحريراً للدقة الموضوعية في هذه القضية حدد البحث الأسس التي يمكن أن يبنى عليها تقييم أثر الملاحة على أوروبا في عصر الرينيسانس . وتدور هذه

الأسس من ناحية حول طبيعة الملاحة والتجارة وكونهما من مظاهر العمران ومن وسائل الاتصال بين الأمم ، وكون الملاحة فناً من أدق الفنون يستلزم كثيراً من العلم والمعرفة ؛ وتدور من ناحية أخرى حول المعارف العربية الجغرافية التي تجمعت لدى العرب في جاهليتهم وفي إمبراطوريتهم الإسلامية الواسعة ، والدور الذي قام به التجار والملاحون من العرب والفرس في التمهيد للتوسع والانتشار الإسلامي ، والدراسات الجغرافية التي سجلها الرحالون والمؤلفون العرب ؛ ثم تدور من ناحية ثالثة حول الدور الذي قامت به الحضارة العربية الإسلامية بين الحضارات الكبرى القديمة وحضارة العصر الحديث والذي تمثل - لا في النقل والترجمة فحسب ، ولكن في التفسير والإضافة المبدعة الواعية .

وفي ضوء مناقشة هذه الأسس ، وشهادة النصوص والمراجع المعتمدة وبحوث المختصين من علماء الشرق والغرب أقام البحث تقييمه الذي حرص على أن يضعه في حدوده العلمية دون تزيد أو تحمس عاطفي .

٧ - وفي الفصل الخاص بالآثر التاريخي - وهو ميدان جديد نسبياً - استقصاء لحوايات ومؤلفات عربية يبدو فيها الأثر العربي إما في صورة روايات تاريخية سمعها مؤلفوها من مصادر عربية ، أو اعتمدوا فيها اعتماداً كبيراً على المؤلفات التاريخية العربية ، أو في صورة أحداث نقلت عن المراجع العربية واستخدمت مادة لبعض السير التي كتبها الكتاب الأسبانيون وغيرهم - كملحمة « السيد » مثلاً : أو تاريخ عام للخليقة - ككتاب التاريخ العام المنسوب إلى « الفونسو العالم » - استمدت كثير من معلوماته عن الشعوب القديمة من المؤرخين العرب . وهناك مؤلفات كتبها المؤرخون الإفرنج ، وصفوا فيها حروب الحملات الصليبية ووقائعها في الشرق ، أو أرخوا فيها للصراع بين بعض أمراء الشرق والأمراء الصليبيين - كالمؤرخ « ولیم الصوری » . وهذه الكتب مدينة في مادتها إلى النتاج العربي التاريخي من جهة ، وإلى الاتصال والاحتكاك بالشرق والمعيشة فيه ، والاطلاع على أحواله وعاداته من جهة أخرى

ولكل من هذه الاحتمالات شواهد ودلائله : من كتب عربية ثبتت ترجمتها إلى بعض لغات الغرب ، أو نص أوربي صرح فيه بالرجوع إلى المصادر العربية .

هذا البحث يثير قضايا لم تحظ من قبل بنصيب كبير من عناية الباحثين الغربيين ، وهو يسير بالموضوع إلى ما بعد القرن السادس عشر ، وينبه إلى اهتمام الباحثين الغربيين فيما بعد عصر النهضة بدراسة الإسلام ونبهه وقرآنه وتاريخه ، ويذهب إلى أن في هذا الاهتمام وما أثمره من دراسات لونا من ألوان تأثير الحضارة العربية الإسلامية في نهضة الغرب في الميدان التاريخي .

٨ - وأشار الفصل الخاص بالعمارة والتحف الفنية إلى النهضة العمرانية الكبيرة التي صاحبت انتشار الإسلام : من إنشاء المدن ونشاط حركة البناء والعمارة ، وما طرأ على فن البناء والزخرفة من إضافة أساليب جديدة أو تعديل أخرى قديمة ، ومن استخدام الأشكال الهندسية ولزخارف الكتابة العربية .

وقد أوضح البحث ما كان من العلاقات الفنية بين العالم الإسلامي وأوروبا منذ القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي ، مما مهد السبيل لعملية التأثير والتأثر ، وفصل القول مؤيداً بالشواهد الكثيرة القائمة في التأثير في ناحية العمارة وفي التحف الفنية ، مشيراً إلى ما صادفته هذه الناحية من عناية كثير من الباحثين الشرقيين والغربيين وما أجمعت عليه دراسات « هؤلاء » وأولئك من التأثير الظاهر للحضارة العربية الإسلامية في نهضة الغرب المعمارية والفنية ، لا يشذ عن ذلك إلا فن التصوير الذي يبدو أنه لم يكن مجالاً لتأثير يذكر .

٩ - وسجل بحث الموسيقى افتتان العرب في فنون الغناء والعزف وفي ألوان التأليف الموسيقي ، وأشار إلى بعوث أوروبا إلى حواضر البلاد العربية وإلى مدرسة زرياب الأندلسية في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي ،

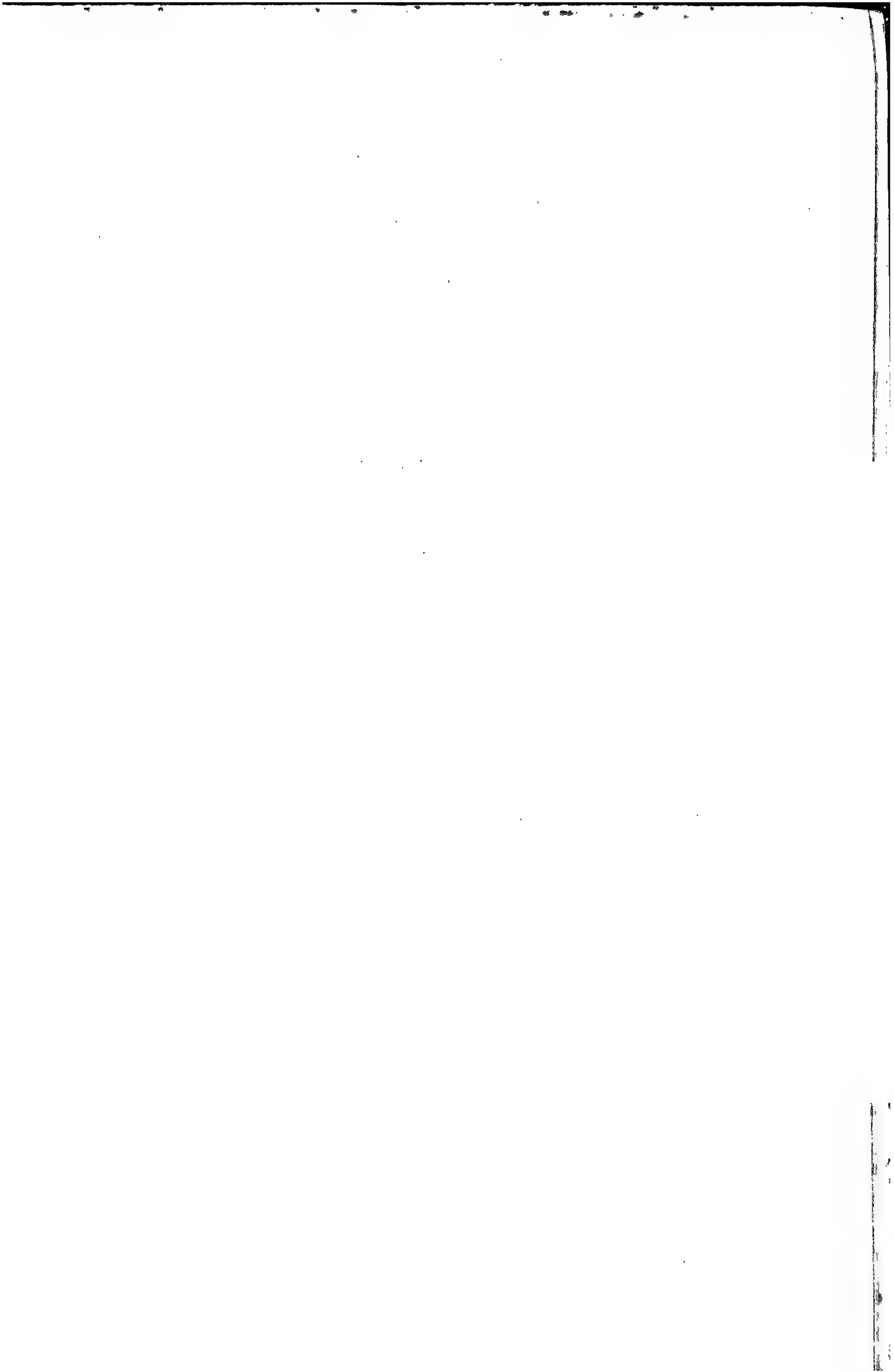
وقرر معتمداً على الشواهد الكثيرة أن أوربا تدين للعرب في كثير من آلاتها الموسيقية ، وأظهر مثل ذلك آلة العود التي احتفظت أربع عشرة لغة أوربية باسمها العربي . وهذا الميدان كسابقه خصب في بحوثه ، وقد ازدادت عناية علماء الشرق به في السنين الأخيرة ، واتجهت بعض الجهود فيه إلى إحياء التراث الموسيقي العربي وتحقيق كتبه ودراسة أعلامه وأعمالهم . ومن المرجح أن تكشف هذه الجهود عن نواح جديدة من تأثير الشرق الإسلامي في الغرب .



وبعد فلعل بحوث هذا الكتاب في صورتها العربية وفي ترجماتها إلى بعض اللغات العالمية الكبرى تلقى مزيداً من الضوء على حركة التاريخ الحضاري ، والأخذ والعطاء بين الحضارات ، وتعين على التقييم السليم لأثر الحضارة العربية الإسلامية في عصر النهضة الأوروبية ، وتضع لبنة في بناء الجهود التي تبذلها هيئة اليونسكو لدعم التفاهم والإخاء والسلام .

وإذا كان هذا الكتاب قد حاول أن يرسم أحدث صورة لبحوث تأثير الحضارة العربية الإسلامية في أوربا — في تسعة من أهم ميادينها ، فليس هناك من شك في أن ميادين أخرى لم تشملها هذه البحوث — كدراسات الاجتماع ، والفكر السياسي ، وفلسفة التشريع ، وعلم الدين المقارن . ستظل تنتظر المزيد من الجهد في بحثها ؛ وليس من شك أيضاً في أن الميدان كله سيبقى مفتوحاً لتجديد من الكشوف والتحقيقات ووجهات النظر . ونقد الآراء والنظريات السابقة من شرقية وغربية .

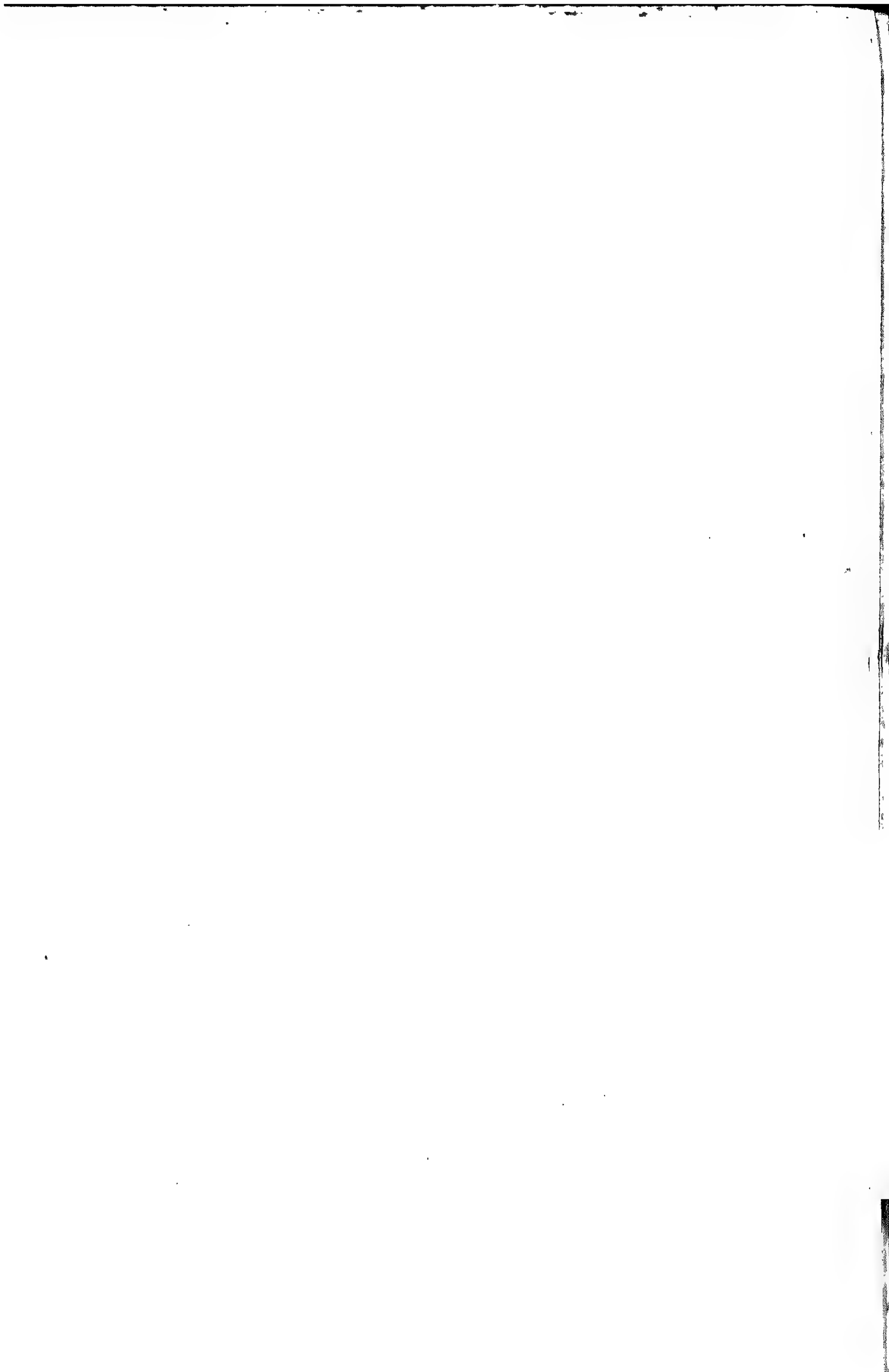
محمد خليف الله أحمد



الفصل
الأول
في الأدب

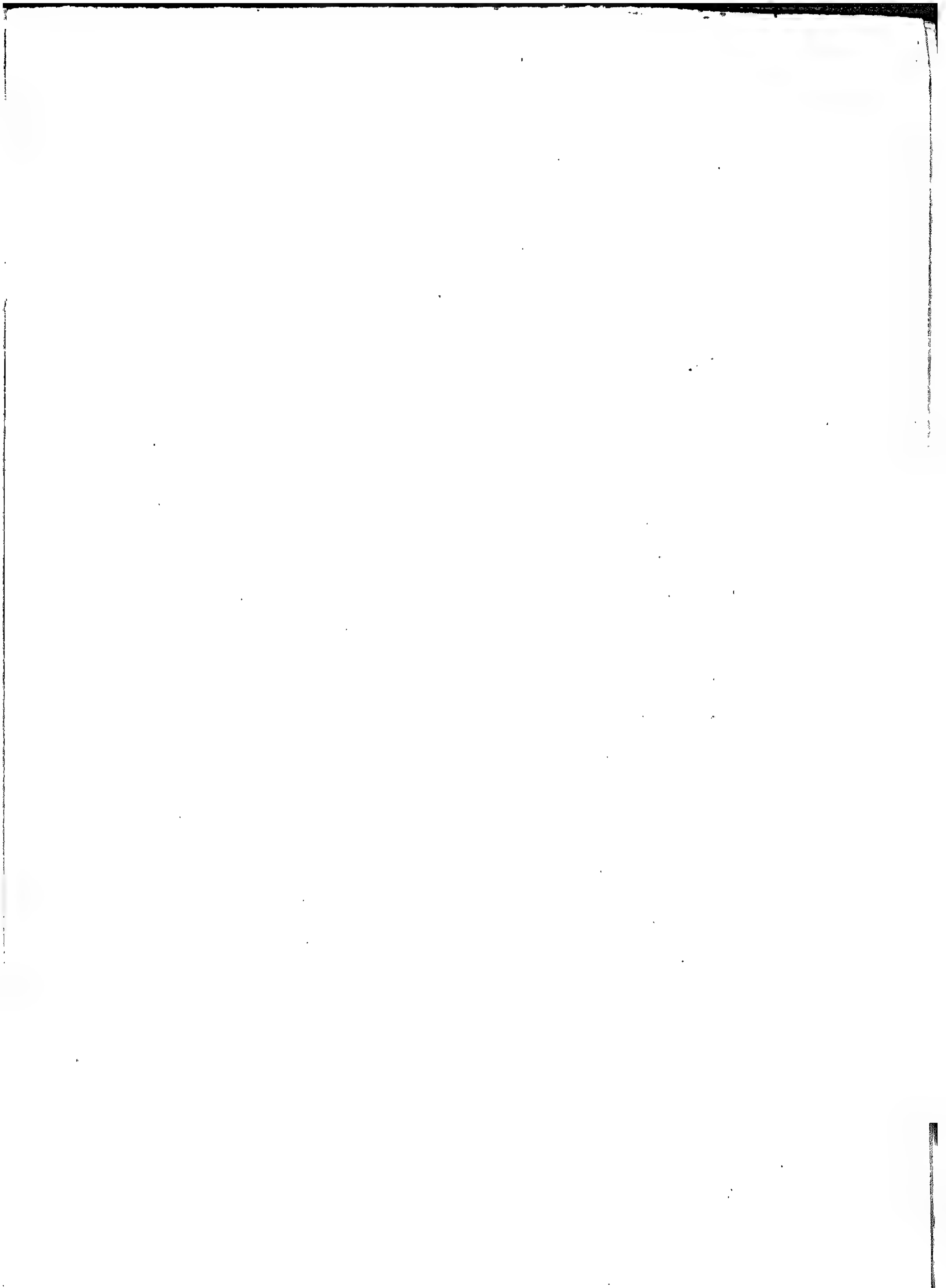


اعداد: دكترة سهر الفلماوى . دكتور محمود على مكي



فهرس الفصل الأول

| الموضوع | الصفحة |
|---------------------|---------------|
| الشعر الغنائى | ٢٣ |
| الفن القصصى | ٦٨ |
| شعر الملاحم والمسرح | ١١٩ |



الشعر الغنائي

(١)

تختلف عطاء العرب للنهضة الأوروبية في ميدان الشعر عنه في أي ميدان آخر نظراً إلى طبيعة المادة نفسها وإلى ظروفها . ذلك أن الشعر العربي لم يكن كالفلسفة أو الطب نتاج حضارات سابقة حملها العرب بأمانة وأضافوا إليها في أصالة ولعبوا فيها الدور الأخير والأساسي قبل أن يسلموها إلى عصر النهضة وإنما الشعر العربي كان عربياً خالصاً لم يتأثر بأدب حضارات سابقة . لقد ترجم العرب تراث اليونان خاصة ، كما ترجموا تراث أمم كثيرة وأفادوا منه وأضافوا إليه من تجاربهم وعبقريتهم ، ولكنهم لم يترجموا من آداب جيرانهم إلا ما هو في حكم الفكر لا الفن أو العاطفة ، لقد ترجموا حكم الهند وسير أبطال فارس ، ولكنهم لم يترجموا ملاحم اليونان ولا مسرحهم ولا شعرهم الغنائي .

لقد نبت الشعر العربي في الصحراء النجدية نبثاً أصيلاً وكان خليقاً أن يشبع روح العرب في كل تطلعاتها وأشواقها ، واعتز العرب بشعرهم اعتزازاً قوياً بمجيء الإسلام بلغة عربية ، وأصبح فنهم الأول يتغنون به في محافلهم ومجالسهم وصدفوا عن الأدب اليوناني وكان شكله الأسمى مسرحية والعرب لم تعرف المسرح ، ومضمونه الأعلى صراعاً بين الآلهة أو بين الإنسان والآلهة ، والعرب لا يدخل في عقيدتها الصراع مع الآلهة ، ولا تعرف

إلا التوحيد إسلاماً أو ما يشبه التوحيد قبل الإسلام . حتى شعر اليونان الغنائي ما كان يمكن أن يستساغ شكلاً أو مضموناً .

وعندما أعطى العرب أدبهم وشعرهم لأوروبا النهضة أعطوه شعراً عربياً خالصاً لم يسهم في تطوره في مراحله الأخيرة إلا قوم استظلوا بالحضارة العربية وتأثروا بها . وتفرعاً من هذه الحقيقة نجد أن الشعر لم ينتقل عن طريق الترجمة وإنما انتقل من خلال عملية معقدة متأثرة بهذه الحقائق . كان لابد من انصهار سكان جنوب غرب فرنسا وجنوب إسبانيا وصقلية في بوتقة الحضارة العربية حتى يستسيغوا النماذج العربية في فن الأدب كما أنه كان لابد لشكل هذا الفن ومضمونه من أن يتطور بفضل هذا الشعب الخليط الجديد لتوجد النماذج المؤثرة في شكل متجدد متطور ليس من السهل رصد حلقاته . ولقد أخذ الدارسون المدققون يستخرجون نصوص هذه النماذج حديثاً ليدلوا بالبرهان العملي على عملية التأثير والعطاء العربيين لشعر النهضة وآدابها . وسنرى كيف أن هذه النماذج لاختلاط اللغة ولشعبية اللهجة التي كتبت بها لم تفتح أسرارها إلا لقلّة من الدارسين . إن العثور على هذه النماذج أدق في الدلالة على هذا العطاء من مجرد الحقائق حول الأدب وأثره . فلا يكفي أن نعرف عن انتشار العربية لغة وفلسفة وعلماً في مكان أو لدى شخص مثل « فريديريك الثاني » في صقلية لنؤكد أن أثراً وتأثيراً قد حدثا ، وإنما الأدب لابد فيه من : النماذج من الأصل ومن التقليد معاً ، لنل على الأخذ والعطاء .

وفي ميدان الأدب نصادف أيضاً اختلافاً أهم هو أن هناك مجالات شائعة ليس من السهل أن تحدد واكتنفا دالة بطبيعتها على العطاء العربي . فهناك كتب القصص والمقولات الحكيمة ودنيا الخيال والحن والسياطين — على أسلوب معين — التي كانت تتداول محتوياتها شفاهاً مما يصعب عملية الدرس الدقيق . فلقد انتقل من كل هذا خضم وفير ليست الدلالة عليه في كل مرة ميسورة وإن كانت بعض النماذج كما سنرى تدل بشكل قاطع على هذا العطاء العربي ،

مثالنا سنجد من أثر قصة الإسراء والمعراج في « الكوميديا الإلهية » لدانتي
عروس أدب النهضة كله وفخر أول وأبرز شعرائها .

وإلى جانب التأثير الواضح أو الشامل أحياناً ، أو الغائم أحياناً أخرى
فيما يتعلق بالقصص وأقوال الحكماء تدخل في ميدان الأدب مؤثرات ليس
من السهل إيجاد النصوص الدالة في دقة على عطاء العرب لها ، ولكنها في الوقت
نفسه حقيقة لا يمكن نكرانها ، ونعني بذلك أثر الوجود العربي على أرض
عصر النهضة . فلقد حمل العرب معهم إلى أسبانيا وصقلية ، كما وجد الأوروبيون
عندهم في الشرق ، حضارة خاصة انعكست صورتها في الفن الشعري .
لقد كانت لهم عقيدة وفلسفة وكان لهم نظام وحكم أشاع فيما أشاع من عدل
وأمن ما هو أخطر من ذلك ، وأشاع جواً سمح للعقائد المختلفة والأجناس
المتباينة أن تتعايش كلها متجاورة ، الجامع إلى جوار الكنيسة وإلى جوارهما
المعبد في كل مدينة ، حتى بعد انحسار موجة الحكم ظل التقليد زماناً بعد
الانحسار لأنه أوجد النفوس التي تؤمن بهذا التعايش بل بهذا الامتزاج الصحي
العظيم . وكان لهذا أثره فلقد نشأت أجيال مخلطة وأجيال متعايشة تعيش
كلها في جو إنساني من التواجد الكريم الذي يلهب المواهب ويدفع إلى الابتكار
والخلق .

جوامع اسلامية يدرس فيها الرهبان (١) واليهود . ويكفي أن نذكر أنه
بعدما أغلقت أوروبا العصور الوسطى أكاديمية أفلاطون في أثينا سنة ٥٢٩ م
قامت جوامع أسبانيا وجامعات جنوب فرنسا وصقلية بفضل المسلمين وعلمهم
بحمل مشعل الابتكار في الفكر والفلسفة .

وإلى جانب هذا نجد الحياة اليومية التي تزخر بأدوات الحضارة وأطرها
ونظمها ، ويكفي أن نذكر مجلساً كمجلس المغني زرياب ، بله مجالس الخلفاء
والحكام ، لنعرف كم كان اللباس العربي والأدوات تعد عجائب جديدة

(١) انظر تاريخ حياة البابوات في فجر القرون الوسطى « مان » H.K. Mann

باهرة في مجتمع أسبانيا ، ولقد ظل العرب حتى بعد الانحسار قرونًا يحملون رسالة الصنيع المهرة والخبراء والعلماء في الحياة على أرض جنوب فرنسا وأسبانيا .

ولم يكن العلم في ذلك الزمان معلومات جافة وإنما كان يحمل في وضوح وجهة نظر في الحياة ورأياً في كل ما في الكون حولنا فمن أسلوب تجريبي يحل تشريح الجثة الآدمية الأمر الذي كان يحرمه رجال الكنيسة ، إلى إبراز دور الاجتهاد في الفكر الديني بحيث لا تتقدس قيمة أو عقيدة إلا من أعمال العقل فيها ، إلى التشريع السامي الذي يجعل التقوى أو العمل المقياس الوحيد للتفاضل بين البشر لا الجنس ولا اللون ولا الأصل ولا الحياة . . . الخ ، إلى الدقة العلمية في التفسير والتبويب والتصنيف وما حملته لغتهم من آثار الدقة المتناهية والعبقورية في الدلالات الرفيعة إلى سائر ما حمل علم العرب وحقائق مكتشفاتهم ، مما طور الحياة من حولهم وترك في كل الفنون وخاصة الأدب آثاراً ليس من السهل رصدها وإن يكن بعض الباحثين يقف مثلاً عند موضوع المرأة وقفات خاصة ضاغطة على تقاليد الحب والفروسية ومعاونة الحرمان واستلهاهم الحبيبة مما ظهر أثره واضحاً في الشعر البروفانسي فجأة ودون سوابق بل على الرغم من موقف الكنيسة من المرأة آنذاك . لقد تغنى الشعر العربي بالمرأة الحرة الحليمة ولم يكن هذا مألوفاً ولا معروفاً كما تغنى بالحرارية الحميلة الشاعرة أو المغنية . وكثيراً ما اجتمعت مزايا الأمة والحررة في شخصية مؤثرة مثلما نجد في شخصية ولادة بنت المستكفي بالله .

(٢)

وقبل أن نمضي في إبراز الآثار المحددة لعطاء الأدب العربي لعصر النهضة نرى أن نحدد ميادين الاتصال بالعالم العربي أيام كان يمثل قمة ما وصلت إليه

الحضارة الإنسانية في ذلك العصر ، حتى نوضح الرقعة الجغرافية والزمان التاريخي لهذا الاتصال قبل أن ندخل في تفصيلاته .

(١) وأول هذه الميادين وأخطرها هو الأندلس التي فتحها العرب سنة ٨٩٢ هـ (٧١١ م) فكانت بذلك أول قطريقتطعه العرب من أوروبا المسيحية ويضمونه إلى دولة الاسلام . ومنذ هذا التاريخ حتى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) نجد للمسلمين دولة تفاوتت قوة وضعفاً واتساعاً وضيقاً ، ولكنها مثلت على كل حال « وجوداً عربياً » في هذه القطعة من أوروبا ، وجوداً لم ينته بسقوط مملكة غرناطة آخر معاقل الإسلام في شبه الجزيرة في سنة ١٤٩٢ م بل استمر بعد ذلك ممثلاً في « الموريسكيين » أي المسلمين الذين أرغموا على التنصر ، وهم الذين بقوا في إسبانيا حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادي حينما تقرر طرد جماعات كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي . ومن هنا نرى أن الوجود العربي المادي في شبه الجزيرة استمر ماثلاً محسوساً طيلة تسعة قرون على الأقل . وهي مدة كافية لكي يترك العرب في الشعبين الإسباني والبرتغالي من رواسب حضارتهم ما لا يزال سمة واضحة لهما حتى اليوم : بل إن أسبانيا بالذات كانت معبراً انتقلت من خلاله الحضارة العربية إلى أوروبا وأمريكا ، فقد قدر لأسبانيا وهي لم تفرغ بعد من القضاء على بقية الشعب الإسلامي في داخل حدودها أن تقوم بدور كبير خارج حدودها منذ أوائل القرن السادس عشر ، فقد استطاعت أن تمد رقعة نفوذها في اتجاهين : إلى القارة الأوروبية حينما أقامت إمبراطورية ضخمة سيطرت على الشطر الأكبر من أوروبا في ظل الأسرة النمساوية Casa de los Austries ، ثم نحو أمريكا التي كان من عجيب المواقفات التاريخية أن الكشف عنها تم في سنة ١٤٩٢ م ، سنة سقوط غرناطة في أيدي الملكين الكاثوليكين ، ولم تمض سنوات على هذا الكشف حتى كانت أسبانيا والبرتغال — وهما ما زالتا بعد متشبعتين بالحضارة العربية الإسلامية — تقسمان ملك الشطر الأعظم من القارة الأمريكية من كاليفورنيا في الشمال إلى أرض النار Tierra de Fuego في أقصى جنوب القارة ، وكان من الطبيعي

كذلك أن يحمل الفاتحون الأسبان إلى العالم الجديد كثيراً مما استقر في دماهم ونفوسهم من عناصر عربية تمثلوها خلال قرون ثمانية من المعاشة المستمرة .

(ب) الميدان الثاني للقاء بين الشرق العربي وأوروبا كان جزيرة صقلية والشاطر الجنوبي من إيطاليا ، فقد حدث في هذا الجزء من أوروبا شيء شبيه بما حدث في شبه جزيرة ايبيريا وإن كان على نطاق محدود سواء في الزمان أو في المكان . فلقد جاز العرب من افريقية (تونس) إلى جزيرة صقلية التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للدولة البيزنطية سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) وبقيت صقلية في أيدي المسلمين حتى استولى عليها النورمنديون في سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . وقد تكررت في صقلية ظاهرة التأثير المتبادل بين الحضارة العربية الإسلامية والأوربية المسيحية على نحو ما رأيناه في الأندلس وإن كان على مستوى أصغر .

(ج) الميدان الثالث هو جزء من العالم العربي نفسه دارت فيه الحروب الصليبية ، منذ سنة (٤٩٠) ١٠٩٧ وعلى طول نحو قرنين من الزمان حتى سقوط آخر معاقل الصليبيين في أيدي المماليك في سنة ١٢٩١ — فقد أنشأ الصليبيون ممالك ودويلات على طول المنطقة الساحلية من بلاد الشام ، بل وفي الداخل أيضاً ، ومن هذه الدويلات : أرمينية ، والرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والقدس . ولم تمنع الحروب التي ظلت سجالات بين المسلمين والصليبيين على طول هذين القرنين من الاحتكاك المستمر بين الجانبين ، وأسهمت ظروف تلك الحروب الطويلة في مزيد من التعارف بين الجانبين ، وكانت مفاجأة لأولئك الصليبيين الأوربيين أن رأوا أن العالم الإسلامي لم يكن كما يتصورون ، بل رأوا أنه على درجة كبيرة من الرقي والتقدم في مختلف ميادين الحضارة ، وهكذا بدأوا يستفيدون من عالم الإسلام ويأخذون كثيراً من عناصر حضارته . على أنه ينبغي أن لا نبالغ كثيراً في مدى هذه الاستفادة الحضارية ، فالصليبيون أنفسهم كانوا محاربين قبل كل شيء ولم يكن لهم

إهتمام مباشر بالثقافة . ولهذا فإن نفوذ الحضارة الإسلامية والعربية عليهم كان محدوداً بميادين الاتصال بين العالمين الإسلامى والمسيحى . نجده أوضح فى نواحي الفنون العسكرية والعمارة والزراعة والصناعة والتجارة والحياة الاجتماعية ، أما فى الأدب والفلسفة والعلوم فقد كان مدى استفادة الصليبيين من احتكاكهم بالعالم الإسلامى فى الشرق الأوسط محدوداً .

أما فيما يتعلق بالفنون الأدبية فإنه ليس هناك شك فى أن الصليبيين قد استفادوا من صلتهم بعالم الشرق الإسلامى فى هذا الميدان . على أننا لا نعرف أن الصليبيين قد توفروا على ترجمة نصوص عربية أدبية إلى لغاتهم ، والأرجح هو أنهم أخذوا ما أخذوه عن الثقافة العربية بطريق الرواية الشفوية . كذلك لا نظن الصليبيين كانوا من الاهتمام بالثقافة بحيث يستطيعون فهم الشعر العربى أو تذوقه مثلاً ، ولعل كل ما يمكن أن يكونوا قد استفادوه من الشرق هو سماعهم لبعض القصص العربية مثل كليلة ودمنة أو فصول من القصص الشعبية التى قدر لها أن تدرج بعد ذلك فى مجموعة ألف ليلة وليلة . ولعل بعضهم ممن أثر فيهم الذوق الشرقى واصطنعوا أوضاع الحضارة المترفة والبذخ الذى كانوا يرونه فى بعض بلاطات الإمارات الإسلامية الشرقية ، قد أخذ شيئاً من ذلك الشعر الغنائى الذى يرد إلى الأندلس فضل ابتكاره وهو شعر الموشحات والأزجال ، وكان هذا الشعر قد انتقل إلى المشرق بفضل الصلات المستمرة بين الأندلس والعالم العربى ، وأخذ المشاركة يهتمون به ويؤلفون فيه .

(د) والميدان الرابع والأخير من ميادين هذا الاحتكاك الحضارى هو الذى يمثله امتداد الدولة العثمانية التركية منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادى فى شرق أوروبا . وهو ميدان خارج عن شرط هذا الفصل . وكانت أوروبا فى ذلك الوقت قد تمثلت ما استفادته خلال القرون السابقة من عناصر الثقافة العربية ، وبدأت تشق طريقها الحضارى مستقلة دون أن تقدم إليها الدولة العثمانية جديداً يذكر .

من هذا نرى أن أهم ميدان للالتقاء كان في الأندلس ثم صقلية . ولما كان لانتشار اللغة العربية في الأندلس بالذات أكبر الأثر في نقل الأدب العربي لعصر النهضة فإنه من الضروري أن نعرف كيف ولماذا انتشرت .

لم يكن العرب يؤلفون جماعات مهاجرة مثلما كان في الفتح الأوروبي وأمريكا مثلاً ، وإنما كان العرب محاربين فاتحين اختلطوا بأهل شبه جزيرة « إيبيريا » وتزوجوا نساءها ونشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم أينما ساروا . والعرب شعب متفتح ؛ أقبلوا يعطون ويأخذون ولم يفرضوا دينهم ولكن الأوضاع الاجتماعية الظالمة في عهد القوط دفعت بأفواج كبيرة إلى الإسلام .

وهكذا بدأت في الأندلس منذ اللحظة الأولى عملية امتزاج اجتماعي واسع النطاق بين مختلف العناصر التي أصبح الشعب الأندلسي يتألف منها . وكان الجنود الفاتحون الذين استقروا في البلاد وتوزعوا أنحاءها أخلاطاً من الأجناس والقبائل القادمين من مختلف أقطار العالم الإسلامي ، فمن بينهم أقلية عربية قيسية ويمنية ، وكان معظم هؤلاء من الشام وإن كان فريق منهم من عرب مصر وأفريقية والمغرب ، ثم كان الشطر الأعظم منهم من البربر بين بتر وبرانس ، ونتج عن امتزاج هؤلاء بأهل البلاد الأصليين أن ظهر جيل جديد عرف باسم المولدين . ويكمل صورة المجتمع الأندلسي تلك الطائفة التي احتفظت بديانتها المسيحية وإن كانت خاضعة للحكم الإسلامي ، وهم الذين عرفوا باسم المستعربين Los Moz'arabes (ويدل هذا الاسم على اصطناعهم لرسم الحضارة العربية) ، ثم الأقلية اليهودية التي كانت تعيش في شبه الجزيرة قبل الفتح العربي والتي اعتبرت هذا الفتح خلاصاً لها مما كانت تعانيه في ظل القوطيين من اضطهاد ، وقد تشبع هؤلاء اليهود

كذلك بالثقافة العربية وكان لهم اسهام كبير في نقل كثير من عناصر الثقافة العربية إلى اسبانيا المسيحية وأوربا عن طريق الترجمة خاصة .

وقد استطاع المسلمون خلال سنتين بعد بدء الفتح العربي لشبه الجزيرة أن يمدوا حكمهم إلى أقصى حدود اسبانيا الشمالية ، بل إنهم في موجة عارمة خاطفة اجتازوا جبال البيرنيه وانساحوا في بلاد الغال (جنوب فرنسا) وإن كان هذا المد السريع لم يلبث أن انحسر بعد ذلك بقليل بعد أن نشبت الفتن والحروب الأهلية بين المسلمين ، بل إنه لم تمض أربعون سنة على الفتح العربي لشبه الجزيرة حتى تراجع المسلمون بغير هزيمة عن الشطر الشمالى الغربى منها على امتداد ما يقرب من ربع مساحة هذا القطر . وفي هذه المنطقة بدأت المقاومة المسيحية تنظم صفوفها وتأسست مملكة أستوريش Asturias على الساحل الكنتبرى في شمال اسبانيا وما زالت هذه المملكة تتسع وتشتد وتتفرع وحولها ممالك ودويلات مسيحية أخرى حتى استطاعت أن تنازع المسلمين سلطان البلاد ولا سيما منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى بعد سقوط خلافة بنى أمية وتفكك المملكة الإسلامية إلى ما عرف بملوك الطوائف .

ومنذ أواخر هذا القرن اختل ميزان القوى في الأندلس ، فالممالك المسيحية في الشمال تزداد قوتها وتشتد ، بينما يدب الضعف في قوى المسلمين السياسية والعسكرية على الرغم من المعونة الكبيرة التى يتلقونها من جيرانهم مسلمى المغرب أبام دول المرابطين والموحدين وبنى مرين . وقد أخرج هذا التدخل الغربى في الأندلس نهاية الإسلام في البلاد ولكنه لم يستطع أن يحول بين المسيحيين وانتزاع القواعد الأندلسية الكبرى منذ سقوط طليطلة (١٠٨٥ م) حتى انتهى الأمر بسقوط مملكة غرناطة الصغيرة في (سنة ١٤٩٢ م) .

على أن التبادل الحضارى والثقافى لا يخضع بالضرورة للموقف السياسى أو العسكرى فقد كان للأندلس الإسلامية حتى في عصور ضعفها واضمحلالها نفوذ هائل على اسبانيا المسيحية ، ولم يمنع تغير ميزان القوى لصالح الممالك

النصرانية في إسبانيا والبرتغال استمرارها في الاستفادة من ثقافة المسلمين الأندلسيين ، والاضطلاع بدور حمل عناصرها ونقلها إلى مختلف بلاد أوروبا .

هذا إلى جانب أن إسبانيا القوطية لم تكن من التخلف بحيث ظن كثير من المؤرخين ، فالواقع أنها كانت دائماً منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وعلم وفن ، كانت كذلك على عهد الفينيقين وأبناء عموماتهم القرطاجنيين واستمرت كذلك في ظل الرومان الوثنيين ، ثم جاءت المسيحية فدفعته بالحياة الفكرية خطوات إلى الأمام ، وبقيت ومضات من هذا الازدهار الثقافي في عهد القوطيين وإن كانت دولتهم في الحقيقة غريبة على الشعب الأسباني الذي كان قد اصطبغ بالصبغة اللاتينية الرومانية .

وأتى العرب فكانوا يتميزون بكل ما يطبع الشعوب الفتية من قدرة على التكيف بالبيئة والطموح إلى الاستفادة من كل مصدر حضارى . وإذا كانت السنوات الأربعون الأولى من حياتهم في الأندلس — وهى التى انقضت فى توطيد سلطانهم فى البلاد وفى حروبهم الأهلية الطاحنة — لم تتمكن من إقامة بناء حضارى ثابت فإن ذلك لم يلبث أن أتى على يد الدولة الأموية التى أسس صرحها عبد الرحمن الداخل سنة ٧٥٦ م وخلفاؤه من بعده .

ومع انتشار الإسلام فى أواسط الشعب الأندلسى يبدأ انتشار مماثل للغة العربية التى سرعان ما تصبح لغة تلك الأجناس المختلفة المنصهرة فى بوتقة الأندلس ، بل إنه حتى الإسبان الذين اجتفظوا بنصرانيتهم لا يلبثون ان يتمثلوا الثقافة العربية ويستعملوا لغة الفاتحين بلاغضاضة . ويصل الأمر إلى أن نجد أحد آباء الكنيسة المسيحية فى القرن التاسع الميلادى — وهو « الباروالقرطبي » — يشكو مرّ الشكوى من أن نصارى أسبانيا فى أيامه لم يعودوا يهتمون بدراسة اللاتينية ، لغة الكتب المقدسة ، بينما كانوا يتقنون الكلام والكتابة بالعربية ، بل إن من بينهم كثيرين كانوا يجيدون نظم الشعر العربى .

على أنه ينبغي أن نكون على حذر فليس معنى هذا أن أسبانيا نسيت اللغة اللاتينية . صحيح أن اللاتينية الفصحى هي المعنية بشكوى « البارو القرطبي » إذ أنها أصبحت حبيسة الكنائس والأديرة المسيحية ، وهذا أمر طبيعي في كل لغة تتحجر وتعجز عن مسايرة ظروف الحياة المتطورة ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لللاتينية الدارجة التي نعرف أنها كانت شائعة لابن المسيحيين وحدهم بل بين المسلمين الأندلسيين كذلك . وهذه قضية لم تعد الآن محل نقاش أو بحث : إذ أننا نجد في الكتب الأندلسية العربية عشرات من الشواهد تدل على أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً مزدوج اللغة يستخدم العربية واللاتينية الدارجة التي كانوا يطلقون عليها اسم « لطينية أهل الأندلس » ، ولم تكن هذه اللغة كما قد يبدو إلى الدهن لغة الطبقات الدنيا في المجتمع ، بل إن الأخبار تدل على أنها كانت ذائعة بين الجميع ، حتى الخلفاء والأمراء والقضاة والشعراء والمؤلفين ممن أتيح لهم أعظم نصيب من الثقافة العربية كانوا يستخدمونها في مخاطبتهم اليومي المعتاد ، بل إن المفكر الكبير أبا محمد بن حزم يذكر في بعض كتبه - باعتبار ذلك طرفة نادرة - أن قبيلة « بلي » ودارهم في الموضع المعروف باسمهم في شمال قرطبة « لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن العربية فقط : نساؤهم ورجالهم » ويدل ذلك على أن القبائل العربية نفسها في مختلف أنحاء شبه الجزيرة كانت كلها تتكلم اللغتين وأن ما يخالف ذلك هو الاستثناء اللافت للنظر .

وهذه القضية - قضية ازدواج اللغة في الأندلس - على أكبر جانب من الخطر فيما نحن بصددده ، إذ سرى كيف سيتولد عنها ابتكار الأندلسيين لنوع جديد من الأدب الغنائي هو مزيج من العربية والدارجة (العربية واللاتينية) ، ونعني به شعر الموشحات والأزجال الذي قدر له أن يترك أثراً بعيداً في أدب الشرق العربي والغرب الأوروبي على حد سواء .

كان للثقافة العربية ازدهار سريع في الأندلس ، وقد أعانت على ذلك عدة عوامل منها الاستقلال السياسى المبكر الذى نالته الأندلس بعد أربعين سنة من الفتح العربى ، فكانت الأندلس أسبق من سائر أقطار الدولة الإسلامية في الإحساس بشعور قومى أصيل نتيجة لهذا الاستقلال السياسى ، على أن هذا الاستقلال لم يكن فى حد ذاته من الناحية الحضارية شيئاً كبيراً ، وإنما وجه أهميته هو أنه مكن الأمراء الأمويين في الأندلس من تنظيم حكومتهم وإدارتهم للبلاد في رقعة محدودة لم يتجاوزوها على نحو راعوا فيه الظروف الخاصة لشعبهم ، ولهذا فإن حكمهم بوجه عام كان أكثر نجاحاً واستقراراً وتنوراً من حكم العباسيين آنذاك لدولتهم الهائلة المترامية الأطراف الممتدة من تخوم الهند إلى المغرب الأقصى ، وأتيح للأندلس لحسن الحظ أمراء كانوا من عباقرة السياسة وتدير الملك ، تعاقبوا على حكم البلاد طوال ثلاثة قرون متوالية ، وهى فترة طويلة لم يتح مثيل لها من الاستقرار والدوام لأى قطر إسلامى آخر ، فإذا أضفنا إلى ذلك تنوع العناصر الاجتماعية التى تألف منها الشعب الأندلسى ، وما اعتدناه في قوانين الوراثة من تولد مجتمع جديد عن ذلك يكون فى الغالب مشتملاً على جميع مميزات تلك العناصر أمكننا أن نلمح طرفاً من أسباب هذا النضوج السريع الذى قدر للشعب الأندلسى .

نضيف إلى ذلك أن بُعد الأندلس عن مراكز الثقافة العربية فى الشرق أرهف فيهم الحساسية الثقافية والفكرية ، فجعلهم أكثر تطلعاً إلى الأخذ بأسباب تلك الثقافة فى حماسة شديدة ، والذى يتأمل كتب التراجم الأندلسية الأولى يرى كيف كان تيار الرحلة إلى مختلف بلاد الشرق من أجل تحصيل العلم مستمراً لم ينقطع فى أى وقت من الأوقات ، كانت الرحلة فى سبيل العلم ولا سيما فى الفترة الأولى من تاريخ الأندلس قد كادت تصبح شرطاً لازماً من شروط

التصدر للإقراء والتدريس ، والمقارنة بين الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام في هذه الناحية تحملنا على الظن أن الأندلسيين كانوا أكثر الشعوب العربية إقبالا على الرحلات والسياسة ، ويلاحظ ذلك الرحالة المقدسي الذي كتب في القرن الرابع عشر الميلادي ، أن الأندلسيين كانوا « كثيرى التغرب والتجارات » ، وغنى عن الذكر مدى ما كان لهذه الرحلات من أثر بعيد في صقل نفوس الأندلسيين وجعلهم من أكثر شعوب الإسلام تفتحاً وأخلاقاً بأسباب الحضارة .

كل هذه العوامل التي ذكرناها يمكن أن تفسر لنا كيف بلغ الشعب الأندلسي درجة من الرقي والنضوج السريع لا نعرف شعباً آخر بلغها في مثل ظروفه وكيف كان للثقافة الأندلسية — في الإطار العام للحضارة — كثير من مظاهر الأصالة والتميز .

وقد حمل العرب الفاتحون إلى الأندلس لغتهم وأدبهم ، وقد رأينا كيف تعرب الأندلس في مدى قصير وعلى نحو بالغ السرعة ، وإن لم يمنع ذلك من استخدام الأندلسيين اللطينية الدارجة لغة أخرى إلى جوار العربية . أما الشعر العربي فقد دخل إلى الأندلس مع الفاتحين أنفسهم ، ولكن النماذج الشعرية القليلة التي نعرفها عن عصر الولاة (٧١١ م — ٧٥٦ م) لا تتميز بشيء عن الشعر الأموي الذي نعرفه عن جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم والذي كان ملتزماً بعمود الشعر القديم ، وإن كانت النماذج الأندلسية بطبيعة الحال أدنى مستوى بكثير من أشعار أولئك الفحول المشاركة ، أما المدارس الشعرية الجديدة التي ظهرت منذ أوائل العصر العباسي فقد كان لها صدى سريع في الأندلس غير أن دور الأندلسيين كان بوجه عام أشبه بدور التلميذ المقلد ، وإن كنا نجد ملامح الأصالة في بعض ما وصل إلينا من نتاج شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجري مثل يحيى بن الحكم الغزال (١٥٤ — ٢٥٠ — ٦٦١ م) الذي يمكن أن نرى في شعره تمهيداً طبيعياً مباشراً للأدب الشعبي الحديدي المتمثل في الموشحة ، والذي كان في ذلك الوقت موشكاً على أن

يرى النور . على كل حال ظل الشعر الأندلسى ماضياً على نهج الشعر المشرقى مصبوباً فى قوالبه إلى أن ظهر فى أواخر القرن الثالث لون جديد من الشعر إلى جانب القصيدة التقليدية هو المعروف بالموشحة ، وعنه تفرع لون آخر أكثر إمعاناً فى الشعبية هو الزجل .

وليس هناك شك فى أن الموشحة والزجل هما أعظم الشواهد على أصالة الأندلسيين وقدرتهم على الابتكار ، وعن طريق هذا اللون الجديد استطاعوا أن يتركوا آثاراً عميقة لا فى الشعر المشرقى وحده ، بل كذلك فى الآداب الأوروبية المجاورة .

(٥)

يتفق المؤرخون على أن مخترع الموشحة شاعر عاش فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، يدعوهُ البعض مقدم بن معافر القبرى وآخرون محمد بن حمود القبرى (ويبدو أن الاسمين لشخص واحد على الرغم من هذا الاختلاف) ، ويرجع الفضل فى معرفتنا لمبتكر الموشحة وكيفية نظمها إلى نص معروف لابن بسام الشنترينى صاحب كتاب « النخبة فى محاسن أهل الجزيرة » (القسم الأول ، ٢ / ١ - ٢) يقول فيه : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريقتهما فيما بلغنى محمد بن حمود القبرى الضرير ، وكان يضعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة » .

وقد كان أول من اكتشف هذا النص وتنبه إلى قيمته الكبرى فى تاريخ هذا اللون الجديد من الأدب الغنائى هو المستشرق الأسباني جوليان ريبيرا Julien Ribera الذى اعتمد عليه فى بحث له نشر فى سنة ١٩١٢ فى إثبات وجود شعر غنائى

باللاتينية الدارجة أو الأسبانية القديمة في ظل الحكم العربي للأندلس قبل ظهور بواكير الأدب الغنائي الأوربي في القرن الثاني عشر الميلادي على أيدي شعراء « التروبادور » بل إن جوليان ريبيرا مضى إلى أبعد من ذلك في بحثه ، إذ أكد أن هذا الشعر الغنائي الإسباني القديم ؛ ربيب الأندلسيين المسلمين ؛ كان هو المورد الذي استقى منه شعراء التروبادور الفرنسيون ، وهو الذي انبثقت عنه سائر أنواع ذلك الشعر في القارة الأوروبية . والواقع أن كل ذلك كان تخميناً من ريبيرا أشبه بالنبوءات الصادقة ، إذ لم يكن بين يديه في ذلك الوقت نصوص يثبت بها آراءه ، فكل ما كان متيسراً له هو النسخة الوحيدة المخطوطة من ديوان أزجال ابن قزمان القرطبي (١١٦٠ م) وقد أدى هذا بريبيرا إلى مبالغات وأخطاء عديدة (إذ أن الزجل كان لوناً أدبياً متفرعاً عن الموشحة ومتأخراً عنها) وإن كان الزمن قد أثبت سلامة نظريته في جوهرها .

وتختلف الموشحة عن القصيدة العربية في أنها لا تلتزم بوحدة القافية فهي تغاير بين القوافي على نظام متعارف ، ولهذا فهي تتألف من مقطوعات تتراوح من خمس إلى سبع ، وكل مقطوعة تتألف من جرعين : الأول هو ما يعرف بالأغصان ، وهو عدد من الأَشْطَار تنتهي بقوافٍ مشتركة والثاني هو القفل الذي تنتهي أشطاره بقوافٍ تتفق مع قوافي نهاية الموشحة أو مركزها على حد قول ابن بسام . وقد يكون للموشح مطلع يتفق في قوافيه مع قوافي الأقفال والمركز وحينئذ يكون « كاملاً » وهو الشائع بين الوشاحين ، وقد يخلو منه ، فحينئذ يسمى « أقرع » .

ونضرب فيما يلي مثلاً يتبين منها النظام الذى تجرى عليه الموشحة :

| | | | |
|---------|---|---|----------------|
| الأغصان | { | ا | قد وضح الشجوا |
| | | ب | حين جلا |
| | | ج | سره الاعلان |
| | { | ا | |
| | | ب | من كم الشكوى |
| | | ج | عاد على |
| | { | ا | قلبه الكتمان |
| | | ب | والغاية القصوى |
| | | ج | لو أن تلا |
| | | | حسنه إحسان |

| | | | |
|-------|---|----|----------------|
| القفل | { | د | يا فتنة الفاتن |
| | | هـ | أنت العياذ |
| | | و | لو أجرت العائد |

ويتردد نظام التقفية المذكور فى سائر مقطوعات الموشحة فتكون هكذا :

أ ، ب ، ج | أ ، ب ، ج | أ ، ب ، ج | د ، هـ ، و
ثم تأتى المقطوعة التالية :

س ، ص ، ع | س ، ص ، ع | س ، ص ، ع | د ، هـ ، و

وهكذا تتعاقب الأغصان والأقفال حتى النهاية :

أما المركز أو الخرجة فهو القفل الذى تختتم به آخر مقطوعات الموشحة ، وهو الذى سنولى فى الفقرات التالية عناية خاصة إذ كان أهم عناصر ومظاهر الابتكار الأندلسى فيها .

إن وجه الابتكار في التوشيح لم يكن مجرد المغايرة بين القوافي على عكس الشعر العربي التقليدي ذي القافية الوحيدة ، مثلما يفاير بين قوافيه مثل التسميط والتخميس ، وإنما التجديد في الموشحات أكثر من هذا بكثير . هو في مركز الموشحة أو خرجتها التي أصبحت في السنوات الأخيرة مجال أبحاث مستفيضة وجدال لم ينته بعد .

ولو أننا تأملنا لوجدنا نص ابن بسام ينص على أن الوشاح كان « يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » ويزيدنا ابن سناء الملك بياناً عن هذا المركز أو الخرجة فيقول : « والخرجة هي إبراز الموشح وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ... وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية ، وحين يكون مسيباً مسرحاً ومتبجحاً منفسحاً ، فكيفما جاء اللفظ والوزن خفيفاً على القلب ، أنيقاً عند السمع ، مطبوعاً عند النفس ، حلواً عند الذوق تناوله وتنوله ، وعامله وعمله ، وبني عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذنب ونصب عليه الرأس . »

فالخرجة - على الأقل كما فهمها واصطلح عليها مخترعو الموشحات الأندلسيون - ينبغي أن تكون عامية أو أعجمية أي باللطينية المداوجة ، ومن هنا نرى كيف يتمثل فيها طابع هذا المجتمع الأندلسي الذي كان خليطاً مولداً من العناصر العربية والأسبانية القديمة والذي كان مزدوج اللغة .

ونضرب هنا مثلاً واحداً لخرجة من هذا النوع ، وهي التي يختتم بها الموشح الذي أوردنا من قبل إحدى مقطوعاته ، وسنورد هنا المقطوعة الأخيرة كلها :

| | | | |
|---------|---|---|--------------|
| الأغصان | { | س | وليلة أدنت |
| | | ص | نخيل السرى |
| | | ع | مطايا للركب |
| | { | س | في طرفة أفنت |
| | | ص | طعم الكرى |
| | | ع | للمرام الصعب |

| | | | |
|-------|---|---|-------------|
| الغصن | { | س | وغادة غنت |
| | | ص | نحن ترى |
| | | ع | زقة للحرب : |

| | | | |
|------------------|---|----|----------------------|
| الخرجة أو المركز | { | د | <u>يا فاتن أفاتن</u> |
| | | هـ | <u>وش انتراذ</u> |
| | | و | <u>كندو جلش كادد</u> |

ولو أننا كتبنا هذه الخرجة بالأسبانية القديمة لأصبحت :

Ya Fatin A-Fatin
Os Entrad
Kando (El) Gilos KED'ED

وترجمتها بالعربية :

يا فاتن يا فاتن

ادخل

حينما ينام الرقيب (أو الحاسد الغيور)

وقد قدم لنا ابن سناء الملك بيانا عن خرجة الموشحة وخصائصها وما ينبغى على الوشاح أن ينتهجه فيها . (هذا وإن كان ينبغى علينا أن ننبه إلى ضرورة استخدام نصوص هذا المؤلف في حذر ، فهو أديب مصرى بعيد

عن البيئة الأندلسية فضلاً عن كونه متأخراً عن تاريخ اختراع الموشحة (سنة ١٢١١ م) ولهذا فإن هناك أشياء لم يتمكن من إدراكها تماماً من أسرار صنعة التوشيح، ومع ذلك فإن لإخباره وتفصيله «لنظرية التوشيح» قيمة كبرى ومن الغريب أنه المؤلف الوحيد الذي نعرف أنه حاول تفعيد صناعة التوشيح وتحديد أصولها). يقول: إن الخرجة ينبغي أن توضع على لسان أحد: إنسان أو حيوان أو جماد، وأن تكون بالعامية، «والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف، قزمانية من قبل اللحن...» فإن كانت معربة الألفاظ على منوال ما تقدمها خرج الموشح من أن يكون موشحاً، والإشارة هنا إلى أن تكون في الحجون على طراز شعر ابن حجاج البغدادي (سنة ١٠٠١ م) وأن تكون في بعدها عن الأعراب على نهج أزجال ابن قزمان القرطبي. ويمضي ابن سناء الملك في تفصيله لشروط الخرجة فيقول: إنها إذا كانت بالعجمية فينبغي أن يكون تعبيرها «سفسافاً نفطياً ورمادياً زطياً» وهو يعنى أن تكون ممعنة في السوقية والشعبية.

ونستخلص مما سقناه من نصوص ابن بسام وابن سناء الملك وغيرهما أن الخرجة التي هي أساس الموشحة الأندلسية كانت في الأصل جزءاً من أغنية شعبية متداولة في ذلك المجتمع الأندلسي المزدوج اللغة، وما اكتشف أخيراً من الخرجات يؤكد هذه الحقيقة.

(٦)

ربما كان أول باحث أوروبي أشاد بأثر العرب في الحضارة الأوروبية ونوه بفضلهم على ثقافة عصر النهضة هو الأب اليسوعي الإسباني جوان أندريس Juan Andrés، وكان من اليسوعيين الذين طردوا من أسبانيا في سنة ١٧٦٧. فقد نشر هذا القس المسيحي كتاباً جليلاً بالإيطالية في سبع مجلدات بعنوان «أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة» Dell Origine, progressi e stato attuale d'ogni letteratura

(بارما ١٧٨٢ - ١٧٩٩) ، ثم أعاد نشره في روما بعد أن نقحه ووسعه بين سنتي ١٨٠٨ - ١٨١٧ فجاء في ثماني مجلدات ، وفي هذا الكتاب أكد الأب أندريس أن النهضة التي قامت في أوروبا في كل ميادين العلوم والفنون والآداب ، والصناعات إنما كانت بفضل ماورثته عن حضارة العرب . والواقع أن ما كتبه الباحث الأوروبي حول هذا الموضوع كان أشبه بالهام عبقرى إذ لم تكن المراجع والأصول تعينه على إثبات ما يقول ، فقد كانت الدراسات الاستشرافية في ذلك الوقت تخطو أول خطاها ، ولم يكن قد نشر من آثار الفكر العربي ما يعين على الموازنة أو البحث العلمي الدقيق ، بل كانت حصيلة الأب أندريس من القراءات العربية لا تتجاوز ما اطلع عليه من المخطوطات العربية في مكتبة الأسكوريال ، وهذه المخطوطات نفسها كانت حديثة عهد بالفهرسة التي وضعها لها باللاتينية لأول مرة الأب اللبثاني الأصل ميخائيل الفزيري :
Michael Casiri Escurialeusis Madrid (1760-1770) 2 vols.

ومع ذلك فقد استطاع جوان أندريس أن يلتقي بكثير من الأحكام حول فضل العرب على الحضارة الأوروبية كانت تبدو في وقتها ضرباً من الخيال والأوهام ، ثم أثبتت الدراسات اللاحقة بعد قرنين من الزمان صوابها .

لقد نادى الأب جوان أندريس بتأثير الشعر العربي في بواكير الشعر الغنائي الأوروبي وكان رد الفعل بين الباحثين المعاصرين له عنيفاً ، ولم يأخذها أحد مأخذ الجدل غير أن المستشرقين بدعوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يهتمون بمسألة النفوذ العربي المحتمل في الأدب الغنائي الأوروبي ، ويميلون إلى الأخذ بها في تردد ، ولعل أولهم هو همر بورجشتال Hammer Purgstall في مقالين له نشر في المجلة الآسيوية بين سنتي ١٨٣٩ ، ١٨٤٩ ، أما رانيهارت دوزي Reinhardt Dozy أول من أولى الدراسات الأندلسية عناية كبيرة ونشر كثيراً من النصوص الأساسية في ميدانها فقد أثر أن يتعد عن هذا الميدان الشائك فقال : إن مسألة التأثيرات الممكنة للشعر العربي في الأوروبي مسألة سابقة لأوانها ومع ذلك فقد كان البارون فون شاك Von

Schack صاحب كتاب الشعر العربي في الأندلس وصقلية أميل إلى قبول نظرية التأثير العربي وإن لم يقدم عليها أدلة إيجابية موضوعية . وتتقدم الأبحاث الخاصة بالموشحات خطوة أخرى في نهاية القرن التاسع عشر على يد المستشرق الألماني مارتن هارتمان Martin Hartman إذ أفرد لها كتاباً خاصاً نشر في سنة ١٨٩٧ ، غير أن دراسته مع قيمتها واستقصائها لما كان معروفاً من نصوص اكتفت بكونها تسجيلًا وصفيًا .

وفي سنة ١٩١٢ يحدث تطور مفاجيء في سير هذه المسألة التي كان قد أصابها شيء من الجمود جعل الباحثين يحجمون عن القطع فيها برأي . في هذه السنة خرج جوليان ريبيرا بنظرية الجديدة حول ما سماه بوجود « شعر غنائي مكتوب باللاتينية الدارجة في الأندلس الإسلامية » ويكون هذا الشعر الذي ضمنه الشعراء الأندلسيون المسلمون إنتاجهم الأدبي قد باشر أثراً حاسماً في مولد الشعر الأوربي الغنائي كله . وكان اعتماد ريبيرا في الاحتجاج لنظريته « الثورية » هذه على بعض النصوص المتعلقة بالموشحات وكان لهذا المستشرق الأسباني فضل نشرها لأول مرة — مثل نص ابن بسام الذي اقتطفنا عبارات منه فيما سبق — ثم على دراسة ديوان أزجال ابن قزمان على أساس مخطوطته الوحيدة التي كانت محفوظة في مكتبة سان بطرسبرج .

وأحدثت آراء جوليان ريبيرا دويلاً هائلاً في عالم الاستشراق وعالم المشتغلين بالدراسات اللاتينية على السواء ، لاسيما بعد أن أكد « ريبيرا » أن الشعراء البروفانسيين الفرنسيين (شعراء التروبادور) وهم أول من عالجوا الشعر الغنائي في أوربا لم يفعلوا أكثر من تقليد نماذج الوشاحين والأزجالين الأندلسيين الذين سبقوهم بقرنين على أقل تقدير . وقد أثارت هذه الآراء اهتماماً جديداً في أوربا بالموشحات والأزجال وإن كان معارضو آرائه أكثر من مؤيديه ، فقد كان هناك أكثرية من العلماء الأوربيين مستشرقين وغير مستشرقين يأنفون من التسليم بتأثير الثقافة العربية في أوربا ، هذا فضلاً عن أن

آراء « ريبيرا » لم تبد مقنعة تماما وإنما كانت مبنية على ضرب من الإلهام لا يستند إلى حجج عقلية يمكن التسليم بها بغير نقاش .

ومع ذلك فإن الغرض الذى أخرجه « ريبيرا » قدر له من يتعهده بالعناية ، وكان أبرز من واصل نظريته فى ميدان الاستشراق أ . رنيكل A.R. Nykl الذى قدم فى سنة ١٩٣٣ عملين جليدين : أولهما نشره لديوان ابن قزمان كاملا بالحروف اللاتينية ، والثانى هو بحثه عن « الشعر الغنائى على جانبي جبال البرنات (البيرينيه) فى حدود سنة ١١٠٠ م (مجلة الأندلس ، المجلد الأول) ، وفى هذا البحث قدم مزيداً من الحجج المقنعة على تأثير الشعر العربى فى شعراء التروبادور البروفانسيين ، ثم كرر آراءه بعد ذلك فى كتابه عن الشعر الأندلسى (ط . بلنتيمور ١٩٤٦) . وأما فى ميدان الدراسات اللاتينية فقد وجدت نظرية ريبيرا ونيكل قبولا من شيخ فقهاء اللغة الإسبانية فى الوقت الحاضر رامون مننديث بيدال Ramón Menéndez Pidal الذى نشر فى سنة ١٩٣٨ الطبعة الأولى من كتابه « الشعر العربى والشعر الأوربى » .

ثم تستقبل الدراسات الخاصة بالموشحات دفعة أخرى مفاجئة غير متوقعة فى سنة ١٩٤٨ ، وذلك على أثر بحث نشره المستشرق الانجليزى س . م . شتيرن S.M. Stern بعنوان « الخرجات الإسبانية فى الموشحات العبرية » (مجلة الأندلس ، المجلد الثالث عشر) . ونقول إن هذه الدفعة كانت مفاجئة لأنه لم يكن أحد ينتظر أن تكون هذه الخرجات المكتوبة باللغة الإسبانية القديمة فى الموشحات العبرية هى التى قدر لها أن تلقى ضوءاً كاشفاً على مثيلاتها فى الموشحات العربية ، حتى صاحب البحث نفسه لم يكن قدر مدى خطر هذا الاكتشاف . وذلك لأن المعروف هو أن الوشاحين اليهود الأندلسيين كانوا شأنهم فى ذلك كشأن سائر المفكرين والأدباء المنتمين إلى هذه الديانة مجرد مقلدين للوشاحين العرب . وهكذا كان من اليسير أن تطبق النتائج المستخلصة من دراسة خرجات الموشحات العبرية على مثيلاتها العربية دون

تخوف من مظنة الخطأ . ولندكر أنه حتى ذلك الوقت لم تكن بين أيدي الباحثين
نصوص لخرجات عربية .

وبجاء بعد سنوات اكتشاف أجل وأخطر سار بهذه المسألة المعقدة الشائكة
في طريق الحل السليم ، ونعني به ما تضمنه مقال للمستشرق الأسباني
أميليو غرسية غوميس Emilio Garcia Gomez بعنوان « ٢٤ خرجة باللاتينية
الدارجة في موشحات عربية » (مجلة الأندلس سنة ١٩٥٢) ، وكان هذا
أكبر كشف من نوعه لهذه المادة التي وضعت أيدينا بشكل مباشر ولأول مرة
على هذه الأغنيات الصغيرة المكتوبة بالإسبانية القديمة والتي كانت الأساس
الذي بنى عليه الوشاحون موشحاتهم وكان غرسية غومس قد استخرج
هذه الخرجات من مخطوط للمؤلف الأندلسي ابن بشرى الغرناطي كان
ولا يزال في حوزة المستشرق الفرنسي ج . س . كولان S.G. Colin
ثم تمكن المستشرق الإسباني من زيادة حصيلتنا من تلك الخرجات معتمداً على
مخطوط « جيش التوشيح » للسان الدين بن الخطيب الغرناطي .

ووافق ذلك إسهام الباحثين العرب لأول مرة في ميدان الدراسات الخاصة
بالموشحات والأزجال ، أو نشر بعض النصوص الجديدة المتعلقة بها ، نذكر
من ذلك نشر الباحث السوري جودت الركابي لكتاب « دار الطراز »
لابن سناء الملك (دمشق ١٩٤٩) وبعض أبحاث المصري عبد العزيز الأهواني
التي كان آخرها كتابه « الزجل في الأندلس » (القاهرة ١٩٥٧) ، كذلك كان
من أهم النصوص الجديدة التي نشرت أخيراً حول الزجل كتاب « العاقل
الحالي والمرخص الغالي » لصفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلبي (١٣٥٠ م)
بتحقيق المستشرق الألماني ويلهلم هوميزباخ ، وإيسبادن ١٩٥٦) وكذلك
ديوان الشاعر الوشاح الأعمى التطيلي أبي جعفر أحمد بن أبي هريرة سنة
١١٣١ م بتحقيق الدكتور إحسان عباس بيروت سنة ١٩٦٣ .

وكان آخر هذه النصوص الجديدة وأهمها فيما يتعلق بالموشحة الكتاب الذي

أصدره في مدريد الأستاذ غرسية غومس بعنوان « الخرجات الرومانسية (أى اللاتينية المدارجة) في مجموعة الموشحات العربية الأندلسية في إطارها (مدريد ١٩٦٥) » ووجه الخطر في هذا الكتاب أنه لم يكتف فيه بنشر جميع ما تم الكشف عنه من الخرجات الرومانسية حتى ذلك الوقت (٣٩) ، بل أنه نشر النصوص الكاملة للموشحات التي تتضمن تلك الخرجات (٤٣ موشحة في المجموع) . وكان هذا أمرا ضروريا لأن الاقتصار على دراسات الخرجات وحدها مقتطعة من موشحاتها كان لا يسمح بدراسة مشكلة الموشحة دراسة متكاملة ، وفضلا عن ذلك قام غرسية غومس بترجمة هذه النصوص إلى الإسبانية والتقديم لها بدراسة جامعة .

وكان العلماء الأوروبيون من مستشرقين ومتخصصين في الرومانيات وفي الدراسات العبرية قد أقبلوا منذ كشف سنة ١٩٤٨ على الموشحات والأزجال بدراسات واسعة مستفيضة لا يكاد يحيط بها الحصر ، ولعل المستشرق الأسباني غرسية غومس هو أكثر هؤلاء الباحثين توفرا على دراسة هذا الفن وأقدرهم على الوصول فيه إلى نتائج جديدة قيمة ٥

(٧)

ونعود إلى تطور الموشحة الأندلسية وتفرع فن الزجل عنها ، لما لهذا الموضوع من أهمية في تتبع نشأة الشعر الغنائي الأوربي وتطوره .

ذكرنا أن اختراع الموشحة ، كان في أواخر القرن التاسع الميلادي على يد مقدم بن معافر القبري ، ولنا نعرف كيف كانت الموشحة البدائية إذ لم يصل إلينا أى نموذج من نماذجها في عصر تكوينها ، على أننا نعرف من نص ابن بسام [حول هذا الموضوع وما كتبه ابن خلدون ناقلا عن ابن سعيد المغربي أن من معالجي هذا الفن الجديد في القرن العاشر الميلادي أبو عمر بن عبد ربه

صاحب كتاب « العقد الفريد » سنة ٩٤٠ م ، ثم أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى (١٠١٣ م) وأبو بكر عبادة بن ماء السماء (١٠٣٠ م) ، وقد أدخل هذان الأخيران كثيرًا من التعديل على نظام التوشيح ووصلوا به إلى أرفع مستوى من الرقى والاكتمال . وقد قدر لهذا الفن الجديد انتشار كبير في الأندلس وشعبية متزايدة ، ويدل على ذلك كثرة ما نعرفه من أسماء الوشاحين وأخبارهم كما وردت بكتاب هارتمان ، فهو — على قدمه — ما زال مفيداً محتفظاً بقيمته في هذه الناحية . أما تطور فن التوشيح نفسه فقد أفادنا عنه ابن خلدون في مقدمته في نص تبين أنه نقله عن كتاب « المقتطف » لابن سعيد .

على أن الذى نسجله هنا هو أن الموشحة الأندلسية ظلت محتفظة بخصائصها الأساسية ، وأهمها اعتمادها على الخرجة الأعجمية . ومثل هذا نجده في نصوص الموشحات العبرية التى كان الكشف عن خرجاتها الأعجمية فجر مرحلة جديدة في الأبحاث المتعلقة بهذا الفن ، فقد كان يهود الأندلس عالمة في كل أوجه نشاطهم الفكرى على العرب . صحيح أن الوشاحين المتأخرين في رغبتهم في الإتيان بجديد كثيرًا ما عقدوا صناعة التوشيح وأكثروا المغامرة بين الأوزان والقوافى الداخلية للموشح ، ولكن الجوهر لم يتغير كثيرًا .

غير أن انتشار التوشيح في الشرق والغرب أدى إلى أن تتعرض الموشحة لضغط البيئات المختلفة . فالموشح الأندلسى بخرجته الأعجمية لم يكن ليفهم ولا ليتذوق إلا في بيئة أندلسية لا يصددها ازدواج اللغة ، أما في المشرق مثلاً فإن مثل هذه الخرجة كانت بعيدة عن إدراك المثقفين لها ، ومن هنا بدأ اتجاه إلى أن تكون الموشحة كلها بالعربية الفصحى ، ويبدو أن غالبية المشاركة — على الرغم من تنبه بعضهم مثل ابن سناء الملك إلى دور الخرجة الأعجمية — لم يروا في التوشيح إلا المغامرة بين القوافى باعتبار أن ذلك هو وجه الأصالة الوحيد فيها ، أى أنهم اعتبروها طريقة للنظم تشبه التسميط والتخميس وما إلى ذلك . هذا وإن ارتبط لفظ الموشح دائماً بالأندلس ارتباطاً نراه في من

اصطنعوا هذا اللون حتى العصر الحاضر (ولندكر معارضة شاعرنا الحديث
أحمد شوقي لموشح مشهور للسان الدين بن الخطيب) .

ولم يقتصر ذلك على ناظمى الموشحات فى المشرق ، بل كان ضغط البيئة
الأدبية العربية نفسها فى الأندلس شديداً ، ثم إنه ينبغى أن لا ننسى أن ازدواج
اللغة فى البيئة الأندلسية ذاتها قد طرأ عليه تغير مرتبط بالظروف السياسية
والاجتماعية ، إذ كان تقدم المسيحية المطرد فى الأندلس ، وسقوط جانب كبير
من القواعد الأندلسية فى أيدي ملوك النصارى قد أدى إلى نوع من التميز
والانحزال فى عناصر المجتمع ، فالنصارى المستعربون بدأوا ينحسرون
عن المناطق الإسلامية إلى تلك التى وقعت فى قبضة النصرانية ، وأقبل المسلمون
فى البلاد المفتوحة على الهجرة فراراً بدينهم إلى بلاد الإسلام ، وهكذا نرى
أنفسنا أمام نتيجة لا تخلو من مفارقة وهى أن طروء الضعف على دولة الإسلام
الأندلسية وانكماش رقعتها كانا مؤديين إلى مزيد من تعرب المناطق الباقية
فى حوزة المسلمين ، وهذا هو ما يفسر لنا قلة الخرجات الأعجمية فى الموشحات
الأندلسية المتأخرة فى عهد الموحدين ، ثم انعدامها فى موشحات آخر فحول
شعراء الأندلس ابن زمرك الغرناطى (١٣٩٣ م) . وأهم ما يعيننا فى هذا
التطور أن الموشحة التى بدأت نتاجاً لتزاوج الشعر العربى مع الأغنية الشعبية
الأندلسية قد عادت إلى « التعرب الخالص » فى المشرق وفى الأندلس فى عصرها
المتأخر ، مبتعدة عن مصادرha الشعبية الأصيلة ومقتربة من الشعر التقليدى .

ولكن هناك تطورا آخر أصاب الموشحة فى الأندلس ، هو أن بعض
الوشاحين استبدلوا بخرجاتها الأعجمية ، خرجات بعربية الأندلس العامية ،
وابن سناء الملك نفسه يسجل لنا هذه الظاهرة . وقد احتفظ لنا ابن بشرى
ولسان الدين بن الخطيب الغرناطيان بعدد كبير من أمثال هذه الموشحات بخرجاتها
الأندلسية الدارجة ، ولو تأملنا موضوعات هذه الخرجات وطرق صياغتها
وجدناها لا تختلف فى شىء عن الأعجمية فيما عدا اللغة التى كتبت بها .
فإذا كانت الخرجات الأعجمية كما يبدو لنا ذلك مؤكداً قطعاً من أغان شعبية

سائرة متداولة في المجتمع الأندلسي ، فإن هذه الحركات العربية الدارجة لا بد أن تكون مثلها ؛ أي مقطوعات من أغان شعبية بتلك اللغة ، وهذه الأغاني هي التي أطلق عليها غرسية غومس « طرازاً ثالثاً للشعر الأندلسي الشعبي » . وهو يعني بذلك أن المجتمع الأندلسي المزدوج اللغة بدأ بمقطوعات غنائية كانت باللاتينية الدارجة ، ثم ركب منها أغاني تختلط فيها هذه اللغة العربية ، وأخيراً ظهرت فيه أغان بالعربية الدارجة الخالصة .

ولعل هذا التطور الأخير هو الذي أدى إلى ظهور نوع جديد من الشعر العربي يشترك مع الموشحة في بعض خصائصها ويختلف في أخرى ، ونعني به « الزجل » ، — ويبدو أن الزجل كان رد فعل لما أشرنا إليه من « تعرب » الموشحة أي اصطناعها اللغة العربية الفصحى ، فهو عودة إلى المصدر الشعبي الذي نبعث منه الموشحة . وقد حفظ لنا الزمن من بقايا هذا الفن الأندلسي أثراً بالغ القيمة ، هو ديوان كامل للزجال ابن قزمان القرطبي ، فضلاً عن عديد من النماذج مبثوثة في مختلف المصادر وأهمها ما جاء في كتاب « العاقل الحالى » لصفي الدين الحلى . ولسنا نعرف على وجه اليقين تاريخ مولد الزجل ، ولكنه ينبغي أن يكون متأخراً عن الموشحة وأغلب الظن أنه غير متقدم كثيراً على ابن قزمان (القرن الثاني عشر) . وإذا تأملنا أزجال ابن قزمان فإننا نلاحظ أن بعضها يكاد يكون موشحات ، غير أن بعضها الآخر يختلف في طريقته عن تلك المتبعة في التوشيع . ويمكن أن نجعل الفروق بين الطرازين في أن الزجل يصطنع العامية ويتجنب الإعراب في جميع أجزائه ، بينما الموشحة تستخدم الفصحى فيما عدا خرجتها التي تكتب بالعامية العربية أو بخليط منها ومن اللطينية الأندلسية . على أنه ينبغي أن نذكر أن عامية الزجل — نعني الزجل الأندلسي — كثيراً ما تدخل فيها كلمات لاتينية دارجة ولكنها منتشرة هنا وهناك دون أن تختص بجزء معين من الزجل . وفرق آخر هو أن مقطوعات الزجل ليست محددة بعدد مثل مقطوعات الموشحة التي ينبغي أن تتراوح بين خمس وسبع ، كذلك نلاحظ أن الحرجة في الزجل

— إذا وجدت — لم يعد لها قيمة خاصة ولا وظيفة معينة مثلها في الموشحة ، وأن الزجل يمكن أن يتحلل من الطابع الغنائي الذي يميز الموشحة لكي يتخذ صفة قصصية إخبارية . وأخيراً نذكر فرقاً يبدو لنا جوهرياً ولكنه لا يمكن القطع به حتى الآن] ، إذ ما زالت الأبحاث الجارية حتى اليوم عاجزة عن إمالة اللثام عنه ، ونعني به ما يتعلق بالعروض كما سنوضح فيما بعد .

(٨)

كانت مسألة عروض الموشحات والأزجال أوائل هذا القرن ومنذ طلع ريبيرا بنظريته التي كانت تبدو في وقته غريبة عسيرة على التصديق — مما احتدم حوله الجدل . وكان الرأي السائد دائماً هو أن عروض الموشحات والأزجال عربي محض يتبع المقاييس التي وضعها الخليل بن أحمد ، وهكذا ذكر « هارتمان » أول من اختص هذا النوع من الشعر بالدراسة من المستشرقين ، أما في الشرق فقد اعتبر ذلك دائماً حقيقة فوق مستوى الجدل . ولكن ريبيرا بعد دراسته لأزجال ابن قزمان نادى هنا أيضاً برأي غريب هو أن عروض هذه الأزجال غير عربي ، أي أنه لا يخضع للتقسيم إلى أسباب وأوتاد متعارف على عددها كما هو الحال في سائر بحور الشعر العربي ، وإنما هو يتبع تقسيم البيت إلى مقاطع على نهج الشعر الأوربي ويبدو أن ريبيرا تبع في ذلك رأي البارون فون شاك صاحب كتاب « الشعر والفن العربيان في الأندلس وصقلية » (ميونيخ ١٨٦٥) الذي كان على ما نعرف أول من أوحى بهذه الفكرة وإن لم يدلل عليها ندليلاً كافياً . أما ريبيرا فقد صرح بذلك الرأي في غير موارد . وإذا كان الباحثون التالون قد قبلوا بالتدريج جوهر نظرية ريبيرا فإن مسألة العروض هذه كانت مما لم يقتنع بها أحد ، وهكذا اتفق كل من تعرض للدراسة الموشحات والأزجال بعد ذلك على عروبة عروضهما الكاملة ، قال بذلك نللينو ونيكل وكولان وشتيرن وهوميرباخ وريتر وغيرهم . أما الباحثون العرب المحدثون فلا نعرف أحداً منهم طرح هذه القضية على بساط

البحث من جديد ، إذ اعتبرت أوزان الموشحات والأزجال أمراً مفروغاً منه مسلماً بعرويته الخالصة .

والشيء الغريب في معالجة هذه المشكلة هو أنه لم يتنبه أحد إلى ما ينص عليه ابن بسام في صراحة عند كلامه عن ابتكار الموشحات إذ يقول : إن « أوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب » وأغرب منه هو إضراب الباحثين عن تقرير آخر يورده ابن سناء الملك في « دار الطراز » يقول فيه إن الموشحات قسمان : الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني مالا وزن له فيها ولا إمام له بها ، ثم يضيف إلى ذلك قوله إن الأول إنما يعد من النسيج المرذول المخذول وهو بالخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يصطنعه إلا الضعاف من الشعراء ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف ويتشبع بما لا يملك ، أما الثاني فهو مالا مدخل لشيء منه في أوزان العرب ، وهذا القسم منها هو الكثير والحم الغفير والعدد الذي لا ينضب (ص ٣٣ ، ٣٥) .

وهذان النصان صريحان في أن الموشحات كانت في الغالب الشائع لا تلتزم بحور العروض العربي ، فما الضابط لأوزانها إذن ؟ إذا كان الأساس في الموشحة هو الخرجة التي كانت في الأصل عند اختراع التوشيح عامية عجمية إذ عليها تبنى الموشحة كلها ، فمن الطبيعي أن تتبع وزن تلك الأغاني التي كانت تستخدم اللاتينية الدارجة ، ودراسة هذه الخرجات تدل على أن عروضها كان « مقطعيًا » أي مقسما على عدد متعارف من المقاطع مثل بواكير الشعر الإسباني التي وصلت إلينا . صحيح أن الموشحات حينما تعربت أو تفصحت سواء في الأندلس أو في المشرق أصبحت خاضعة للأوزان العربية ، ولكن استقراء الجانب الأكبر من الموشحات الأندلسية ولا سيما الأصيلية القديمة يدل على أن أوزانها يمكن أن تضبط بالتقسيم المقطعي مثل الشعر الأوربي لا على أسباب وأوتاد كما تقضى بذلك قواعد العروض العربي .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن الزجل ، فأزجال ابن قزمان مثلاً كثير منها يستعصى على الانخضاع لتقسيم بحور الشعر العربي ، بينما يمكن تطبيق العروض المقطعة عليها في سهولة . هذه هي النظرية التي يستشهد عليها غرسية غومس بحجج كثيرة ، وهي في الواقع عودة إلى مانادى به البارون فون شاك وريبيرا أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ولكنها الآن قد دعمت ببراهين تبدو وجيهة تحمل على التصديق . وقد طبق غرسية غومس نظريته هذه على الموشحات الثلاثة والأربعين بخرجاتها الثماني والثلاثين التي نشرها في كتابه المشار إليه من قبل ، فاستقام له تقطيعها على أساس المقاطع في غير عناء . أما الأزجال الأندلسية الأصلية — مثل أزجال ابن قزمان — فيقول المستشرق الأسباني إنها كلها تلتزم عروض المقاطع لا الأسباب والأوتاد . على أن الزجل أصابه ما أصاب الموشحة فيما بعد ولا سيما حينما انتقل إلى المشرق ، ومن هنا ظهر ما يعرف باسم القصيدة الزجلية التي لا تختلف عن القصيدة التقليدية في شيء إلا في كونها تستخدم اللغة العامية بدلاً من العربية . وعلى هذا المنوال سار الزجل في المشرق حتى أيامنا هذه ، إذ أن ما يعرف اليوم بالزجل في مصر مثلاً ليس إلا قصائد على أعاريض بحور الشعر العربي ، غير أنها منظومة بالعامية عوضاً عن العربية الفصحى .

غير أن لنا ملاحظة أخيرة حول مسألة العروض هذه هي أنه يبدو لنا أن هناك بين الموشحات الأندلسية الأصلية القديمة التي تتبع العروض الأوروبي والموشحات التي تلتزم عروض الخليل مرحلة انتقالية وسطاً ، نجد فيها الوشاح لاعم بين بعض البحور الأوربية والعربية المتشابهة في الإيقاع الموسيقي ، ومن أمثلة ذلك الموشحة التالية لأبي العباس أو أبي جعفر الأعشى التطيلي (١١٣١ م) ، وسنكتفي هنا بإيراد مطلعها ونخرجتها :

المطلع : لحظات بابلية ملأت قلبي عشقاً
ولمى ثغر مفلج لاثمى منه موقى
الخرجة : ألب ديه اشت ديه ديه ذل عنصره حقاً
بشترى مو المـدبج ونشق الرمح شقاً ؟
والخرجة كما نرى خليط من العربية والرومانسية (اللاتينية الدارجة)
ولو كتبناها بالحروف اللاتينية لكانت :

Albo dia este día
Día del « ansara » haqqa
Vistiré mío-l-mudabbay
Wa-nasuqqu rrumha saqqa

ومعناها : يا لهذا اليوم من يوم أبيض (مشرق)
هو حقاً يوم العنصرة (عيد الشعانين أو عيد القديس يوحنا الذى كان
يحتفل به فى الأندلس)
سألبس فيه ثوبى المدبج
ونشق الرمح شقاً

فهذا الموشح يبدو لأول وهلة كما لو كان من مجزوء الرمل : « فاعلاتن
فاعلاتن » ولكنه فى الوقت نفسه يتفق تماماً فى التقطيع مع البحر الشائع
فى الشعر الأسباني حتى اليوم ، وهو المعروف باسم « المثنى » أى المكون
من ثمانية مقاطع :

AL/BO/DI/IA/ES/TE/DI/IA

وهكذا

(٩)

الذى كان عليه إجماع مؤرخى الآداب الأوربية - حتى اكتشاف
الخرجات فى الموشحات الأندلسية - هو أن أقدم شعر غنائى عرف فى أوربا

هو الذى نظمته شعراء التروبادور البروفانسيون (نسبة إلى بروفانس فى جنوب فرنسا) وأول هؤلاء الشعراء هو جيوم التاسع Guillaume IX دوق اكيثانيا وكونت بواتيه (١٠٧١ - ١١٢٧) ، يليه عدد من الشعراء أهمهم وأقدمهم بعده هم سير كامون Cercamon ومار كابرو Marcabru وبيرو دالفرتى Pierre d'Alverntié وجوفروديل Jaufre Rudel ونلاحظ أن هناك شبه إجماع بين الباحثين المتخصصين فى دراسة الشعر البروفانسى مثل فوسلر Vossler وجانروا Jeanroy وآبل Appel على أن هذا الشعر ينبغى أن يراعى فى بحثه أنه شعر نظم لا لكى ينشد فحسب ، بل لكى يغنى به . وهنا نجد أنفسنا أمام مسألة جديرة بالبحث فى الشعر الغنائى : هل وجدت كلمات الأغنية أو المقطوعة أولاً ، ثم ركب لها اللحن الموسيقى المناسب ؟ أو أن اللحن أتى سابقاً ثم صيغت الكلمات على أساسه ؟ الذى تدل عليه التجربة فى أغلب الأحوال هو أن اللحن هو السابق ، وأن نظم القصيدة أو الأغنية يأتى فى المرحلة التالية . وهذا هو ما نستطيعه أيضاً من كلمات هؤلاء الشعراء أنفسهم . ويفتخر جيوم التاسع فى بعض مقطوعاته بأنه أدخل تجديداً عظيماً على الشعر الغنائى الذى كان ينظمه فى عصره أولئك الشعراء الجواله المتكسبون بشعرهم ممن كانوا يعرفون باسم « الجونجلير » Jongleurs ولاغرو فهو شاعر أمير من نسل أمراء لم يكن يبتغى مما ألفه اكتساب مال ولا التقرب إلى أحد ، ويقول إن هذه الطريقة الجديدة التى انتهجها إنما استقاها من أساتذة كبار لهم فى هذا الفن مكان مرموق .

ومن هؤلاء الأساتذة الذين يشير إليهم أول من عرفناهم من شعراء أوربا الغنائيين ؟ إن حياة جيوم التاسع فيها مفتاح هذا السر الذى طالما اختلف حوله مؤرخو الأدب . فقد كان جيوم الابن الوحيد لجيوم الثامن دوق اكيثانيا أمير أكبر وأوسع رقعة من الأراضى التى كان يحكمها ملك فرنسا فى أيامه ، على أنه كان كذلك محارباً شجاعاً ورحالة طليعة ، ومن المعروف أن الصلات التى كانت تربط هذه الإمارة القوية بأسبانيا وممالكها كانت وثيقة ، ومن مظاهر

ذلك أن جيوم الثامن زوج ابنة له تدعى « أجنيس Agnes » من ملك قشتالة
الفونسو السادس Alfonso VI الذى كان أول من دفع حركة الاسترداد
الأسباني التي تعرف باسم Reconquista دفعة قوية حينما استطاع أن ينتزع
سنة ١٠٨٥ م قاعدة من أكبر قواعد الثغر الأدنى وهي مدينة طليطلة Toledo
ونعرف من حياة هذا الملك وبلاطه أنه كان متشبعاً بآثار الحضارة العربية
الأندلسية باعتبارها المثل الأعلى للرقى الحضارى والثقافى ، هذا وإن كانت
موازن القوى السياسية والعسكرية قد اختلت ، فأصاب الدولة الإسلامية
من الضعف والتفكك بعد سقوط خلافة بنى أمية فى سنة ١٠٣١ م مازقها
إلى ما يعرف باسم « دول الطوائف » بينما كانت مملكة قشتالة النصرانية
تزداد قوة واتساعاً على حساب تلك الدول .

كان زواج ابنة جيوم الثامن وأخت أول الشعراء البروفانسيين (وإن كانت
من أم أخرى) فى سنة ١٠٦٩ م مظهراً من مظاهر صلات الإمارة الفرنسية
الرسمية بأسبانيا المسيحية المتشعبة بالحضارة الأندلسية . على أننا نعرف فى نفس
الوقت تقريباً صلة أخرى لجيوم الثامن بالأندلس الإسلامية ، وهي اشتراكه
فى الغزوة التى قام بها النورمانديون على مملكة الثغر الأعلى (سرقسطة) واحتلوا
فيها مدينة بريشتر Berbastro المسلمة ، وذلك فى (سنة ١٠٦٤ م)
والمؤرخ الأندلسى المعاصر ابن حيان القرطبى يروى أن هؤلاء الغزاة الفرنسيين
والنورمان سبوا عدداً هائلاً يقدر بعدة آلاف من نساء المدينة . بل يروى لنا
هذا المؤلف قصة عن تاجر يهودى كلف بفداء أسيرة شريفة منهن كانت
فى نصاب قائد من قواد الحملة ، فلما دخل مجلسه إذا هو محوط بعدد كبير
من الجوارى المسلمات وهن يضربن على أعوادهن ويغنينه بالعربية ، وهو فى
نشوة من غنائهن وقد جلس متزيئاً بالزى العربى ومصطنعاً مجالس الطرب
العربية ، ويذكر التاجر اليهودى بعد ذلك أن القائد النصرانى رفض تسليم
الأسرة إليه قائلاً إن هؤلاء الجوارى المسلمات كن عليه أغلى من الدنيا بأسرها .

وهذا النص من أهم ما يطلعنا على مدى إعجاب النورمان والفرنسيين بالحضارة الأندلسية .

فإذا عرفنا أن جيوم الثامن كان له دور كبير في هذه الفترة حتى أن المراجع الفرنسية القديمة تسبغ عليه لقب « فاتح بريشتر » أمكن لنا أن نتصور أن عدداً كبيراً من أولئك القيان الأندلسيات قد صرن في حوزته ، كما صرن إلى حوزة غيره من قواد الحملة (فالمصادر المسيحية تذكر أن نصاب ممثل البابا وحده كان ألفاً وخمسمائة جارية) . ولا بد أن هؤلاء القيان قمن بنشر الأغاني والموسيقى العربية لا في فرنسا وحدها ، بل في سائر أنحاء أوروبا التي كانت ترى في الأندلس المثل الأعلى للحضارة وإذا كنا نعرف أن الموشحات قد بلغت في ذلك الوقت نفسه أوج اكتمالها - فضلاً عن اشتغالها على عناصر من اللاتينية الدارجة التي كانت تتحدث في أوروبا المنحدرة من أصل لاتيني مما كان يجعل فهمها أمراً غير متعذر على أهل هذه البلاد - قلنا إن نتصور مدى الإقبال عليها والإعجاب بها بحيث لا نستغرب أن تصبح النموذج المحتذى في الشعر الغنائي الأوربي عامة والبروفانسي خاصة .

في هذه البيئة التي اتصلت اتصالاً مباشراً بالأندلس - ولد جيوم التاسع في سنة ١٠٧١ ، فلما توفي أبوه في سنة ١٠٨٦ ورث عنه إمارته وهو يناهز الخامسة عشرة ، وورث عنه كثيراً من صفاته وأخلاقه ومنها حبه للنساء ، وإقباله على متع الحياة .

وفي سنة ١٠٩٥ م كانت أوروبا مقبلة على أحداث هائلة في صلاتها بالشرق الإسلامي ، ففي هذه السنة أعلن البابا أوربانوس الثاني ندائه المشهور في كليرمون (أوفيرني) ولتموج مهيباً بالمسيحيين الخروج للجهاد من أجل « استنقاذ » الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، ونعرف أن البابا قضى خمسة وعشرين يوماً في ضيافة الدوق جيوم التاسع ، فلم يلبث بعدها أن أعلن تأهبه للخروج في أول حملة صليبية وجهت إلى الشرق ، وأغلب الظن أن الدافع له إلى ذلك

لم يكن دينياً محضاً وإنما كان ذلك بالنسبة للنبي الفتي مغامرة غريبة ذات طعم غير مألوف . وفي مارس سنة ١١٠١ م نخرج الجيش الإكيتاني بقيادة جيوم من بواتيه متجهاً إلى القسطنطينية ، والتحق بهم في الطريق فرق من البافاريين والنموسيين ، ثم ساروا إلى بيت المقدس ، غير أن الجيش الكبير الذي كان قد بلغ حينئذ نحو ٣٠٠,٠٠٠ بوغت في إحدى المناطق الجبلية المتاخمة لشمال بلاد الشام وهزم الجيش الصليبي وتفرقت صفوفه ، أما جيوم فقد تمكن من الفرار ولحق بأنطاكية حيث استقبله الأمير الصليبي تافكريد استقبالا حافياً ، وفي سنة ١١٠٢ م وصل جيوم إلى بيت المقدس ، واعتبر ذلك نهاية مطافه ، فأقام فيها مدة ثم واصل مسيره إلى يافا حيث استقل مركباً للعودة إلى بلاده ، غير أن عاصفة عنيفة أرغمته على العودة إلى شواطئ الشام ، فعاد إلى أنطاكية وأقام هناك في ضيافة تافكريد ، وفي سبتمبر ١١٠٢ م توجه في رفقة مضيفه الأمير الصليبي إلى القدس من جديد ، وصحبه بودوان في حصاره الفاشل لمدينة عسقلان ، وكان هذا الفشل هو السبب في عزمه على مغادرة فلسطين والعودة نهائياً إلى بلاده . وفي أكتوبر سنة ١١٠٢ م نجده مرة أخرى في بواتيه . وعاد جيوم إلى مواصلة حياته اللاهية المرفهة ، وكان يعجبه أن ينشد نداءه وأصدقائه ما ينظمه من مقطعات ، ولا بد أن الشهور الثمانية عشر التي قضاها في بلاد الشرق في مغامرته الصليبية قد تركت على حسه المرهف آثارها .

ولما دعا ألفونسو الأول ملك أراغون المتطوعين ليعاونوه على أخذ «سرقسطة» من يد عرب الأندلس وأخوانهم مرابطي شمال أفريقيا تطوع جيوم مع ستمائة فارس أرضاء للبابا الذي كان قد حكم عليه ثم أصدر عفوه عنه ، وبعد هزيمة العرب في موقعة كوتندة Cutanda توطد سلطان ملك أراغون فعاد جيوم إلى مملكته .

وهكذا اتصلت حياة أول شعراء أوربا الغنائيين اتصالاً وثيقاً بالحضارة العربية الإسلامية عن طريقين : طريق الشرق ، وطريق الأندلس ، هذا إلى

أن الصلات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى كانت أوثق بكثير مما يتصور المرء للوهلة الأولى ، وكانت الأندلس بالذات ميداناً لتفاعل العناصر المختلفة جنساً وديناً ، وقد كانت علاقاتها بأوروبا وثيقة مستمرة سواء في الحرب أو في السلام ، وكانت بلاطات الأمراء والسادة في الأندلس تعج بالروم والافرنج القادمين أو المستجلبين من شتى بلاد أوروبا ، بل إننا نعرف أنه بعد سقوط الخلافة الأموية وقيام ملوك الطوائف أصبحت لبعض هذه العناصر دول وإمارات مثل الإمارات التي كان تحكمها الصقلية والتي كانت تمتد في شرق الأندلس ما بين المرية Catalunya في الجنوب وطرطوشة Tortosa المتاخمة لإمارة قطلونية Cataluña في الشمال . وكانت الصلات التجارية كذلك نشيطة بين الأندلس وبلاد أوروبا الجنوبية ولاسيما فرنسا وإيطاليا .

ولهذا لم يكن من الغريب أن تألف الأذواق في هذا الشطر الجنوبي من فرنسا حيث نشأ أول الشعراء التروبادور ؛ ذلك اللون الجديد من الشعر الذي ظهر في الأندلس الإسلامية . وأن يكون جيوم التاسع ذلك الشاعر المرفه الذي أوتي قسطاً كبيراً من الثقافة هو حلقة الوصل بين التوشيح الأندلسي والشعر الغنائي في أوروبا ، فيؤلف مقطعات وأغاني على ذلك النهج الذي كان مقدّم بن معافر القبري أول من ابتكره منذ قرنين من الزمان .

وأما الذين اعترضوا على هذه النظرية بتعذر فهم العربية على أهل بروفانس فإن هذه حجة لا تقوم بعد ما أوضحناه من وثاقة الصلات بين هذين العالمين العربي واللاتيني ، ثم إن الشعر الغنائي المعتمد على اللحن لا يشترط في الإقبال عليه والتأثر به فهم جميع ألفاظه ، ولو أدخلنا في حسابنا أن خرجة الموشحة التي كانت عماد اللحن فيها وبيت القصيد منها إنما كانت بلغة لاتينية دارجة خلصنا من ذلك بأن هذه الخرجة لا بد أن تكون مفهومة في كل أنحاء أوروبا الرومانية . بل إن الدراسة الفيلولوجية لبعض ألفاظ الخرجات كشفت أخيراً عن تشابه غريب بينها وبين الفرنسية القديمة التي كان أهل منطقة بروفانس

يتحدثون بها والتي نظم بها جيوم التاسع وسائر شعراء التروبادور أغانيهم .

وأما ثاني شعراء التروبادور فهو ماركابرو Marcabru وأصله من منطقة غسقونية Gascogne المتاخمة لشمال اسبانيا ولا يعرف تاريخ مولده ولا وفاته على وجه التحديد ، غير أن انتاجه الشعري ينحصر بين سنتي ١١٢٩ و ١١٥٠ م ويبدو أنه ولد في العقد الأول من القرن الثاني عشر ، والتحق بخدمة جيوم العاشر دوق اكيثانيا وابن جيوم التاسع أول شعراء التروبادور ، وله مقطعات في مدح هذا الأمير وفي دعوته لجهاد مسلمي الأندلس وفي رثائه عند موته . وتنقل في بلاطات جنوب فرنسا ، ثم هاجر إلى اسبانيا واتصل أولاً بالملك البرتغالي ألفونسو أنريكيث Alfonso Henriquez ، ثم التحق بخدمة ملك قشتالة وليون ألفونسو السابع الذي كان يلقب بالامبراطور Alfonso VII el Emperador الذي عرفته المراجع الأندلسية باسم «السلطين» واستقر في بلاطه بين سنتي ١١٣٧ و ١١٤٤ م وقربه الملك الإسباني غير أنه بعد ذلك تغير عليه وطرده ، فعاد إلى فرنسا حيث قضى آخر سني حياته . ونحن نرى من حياة ماركابرو كيف استمرت هذه الصلة بين شعراء التروبادور واسبانيا ، ولندكر أن بلاط الملك ألفونسو السابع كان يشتمل على كثير من المفكرين والكتاب المسلمين واليهود ، وأن الحرب كانت سجالاته بينه وبين المرابطين الذين ازدهروا في ظلهم فنا التوشيح والزجل . وقد حفظ لنا الزمن عدداً من — مقطوعات ماركابرو يتحدث فيها عن غزوات ألفونسو السابع للأندلس الإسلامية التي كانت تحت حكم المرابطين .

وثالث شعراء التروبادور هو : سيركامون Cercamón الذي كان على ما يبدو مغاصراً لماركابرو بلدياً له إذ كان من غسقونية كذلك . وانتاجه الشعري المحفوظ يتراوح بين سنتي ١١٣٥ و ١١٤٧ ، وقد كان على صلة كذلك ببلاط جيوم العاشر دوق اكيثانيا ، ولنا نعرف الكثير عن حياته ، وله مقطوعة يحث فيها على جهاد المسلمين ويتحدث فيها عن إمارة الرها ،

مما يحمل على الظن أنه ألفها بمناسبة الحرب الصليبية الثانية .

ونعرف بعد ذلك من هؤلاء الشعراء جوفرى روديل Jaufré Rudel وكان مثل أول من تحدثنا عنهم من التروبادور أميراً على منطقة « بلايا » في مصب نهر الجارون (بازاء بوردو) ، ولا نعرف الكثير عن حياته ، ولكن فيها قصة حب جارف أصبح أسطورة شائعة ومجده من أجلها أدباء العصر الرومانسى في أوربا ، وقد اتصل روديل بالشرق الإسلامى إذ اشترك في الحملة الصليبية الثانية التى وصلت إلى القسطنطينية في أكتوبر سنة ١١٤٧ (٥٤٠ هـ) ، ونعرف على وجه التحقيق أنه كان في عكا في أبريل سنة ١١٤٨ (٥٤١ هـ) ، بل يبدو أن منيته أدركته في حصار دمشق سنة ١١٤٩ .

ومنهم أليجريت Alegret الذى عاش كذلك في النصف الأول من القرن الثانى عشر والذى التحق مثل أستاذه ماركايرو بخدمة ملك قشتالة ألفونسو السابع ، ووجه إليه مدائح مما يؤكد وجوده في إسبانيا خلال فترة من حياته . وهكذا نرى أن الجيل الأول من شعراء التروبادور اتصلوا بالحضارة العربية والإسلامية اتصالاً مباشراً . وعلى كل فإن فحص المقطوعات الغنائية التى ألفها شعراء التروبادور يكفيننا للقطع بمدى تأثيرهم بالموشحات والأزجال الأندلسية ، فنحن نرى من التشابه القوى بين هذه المقطوعات في طريقة نظمها وعروضها وأغصانها وأقفالها ، بل وكذلك في تعابيرها وفي الموضوعات التى تتناولها بحيث يكون من المكابرة انكار تأثير أولئك الشعراء البروفانسيين بالموشحات الأندلسية .

ولنضرب مثلاً واضحاً يؤكد هذا التشابه :

| | |
|---|---------------------------------|
| من موشحة لأبى بكر بن محمد الأنصارى | من مقطوعة للشاعر — |
| الاشبيلي المعروف بالأبيض من | ماركا برو |
| وشاحى العصر المرابطى — القرن الثانى عشر | النصف الأول من القرن الثانى عشر |
| ما لذى شرب راح | Ai como es encabalada |

la falsa razos duarada
deman tatos vai triada
va ben es fols qui s'i fia

de vos datz

cá plombatz

vos gardatz

qu'au ganatz

n'a assatz

so apchatz

e mes eu la vía

على رياض الأقاح

أولا هضم الوشاح

إذا أتى في الصباح

أو في الأصيل

أضحى يقول :

ما للشمول

لثمت خدى

والشمال

هبت فمال

غصن اعتدال

ضمه بردى

(وترجمة الأغنية الفرنسية : آه ... ما أقوى الحجج الزائفة المذهبة !
واكنها (أى المحبوبة) مختلفة عن سائر النساء (فى هذه الناحية) . آه !
ما أشد جنون من يثق فى كلامهن ! فاحذروا من وعودهن ، ولتعلموا أنه
ما أكثر من خدعن بمثل هذه الوعود ، ثم ألقين به فى عرض الطريق) .

ونلاحظ هنا التشابه فى طريقة ترتيب الأغصان والأقفال بين الموشحة
العربية والمقطوعة الفرنسية ، فالأولى على هذا النهج أ أ أ ، ب ب ب ج ،
د د د ج ، والثانية : أ أ ب ، ج ج ج ج ج ب .

ويكفي هذا المثل وإن كان فى مجموعات شعر هؤلاء التروبادور كثير
غيره ، وإذا كان الشبه واضحاً فى طريقة النظم بين الموشحات وشعر
التروبادور من الناحية الشكلية فإن فى الموضوعات التى تناولها هؤلاء ما يستحق
وقفة متأملة .

ونصل هنا إلى الناحية التى مثلت حتى عهد قريب أقوى ما استند إليه
منكرو التأثير العربى على شعر التروبادور ، نعى ما اعتقد هؤلاء المنكرون

أنه اختلاف كامل بين مضمون الشعر البروفانسي والشعر العربي والموضوعات التي عالجها كل منهما . فمن المعروف أن المحور الذي تدور حوله مقطوعات البروفانسيين هو ما يمكن أن نسميه « الحب الفروسي (Amour Courtois) » الذي يمجّد المرأة ويركع بين قدميها ويجعل الحب خاضعاً لها متذللاً بين يديها مسلماً إياها قياد حياته . ويذكر المعترضون على نظرية التأثير العربي أن هذا المفهوم بعيد عما هو سائد في المجتمع العربي . وربما كان ويلهلم شليجل Wilhelm Schlegel من أول من عبروا عن هذا الاعتراض منذ نحو قرن ونصف حينما قال : « لست أفهم كيف يمكن لشعر مثل البروفانسي يقوم على التعبّد بالمرأة وعلى الحرية المطلقة التي كانت تمارسها المرأة المتزوجة أن يكون متأثراً بشعراء كانوا نتاج مجتمع مغلق تعيش فيه النساء جوازي حبيسات غرف « الحريم » . ويدل هذا الكلام على أن صاحبه لم يتعمق معرفة التاريخ الاجتماعي لا للعرب ولا لشعوب أوروبا خلال العصور الوسطى ، فالحقيقة التي كشفت عنها الدراسات التاريخية هي أنه لا المرأة في ظل المجتمع العربي الوسيط كانت على نحو ما يتصور هذا الناقد من الانعزال عن المجتمع والقبوع في مقاصير الحريم مع الفارق الكبير بين الحرة والأمة في المجتمع الإسلامي ، ولا المرأة الأوربية كانت تتمتع بهذه الحرية المطلقة التي أشاد بها شليجل ومن تابعه .

وأما قولهم : إن طابع الحب في شعر التروبادور كان روحياً سامياً بينما شعر الغزل العربي جنسي محض فهذا مما لا يستند إلى دليل ، فلقد عرف العرب الحب العذري ورمزوا بحب المرأة إلى كل تطلعاتهم وأشواقهم وحرمانهم ، بل في بكاء أطلالهم غزل إن لم يكن سامياً فأين إذن السمو في الغزل ؟ .

على أن هذه الروح التي أملت على العلماء الأوربيين هذه الادعاءات ، والتي أوجت بها مواقف عصرهم قد تلاشت عند الكثيرين ، وبدأ أعلام مثل البارون دي شاك في كتابه عن الشعر والفن العربيين في الأندلس وصقلية ينظرون بدقة علمية ودون تعصب في هذا الموضوع (كما درس المستشرق

نيكل كتاب « طوق الحمامة » وترجمه إلى الانجليزية (يدحضون بالدوس فكرة الجنسية في الغزل العربي .

وكتاب « طوق الحمامة » لابن حزم القرطبي المتوفى ١٠٦٣ م سابق مباشر لأقدم شعراء التروبادور فهو لذلك يستحق وقفة إذ أن فيه تحليلاً رائعاً — لم يعرف في العصور الوسطى — للحب الروحي وعدداً كبيراً من الحكايات التي تصور هذا الحب مما رآه المؤلف نفسه في مجتمع بلاده خلال القرن الحادى عشر، بل إننا نجد فيه كثيراً من الموضوعات والاصطلاحات الدائرة في شعر التروبادور مما يسمح بالاعتقاد أن هذا الكتاب كان له نفوذ قوى في نشأة هذا الشعر .

ومن أول هذه الموضوعات تردد ذكر ما يدعى في شعر التروبادور بالـ Gardador الذى يقابل في الشعر الغزلى العربى « الرقيب » ، وللدوق جيوم التاسع في هذا الموضوع مقطوعة خاصة يقول فيها :

Qu'en die vos gardador e vos castei, en sera ben grans folia
qui nom crei ; greu veiretz nuguna garda que al oros non so-
mei.

وترجمتها : إني أنصحكم أيها الرقباء وأقول لكم :

— وليكونن من الغفلة أن تصدقوا ما أقول — :

ليس هناك رقيب لا تدركه سنة من النوم بين وقت وآخر .

والأمثلة على هذا الرقيب كثيرة ، والذى يقارن بين ما جاء فيها وبين الفصل الذى أفرد به ابن حزم لهذا الموضوع في « طوق الحمامة » يلاحظ تشابهاً غريباً واسناً في حاجة إلى التنبيه إلى أن « الرقيب » مما يتردد كثيراً في موضوعات الموشحات والأزجال .

ومن هذه الموضوعات الشائعة في شعر التروبادور الـ lauzengiers أو الوشاة الذين يفسدون بين المحبين ، والـ enojos وهم الحساد ،

والـ Gilos وهو العادل الغيور . وكل هذا مما هو شائع في الشعر العربي ،
ومما عالجّه الوشاحون والزجالون فما نظموه على أوسع نطاق .

بل إن من أغرب ما نجده في بعض خرجات الموشحات العربية التي تستخدم
فيها اللاتينية الدارجة ذلك النص الذي سبق أن اخترناه للتمثيل عليها حيث
يقول الوشاح : « يافتن أفتن - وش انتراد - كندو جلش كادد » .

Ya Fatin A-Fatin

Os Entrad

Kando (El) Gilos KEDED

وقد ذكرنا أن ترجمة هذه الخرجة إلى العربية هي : « يافتن يافتن -
ادخل حينما ينام الرقيب (أو الحاسد الغيور) » ، فالذي نراه هنا أن الشاعر
العربي استخدم نفس ذلك اللفظ الذي يدور بكثرة في شعر التروبادور
البروفانسيون ، وهو الـ Gilos وعلى نحو ما كانوا ينطقون به هذه الكلمة ،
وهي التي تقابل في الأسبانية الحديثة celos وفي الفرنسية jaloux فكيف
نعلل هذا التطابق ؟

لعل القطع هنا برأى أمر سابق لأوانه فإن لغة الخرجات ما زالت ميدانا
جديداً للأبحاث اللغوية التي تتبع تطور اللغات الأوروبية المشتقة من اللاتينية
وتاريخ اكتمال هذه اللغات وتكونها بعد أن كانت مجرد لهجات عامية متفرعة
عن اللاتينية الأم .

على أن الذي نود إيضاحه هنا هو أن المجتمع الأندلسي الإسلامي كان مجتمعاً
عالمياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، فليس من الغريب أن تتمثل فيه الصور
اللغوية المختلفة لل لهجات اللاتينية من سائر البلاد ، ولندكر أن لغة البروفانسيين
كانت قريبة جداً من لهجة ما كان يعرف في العصور الوسطى باسم « الثغر
الأسباني Marca Hispanica » أي المنطقة الممتدة على ساحل البحر الأبيض
من برشلونة حتى حدود فرنسا ، تماماً كما نلاحظ التشابه القوي اليوم بين
لهجة هذه المنطقة - مقاطعة قطلونية Cataluña والفرنسية الحديثة .

على أن أول ما نظمه الشعراء القطلانيون الغنائيون خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر إنما كان بلغة بروفانس . ونحن نعرف أن الأندلس الإسلامية كانت مليئة بعناصر قادمة من تلك الجهات التي كانت تعرف عندئذ باسم « الفرنجة » باعتبارها امتداداً طبيعياً لأرض فرنسا ، مما يجعل استخدام الوشاح الأندلسي لذلك اللفظ البروفانسي أمراً مقبولاً من الناحية المنطقية :

ومن المفاهيم الشائعة في الحب عند شعراء التروبادور مسألة طاعة المحب لحبيبه ، وهذا التعبير (obediensa) الذي يلح عليه جيوم التاسع كثيراً في مقطوعاته حتى أنه يجعل الصفة منه « المطيع » (obediens) مرادفاً للمحب أو العاشق — إنما يبدو كذلك منقولاً عن الشائع في الشعر العربي . وفي كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم فصل طويل بعنوان « الطاعة » يقول في أوله « أمرٌ عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لحبيبه وصرفه طباعه قسراً إلى طباع من يحبه... ولا يقولن قائل إن صبر المحب على دلة المحبوب دناءة في النفس ، فقد أخطأ » ، ثم يروي لنا قصصاً كثيرة توضح هذا المفهوم وتضرب أمثلة عليه من أخبار عشاق الأندلس ، ولننظر ما يقول في ذلك جيوم التاسع :

Obediensa deu portar
a motos gens que vol amar
e coveu li que sapcha far faigz avineus
e ques gart eu cort de parlar vilanameus

وترجمتها : « على المحب أن يلتزم بطاعة الحبيب وينبغي عليه أن يعرف كيف تكون المعاملة اللطيفة الرقيقة وتجنب سوق الكلام في المجالس » .
ومن التعابير المترددة كثيراً في شعر التروبادور في مخاطبة الحبيبة قولهم « Midos » مذكر Madonna وما أكثر ما نجد في الشعر العربي وفي الموشحات خطاباً للحبيبة بتعبير « مولاي » مذكراً و « سيدى » :

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا المعاني والتعابير المنقولة بين الشعراء :

وكان من الطبيعي أن تؤثر الموشحات والأزجال كذلك على الشعر الغنائي الذي ظهر في مختلف أنحاء أوربا إما عن طريق الشعر البروفانسي أو بطريق مباشرة :

أما الشعر الغنائي الذي ظهر في شبه جزيرة إيبيريا نفسها فإن الذي كان عليه إجماع مؤرخي الأدب الأسباني والبرتغالي هو أن أول نماذجه لم تعرف إلا في فترة متأخرة عن ظهور الشعر البروفانسي ، وقد يحفظ لنا الزمن ثلاث مجموعات من الشعر الغنائي الذي كتب باللغة الجليقية البرتغالية أهمها « مجموعة أجودا Caucioneiro da Ajouda » ، ونلاحظ أن أغانيها أقوى تأثيراً وأشبه بالشعر البروفانسي منها بالشعر الغنائي الأندلسي ، ويبدو ذلك غريباً إذ كان المفروض أن تكون لها صلة مباشرة أوثق بالموشحات والأزجال الأندلسية ، وقد عال « رامون مننث » هذه الظاهرة بأن منطقة جليقية Galicia التي كتبت بلغتها تلك الأغاني كانت أقل مناطق أسبانيا خضوعاً لسلطان المسلمين وتأثراً بالثقافة العربية . ومع ذلك فإننا نجد في هذا الشعر الجليقي القديم صوراً بدائية بسيطة للتوشيح الأندلسي منها هذه التي نقدمها هنا والتي تسير في التقفية على هذا النحو أ ب ، ج ج ب ، الخ :

Levad' amigo, que dormines as mahanas frias,

toda — las, aves do mundo d'amore dziare

Leda' m' and' en !

Levad, amigo, que dormides les frias manhanas,

toda — las aves do mundo, d'amor cantavan

Leda' m' and' en !

ترجمتها : قم يا صديقي يا من أطلت النوم في الصباح البارد
قم فإن كل طيور الدنيا قد هبت لتحدث عن الحب (لتغني بالحب :

في المقطوعة الثانية) .

آه ما أشد سروري وفرحتي !

ومع ذلك فإن نيكول في كتابه عن الشعر الأندلسي تتبع كثيراً من الموضوعات التي تناولها شعراء المجموعة المعروفة باسم «أجودا» ودلل على تأثيرهم في هذه الموضوعات بما نجده في الشعر العربي سواء منه التقليدي الفصيح أو الموشحات والأزجال .

ونحن نعرف من أول بواكير هذا الشعر الجليقي البرتغالي ذلك الديوان الذي ألفه الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم Alfonso X el Sabio وهذا الملك الذي عاش بين سنتي ١٢٢١ و ١٢٨٤ هو المشهور في تاريخ الثقافة الأسبانية بأنه صاحب الفضل في رعاية العلماء والمؤلفين ، وكان بلاطه يشتمل على عدد كبير من كبار العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وفيه تمت ترجمة كثير من الكتب العربية إلى القشتالية تحت إشرافه المباشر . أما هذا الديوان الذي نتحدث عنه (أناشيد للعدراء مريم المقدسة)

فهو يتضمن ٤٠٢ مقطوعة من بينها ٣٣٥ على نهج الموشحات البسيطة ، والأثر العربي عليها واضح بشكل عام . وقد قام المستشرق الأسباني المشهور نحوليان بييرا في سنة ١٩٢٢ بنشر دراسة عن موسيقى هذه الأغاني الدينية وذكر في بحثه الطويل آراء مثيرة للاهتمام وإن لم تكن مقنعة تماماً حول اشتقاقها من الموسيقى الأندلسية العربية لأن النصوص لا تسعف دائماً في إثبات التأثير والتأثر في قضية عسيرة بالغة التعقيد كالموسيقى ، على أن مبدأ تأثير الموسيقى العربية الأندلسية في الإسبانية أمر مسلم به بصفة عامة ، بل إننا نجد في أثناء المخطوطات القديمة للديوان المذكور صوراً كثيرة تصور موسيقيين مسلمين بملابسهم التقليدية وعمائمهم وهم يعزفون على العود إلى جوار موسيقيين مسيحيين . ومن المعروف من النصوص التاريخية أنه كانت هناك جماعات من المغنين والمغنيات المسلمين من أولئك الذين يدعون بالمندجنين mudejares أي المسلمين الخاضعين للحكم المسيحي في الممالك النصرانية في قشتالة وأرغون كانوا يشتركون في إحياء حفلات الشعب المسيحي ، بل كانوا يدخلون الكنائس ليغنوا فيها .

أما في مملكة قشتالة فإن نصوص الشعر الغنائي التي كتبت بلغتها — وهي اللغة التي سادت أنحاء إسبانيا بعد ذلك فأصبحت كلمة اللغة القشتالية مرادفة للأسبانية — كانت تعتبر متأخرة من الناحية الزمنية ، إذ يرجع أقدمها إلى القرن الرابع عشر ، وإن كان الكشف عن الخرجات العجمية قد قلب أوضاع تلك النظريات التي كانت تعتبر ثابتة نهائياً في تاريخ الأدب الأسباني . وأول من نعرفه من الشعراء الغنائيين هو : خوان رويث Juan Ruiz المعروف بلقب « قس هيتا El arcipreste de Hita » وكان يعيش في النصف الأول من القرن الرابع عشر . وقد وصلنا من آثار هذا الشاعر ديوان كامل أسماه كتاب « الحب الطيب Libro del Buen Amor » وينص خوان رويث على أنه كان يؤلف كثيراً من أغانيه لكي تنشدها وتعزف عليها قيان مسلمات كما تبدو في شعره مظاهر كثيرة للتأثر بالثقافة العربية ؛ أما منهجه في النظم فإنه كذلك شبيه بما سناه من قبل وشاحو الأندلس وزجالوها .

وقد أشرنا إلى أن اكتشاف الخرجات المكتوبة باللاتينية المداوجة في نهاية الموشحات العربية قد قلبت نظريات كانت تبدو مسلماً بها في تاريخ الأدب الإسباني ، فقد كان المتعارف في تاريخ هذا الأدب المكتوب بلغة قشتالة أن أول آثاره الشعرية ينتمي إلى أدب الملحمة لا إلى الشعر الغنائي ، ونعني بذلك ملحمة السيد المشهورة التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر . غير أن اكتشاف الخرجات في موشحات ترجع إلى القرن الحادي عشر عني على تلك النظرية التقليدية ، فالخرجة كما دلت الأبحاث الأخيرة ليست إلا بقايا أغان شعبية كانت شائعة في المجتمع الأندلسي . ومن هنا أصبح على مؤرخي الأدب الأسباني أن يتقدموا به إلى الوراء لمدة قرن على الأقل ، ثم إن الكشف الجديد يقتضي أن يصبح أول أثر أدبي أسباني غنائياً لا ملحماً . وهاتان نتيجتان على أكبر جانب من الخطر في تاريخ آداب إسبانيا .

فإذا تركنا شبه جزيرة أيبيريا إلى بقية بلاد أوروبا وجدنا أن كل هذه البلاد — إيطاليا وإنجلترا وألمانيا — تأثرت بذلك الفن الغنائي الأندلسي ، ربما عن

طريق غير مباشر أى بحكم تأثيرها بالشعر البروفانسى الذى كان هو النموذج
المحتذى فى العصور الوسطى ، وإن كنا نعتقد أن إيطاليا بالذات لا يبعد أن تكون
قد تأثرت بالشعر العربى على نحو مباشر عن طريق صقلية التى كان لها وضع
مشابه لوضع الأندلس ، حتى بعد أن سقطت فى يد المسيحية ، إذ كان ملوك
النورمان الذين انتزعوها من الاسلام ثم ملوك دولة « الهوهنشتا وفن »
أشبه فى تبنيهم للثقافة العربية والاسلامية وتشجيعهم لترجمة كتبها بما رأيناه
فى اسبانيا فى ظل الملك ألفونسو العاشر الحكيم .

وقد قام عالم العبريات الأسباني ملياس فاليكروسا Millas Vallicrosa
بإبداء بعض الملاحظات القيمة حول بعض مظاهر تأثير الأدب الإيطالى القديم
بالشعر الغنائى الأندلسى ، ويتوفر على دراسة هذا الموضوع أحد أجلة
المستشرقين الإيطاليين هو الأستاذ أوريليور نكاليا Aurelu Roncaglia



من كل هذا يتبين لكم أن خوان أندريس كان صادقاً دون علم وكم يمكن
للباحثين فيما بعد أن يشتوا تفاصيل فى أخصب عملية أخذ وعطاء بين الشرق
والغرب عرفها التاريخ .

الفن القصصى

(١)

ومن الطبيعى أن نتوقع لأسبانيا الدور الأكبر فى تعريف أوربا بالقصص العربى ونشره على أوسع نطاق ، ولا يفوتنا أن التراث القصصى القديم الأغريقى واللاتينى كان قد نسى أكثره خلال العصور الوسطى ، بل إن أكثر ما عرف منه فى أوربا إنما كان عن طريق ترجمات العربية التى عبرت إلى القارة الأوربية خلال الأندلس أيضاً .

ولعل أول مجموعة قصصية عربية المصدر عرفت فى أوربا هى التى وضعها باللاتينية اليهودى المنتصر بدرو ألفونسو Pedro Alfonso أوائل القرن الثانى عشر بعنوان « محاضرات الفقهاء Disciplina Clericalis » .

وقد جمع المستشرق الأسباني ملياس فاليكرو وسا أخباراً عظيمة القيمة حول بدرو ألفونسو — وهذا هو الاسم الذى اصبط عنه بعد تنصره — نستخلص منها أنه رحل إلى إنجلترا وأصبح طبيباً خاصاً للملك الانجليزى هنرى الأول فى سنة ١١١٠ م ، واشتغل هناك بتدريس علوم الفلك ، وكان له دور كبير فى نقل المعارف الفلكية العربية إلى إنجلترا ، كذلك نعرف أنه اشترك فى الاشراف على الترجمة التى قام بها الانجليزى أديلارد دى باث Adelard de Bath لتقويم الخوارزمى بعد التعديل الذى أدخله عليه العالم الأندلسى الكبير مسلمة المجرىطى :

أما كتاب « محاضرات الفقهاء » (ويعنى بهم رجال الدين المتفقهين فى علم المسيحية) فقد نشر نصه لأول مرة فى باريس مع ترجمة فرنسية

في سنة ١٨٢٤ ، وتعاقبت طبعاته اللاتينية بعد ذلك ، وكان أهمها طبعة هيلكا Hilka وسودرجيلم Söderhjelm في هلسنكي سنة ١٩١١ على أساس ٦٣ مخطوطاً لم يكن بينها إلا مخطوط أسباني واحد ، وهذا العدد يصور مدى انتشار الكتاب وذيوعه في أوروبا ، وآخر طبعاته هي التي قام بها أنجل جونثالث بالنشيا Angel Gonzalez Palencia في مدريد سنة ١٩٤٨ ، وهي تشمل على النص الأصلي اللاتيني وترجمة أسبانية قديمة .

ويبدو أن بدرو ألفونسو ألف كتابه أولاً بالعربية من أجل تهذيب النفوس وهداية الأرواح إلى طريق الخير والكمال ثم ترجمه إلى اللاتينية ليكون في خدمة رجال الدين المسيحيين في عظاتهم للجمهور ، ويقول إنه جمع فيه عدداً من الأمثال والقصص العربية والحرفات المتعلقة بالحيوان والطيور حتى يكون كتابه مروحاً للنفوس خفيفاً على القراء . ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء : الأول يتحدث فيه بالأمثلة والعظات عن مراقبة الله وخشيته ، والرياء والعلم والصمت ونبل النفس ، أي عن موضوعات خلقية متصلة بالفضائل والرذائل ، والثاني عن النساء وخطر الانقياد لهن ، والثالث عن الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقة الملوك برعاياهم .

وكل القصص الثلاثين التي أوردها بدرو ألفونسو شرقية عربية وهو نفسه نص على ذلك في غير موارد مما يدل على أنه كان واثقاً من أن قراءه المسيحيين لن يمتنعوا أو يتضجروا لهذا النقل عن المصادر الإسلامية ، بل على العكس سيتقبلون أمثاله ومواعظه في شغف وترحاب باعتبارها تراثاً لحضارة أسمى من حضارتهم هم ، والإطار العام لهذه المواعظ والخيط الجامع بينها هو ما تخيله المؤلف من رجل على فراش الموت أطلق عليه اسم « العربي » يوصي ابناً له ويعظه ، فيقص عليه هذه المجموعة المتنوعة من القصص والأمثال ، والكتاب بعد حافل بما يدل على أصله العربي الواضح ، نجد فيه أخباراً تروى عن لقمان الحكيم ، وقصصاً عن الخدم والحصيان في بلاط أحد الملوك العرب (رقم ٢٠) ، وعن حضريين وبدوي تزاُموا في الرحلة لأداء فريضة الحج

إلى مكة (١٩)، وحكاية يضربها مثلاً للصداقة الخالصة التي تستمر حتى الموت، ولكن البطلين هنا ليسا من نماذج الأدب الأغريقي أو اللاتيني وإنما هما تاجران أحدهما بغدادى والآخر مصرى (٢)، وقصة عن أندلسي يتجه إلى مكة للحج فيودع أمواله وذخائره لدى رجل بمصر، وتدور بقية حوادث القصة في القاهرة بعد عودته من أداء الفريضة (١٥) وكل هذا يصور البيئة العربية أو الإسلامية لقصص الكتاب ومواعظه، حتى إذا تحدث المؤلف عن أحد فلاسفة الأغريق القدماء مثل سقراط أو أرسطو أو أفلاطون (٢٧، ٤، ٢٥) فإنه لا يستمد من أى مصدر أغريقي أصيل وإنما ينقل عما كان العرب يعرفونه عن هؤلاء الفلاسفة. ولا يبدو أثر البيئة المسيحية إلا في قصة واحدة (١٣) ساقها عن رجل شريف يؤدي فريضة الحج إلى روما، غير أنه حتى هذه القصة نفسها تبدو إسلامية، وكأن المؤلف نسجها عن مسلم رحل إلى مكة ليحج، ثم لعله أراد أن يسبغ عليها ثوباً مسيحياً فتبديل مكة بروما.

فإذا تأملنا مضمون تلك الأقاصيص وجدنا أغلبها مأخوذاً عن «كلملة ودمنة» وبعضها مأخوذاً عن مجموعة أمثال الحنين بن اسحق أو من كتاب مختار الحكم لمبشر بن فاتك الحصرى. وهناك جانب آخر منها لا يعتبر من القصص الوعظي في شيء، إذ هي حكايات عن غدر النساء وخيانتهم وأساليب كيدهن وخداعهن للرجال، وهى لا تخلو من تفاصيل لاذعة وإن كانت لا تخدش الحياء. وهذا ميدان ألف الكتاب العرب فيه كثيراً، ونقله عنهم الأسبانيون فأصبح ميداناً قائماً بذاته بعد ذلك، ثم اتسع استخدامه في سائر بلاد أوربا على أوسع نطاق.

والذى يود أن يتتبع الأثر الهائل الذى خلفه هذا الكتاب في الآداب الأوربية فما عليه إلا تصفح كتاب شوفان Chauvin : بيلوغرافية للكتب العربية (المجلد التاسع، لبيع ١٩٠٥) حيث يدرس الباحث قصص المجموعة واحدة واحدة مفصلاً أثرها في مختلف الآداب الأوربية بلغاتها المختلفة.

ولنضرب على ذلك مثلاً بقصة من أقاصيص مكاييد النساء (رقم ١٠)
فنحن نرى هذه الأقصوصة في عدد هائل من المجموعات الأوربية التي كتبت
باللاتينية والأسبانية والفرنسية والألمانية حتى القرن الخامس عشر، ثم انتقلت
إلى مجموعة الحكايات الخرافية الفرنسية الـ (Fabliaux) وإلى المسرح الشعبي
الانجليزي، واستخدمها سيرفانيتس Cervantes في قصة « العجوز الغيور
El Viejo Celoso » في القرن السابع عشر. ومن الغريب أن هذه
الأقصوصة التي تتحدث عن خيانة زوجية قد أتيح لها انتشار كبير حتى
في الكتب التي وضعت لخدمة رجال الكنيسة وإعانتهم على إعداد خطبهم
ومواعظهم، ونحن نغني بذلك كتاب « مآثر الرومان Gesta Romanorum
الذي كتب باللاتينية والذي كان له ذبوع كبير بين قساوسة الكنيسة في فرنسا
وانجلترا أوائل القرن الرابع عشر. فقد جاءت تلك القصة في المثل الثالث بعد
المائة من الكتاب المذكور، وإن كان جامع الكتاب أراد أن يضفي عليها ثوباً
مسيحياً روحياً، فتأول كل تفاصيلها على نحو رمزي.

كذلك ترجم هذا الكتاب إلى معظم لغات أوربا ولهجاتها، ففي القرنين
الثاني عشر والثالث عشر ترجم مرتين إلى الفرنسية شعراً، وفي الرابع عشر
ترجم في إيطاليا وغسقونية وأيسلندا، وفي الخامس عشر ترجم إلى الأسبانية
والفرنسية والانجليزية والألمانية، واستوحى منه القصاصون كثيراً في أسبانيا
 وإيطاليا، وكان من بين الأدباء الذين استقوا منه نخوان مانويل Juan Manuel
وقس هيتا Arcipreste de Hita وبوكاتشو Boccacio وتشوسر Chaucer
وموليير Molière.

(٢)

هناك ثلاث مجموعات من القصص من أصل شرقى كان لها على الآداب
الأوربية أثر كبير خلال العصور الوسطى.

وأول هذه المجموعات « كليلة ودمنة » ، وهى من أصل هندى موغل فى القدم ، غير أنها لم تعرف فى أوربا إلا عن طريق النص العربى الذى ترجمه فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) عبد الله بن المقفع بشىء من التصرف عن الفهلوية ، وحفاظ العربية على هذا النص وإمداد الثقافة الإنسانية به منة كبيرة ينبغى تسجيلها للفكر العربى ، لاسيما إذا قدرنا أن الترجمة الفارسية قد ضاعت ، كما ضاع النص الهندى الأصلى ، وإن كان المستشرق الألمانى كوزينجارتن قد عثر على المجموعة الهندية « بانتشاتانترى Panchatantra (ط . بون ١٨٤٨) التى تتضمن فصولا كثيرة من « كليلة ودمنة » .

وقد قدر لهذه الترجمة العربية نجاح وذيوع كبير فى الشرق والغرب . فأما فى الشرق فقد ترجمت ثلاث مرات إلى اللغة الفارسية الحديثة فى القرن العاشر ثم الثانى عشر ثم الخامس عشر ، وعن الفارسية ترجمها إلى التركية على جلابى بن صالح بعنوان « همايون نامه » (أى الكتاب الإمبراطورى) ورفعته هدية إلى السلطان العثمانى سليمان العظيم .

وعرفت هذه الترجمات الشرقية فى أوربا فى عصر متأخر خلال القرن السابع عشر ويبدو أن هذه الترجمة الفرنسية بالذات هى التى استوحى منها القصصى الفرنسى لافونتين (La Fontaine) مجموعة خرافاته المنشورة فى سنتى ١٦٧٨ و ١٦٧٩ .

أما الترجمة التركية التى تحمل عنوان « همايون نامه » فقد لقيت بدورها بعض الرواج فى أوربا إذ ترجمها إلى الإسبانية فيثنتى براتوتى Vicente Bratuti تحت عنوان « مرآة السياسة والأخلاق » (مدريد ١٦٥٤ - ١٦٥٩) وإلى الفرنسية أنتوان جالان Antoine Galland (وقد نشرت ترجمته بعد وفاته فى جزعين سنة ١٧٢٤) .

وأقدم ترجمات « كليلة ودمنة » عن العربية ترجمتان عربيتان نشرهما المستشرق ديرنبورج مع ترجمة فرنسية حسب مخطوطتى باريس وأوكسفورد

(باريس ١٨٨١) : الأولى - تنسب إلى حبر يهودى يدعى «جويل Joel»
كان يعيش فى إيطاليا أوائل القرن الثامن عشر ، والثانية اضطلع بها «يعقوب
ابن العازار» Ya'gob ben Elazar وهو نحوى ولغوى كان يعيش فى القرن
الثالث عشر ، وترجمته مختلطة بمادة كثيرة من الشروح والتعليقات على
على التوراة .

ولهذا فقد كانت ترجمة جويل الأولى هى التى ظهرت بقدر أعظم
من القبول . فقام بترجمتها إلى اللاتينية لأول مرة يهودى متنصر يدعى جوا
دى كابوا Johanino de Capua بعنوان «منهاج الحياة البشرية Directorium
Vitae Humanae» (نشر درينبورج ، باريس ١٨٨٧) وأهدى الكتاب
إلى الكاردينال ماتيو أورسينى . ويظهر أن هذا المتأدب اليهودى المتنصر
كان متوفراً على نقل الكتب العربية والعبرية إلى اللاتينية ، إذ نعرف له كذلك
ترجمات لبعض مؤلفات ابن زهر الأشبيلي وموسى بن ميمون القرطبي .

والغريب كما يقول درينبورج أن هذه الترجمة على ضعف مستواها وقلة
نصيب صاحبها من العلم قد لقيت ذيوماً هائلاً فى مختلف المدارس الأوربية
المسيحية ، فقد نقلت إلى الألمانية على يد الدوق إيرهارد الأول (١٤٤٥ -
١٤٩٦) أو بأمر منه ، وإلى الأسبانية تحت عنوان «كتاب الأمثال والمواعظ
فى التحذير من خدع الدنيا ومحاذيرها» وطبعت لأول مرة فى سرقسطة
سنة ١٤٩٣ ثم توالى طبعاتها حتى بلغت ثمانى طبعات خلال القرن الخامس
عشر ، وأما صاحب هذه الترجمة الأسبانية فشخصيته مجهولة ولم يتم التعرف
عليها .

ويدل على ذيوغ هذه الترجمات المتعاقبة وأثرها أننا نجد كاتبين إيطاليين
من فلورنسا يقومان بتقليد قصص كليلة ودمنة فى القرن السادس عشر ،
هما أينولوفيرنزولا Agnolo Firenzuola (فلورنسا ١٥٤٨) وال دونى
El Doni (البندقية ١٥٥٢) وفى القرن التالى ترجم توماس نورث Thomas

North هذه المجموعة الأخيرة إلى الانجليزية (سنة ١٥٧٠ ثم أعيد طبعها في سنة ١٨٨٨) .

على أن ما هو جدير بالتسجيل هو أن النص العربي الأصلي ترجم إلى الأسبانية مباشرة منذ سنة ١٢٦١ ، وهذه هي أول ترجمة مباشرة إلى لغة أوربية ، فالترجمات التي أشرنا إليها فيما سبق إنما كانت عن طريق اللاتينية وهذه بدورها عن العبرية .

ولم تكن هذه الترجمة الأسبانية مجهولة في أوروبا إذ على أساسها تمت الترجمة الفرنسية التي قام بها الطبيب ريمون دى بيترييه Raymundus Biterris في سنة ١٣١٣ ، وما زالت منها نسخة مخطوطة فاخرة مزينة بالصور في مكتبة باريس الوطنية .

ولم يكد هذا الكتاب يعرف في أوروبا حتى اعتبر المثل الأعلى لكتب المواعظ التي تلقى على ألسنة الحيوان أو الطير ، ويصور مدى شعبيته في القرن الرابع عشر نص كتبه بدرو باسكوال Pedro Pascual أسقف مدينة جيان الذي قضى حياته يجادل مسلمى غرناطة محاولاً أن يبشرهم بالمسيحية ، وفيه يحمل على المسيحيين في عصره ، لا قبالهم على قراءة « كليلة ودمنة » وشغفهم به ، إذ أنه رأى في قراءة هذا الكتاب العربي الإسلامى خطراً يهدد العقيدة الكاثوليكية وجهوده في نشرها .

وكثرت محاولات تقليد « كليلة ودمنة » سواء في الإطار العام للمجموعة ، أو في القصص نفسها واحدة واحدة . نرى ذلك في كتاب الراهب الميورقي - رامون لول Ramón Llull (أو راموند لوليو - ١٢٣٥ - ١٣١٥) المعروف باسم « كتاب الوحوش » ولو أن هذا المؤلف اعتمد على ما سمعه من أفواه المسلمين خلال رحلاته الطويلة وزياراته لبلاد الشرق الإسلامى ، وكذلك في بعض أقاصيص بوكاتشيو Bocaccio المعروفة باسم الليالى العشر Decamerone (الذي يرجع إلى منتصف القرن الرابع عشر) فضلاً عن

المنهج العام لمجموعة هذا القصصى الإيطالى التى تتفق مع « كليلة ودمنة »
ومع « ألف ليلة وليلة » فى أنها « قصة قصص » .

ومن أشهر قصص « كليلة ودمنة » وأكثرها شيوعاً فى الآداب الأوربية
قصة « الناسك الذى سكب نحيي السمن والعسل على رأسه » ، وهى التى نقلها
بعد ذلك خوان مانويل فى مجموعة مواعظ « الكونت لوكانور » ، واشتهرت
على يد لافونتين الذى اتخذ منها مادة قصته La Perrette ، وما زالت
تتناقل فى الأدب المكتوب للأطفال باسم « اللبانة » التى أسرفت فى خيالاتها
وأوهامها حتى سكبت على رأسها ما كانت تحمله من لبن .

ولا يسعنا فى هذه الصفحات أن نتبع ما تناقله القصاصون الأوربيون
منذ عصر النهضة حتى اليوم من قصص « كليلة ودمنة » ويكفى أن نذكر
أن هذا الكتاب العربى قد ترجم إلى أكثر من أربعين لغة وأنه ظل منذ القرن
الثانى عشر حتى اليوم معيناً لا ينضب تولدت عنه قصص لا يحيط بها الحصر .

(٣)

والمجموعة الثانية « قصة السندباد » ، وهى مثل سابقتها هندية الأصل ،
وتعتمد أيضاً على خط واه يربط بين عدد متنوع من الأقاصيص الصغيرة .
وكان الأمر بترجمة هذه المجموعة هو الأمير فادريكى Fadrigue أخو الملك
العالم أنونسو العاشر ، فنقلت إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٥٣ (بعد ترجمة
« كليلة ودمنة » بسنتين) تحت عنوان « كتاب مكاييد النساء وحيلهن » . والغريب
فى مصير هذا الكتاب أنه لم تبق منه اليوم إلا الترجمة الأسبانية ، إذ أن أصله
الهندي أو الفارسي قد فقد ، وفقدت كذلك الترجمة العربية التى نقل منها
إلى الأسبانية ، وإن كان قد دخل فى مجموعات قصصية أخرى مثل
« ألف ليلة وليلة » (تحت عنوان « حكاية تتضمن مكر النساء وإن كيدهن
عظيم » ٣ / ١٣٨ - ١٧٧ . أو قصة الملك وولده والحارية والوزراء السبعة) ،

وأصل هذه المجموعة قديم بدليل أن المسعودي ذكرها في « مروج الذهب » باسم « الوزراء السبعة » ناسباً إياها إلى « الفيلسوف الهندي سندباد » .

وقد قام الباحث الإيطالي دومينيكو كومباريتي Domenico Comparetti بدراسة الترجمة الأسبانية لكتاب « سندباد » في بحث قيم نشر في ميلانو سنة ١٨٦٩ ، تتبع فيه مصادر الكتاب وترجماته المختلفة وآثارها على الآداب الأوربية .

ولقد ترجم الكتاب إلى العبرية ، وعلى أساس هذه الترجمة وضع الراهب الأسباني خوان دي ألتا سيلفا Juan de Alta Silva باللاتينية في القرن الثالث عشر مجموعة يقلد فيها كتاب سندباد تحت عنوان « تاريخ حكماء روما السبعة » وإلى هذه المجموعة التي تعتبر ترجمة حرة للكتاب يرد فضل ذبوعه الهائل ، فلم تبق لغة أوربية لم يترجم إليها شعراً أو نثراً ، فنحن نعرف روايات له بالإيطالية والانجليزية والألمانية والهولندية والدانماركية ، بل أنه ترجم إلى بعض اللهجات في أسبانيا مثل القطلانية .

والكتاب كما نعرف من الرواية التي احتفظت لنا بها النسخ المتداولة اليوم من « ألف ليلة وليلة » هو مجموعة من الحكايات تبلغ ستاً وعشرين يربط بينها خيط يضمها وهو أن زوجة أحد الملوك تراود ابناً له عن نفسه ، فيعنف عنها ، وتسبق هي إلى الشكوى إلى الملك زاعمة أنه هو الذي راودها ، فيغضب الملك على ابنه ويحكم بقتله ، غير أن وزراء السبعة ينصحونه بالتثبت من التهمة مدة سبعة أيام تتابع خلالها القصص من زوجة الملك وهي تلح عليه في قتل ابنه ومن الوزراء وهم يذكرونه بحكايات النساء ، وحيلهن وخطر الانصياع لهن . وهكذا تتعاقب الحكايات خلال سبعة أيام حتى يسمح لابن الملك بالدفاع عن نفسه فيظهر براءته وتحل العقوبة بجارية أبيه التي اتهمته زوراً وبهتاناً .

وقد كان لكل حكاية من حكايات الوزراء السبعة وجارية الملك أثر هائل على بواكير القصص الأوربي . ولعل أهم ما باشرته من أثر كان على مجموعة

يوكاتشيون « الليالى العشر » وإن كانت هذه أكثر إمعاناً فى الإباحية وأقرب إلى الأدب المكشوف من قصص سندباد ، فالطابع الخلقى الوعظى هو على كل حال الغالب على مجموعتنا العربية .

(٤)

وثالث المجموعات القصصية هى القصة الصوفية « برلعام ويواصف Barlaam y Josafat » وهى مثل سابقتها من مصدر هندى قديم ، وقد قدر لها كذلك نصيب كبير من الديوع العالمى بحيث أنها كانت تعتبر من كتب المواعظ والأمثال التى استخدمها القصاص والوعاظ البوذيون والمسيحيون والمسلمون واليهود على التعاقب .

وأصل هذه الأسطورة هندى يدور حول ترجمة حياة « بوذا » وتوبته (نقصد التوبة هنا بالمعنى الصوفى أى التحول الفجائى من حياة الملك والترف والمتع الدنيوية إلى الزهد فى الدنيا والانقطاع للتعبد الصوفى) و « بوذا » لقب لقيه به تلاميذه ومعناه « العالم أو الحكيم أو المكشوف عنه علم الغيب » . هذه الأسطورة الهندية القديمة التى كشف أخيراً عن نصها القديم المعروف باسم « لاليتا فيستارا Lalita Vistara » استطاعت أن تقتحم جميع الأديان والثقافات واللغات وإن كانت خلال رحلتها الطويلة قد تكيفت بظروف كل دين وثقافة ولغة .

ويبدو أنها انتقلت إلى العربية عن طريق ترجمة فارسية قديمة ، أو عن طريق ترجمة أغريقية اشتهرت بعد ذلك فى أوربا ، إذ أنها نسبت إلى القديس يوحنا الدمشقى ، وإن كان المتفق عليه اليوم بين العلماء هو بطلان هذه النسبة ، ثم ترجمت هذه بدورها إلى اللاتينية ، وانتشرت هذه الترجمة اللاتينية فى جميع أنحاء أوربا بدليل كثرة مخطوطاتها فى المكتبات الأوروبية ، وظلت متداولة حتى حلت محلها ترجمة أخرى أصح وأدق قام بها جاكوبوبايو

Jacobo Billio التي نشرت في سنة ١٦١١ ، وعن هاتين الترجمتين ، ولا سيما الأولى التي كانت أقدم وأكثر ذيوياً نقلت أسطورة برلعام ويواصف إلى سائر اللغات الأوروبية: الفرنسية والانجليزية والألمانية والإيطالية والهولندية والبولونية والبهيمية ، فضلاً عن الإسبانية التي ترجمت إليها مرتين : الأولى في مدريد سنة ١٦٠٨ والثانية في مانيل (الفلبين) سنة ١٦٩٢ ، وعن الترجمة الإسبانية الأخيرة نقلها أحد المبشرين اليسوعيين الأسبان إلى اللغة التاجالية (إحدى اللغات الهندية) في سنة ١٧١٢ .

على أن إسبانيا لم تعرف هذه الأسطورة عن طريق الترجمة اللاتينية المنقولة عن الأغريقية فحسب ، وإنما كذلك عن طريق ترجمة عربية ، بل يغلب على الظن أنه كانت هناك ترجمتان عربيتان لهذه القصة شائعتان في الأندلس على عهد المسلمين . وقد فقدت هاتان الترجمتان مع الأسف ، غير أن الذي يؤكد وجودهما روايتان لا يبدو أنهما من مصدر واحد : الأولى هي كتاب الأحوال Libro de los Estados للأمير الكاتب خوان مانويل Juan Manuel ١٢٨٢ — ١٣٤٨ ابن أخى ألفونسو الحكيم ، وفيه يصبغ ترجمة حياة بوذا التي كانت هيكل قصة برلعام ويواصف بصبغة مسيحية . وإن كان سير القصة يدل على تأثير عميق بنص عربي إسلامي الطابع . أما الرواية الثانية فهي عبرية كتبها إبراهيم بن حمداى ، وكان يهودياً من أهل برشلونة عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، وعنوان هذه الرواية العبرية التي جعل لها هذا الكاتب بدوره طابعاً يهودياً « ابن الملك والدرويش » .

ولسنا نعرف مع الأسف كيف كان سير الرواية العربية ، ولكن ترجماتها اليهودية والمسيحية الكثيرة قد وصلت إلينا ، وهي كلها تتفق في جوهرها ، إذ نرى فيها « يواصف » ابن الملك الذي يأمر أبوه المنجمين عند مولده بأن ينظروا طالعه فيقولون له إنه سيبلغ المجد ولكن لا في مملكة أبيه بل في مملكة أخرى أعظم وأخلد ، ويشغل قلب الملك خوفاً من فراق ابنه ، فيسكنه في قصر فخيم ، ويحيطه بكل ما يجلب البهجة والمتعة ويصرف عن التفكير

فما يعكر صفو الحياة الرخية الهائلة ، ويوصى المرء الذي اختاره له بأن لا يخوض أمامه في أى حديث عن المرض أو الشيخوخة أو الموت . وتمضى حياة الأمير الشاب على هذا النحو الرضى اللاهى ، وهو فى السجن الذهبى ، حتى يخطر له يوماً أن يقوم بنزلة خارج القصر ، ويرى أبوه الملك أنه لم يعد هناك خوف من خروجه فيسمح له بذلك ، ويستقل الأمير عربته الملكية ويخرج إلى الطريق ، وحينئذ تحدث « اللقاءات الثلاثة » مع رجل أعمى وآخر أبرص وثالث على شفا الموت لفرط شيخوخته . ويعود الأمير إلى قصره ليتأمل ما شهد ، ويروعه منظر المحتضر فيفكر فى الموت وهو الذى لم يعرف شيئاً عنه خلال حياته الماضية . ولا تزال الأسئلة تلح على تفكيره باحثاً عن سر الحياة ومعناها والموت وماهيته حتى يخرج به راهب مسيحي (برلعام) - أو حبر يهودى أو صوفى مسلم - من كل تلك الشكوك ويشرح له مبادئ الدين القويم الذى يكفل له السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة . فإذا تحول الأمير إلى الدين الجديد أصبح داعية مبشراً به ، بل إنه لا يزال بأبيه حتى يحوله إلى هذا الدين . ولا تخلو حياة الأمير الجديدة من فتن تحاول إغراءه وصرفه عن الطريق التى صمم على انتهاجها ، ولكنه يصمد ويستعصى على تلك المغريات ، ويسيح فى الأرض تاركاً ملك أبيه وزينة الحياة الدنيا من مال وزوج وبنين لكى يخلد إلى حياة التأمل الصوفى حتى يأتية الموت .

ولسنا بحاجة إلى بيان الاتفاق الكامل بين هذه الأسطورة بمختلف رواياتها الإسلامية والمسيحية واليهودية وبين قصة بوذا الهندية المعروفة ، فالجوهر واحد وإن اختلفت الروايات بعد ذلك تبعاً لاختلاف كل من الأديان التى أرادت أن تتخذ منها مثلاً وعظة فى التدليل على أنها الديانة الصحيحة القوية .

وقد كانت العصور الوسطى بكل ما ملأها من خصومات دينية وجدل شديد حول الديانة المثلى تربة صالحة لكى تروج فيها هذه الأسطورة الهندية الأصل .

وهذا هو ما يفسر الذبوع لتلك القصة في أدب تلك العصور ، وبمختلف اللغات . وهكذا أصبحت أساساً لقصص وقطع مسرحية كثيرة دينية الطابع منذ تناقلها حتى مشارف العصر الحديث . نذكر من ذلك كتاب « الخزري Cuzary » الذي ألفه الأسباني يهوذا اللبني في الدفاع عن اليهودية والتبشير بها ، وقصة رايغوند لوليوي Raimundo Lulio الميورقي « كتاب الكافر والعلماء الثلاثة » ، ومجموعة نخوان مانويل التي تحمل عنوان « كتاب الأحوال » وقصة بوكاتشو التي تحمل عنوان « الخواتم الثلاثة » وإن كانت هنا قد اتخذت طابعاً شكوكياً واضحاً ، وأغلب الظن أنها هي التي أوحى للكاتب لسنج بتأليف مسرحيته المثوية المغزى « ناثن العالم » .

وباشرت أسطورة يواصف وبرلعام أثراً عميقاً في مسرح العصور الوسطى وامتد هذا الأثر حتى القرن السابع عشر ، فنحن نعرف مسرحيتين دينيتين فرنسيتين تحملان هذا العنوان مما يسلك في باب « مسرحيات الأسرار اللاهوتية » وإحداهما ترجع إلى القرن الرابع عشر والأخرى إلى القرن التالي . وإلى القرن الخامس عشر أيضاً ترجع اقتباسات مسرحية أخرى في إيطاليا بلغت من الذبوع والشعبية إلى حد أنها ظلت تمثل في بعض المدن الإيطالية ولاسيما بيزا حتى القرن التاسع عشر . أما في أسبانيا فإنه ما كان ليفوت عبقرية « لوبي دي فيجا » أعظم المسرحيين الأسبان في العصر الذهبي استغلال العناصر الدرامية التي تشتمل عليها أسطورة يواصف وبرلعام ، فقد كتبت في سنة ١٦١١ مسرحية تحمل هذا العنوان . وأتى بعد ذلك « كالديرون دي لباركا » (ت ١٦٨٠) فاستخدم عناصر كثيرة من القصة ومن مسرحية لوبي المذكورة في كتابة روايته الخالدة « الحياة حلم » ، كذلك يمكن أن نرد ما يشيع في هذه الرواية من مسحة تشاؤم قائم ومن إلحاح على ذكر تفاهة الحياة وزوال متعتها إلى الروح الغالبة على تلك الأسطورة البوذية الهندية الأصل .

وهناك نفر من الأدباء الأسبان ازدهروا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلادي يمكن أن يعتبروا من حلقات الاتصال بين الفن القصصي العربي من جانب وأوروبا المسيحية من جانب آخر .

وأول هؤلاء الأدباء هو الأمير خوان مانويل Juan Manuel عاش بين سنتي ١٢٨٢ و ١٣٤٨ على وجه التقريب ، الذي خلف لنا تراثاً من مؤلفات تاريخية وقصصية وتعليمية . ومن أهم كتبه مما يدخل في الميدان القصصي كتاب « الأحوال Libro de los Estados وهو مستوحى من أسطورة « برلغام ويواصف » التي هي تكييف مسيحي لأسطورة بوذا الهندية التي عرفت في أسبانيا عن طريق ترجمة عربية . على أن خوان مانويل تصرف في القصة بعض التصرف وختمها بموازنة بين الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، جاعلاً الأمير بطل روايته بعد تأمل عميق في أحوال الإنسان في حياته وموته وتصرف الأقدار به يختار المسيحية ويعتقها .

وخلف لنا خوان مانويل كتاباً آخر أعظم قيمة بكثير من سابقه ، ونعني به كتاب « الكونت لوكانور El Conde Lucanor » وهو يعتبر مع مجموعة قصص « الليالي العشر Decameron » للأديب الإيطالي بوكاتشو Boccaccio أول إنتاج نثرى يعرف في أوروبا في باب الفن القصصي . وقد انتهى خوان مانويل من كتابة مجموعته في سنة ١٣٣٥ أي قبل أن يبدأ بوكاتشو كتابه (في سنة ١٣٤٨) بثلاث عشرة سنة على الأقل .

ويتألف كتاب خوان مانويل من خمسين قصة كثيرة التنوع فيما بينها ، يقصها على الكونت لوكانور مربيه وأستاذه الشيخ باترونيو Patronio .

وليس من الغريب أن نجد المؤلف قد تمثل الثقافة العربية فاستفاد منها في قصصه الخمسين ، فرى منها حكايات على ألسنة الحيوان مما نقله عن

« كليلة ودمنة » مثل قصة الثعلب والغراب ، والحمقاء التي سكبت على رأسها إناءى الزبد والعسل — وهى مأخوذة عن قصة الناسك المعروفة — ، ونجد كذلك حكايات شرقية شعبية كانت مما شاع فى أوربا جميعها عن طريق الحروب الصليبية ، مثل حكاية تصور عظمة السلطان صلاح الدين الأيوبي ومروءته — ونحن نحس فيها بإعجاب المؤلف المسيحى بشخصية هذا الزعيم المسلم ، وحكاية أخرى حول النصائح التى أدلى بها صلاح الدين للكونت أمير بروفانس فى شأن زواج ابنته ، كذلك نجد حكايات أخرى مما ترسب فى تفكير الأسبان المسيحيين من تراث الأندلس الإسلامية : نذكر من ذلك قصة المعتمد بن عباد وحظيته الجميلة اعتماد الرميكية التى طلبت إليه أن يجعل لها بركة من ماء الزهر يحفها طير من مسك وعنبر تذكيراً له بيوم رآها تخوض فى الطين على ضفاف الوادى الكبير باشبيلية — وهى قصة متواترة فى التراث الشعبى الأندلسى — ، وقصة عن الخليفة الأندلسى العالم الحكيم المستنصر وما أدخله من تعديل على بعض الآلات الموسيقية ، وأخرى لا نعرف مصدرها الآن عن امرأة أندلسية مسلمة كانت تمثل بالقتلى المسيحيين انتقاماً لمصرع واحد من أهل قرابتها وقع فى القتال الناشب بين الجانبين فى بعض الثغور الأندلسية ، وقصة أخرى عن الزاهد الأندلسى الذى كاد يقنط من رحمة الله بعد أن رأى نفسه فى غاية من الفقر حتى أراه الله أنه ليس أسوأ من على ظهر الأرض من خليقة (وهى قصة اكتشف أخيراً أنها واقعية حدثت بالفعل للزاهد القرطبى أبى مروان القنازعى فى مصر) وكانت مما رواه ابن سعيد الأندلسى فى كتاب « المغرب » إلى غير ذلك مما يكاد يستغرق الجانب الأكبر من كتابه .

ولو أننا وازنا بين خوان مانويل وبوكاتشو — وهما أول من عرفتهما أوربا من كتاب القصة فى عصر النهضة — لرأينا أن أهم ما يميز الأول هو تشبعه الكامل بالثقافة العربية وقلة تأثير الكتاب الكلاسيكيين الإغريق واللاتين فى قصصه ، بينما نجد بوكاتشو لا يخلو من تأثير واضح بفن القصص العربى

ولكنه يدل دائماً في لغته الإيطالية المصقولة الأنيقة على تمثله للدراسات الكلاسيكية وقراءاته المستفيضة فيها . أما خوان مانويل فهو نفسه يعترف بأنه لا يكاد يعرف اللغة اللاتينية ، وإنما جل اعتماده على المصادر العربية التي عرف مع ذلك كيف يحسن استخدامها ويخرج منها مجموعة قصصية لا تخلو من الأصالة وقوة الشخصية .

ولم يكن معنى ذلك أن خوان مانويل أقل من صاحبه الإيطالي تأثيراً على الفن القصصي الأوربي . فقد ترجم كتابه « الكونت لوكانور » إلى كثير من اللغات الأوربية ، وكان له أثر هائل على الأدب الأسباني وآداب أوربا في العصور اللاحقة ، ولندكر مثلاً أن رواية شكسبير المشهورة « ترويض الشرسة The Taming of the Shrew » مأخوذة من إحدى قصص خوان مانويل ذات الأصل العربي حول « الفتى الذي تزوج من امرأة قوية شديدة المراس » ، وأن كثيراً من قصصه العربية كان مما اقتبسها الكاتب الدانماركي المشهور أندرسن Andersen والفرنسي ليزاج Le Sage ولا بأس في أن نعرض هنا — ونحن في مجال الحديث عن الفن القصصي لشاعر يعتبر من أول شعراء اللغة الأسبانية هو خوان رويث Juan Ruiz المعروف باسم « قس هيتا Aripreste de Hita » الذي سبق أن تحدثنا عنه باعتباره ممن حملوا أثر الشعر الغنائي العربي إلى الأدب الأسباني والآداب الأوربية ، ويبدو ذلك واضحاً في ديوان شعره الذي يحمل عنوان « الحب الطيب El Libro del Buen Amor » والذي ذكرنا أنه تأثر فيه كذلك بكتابات بعض المؤلفين الأندلسيين مثل ابن حزم القرطبي في « طوق الحمامة » .

على أننا نشير هنا إلى قيمة هذا الديوان الشعري فيما يتعلق بناحية الفن القصصي ، فهناك قصائد له في هذا الديوان تكاد تكون قصصاً كاملة تمثل المجتمع القشتالي في القرن الرابع عشر ، وهو مجتمع كان لا يزال واقعاً تحت التأثير الكبير للحضارة العربية الأندلسية ، ولندكر أن قس هيتا كان على الرغم من منصبه الديني رجلاً يحب متع الحياة ويقبل عليها في التذاذ وشرهة ، فقد

كان في شعره رجلاً دنيوياً يخالط الناس ويعرف ما كبر ودق من تفاصيل حياتهم ، بل إنه يصرح لنا بأنه كثيراً ما نظم قصائد لكي تغني بها القيان وترقص عليها الراقصات المسلمات ، أما هذه القصص فهي تدور حول شخصيات مما يمكن أن نسميه « المجتمع السفلى » في قشتالة من محتالين ومخادعين ولصوص وقوادات : وهي شخصيات تعتبر تمهيداً طبيعياً لأبطال « قصص الشطار والشطار » التي ستزدهر بعد ذلك في الأدب الأسباني منذ منتصف القرن السادس عشر ، وسنرى أنها قد أخذت الكثير من عناصر أبطال « المقامات » العربية من أمثال أبي الفتح الإسكندري وأبي زيد السروجي ، كما أننا نرى أمثالا لها في الأدب الأندلسي الشعبي مثل أزجال ابن قزمان .

ولعل أعظم شخصية قصصية ابتدعها خيال هذا الشاعر الأسباني هي شخصية « جوابة الأديرة Trita Conventos » وهي عجوز تنظاھر بالصالح وتقضي حياتها في زيارة أديرة الرهبان والراهبات حتى تتوطد مكانتها في نفوس الناس وتبدو في أخيلتهم تتوج رأسها هالة من القداسة ، غير أنها في الحقيقة ليست إلا امرأة خبيثة قوادة لا عمل لها إلا التغرير بالفتيات ، وإيقاعهن في حبائل الباحثين عن الشهوات . وهي شخصية نجد لها أمثالا في أزجال ابن قزمان ، ثم نراها بعد ذلك في بعض من الشخصيات النسائية في مجموعة ألف ليلة ، ولا بد أن يكون « قس هيتا » قد عرف أطرافاً من هذه الألوان العربية الشعبية الشائعة في الأوساط الأندلسية فاستخدمها في رسم شخصية هذه الناسكة المزيفة .

كذلك نلاحظ أن شاعرنا القشتالي نظم في شعره كثيراً من الخرافات الجارية على ألسنة الحيوان مما يثبت انتفاعه من قصص « كلبية ودمنة » وإن كان من المرجح أن معرفته بتلك القصص إنما أتت من شيوعها على ألسنة الناس سواء في الأندلس الإسلامية أو في قشتالة المسيحية المتاخمة لها .

ويمكن أن نلحق بكتاب « الحب الطيب » لقس هيتا مؤلفاً آخر من هذا القبيل لكاتب عاش في القرن الخامس عشر ، هو ألفونسو مارتينث دي توليدو

Arcipreste Alfonso Martinez de Toledo المعروف باسم « قس طليطيرة » (١٣٩٨ - ١٤٧٠) . وكتاب يعرف باسم « الكرباج » El Corbacho أو « نقد الحب الدنيوى » Reprobacion del Amor Mundano (كتبه قبل سنة ١٤٣٦) .

وهذا الكتاب مثل ديوان « الحب الطيب » لا يدخل بشكل مباشر فى ميدان الأدب القصصى وإن كان قد أثر تأثيراً كبيراً فى الفن القصصى الأسباني الذى كان فى سبيله إلى الظهور وفيه نرى مرة أخرى تلك الصور الشعبية للمجتمع القشتالى ، وهى صور تكاد تكون مماثلة تماماً لما نراه فى « المقامات » التى كتبها الأدباء الغرناطيون المعاصرون له ، وهى تتميز بالصدق والواقعية ودقة التصوير واستخدام اللغة العامية ، فى غير اصطناع المتعالم أو استخدام للتعبير اللاتينية .

(٦)

فضلاً عن المجموعات القصصية الهندية والفارسية التى تمثلتها الثقافة العربية كان للعرب أنفسهم ألوان أصيلة من الأدب القصصى ومن الأخبار التى تبرز فيها الرواية التاريخية بتفاصيل أضافها خيال القصص . وقد كان من الطبيعى أن تنتقل إلى الأندلس كل هذه الألوان القصصية منذ عصر مبكر فيما انتقل إليها منذ الفتح من عناصر الثقافة العربية فى الشرق .

وقد ظهر هذا المحصول فى المجموعات الأندلسية الأولى من كتب الأخبار والأدب ، مثل « تاريخ » عبد الملك بن حبيب الألبيرى (ت ٢٣٨ - ٨٥٢) أول مؤرخ أصيل أنجبته الأندلس ، وفى كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه (ت ٣٢٨ = ٩٤٠) . ولسنا فى معرض مناقشة مدى ما فى أمثال هذه الكتب الاخبارية من عناصر قصصية ، على أننا نشير إلى أن هناك كتباً شرقية أدخل فى باب التأليف القصصى قد عرفت فى الأندلس ، وكان لها صدى ونفوذ

كبير في هذه البلاد ، ومن أهمها كتاب ألف في عصر هارون الرشيد الأديب أبي السري سهل بن أبي الخزر جى ، إذ تذكر المراجع الأندلسية أن الحاجب المنصور بن أبي عامر الذى استولى على مقاليد السلاطة خلال الربع الأخير من القرن الرابع (العاشر الميلادى) كان كثير الشغف بهذا الكتاب ، مما حمل كثيرين من الأدباء الأندلسيين على تقليده ومعارضته .

و « كتاب المهجع بن غدفان بن يثربى مع الخنوت بنت مخزومة ابن أنيف » وكتاب « الحواس بن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء » ، وقد بلغ من إعجاب المنصور بهذا الكتاب الأخير أنه رتب له من يقرأ عليه فصولا منه كل ليلة . كذلك كان من بين هذه الكتب كتاب « محمد وسعدى » لمحمد بن الحسن المذحجى المعروف بابن الكتانى . ولسنا نعرف موضوعات هذه الكتب ، إذ أنها فقدت ولم يبق لها من أثر ، غير أن عناوينها وعناية كتابها باجادة نسخها وتصويرها (وهذا دليل جديد على أن التصوير كان معروفاً في العصور الوسطى الإسلامية) يوحى بأن تلك الكتب يمكن أن تندرج في قصص المغامرات أو الفروسية التى لا تخلو من عنصر عاطفى رومانسى .

وفي هذا الوقت نفسه (أواخر القرن الرابع الهجرى) كان الشرق العربى يوشك على معرفة جديد من الأدب القصصى هو « المقامة » ، وهو لون أشبه ما يكون بفن القصة القصيرة ، وقد قدر لهذا الضرب الجديد من الأدب القصصى انتشار هائل فى العالم الإسلامى كله مشرقه ومغرب ، وكثر مقلدوه فى الشرق والغرب ، ولكن أعظمها حظاً من إقبال الناس هى مقامات الحريرى (ت ٥١٦ - ١١٢٢) . فقد سمعها كثير من الأندلسيين ، ثم نشروها فى بلادهم وهو بعد على قيد الحياة ، وعارضها كذلك كثير من الأدباء ، لعل من أهمهم أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى الأشرقونى السرقسطى المتوفى بقرطبة سنة ٥٣٨ - ١١٤٣ وله خمسون مقامة تعرف باسم اللزومية أو السرقسطية (وما زالت منها عدة نسخ خطية فى الفاتيكان واستامبول) .

بل أن أعظم شروح المقامات الحريرية وأشهرها في العالم الإسلامى الشرح الذى كتبه أحد الأندلسيين أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى (المتوفى سنة ٦١٩ - ١٣٢٢) . واستمر التأليف فى هذا الشكل حتى نهاية الإسلام فى الأندلس ، وكان لسان الدين بن الخطيب آخر أعلام الفكر الأندلسى فى مملكة غرناطة من بين من عالجوا هذا الشكل وخلفوا لنا فيه تراثاً قيماً .

على أننا ننبه هنا إلى أن فن المقامة فى الأندلس قد لحقه تطور جدير بالتنويه ، فهو لم يجمد فى القوالب الشرقية وإنما تطور تطوراً سليماً إذ تحرر من فيهة اللغويين المتكلمة وأصبحت المقالة قصصية الطابع ، بل إنها تمعن فى الشعبية ، فترى مؤلفيها يستخدمونها لتقديم صور بديعة شيقة للمجتمع الأندلسى تتميز بالواقعية ، وتفيض بالسخرية اللاذعة من النماذج البشرية التى تضطرب فى ذلك المجتمع ، بل إننا نجد هؤلاء المؤلفين ولا سيما فى عصور الأندلس المتأخرة لا يستنكفون من استخدام اللغة العامية الدارجة . وكل هذا تطور له قيمته ولا سيما إذا ذكرنا أن المقامة فى الأندلس قد انتهت إلى عكس ما انتهت إليه فى المشرق تماماً . هناك انقلبت إلى ما يشبه التمارين اللغوية المحضة وفقدت ذلك الخيط الذى كان يربطها بالفن القصصى الحقيقى ، وهنا أصبحت لوناً من ألوان القصة الاجتماعية النقدية ، وإن لم تتحرر من بعض القيود التقليدية مثل الأسلوب المسجوع . ولعل من خير الأمثلة على هذا اللون من المقامات الأندلسية « مقامة العيد » لأبى محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدى الغرناطى المعروف بابن المربع (ت ٧٥٠ - ١٣٥٠) التى نشرها الدكتور مختار العبادى (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطريد ، المجلد الثانى سنة ١٩٥٤) .

ولم يكن يهود الأندلس يقلون عن مسلمى هذه البلاد شغفاً بفن المقامات الجديد ، حتى أننا نجد من معاصرى الحريرى أديباً يهودياً أندلسياً يؤلف مقامات بالعبرية على نفس النهج الذى اتبعه المؤلف البصرى الكبير ، ونعنى بذلك سليمان بن صقبال القرطبى Salomon Ben Sachel الذى اشتهر اسمه فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان شاعراً يميل

إلى الهزل والمجون . وله مقامات عبرية بعنوان « تحكموني » (أى الرجل الحكيم) ، وبطل هذه القصص الهزلية شخص يدعوه المؤلف « أسر » وهو من البساطة والسذاجة بحيث يتخذ أصدقاؤه مادة لسخرياتهم وألاعيبهم ، والحقيقة أن شخصية المؤلف العبرى من ناحية القيمة الفنية والأدبية أقل بكثير من شخصيتي الهمداني والحريري بما فيهما من قوة وفحوله وتنوع ، أما أسلوب الكاتب فهو يساير أسلوب المقامات ويمثله تماماً من حيث اعتماده على السجع والاهتمام بالغريب والمزاوجة بين النثر والمقطعات الشعرية ذات الطابع الخلقى والوعظي .

وفي أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر نرى يهودياً آخر مقلداً لمقامات الحريري ، وهو يهوذا بن سليمان الحريري Yehoda Ben Salomon Al-Harizi وكان هذا المؤلف قد بدأ بترجمة مقامات الحريري إلى العبرية ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عن هذا العمل قبل اتمامه مؤثراً أن يؤلف كتاباً أصيلاً في معارضة المقامات ، وهكذا كتب مجموعة مقاماته التي تحمل عنوان « تحكموني » أيضاً ، وبطل هذه المجموعة « ايبير Heber » أشبه بشخصية أبي زيد السروجي من بطل مقامات ابن صقبال ، فهو مغامر محتمل تقع له أحداث وعجائب كثيرة ، ويتخذ الحريري من تلك الأحداث ذريعة لايراد محاورات أدبية طويلة يضمنها آراءه النقدية حول من سبقه من شعراء اللغة العبرية .

ومن أهم مؤلفي المقامات العبرية اثنان نرى أنهما يستحقان وقفة خاصة : أولهما هو إبراهيم بن صمويل هاليني بن حمداى البرشلوني (المتوفى سنة ٦٣٨هـ - ١٢٤٠) أحد من ترجموا من العربية قصة « برعام ويواصف » باسم « ابن الملك والدرويش » - ومقاماته مقسمة إلى فصول تتخللها أقاصيص وقطع من الشعر الديني والوعظي ، وهذا الكاتب اليهودي البرشلوني ، كان من أكثر كتاب هذه الطائفة جهوداً في ترجمة آثار الفكر العربى إلى

العبرية ، فقد نقل فضلا عن المجموعة القصصية التي ذكرنا - كتاب « ميزان الأعمال » للغزالي إلى العبرية إلى غير ذلك من الكتب .

أما الكاتب الثاني فهو يعقوب بن العازار الطليطلي ممن ترجموا كتاب « كليله ودمنة » إلى العبرية ، وأسهم بذلك في نشره إلى اللغات الأوروبية . ولهذا المؤلف كتب بالعربية منها كتاب « الكامل » في نحو اللغة العبرية ومفرداتها ، فضلا عن مجموعة من المقامات كتبها بالعبرية ، وإذا ذكرنا أن هذا المؤلف قضى حياته بين أسبانيا وجنوب فرنسا (بروفانس) وأنه كان يجيد العربية لإجادة من يؤلف بها ويترجم عنها أمكننا أن نقدر اسهامه واسهام أمثاله من الكتاب اليهود في نقل كثير من عناصر الفكر والثقافة العربية إلى أوروبا .

ولقد أشار مؤرخو الأدب الأسباني إلى إمكان تأثير فن المقامات العربية في مولد لون جديد من الأدب القصصي الأسباني هو المعروف باسم « القصة البيكارسية Novela Picaresca » (وهو تعبير تصعب ترجمته بدقة ، وإن كان أقرب ما يقابله بالعربية هو قصص الشطارة) حيث نرى البطل : البيكارو Picaro أشبه ما يكون ببطل المقامة ، فهو في الغالب شخص من أصل وضع يعيش في بيئة قاسية ويعاني من آلام الجوع والبطالة ، غير أنه يستعين عليها بالحيل والمكر وخداع البسطاء والسذج ، وكأنه ينتقم من ذلك المجتمع الذي لا يحترم إلا الأغنياء والأقوياء ، فهو يسخر منه ويحتال عليه ما وسعه ذلك .

ولو تأملنا خصائص هذا اللون القصصي الذي ظهر في أسبانيا منذ منتصف القرن السادس عشر وازدهر خلال القرن التالي لأمكن لنا أن نجعلها فيما يلي :

١- بطل القصة البيكارسكية في أغلب الأحيان لقيط أو مجهول الأصل يؤثر البطالة على العمل الشريف ، فهو يعيش على التسول والتكدي أو على

خداع السذج يستخدم في ذلك كل أنواع الخيل والسرقات أو « المناصف »
لو أننا أردنا استخدام تعبير شائع في القصص الشعبية المربية ، على أنه قد يعمل
في بعض الأحيان ، فيلتحق بخدمة شخص ليس من السراة أو الوجهاء ،
بل هو قسيس بخيل أو متسول ، أو نبيل مفلس غير أنه لا يلبث أن يترك
هذا العمل ويلتحق بخدمة سيد جديد .

٢ - وشخصية هذا البطل ليست إلا نتاجاً للبيئة التي يعيش فيها ،
فظروف الحياة المحيطة به كأنما تتأمر عليه : أصله الوضع والوسط البائس
الذي يضطرب فيه ، والآلام التي يعانيتها في تلك الحياة حتى من زملائه
في البؤس والشقاء ، إذ هو معهم في صراع مر من أجل الحصول على لقمة
العيش ، ومن هنا أتى تشاؤمه القاتم وسوء ظنه بالجميع ، ولكنه مع ذلك يتحمل
كل ذلك في استسلام وتواكل مؤمناً بأن ذلك كله عليه قدر مكتوب لا مفر منه .

٣ - وعلى الرغم من ذلك فأدب هذا اللون من القصص مصبوغ دائماً
بصبغة وعظية خلقية ، وهذا من المفارقات الغريبة ، إذ أن البطل على الرغم
من سلوكه الذي لا يتورع عن اقتراف كل رذيلة كثيراً ما يستمد من مغامراته
درساً يلقي به على قرائه مندداً بالرذيلة التي ارتكبها هو نفسه ، وكل ما يقوله
في تبريرها - إذا بررها - هو أن الوسط الذي يعيش فيه هو الذي يحكم عليه
بها ، وأنه لا حيلة له في دفع الشرور المتأصلة في نفوس البشر بحكم كونهم
بشرأ .

٤ - ومع هذه التزعة الوعظية نلاحظ كذلك اتجاهاً ساخراً هجائياً ،
فهو يحمل على المجتمع الذي يتقلب فيه معلناً عن كراهيته له ومحقده عليه ،
وهذا الاتجاه قد يكون بقصد الاضحاك والمبالغة في رسم العيوب على نحو
كاريكاتورى ، وقد يكون عنيفاً قائماً مشبعاً بالتشاؤم والنية السيئة ، على أنه
في أغلب الأحيان جبان لا يجرؤ على مهاجمة الأقوياء وأصحاب السلطة ،
فهو يوجه طاقة كراهيته إلى زملائه ورفاق بؤسه من المتسولين والمتشردين
والمحتالين والبلاء المنفلسين والطلبة الفقراء .

٥ - الأسلوب في الغالب شعبي بسيط غير متكلف ، وهكذا نراه في القصص الأولى من نتاج هذا اللون ، على أنه بعد ذلك اتجه إلى الزخرف اللغوي في القصص المتأخرة ، وأصبح يميل إلى مزيد من التأنيق والتعمل .

٦ - الاتجاه إلى الواقعية هو الغالب على القصص البيكارسكية ، وإن كان النتاج المتأخر منها قد أصبح يميل في تصويره الكاريكاتوري إلى المبالغة والتهويل في رسم العيوب بشكل أخرج بعضها عن واقعيتها الأولى .

ولو أننا قارنا بين هذه الخصائص وما تتميز به المقامات العربية لرأينا الفعل تطابقاً كبيراً بين الفنين يسمح بترجيح مانوه به مؤرخو الأدب الأسباني أنفسهم من تأثر ذلك الفن الأسباني بالمقامات . على أننا نشير هنا إلى فرق جوهرى بين الفنين في الناحية الأسلوبية ، فقد بدأت القصة البيكارسكية في أسبانيا تعبيراً تلقائياً شعبياً ساذجاً ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى التأنيق والزخرف اللغوي والاهتمام بالصياغة ، وعلى عكس المقامة - على الأقل في الأندلس - ، فقد بدأت مزيجاً من القصص الشعبي والفن اللغوي ، ثم غلبت عليها الزخارف اللغوية حتى أحالتها إلى قوالب جامدة صماء ، ولكنها في الأندلس عادت إلى مصادرها الشعبية الأصلية ولا سيما في العصور المتأخرة ، فأولت أعظم جانب من اهتمامها إلى تقديم صور من حياة المجتمع الشعبي واتجهت إلى التعابير العامة السوقية ، وكسبت بذلك في المضمون ما فقدت في الشكل .

وهذا التضاد بين تطور هذين الفنين الأندلسي والأسباني هو الذى يوحى إلينا بأن القصة البيكارسكية قد بدأت من حيث انتهت المقامة الأندلسية ، ثم اقتربت بعد ذلك خلال تطورها اللاحق من المقامة العربية عند أول ظهورها ، ولكنها مع ذلك لم تتحول قط إلى هذا اللون من التمارين اللغوية وزخارف المحسنات البديعية التى قضت على المقامة العربية في المشرق وجردتها من أصالتها وحرمتها من القيمة الأدبية الحقيقية التى كان ينتظر أن تحولها إلى لون قصصى جديد .

وأول ما نعرف من ثمرات القصة البيكارسكية الأسبانية رواية مجهولة المؤلف تحمل اسم «حياة لافاربودي توريس La Vida de Lazarillo de Tormes ويبدو أنها طبعت لأول مرة سنة ١٥٥٣ . ويقص علينا بطلها لافاربو قصة حياته : منذ مولده على ضفاف نهر تورميس ، إلى أن ينتهى إلى خدمة قسيس يسبغ عليه حمايته ويحسن معاملته ، غير أنه يعلن في غير حياء أن نائب الأسقف لم يوله رعايته إلا بعد أن زوجه بخادمة جميلة كان هو على علاقة بها .

وتصف رواية « لافاربو » حياته البائسة المتقلبة التي يرسم لنا خلالها صوراً متعاقبة أخاذاً لرذائل مجتمعه وما يسوده من قسوة وأنانية وانحلال ، ينطق بها المتسول الصغير في إصداق وواقعية^٧ ، ويضمنها نقده اللاذع وسخريته الجارحة بكل تلك النماذج البشرية بما فيها هو نفسه . وقد أتيح لهذه الرواية منذ نشرها ذيوع هائل^٨ ، ويدل على ذلك أنها طبعت ثلاث طبعات في سنة ١٥٥٤ أى في السنة التالية لنشرها لأول مرة ، ومنذ ذلك الوقت حتى أيامنا طبعت عشرات المرات ، وإن كانت الكنيسة الأسبانية قد حذفت منها فصولاً وعبارات جارحة في الحديث عن رجال الدين . هذا بينما تلقفتها المطابع الأوروبية منذ القرن السادس عشر فنشرتْها كاملة في طبعات متوالية ، كما أنها ترجمت إلى مختلف اللغات الأوروبية^٩ : إلى الفرنسية (ليون سنة ١٥٦٠) ، والانجليزية (لندن ١٥٧٦ - ١٥٩٦) ، والهولندية (أنتفرين ١٥٧٩) ، والألمانية (أوسبورج ١٦١٧) ، والإيطالية (البندقية ١٦٢٢) .

وقد أدى إقبال الجمهور الأسباني على هذا اللون القصصي الجديد إلى معالجة أدباء آخرين له ، لعل من أولهم ماتيو ألتمان Mateo Al'man (١٥٤٧ - ١٦١٤) وكان مولده في إشبيلية ودرس في جامعته وفي غيرها من المعاهد ، وكانت حياته مضطربة مشحونة بالمغامرات مما عرضه للسجن أكثر من مرة ، وتقلبت به الحياة وأخيراً هاجر إلى المكسيك في سنة ١٦٠٨ ويبدو أنه قد قضى آخر سنى حياته هناك في ضيق وضنك وتوفى في تاريخ لا يعرف على وجه

التحقيق . أما روايته فهي تحمل عنوان «قزمان الفرحي Guzman de Alfarache» وقد نشر الجزء الأول منها في سنة ١٥٩٩ والثاني في سنة ١٦٠٥ .

وحياة هذا البطل لا تقل عن حياة «لا فاربو» إثارة وامتلاء بشئى ألوان المغامرات ، فهو يولد فى أشبيلية من أب تاجر مغامر أهله من جنوة ، وأم أشبيلية جميلة انتزعها بحيلة نخبيثة من زوجها . ويهرب قزمان من بيت أمه ويتجه إلى مدريد ، ويقص علينا حياته المضطربة بين هذه العاصمة وغيرها من مدن أسبانيا مصطعناً مختلف الحيل متردياً فى حضيض السرقات وابتزاز المال بكل طريق ، حتى يسأم هذه الحياة المضطربة الشقية ولا سيما بعد وفاة امرأته ، فيقرر التوبة والانخراط فى سلك الرهينة ، غير أن حياته الماضية تعود فتجذبه إليها ، فيعاود مغامراته ولا يزال كذلك حتى يلقى به فى السجن فى مسقط رأسه أشبيلية بعد أن عاد إليها ، وينفق كل ما ادخر ، على المحامين والموثقين وحراس السجن ، ولكنه يدان فى النهاية ويقضى بقية سنى حياته فى السجن تحت وطأة الأعمال الشاقة .

والكتاب يقطر بالمرارة والتشاؤم وهو يرسم صورة تقبض النفس لمجتمع مريض فاسد تسوده الأنانية والغش والخداع ، ولكن فى أسلوبه إشراقاً ووضوحاً ، ويلاحظ أن المؤلف أدخل فى ثنايا الكتاب عدة قصص حشرها حشراً ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من القيمة ، ومن خير هذه القصص حكاية حب رقيقة يبدو أنها كانت من بين التراث القصصى للمسلمين الموريسكيين بقية الشعب الإسلامى الأندلسى ، وهى حكاية «عثمان ودراجة الجميلة» .

والرواية بوجه عام أكثر إحكاماً وتماسكاً وأجود أسلوباً من رواية «لا فاربودى تورميس» ، ولعلها خير مثل على اكتمال هذا اللون «البيكارسكى» من الأدب القصصى ونضوجه ، وكانت هذه الروايات على ما يبدو قد أصبحت هى المستأثرة على اهتمام الجمهور الأسبانى والأوروبى فى أوائل القرن السابع عشر ، فقد توالى طبعاتها وترجمت خلال سنوات قليلة إلى الفرنسية والإيطالية .

والانجليزية والألمانية واللاتينية والهولندية والبرتغالية ، وكان لها أثر كبير على بعض كتاب القصة في القارة الأوروبية مثل جريمهاوزن Grimmelhausen الذي ألف على منوالها رواية « الأبله Simplicissimus » (سنة ١٦٦٩) وليزاج Le Sage (سنة ١٧٣٢) .

وفي أوائل القرن السابع عشر أيضاً نجد الرواية الثالثة المنتمة لهذا النوع ، وهي رواية « خوستينا المحتالة La Picara Justina » (نشرت في مدينة دل كاموسنة ١٦٠٥) المنسوبة للطبيب الطليطي Francisco Lopez de Ubeda وهي رواية نجد فيها لأول مرة بطلة لا بطلا كما اعتدنا في الروايتين السابقتين ، وهي هنا فتاة جميلة تقص علينا مغامراتها وحيلها التي تذكرنا بمغامرات « زينب النصابة بنت الدليمة المحتالة » و « مناصفها » في « ألف ليلة وليلة » ، ولا نستبعد أن تكون هذه الفصول من المجموعة العربية الشعبية قد عرفت في اسبانيا — ربما عن طريق الموريسكيين المسلمين — ولكن مؤلف تلك الفصول من ألف ليلة كان أقدر وأمهر بكثير من المؤلف الأسباني في رسم شخصيته وتحديد معالمها ورواية مغامراتها ، ولا غرو فإننا نلمح في هذه الرواية بدء اضمحلال هذا الفن القصصي الجديد ، فروايته « خوستينا المحتالة » ثقيلة مملة ، وكاتبها لا يحسن حبك الأحداث على الرغم من عنايته الشديدة بالأسلوب . ويكاد يكون أهم ما في هذه الرواية رسمه لبعض صور المجتمع الفولكلورية في المنطقة التي تدور فيها مغامرات خوستينا ، وهي منطقة ليون ، واحتفاظه لنا بكثير من الأمثال — والأقوال التي تتردد على ألسنة الناس هناك ، بل إننا نجد من التوافق الغريب أن المؤلف يورد في مطلع كل فصل من فصول « الرواية » أبياتاً من الشعر يقطعها على نحو غريب كأنما يختبر بها ذكاء القارئ ومعرفته باللغة أو يجعل لها قوافي داخلية ، وغير ذلك مما هو أشبه بما نراه في تلك « البهلوانيات » اللغوية التي ملأت المقامات العربية وانحطت بمستواها الفني وضيعت على الأدب العربي ميداناً كان حقيقاً بأن يثريه ويضفي عليه قيماً جديدة .

وتتوالى هذه الروايات من قصص الشطارة والسطار ، فى سنة ١٦١٨

تظهر رواية «حياة ماركوس دى أوريجون La Vida del Escudero Marcus de Obregon للكاتب فيثنى اسبينيل Vicente Espinel (١٥٥٠ - ١٦٢٤) ، وهو أديب نخاض فى حياته مغامرات كثيرة سواء فى بلاده أو فى إيطاليا ، ووقع فى أسر الجزائريين - وهو حدث سيتكرر فى حياة أمير الأدب الأسباني تيرافانتيس - ثم اتجه بعد ذلك إلى حياة الرهبة وقضى سنواته الأخيرة فى بلدة رندة مخلصاً إلى التأليف الأدبى وإلى هوايته الموسيقية ، أما روايته فهى أشبه بقصص المغامرات منها بقصص الشطارة ، وفى أحداثها ما يدل على أنه ضمنها كثيراً من عناصر حياته هو .

وفى سنة ١٦١٩ تطبع فى باريس رواية من هذا النوع تحت عنوان «الجشع إلى مال الآخرين La desordenada codicia los bienes ajenos منسوبة إلى «الدكتور كارلوس غرسية Carlos García» والرواية أشبه بمذكرات لص محتمل يقص أخبار مغامراته وينوه فيها بحرفة اللصوصية وعراقتها ، ويدافع فيها عن المشتغلين بهذه « الحرفة » دفاعاً حاراً .

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا الروايات الأسبانية التى ألفت على هذا النهج خلال القرن السابع عشر ، ولكننا نشر أخيراً إلى أن الفن القصصى الأسباني قد تأثر تأثراً عميقاً بذلك اللون الجديد ، حتى الكتابات التى لا تعتبر منخرطة فى هذا السلك لم تخل من عناصر كثيرة مستعارة من « قصص الشطارة والسطار » نرى ذلك فى رواية : « دون كيخوتى » التى ألفها تيرافانتيس أعظم كتاب أسبانيا فى عصرها الذهبى (١٦٠٥ - ١٦١٥) ، فهى محافلة بشخصيات « بيكارسكية الطابع » أولها شخصية ساتشو بانثا تابع دون كيخوتى ، هذا فضلاً عن بعض الأقاصيص الصغيرة الرائعة التى أدارها الروائي العبقرى حول شخصيات من هذا النوع مثل قصة « رينكونيتى وكورتاديو Rinconete y Cortadillo » وهما صبيان صغيران يرويان مغامراتهما فى ميدان الاحتيال ،

و « حوار الكلاب El Coliguo de los perros » و « الغجرية La gitanilla » وغيرها . ومثل هذا نراه في كتاب « الأحلام Los Sueños » الذى كتبه كيبيدو Quevedo (١٥٨٠ - ١٦٤٥) وهو يذكرنا برسالة التوابع والروابع للأديب الأندلسى أبى عامر بن شهيد ، إذ هو مجموعة من الصور الاجتماعية الساخرة يقدم لنا فيها كثيراً من الشخصيات البيكارسكية ، وكذلك في كتاب « الشيطان الأعرج El diablo cojuelo » للكاتب لويس فيليث دى جيفارا Luis Velez de Guevara ، حيث يتخيل المؤلف شيطانا ينقذه بطل الرواية من سجنه في قنينة ، فيكافئه بأن يحمله على جناحيه ويجول به في أنحاء مدريد وغيرها من مدن اسبانيا نازعاً عن البيوت سقوفها ومطلعا صاحبه على كل ما يدور في باطنها .

وقد باشر هذا الأدب الأسباني الذى نراه وثيق الصلة بفن المقامات العربية أثراً كبيراً على الآداب الأوروبية منذ ظهوره ، ولا سيما إذا ذكرنا كيف ترجمت كل روايات الشطارة والسطار إلى معظم اللغات الأوروبية بمجرد طبعها ، وربما أعان على ذلك امتداد رقعة الامبراطورية الأسبانية منذ منتصف القرن السادس عشر إلى شطر كبير من القارة الأوروبية ، وإلى أن هذا اللون الجديد من الأدب بما اشتمل عليه من عناصر واقعية وشعبية كان طرفة جديدة بالنسبة للآداب الأوروبية الأخرى ، بل إننا نجد كثيراً من الأدباء الأوربيين يعكفون إما على ترجمة هذه الروايات الأسبانية إلى لغاتهم أو تقليدها والنسج على منوالها ، ومن أمثلة هؤلاء الكاتب القصصى الفرنسى ألان رينيه ليزاج Alain Rene Le Sage (١٦٦٨ - ١٧٤٧) الذى ترجم إلى الفرنسية رواية « الجشع إلى مال الآخرين » أو « الدفاع عن اللصوصية » للدكتور كارلوس غرسية ، ثم كتب روايتين أحدهما « مغامرات جيل بلاس Gil Blas » و « الشيطان الأعرج Le diable boiteux » ، وفيهما يقدم لنا صوراً ساخرة لهذا اللون من الحياة أودعها نقداً لاذعاً لعادات مجتمعه ، ونلاحظ أن

عنوان الرواية الثانية ليس إلا ترجمة حرفية لعنوان الرواية التي أشرنا إليها
مما ألفه فيليث دي جيفارا .

(٧)

ونعرض لفن قصصي كان للعرب فضل ابتداعه ، وله أثر كبير على التفكير
الأوربي ، ونعني به « القصة الفلسفية أو الصوفية » .

ولعل أول مثل على هذا اللون القصصي هو « قصة حي بن يقظان »
للفيلسوف الأندلسي أبي بكر محمد بن عبد الله بن طفيل القيسي الوادي
أشئ . (١١١٠ - ١١٨٥)

والرواية رمزية تقوم أولاً على التوفيق بين الفلسفة والدين وعلى بيان
أن التأمل العقلي المحض والإيمان الحقيقي طريقان تؤديان إلى نتيجة واحدة ،
هي الاتصال الوثيق بالله والاتحاد به ، وهي ثانياً تعبير عن أن حياة الروح
السامية لم تخلق إلا لقلة من البشر ، أما العامة فيكفيهم الإيمان الساذج البسيط
والأنخد بظاهر الدين وطقوسه وشكلياته ، إذ أن أفهامهم الغليظة أعجز من
أن تتمتع بنعمة الحياة الروحية المتأملة . وقد أثبت المتخصصون في الموضوع
صلة آراء ابن طفيل فيها بآراء الفيلسوفين الكبيرين : ابن سينا والأندلسي
أبي بكر بن باجة (المتوفى بين ١١٢٨ و ١١٣٨) ولا سيما هذا الأخير في كتابه
« تدبير المتوحد » الذي نشره المستشرق الأسباني أسين بلاثيوس في مدريد
سنة ١٩٤٦ .

ولكن الذي يهمنا في قصة حي بن يقظان هو استخدامه للفن القصصي
في عرضه لفلسفته على هذا النحو الرائع الأصيل الذي يبدو سابقاً لزمانه بكثير ،
حتى أن أحد العلماء الذين درسوها وهو الأسباني منندث بيلايو في كتابه
« أصول الرواية » يصفها بأنها أعظم آثار الأدب العربي أصالة وتفرداً .

والترجمة القديمة الوحيدة للكتاب التي نعرفها هي العبرية التي قام بها موسى النريوني في سنة ١٣٤٩ مع تعليقات له ، وهي ترجمة مازالت مخطوطة .
أما التراجم الأوروبية لقصة حي بن يقظان فقد كانت أولاها هي اللاتينية التي نشرها في أكسفورد سنة ١٦٧١ العالم الانجليزي ادوارد بوكوك Edward Pococke وألحقها بأول طبعة معروفة للنص العربي . وقد أثارت هذه الترجمة اللاتينية اهتمام الجمهور الانجليزي منذ أن ظهرت خلال سنوات قليلة ترجمتان لها إلى الانجليزية ، قام بالأولى أشويل Ashwell و بالثانية جورج كيث George Keith الذي كان ينتمي إلى طائفة « الكويكرز » ، بل ان هذه الطائفة المسيحية التي انتشرت مبادئها في إنجلترا والولايات المتحدة والتي كانت تدين بنوع من الإشرافية الصوفية سرعان ما اتخذت من رسالة حي بن يقظان كتاباً تعليمياً وعظيماً . وفي سنة ١٧٠٨ ظهرت ترجمة انجليزية ثالثة للرسالة اضطلع بها أستاذ اللغة العربية في كيمبردج : سيمون أوكلي Simon Ockley . وأعاد طبعها في سنة ١٧٣١ . وبلغ من اهتمام الأوساط العلمية في أوروبا - خارج بريطانيا - بالكتاب أنه لم تمض سنة واحدة على نشر ترجمته اللاتينية حتى ترجم إلى الهولندية في سنة ١٦٧٢ ، ثم أعيد نشره بهذه اللغة في ١٧٠١ ، وإلى الألمانية حيث ترجم مرتين : الأولى في فرنكفورت سنة ١٧٢٦ بقلم جورج بيريتيوس George Pirritius والثانية في برلين سنة ١٧٨٣ بقلم انجهورن J.G. Eichhorn . ثم ظهرت أول ترجمة إسبانية له بقلم فرانسيسكو بويجس Francisco Pons Boigues (سرقة سنة ١٩٠٠) وفي نفس السنة ظهرت طبعة جديدة للنص الرسالة مع ترجمة فرنسية بقلم ليون جوييتيه Leon Gauttier (الجزائر ١٩٠٠) . ثم أعاد المستشرق جونثالث بالنشيا Gonzalez Palencia ترجمة الرسالة إلى الإسبانية من جديد (مدريد ١٩٤٨) .

وربما بدا من الغريب أن تتأخر الترجمتان الإسبانية والفرنسية لهذا الأثر الأندلسي حتى مطلع القرن العشرين ، ولا سيما إذا ذكرنا أن الترجمة العبرية

تمت في منتصف القرن الرابع عشر وقام بها يهودى أسباني الأصل استوطن جنوب فرنسا . وهذا هو ما يحملنا على الظن أنه لا بد أن تكون هناك ترجمة لاتينية أو اسبانية قديمة تمت على أساس ترجمة موسى التربوني العبرية قبل سنة ١٦٧١ ، وقد تكون فقدت أو لعلها ما زالت مجهولة تقبع في إحدى خزائن الكتب .

ولنما نقول ذلك لأن هناك كتاباً لفيلسوف وكاتب اسباني لا مجال للشك في أخذه عن رسالة حي بن يقظان قبل أن تعرف ترجمة ادوارد بوكوك اللاتينية . ونعني بهذا كتاب « الناقد El Criticón » الذي وضعه بلتاسار جراثيان Baltazar Gracián ونشره في سنة ١٦٥١ أي قبل نشر ترجمة بوكوك بعشرين سنة . وجراثيان المذكور (١٦٠١ - ١٦٥٨) كاتب وفيلسوف يعتبر من أعظم من أنجبهم الفكر الأسباني في « العصر الذهبي » ولد في قرية من أعمال مدينة « قلعة أيوب » من أعمال سرقسطة ، وانخرط في سلك الكهنوت منتظماً إلى طائفة اليسوعيين (الجيزويت وطارت شهرته بصفته خطيباً بليغاً ومؤلفاً له أصالته ، وله عدة كتب فلسفية أهمها كتاب « البطل » الذي أراد أن يفند به آراء مكيا فيلي في كتاب « الأمير » ، ثم كتاب « الناقد » الذي أشرنا إليه .

وقد سبق للباحث الأسباني الكبير منتدث بيلايو أن نبه إلى أن الذي يقرأ الفصول الأولى من كتاب « الناقد » لجراثيان لا يملك دهشته للتطابق الغريب بينها وبين قصة حي بن يقظان . فنحن نرى فيما كتبه الفيلسوف الأسباني قصة رمزية تدور حول رجل يدعوه كريتيلو Critilo نجا بعد غرق سفينة كانت تحمله في بحار الهند ، فتعلق بخشبة حملته إلى جزيرة « سانتاهيلانه » المهجورة ، أو هكذا كان يظنها الرجل حتى التقى فيها بشخص يدعوه « أندرينيو Andrenio » ، ويقص هذا الأخير على صاحبة قصته : وكيف تولدت في نفسه رغبة في رؤية ما يحواه وتأمل الطبيعة واستكناه أسرارها ، كأن شيئاً غريباً سطع داخل نفسه كومضة من نور ، فهو يريد استطلاع العالم الذي

يعيش فيه ومعرفته ، وفجأة يحدث زلزال يحطم الكهف الذى كان يعيش فيه ، فيخرج من المغارة ويبدأ فى تأمل العالم المحيط به وتأمل باطن نفسه هو .

ولسنا بحاجة إلى الاسترسال مع أندرينيو فى رحلة المعرفة التى بدأها من المحسوسات إلى المعقولات حتى يصل إلى السعادة الكاملة المتمثلة فى « المعرفة » وفى اكتشاف وجود الله والإيمان به ، فالواقع هو أننا لا نكاد نجد فرقا على الإطلاق بين حديثه وقصة حى بن يقظان . وهو تطابق يقول منندث بيلانو أنه لا يمكن أن يكون مجرد اتفاق وصدفة ، وإلا كان ذلك من أغرب ما وقع فى تاريخ الفكر الإنسانى من اتفاق عفوى .

وقد حيرت هذه الظاهرة من وازنوا بين ابن طفيل وجراثيان ، حتى طلع المستشرق الأسباني غرسية غومس Garcia Gomez سنة ١٩٢٦ يبحث جديد لهذه المسألة انتهى منه إلى أن جراثيان على ما يبدو استلهم قصته من اسطورة عربية كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية الشعب الأندلسى المسلم) من ساكنى منطقة أرغون التى كان الأندلسيون يعرفونها باسم « الثغر الأعلى » أى سرقسطة وأعمالها وهى التى ولد جراثيان ونشأ فى إحدى مدنها (قلعة أيوب) ويقول غرسية غومس أن هذه القصة قد تكون هى الأصل المشترك الذى نقل عنه كلا الفيلسوفين : ابن طفيل وجراثيان .

أما هذه القصة فعنوانها « الصنم والملك وابنته » ، وهى ما زالت محفوظة فى مخطوط موريسكى من مخطوطات مكتبة الأسكوريال ، ومخطوطها العامة تتفق مع قصة حى بن يقظان ولو أنها بطبيعة الحال خالية من المغزى الفلسفى العميق الذى يعتبر جوهر الرواية العبقريّة التى خطها قلم ابن طفيل .

وهذا ما يحملنا على أن نعتقد أن تفسير غرسية غومس — وإن كان محتملا مقبولا — ما زال غير كاف ، والأرجح هو أن الرواية ترجمت إما عن العربية رأسا أو عن الترجمة العبرية إلى اللاتينية أو الأسبانية القديمة فيما ترجم من آثار الفكر العربى فى فترة مبكرة . وقد يكون جراثيان اطلع على هذه الترجمة

التي فقدت أو ضاعت بعد ذلك فاستفاد منها في كتابة تلك الفصول من كتابه « الناقد » .

وقد باشرت قصة جراثيان نفوذاً كبيراً على التفكير الأوربي ، وكانت بذلك مثلاً يضاف إلى ما ذكرناه من أمثلة سابقة على الدور الذي قام به المفكرون الأسبان باعتبارهم حلقة اتصال بين الثقافة الإسلامية وأوروبا . ويكفي أن نذكر أن مبدأ « أنا أفكر فأنا إذن موجود » الذي كان عماد الفلسفة الديكارتية المذكور بالحرف الواحد ومدلل عليه في كتاب جراثيان . كذلك كان الفيلسوف شوبنهاور ممن استفادوا من آراء جراثيان حتى أنه كان يعتبر كتابه المذكور واحداً من أحسن الكتب التي ألقت في العالم ، واستقى منه لسنج كثيراً من آرائه في نظريته حول « التعليم التدريجي للجنس البشري » كما اعتمد عليه هيجل ومدرسته في بسط نظرياتهم حول فلسفة الدين .

ولابد في هذا المجال من الإشارة إلى كتاب « مختار الحكم ومحاسن الكلم » للكاتب المصري أبي الوفاء مبشر بن فاتك الذي توفي في حدود سنة (١٠٧٨ م ١٠٨٨ م) وكان من أعيان مصر الفاطمية على عهد الظاهر والمستنصر ، وله تأليف كثيرة في المنطق والطب والتاريخ والفلسفة ، ولم يبق من هذا التراث إلا كتاب « مختار الحكم » الذي نشر نصه العربي الدكتور عبد الرحمن بدوي (معهد الدراسات الإسلامية بمطريد سنة ١٩٥٨) ، وهو يعتبر أول كتاب عربي في تاريخ الفلسفة استقصى فيه صاحبه أخبار فلاسفة الأغرقي وأقوالهم ومذاهبهم .

وكان لهذا الكتاب ما يتوقع من انتشار عظيم في أوروبا ، فقد كان من بين الكتب التي أمر بترجمتها إلى اللغة الإسبانية القديمة الملك ألفونسو العاشر الحكيم في منتصف القرن الثالث عشر ، وعرفت هذه الترجمة (التي نشرها هرمان كنوسست في توبنجن سنة ١٨٧٩) باسم « Bocados de oro » (أي ثمار الذهب) أو باسم « بونيوم Bonium » (اسم الملك الفارسي الخيالي الذي يفترض المترجم الأسباني أنه ترجم من أجله الكتاب) . وترجم

في الوقت نفسه إلى اللاتينية ، اضطلع بذلك يوحنا دي بروشيدا Joannes de Procida (١٢٢٥ - ١٣٠٢ تقريباً) وكان من المترجمين في بلاط الملك فريدريك الثاني الذي كان له في صقلية مدرسة ترجمة تشبه مدرسة الملك الأسباني في مرسية وأشبيلية . وعن هذه الترجمة اللاتينية نقل الكتاب إلى الفرنسية في أوائل القرن الخامس عشر ، وطبعت هذه الترجمة طبعات كثيرة ، ومنها ترجم إلى الإنجليزية وإلى اللغة البروفنسالية .

ولا تهملنا مادة الكتاب الفلسفية المحضة ، وإنما علينا أن ننوه هنا بهذا القدر الكبير من الأمثال والحكم القصار والقصص ذات المغزى الفلسفي التي تضمنها كتاب « مختار الحكم » فقد كانت إلى جانب المجموعات القصصية العربية التي سبق أن أشرنا إليها مثل « كليلة ودمنة » ، و « السندباد » ، و « برلعام ويواصف » من الأسس التي قام عليها جانب عظيم من القصص الأسبانية والأوربية ذات المغزى الديني أو الفلسفي أو الصوفي . ونذكر منها مثلاً ما جاء في كتاب « مختار الحكم » حول أسطورة الاسكندر الأكبر (ذي القرنين) ، فقد أصبحت هذه الأسطورة محورا لعدد كبير من الأساطير والقصص الشعبية التي شاعت في أسبانيا وفي مختلف أنحاء أوربا متخذة أشكالا متعددة يضيق المجال هنا عن حصرها وتتبعها .

ونعرض أخيراً لشخصيتين أسبانيتين كان لهما نفوذ كبير في ميدان القصص الفلسفي والديني في اسبانيا . وأول هذين هو المؤلف الميورقي رامون لول Ramon Llull الذي تحول فجأة إلى الزهد والعبادة ومضى سائحاً في الأرض ، فحج إلى روما وإلى البقاع المقدسة في فلسطين ، وكرس ما بقي من عمره للتبشير بالمسيحية والدعوة إليها ومجادلة المسلمين واليهود ، ولهذا تعلم العربية ، بل أنه أنشأ مدرسة للغات الشرقية في « ميرامار Miramar » بجزيرة ميورقة (سنة ١٢٧٥) ومدرسة أخرى للهدف نفسه في روما ، وحمله حماسه للدعوة التبشيرية إلى التجوال في مختلف بلاد الإسلام ولاسيما أقطار الشمال الأفريقي وفلسطين والشام ، وقضى في باريس فترة يجادل الآخذين

بمبدأ الفيلسوف المسلم ابن رشد (سنة ١٣٠٩) ، وتوفي أخيراً في سنة ١٣١٥ ، واعتبرته الكنيسة الكاثوليكية أحد فديسيها .

ولرامون أول مؤلفات كثيرة شعراً ونثراً معظمها بلغته الأصلية : القطلانية (لغة منطقة قطلونيا المتاخمة لجنوب فرنسا) ، وفيها جميعاً يظهر الأثر العميق الذي خلفته في تفكير أول كتب المتصوفة المسلمين ولا سيما محي الدين بن عربي ، وابن سبعين المرسي وغيرهما ، وقد أثبت ذلك المستشرقان الأسبانيان خوليان ريبيرا وأسين بلاثيوس بما لا يحتاج معه إلى الإلحاح على هذه الناحية .

ولأنما ينبغي علينا أن نشير إلى جانب من جوانب تأليف رامون أول ترتب على كثرة مطالعته للكتب العربية ، وهو ولوعه في كتبه الجدلية باستخدام التمثيل على آرائه بقصص قصيرة يظهر فيها تأثيره بالمجموعات القصصية العربية مثل « كمليلة ودمينة » وغيرها من المجاميع التي كانت شائعة في الأندلس منذ عصر مبكر . بل إنه يفرد أحد كتب موسوعته الكبيرة التي سماها شجرة المعرفة Arbol de la Ciencia للأمثلة والمواعظ ، فيجعل له عنوان « شجرة الأمثال Arbol Exemplifical » .

وأدخل من ذلك في باب الأدب القصصي كتاب رامون أول : « الكافر والعلماء الثلاثة Libre del Gentil e los Tres Sairs » وقد ألفه بالقطلانية ، ثم بلغ من الشيوع حدا جعله يترجم في القرن الرابع عشر نفسه إلى العبرية واللاتينية والفرنسية والقشتالية (الأسبانية) ، وهو كتاب مستلهم من قصة « برلعام ويواصف » ، غير أن مؤلفنا يكيّف الكتاب على حسب وجهة نظره في الدفاع عن المسيحية ومحااجة خصومها فيتخذ من القصة ذريعة للمفاضلة بين الديانات الثلاث : المسيحية واليهودية والإسلام .

وارامون أول كتاب آخر يعتبر من خير مؤلفاته هو « بلانكرنا Blanquerna الذي يعتبر إلى حد ما لوناً من ألوان الترجمة الذاتية ، إذ أودعه كثيراً من

تفاصيل حياته ووجهات نظره في الحياة والمجتمع والدين واللاهوت على صورة شعرية خيالية تضيء على الكتاب طراوة وجمالا تفتقد لهما دائماً الكتب اللاهوتية المدرسية أو كتب المواعظ الأخلاقية .

وقد كان للكتاب ما كان لكتب رامون لول من شيوع ، فقد ترجم إلى القشتالية كما ترجم إلى الفرنسية خلال القرن الخامس عشر ، ولكن هذه الترجمة ما زالت مخطوطة في مكتبة باريس الوطنية .



وأما الشخصية الثانية فهي الراهب أنسلم دى تورميذا Anselm de Turmeda فقد كان ميورقياً مثل رامون لول ، وراهباً منتزحاً مثله إلى طائفة الفرنسيسكان ، وكان له مثل صاحبه أثر كبير وشعبية عظيمة في ميورقة وفي سائر جهات قطلونية ، ولكن بين الرجلين كذلك بونا بعيداً من الاختلاف ، فإذا كان لول قد كرس حياته لخدمة المسيحية ومناهضة الإسلام فإن تورميذا الذي بدأ حياته بالتبشير بالمسيحية لم يلبث أن اعتنق هو نفسه الإسلام ، وتسمى بعبد الله بن علي ، وأصبحنا نراه يؤلف بالعربية كتاباً له ذيوع عظيم بين مسلمي المغرب هو « تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب » .

وحياة أنسلم دى تورميذا غريبة حقاً ، ولد في ميورقة في منتصف القرن الرابع عشر ودرس في لاردة (من أعمال سرقسطة) ثم في بولونيا (إيطاليا) ، وانخرط في سلك الرهبنة ، ثم رحل إلى تونس ، وهناك اعتنق الإسلام ، والتحق بخدمة سلاطين تونس فاشتغل بالترجمة ، لهم ، وولوه على مكوس تونس ، وتوفي في نحو سنة ١٤٢٠ ، وأصبح الناس يعدونه في تونس من أولياء الله المقربين وما زالت ذكراه باقية إلى اليوم هناك .

وعلى الرغم من ذلك فإن لتورميذا كتاباً بالقطلانية لم يحل إسلامه بينه وبين الديوع والانتشار في مسقط رأسه بجزيرة ميورقة ، منها كتاب « التعاليم الصالحة » وكتاب آخر ألفه شعراً في تاريخ مملكته ميورقة ، وهما كتابان

ظلا يتدارسان في الجزيرة حتى منتصف القرن التاسع عشر : على أن الذي يهمننا من إنتاج هذا الراهب المتحول إلى الإسلام هو كتاب « مجادلة الحمار للراهب أنسلم دى تورميديا » الذي انتهى من تأليفه في ١٥ سبتمبر سنة ١٤١٨ .

والكتاب خرافة بديعة يتخيل فيها المؤلف نفسه وقد تاه في غابة ، ثم إذا هو يلتقى بجمع كبير من مختلف أجناس الحيوان وقد فرغت لتوها من انتخاب الأسد ملكا عليها . ويقاد تورميديا إلى محضر ملك الحيوان متهماً بأنه يقول بفضل الإنسان على أجناس الحيوان ، ويأمر الملك بعض أفراد رعيته بالرد على حمجج الراهب الميورقي ، وينتدب لذلك الحمار ، ويدور الحوار الطريف بعد ذلك في المفاضلة بين الجنسيتين ، وتشترك في الحوار دواب أخرى ، وبعض أنواع الحشرات ولكن الحمار هو الذي يفند آراء صاحبه في بيان مشرق وذكاء ناصع .

وقد أثبت أسين بلاثيوس في كتابه « آثار الإسلام » أن كتاب تورميديا ينقل فصولاً برمتها من رسائل أخوان الصفا ، على أن الذي يهمننا أكثر من ذلك هو كون الكتاب معروضا في قالب حوار قصصى طريف يدل على ملكة روائية أصيلة ، فقد استغل تورميديا حاجة الحمار له في أنه قدم لنا على لسان غريمه مجموعة من القصص التي تدحض فضل الإنسان وتدمغه بالاقبال على الرذائل وعصيانته لأوامر الله بما لا مثيل له في الأجناس الحيوانية . وقد جعل تورميديا هذا الحوار في خدمة هدفه من الكتاب وهو مهاجمة المسيحية والنقد اللاذع للكنيسة والرهبان ممن يتخذون من مسوح الدين ستاراً لارتكاب كل خطيئة ، والسخرية الجارحة من المجتمع المسيحي في عصره . وهو في هذه القصص من الدقة والواقعية بحيث يذكر أسماء أبطالها وأماكن حدوثها في ميورقة وقطلونية مما يحمل على الظن أنها لم تكن كلها من نسج خياله .

وقد ترجم كتاب أنسلم دى تورميديا إلى الفرنسية وطبع في ليون سنة ١٥٤٨ ، وظهرت معارضات له بالفرنسية بعد نشره بقليل مثل كتاب

« انتقام الحيوان من الراهب انسلم دى تورميديا » الذى ألفه ماتوران موريس Mathurin Maurice (باريس ١٥٥٤) أما الأصل القطلانى للكتاب فقد ضاع وإن كان من المؤكد أنه طبع فى برشلونة سنة ١٥٠٩ ، ويبدو أن السبب فى ضياعه هو مصادرة السلطات الكنسية له .

والكتاب أول ثمرات الكتابة القصصية فى اسبانيا ومن أكثرها حظاً من النيووع والانتشار فى أوربا ، هذا على الرغم من غرابة الظروف التى ألف فيها ، ومن حياة مؤلفه الفذة المتقلبة التى بدأها راهباً مسيحياً ونحتمها ولياً مسلماً ، ومع ذلك فقد قدر لثرائه الخلود سواء فى ذلك ما كتبه فى مسيحيتيه أو اسلامه .

(٨)

وقد تركنا إلى نهاية هذا البحث الحديث عن موضوعين مازالا مجال أبحاث طويلة وجدل كثير متشعب بين المدارسين .

أما أولهما فهو مدى ما باشرته مجموعة قصص « ألف ليلة وليلة » على الآداب الأوربية فى العصور الوسطى ومشارف العصور الحديثة . فقد كان رأى الشائع بين العلماء هو أن هذه المجموعة الضخمة التى تعتبر أعظم ثمرات الفن القصصى الشعبى العربى وأكثرها تنوعاً وابداعاً لم تؤثر فى الآداب الأوربية إلا منذ أن قام الأديب الفرنسى أنطوان جالارد بترجمة فصول منها إلى الفرنسية فى سنة ١٧٠٤ . غير أن الدراسات الكثيرة المتأخرة قد اتجهت إلى نقض هذا الرأى والإيمان بأن نفوذ هذه القصص العربية أقدم من ذلك بكثير .

والمسألة على كل حال فى غاية من الصعوبة والتعقيد ، فقصاص ألف ليلة وليلة ليست من طراز الكتب التى يتمكن الباحث من معرفة مؤلفها وثقافته والأصول التى اعتمد عليها فى كتابته إياها ومدى انتشارها واستفادة غيره منها « فآلف ليلة وليلة » من التراث الشعبى السفولكلورى الذى

لا يمكن القطع في مصادره وماهية مؤلفيه برأى ، فهو مجموعة من القصص المتنوعة التي تعاونت على كتابتها أجيال من القصاص في عصور مختلفة وأمكنة تكاد تتسع إلى العالم الإسلامي العربي بكل امتداده . بل إن نص هذه المجموعة لم يعرف حتى الآن كاملاً متسقاً ، فمخطوطاتها الكثيرة المشبوبة في مختلف أنحاء العالم لا تكاد تتفق فيما بينها ، وهذا أمر طبيعي في أدب يدخل في نطاق التراث الفولكلوري ، وحتى جالان نفسه لم يترجم إلا ما وصل إليه منه ، والباحثون الذين توفروا على دراسة بعض قصص المجموعة وردها إلى هذا الأصل أو ذاك لم يصلوا إلى نتائج ، وإنما انتهوا إلى فروض لا يمكن التحقق من صحتها ، وهذا ما يحتم علينا أن نعالج مسألة « ألف ليلة وليلة » ونفوذها المحتمل في الآداب الأوروبية قبل القرن الثامن عشر في حذر شديد .

غير أن المؤكد هو أن قصصاً متفرقة من « ألف ليلة وليلة » كانت معروفة شائعة في الشرق العربي قبل أن تتناولها أيدي القصاص المصريين بالتهذيب والتحرير الأخير أوائل القرن السادس عشر كما يرى غالبية الدارسين . وإذا تحدثنا عن نفوذ مجموعتنا القصصية في الآداب الأوروبية فإنما نغني هذه القصص المنقولة لا المجموعة كلها كما نعرفها اليوم .

وإلى أول مثل لهذه القصص هي حكاية الجارية تودد التي رأى الباحث الأسباني مننث بيلايو في كتابه « أصول الرواية » أنها هي الوحيدة التي يمكن القطع بانتقالها المبكر إلى الأدب الأسباني وتأثيرها فيه . ولا يخلو ذلك من غرابة ، فإن هذه الحكاية بالذات من أردأ قصص « ألف ليلة وليلة » مما جعل أنطوان جالان يغفلها فالحيط القصصى فيها واه ، وهو يكاد يقتصر على كونه ذريعة لتلك المناظرات التي دارت بين الجارية وبين كبار العلماء في بلاط هارون الرشيد والتي انتهت بغلبة تلك الجارية عليهم جميعاً . أما المناظرات نفسها فهي ثقيلة حافلة بالتعاليم المضحكة . ويبدو أن كاتب القصة أراد أن يودعها ما يشبه أن يكون موسوعة مختصرة في سائر العلوم من الفقه وعلم الكلام إلى الطب والموسيقى والشطرنج .

ومع ذلك فقد كان لهذه الحكاية شعبية كبرى في الأدب الأسباني ، فقد طبعت ترجماتها الأسبانية والبرتغالية عشرات الطبعات ابتداء من سنة ١٥٢٤ ، وأقدم ترجمة اسبانية لها هي المنسوبة إلى من يدعى « ألفونسو الأراغوني Alfonso Aragonis » ويبدو أنه كان أديبا مسلما عاش في القرن الرابع عشر . وقد حرف اسم البحارية تحريفا قليلا حتى يتلاءم مع شبيهه الأسباني « تيودور Teodor » . وقد نشر هرمان كنوست نص الترجمة الأسبانية عن مخطوطين في مكتبة الأسكوريال سنة ١٨٧٩ ، وهو نص ألحق ببعض الأصول الخطية لترجمة « مختار الحكم » لمبشر بن فاتك الذي عرف في الأسبانية باسم « Bocados de Oro » .

وبلغ من شعبية هذه الحكاية وذيوعها في الأدب الأسباني أن عمدا إلى نقلها إلى خشبة المسرح الكاتب الكبير أعظم من عرفتهم أسبانيا في عصرها الذهبي من المؤلفين المسرحيين : لوبي دى فيجا Lope de Vega (١٥٦٢ - ١٦٣٥) تحت عنوان « البحارية تيودور La doncella Teodor » .

وعلى كل حال فإن القصة كما ذكرنا قد عرفت في الأدب الأسباني منذ القرن الرابع عشر ، بل إننا نجد خلاصتها في كتاب « التاريخ العام Crónica General » الذي ألفه الملك ألفونسو العالم في القرن الثالث عشر أى قبل أن يتم جمع قصص « ألف ليلة وليلة » بالشكل الذي نعرفه بزمان طويل . وهذا نفسه يدل على أن قصصا كثيرة مفردة من هذه المجموعة قد عرفت في الأندلس منذ عهد مبكر .

بل إننا نجد في المجموعة المطبوعة التي بين أيدينا قصصا كثيرة متعلقة بالأندلس وفتحها على يد موسى بن نصير والعجائب التي رآها فيها ومن بينها مدينة النحاس وغيرها ، وهي قصص نجد أصولها الأولى فيما كتبه بعض الرحالة المتقدمين عن الأندلس مثل ابن خرداذبة وابن الفقيه وابن رسته ، وكذلك في « تاريخ » عبد الملك حبيب الألبيري (المتوفى سنة ٢٣٨ - ٨٥٢)

وفي الإمامة والسياسة « المنسوب إلى ابن قتيبة والذي أثبتت بعض الأبحاث الأخيرة أنه لمؤلف مصري عاش في القرن التاسع الميلادي وكان من نسل موسى ابن نصير نفسه. فقد عرفت ترجمة هذه القصة في الأدب الموريسكي الذي كتبه هؤلاء المسلمون عن بقية الشعب الأندلسي وهي بعنوان « قصة مدينة النحاس والقماقم Estoria de la ciudad de Alton y de los alcancames وقد نشرها المستشرق الأسباني ادوارد سافيدرا في مدريد سنة ١٨٨٢ ، وهي تتفق تماما مع القصة كما هي مروية في « ألف ليلة وليلة » .

وقد ضرب منندث بيلايو في كتابه الذي أشرنا إليه أمثلة أخرى الشعبية للتشابه القوي بين بعض قصص « ألف ليلة وليلة » وعدد من القصص الأسبانية التي شاعت خلال القرن السادس عشر مثل قصة « كلاماوس وكلاريموندا Clamades et Clarimonda » التي يدور جانب منها حول الحصان السحري الطائر ، كما نرى تماما في إحدى قصص مجموعتنا العربية ، وكذلك قصة « بير دي بروفنسا وماجالونا الجميلة Pierres de Provenza et la Linda Magalona » التي يلاحظ تشابهها القوي بقصة قمر الزمان والأميرة بدور .

ويمكن لنا أن نضيف إلى الأمثلة التي ساقها منندث بيلايو عشرات الأمثلة الأخرى مما لا يكفي تفسيره بمجرد التوافق بين الأخيلة الشعبية في عالم العصور الوسطى ، على أنه من العسير القطع بشيء في هذه الناحية قبل القيام بدراسات مفصلة لحزئيات كل قصة والتحقيق من انتقالها إلى أسبانيا المسيحية أو غيرها من بلاد الغرب وكيفية هذا الانتقال ، غير أننا نسجل هنا بوجه عام أن الأدب القصصي الأسباني منذ القرن الرابع عشر وحتى السابع عشر حافل بمظاهر التأثير العميق مجموعات القصص العربية : ألف ليلة وليلة غيرها بما لا مجال للشك فيه . وقد نبهنا من قبل مثلا على التشابه الغريب بين بعض الشخصيات النسائية في « قصص الشطاره Novela Picaresca » الأسبانية التي بلغت أوجها خلال القرن السابع عشر وبعض شخصيات ألف ليلة وليلة

مثل زينب النصابة ودليلة المحتالة ، مما يدل على إمكان تأثر الكتاب الاسباني بروايات كثيرة لعلها كانت تتناول شفاها في الأوساط الشعبية الاسبانية : روايات يختلط فيها أثر المقامات العربية بأثر مجموعة « ألف ليلة وليلة » وغيرها .



[1] أما الموضوع الثاني فهو أن ما دعونا « الوجود » العربي الإسلامي لم ينته باستيلاء الملكيين الكاثوليكين على غرناطة ومما كتبت سنة ١٤٩٢ ، بل ظلت جماعات كبيرة من المسلمين المدجنين Mudejares والموريسكيين Moriscos في كل نواحي اسبانيا ، على الرغم من كل القوانين المحيطة التي سنتها الكنيسة الكاثوليكية لاضطهادهم وتعقبهم . ولما كان هذا الشعب المسلم هو الذي يضطلع بالشطر الأعظم من النشاط الحيوي في اسبانيا من زراعة وتجارة وصناعة فإن كثيرا من النبلاء والاقطاعيين المسيحيين كانوا يجتهدون في الحفاظ على رعاياهم المسلمين وإلغاء القوانين المتوالية التي كانت تصدر بطردهم من اسبانيا أو تأجيلها . واستمر ذلك حتى أصدرت السلطات قرارات طردهم النهائي بتن سنتي ١٦٠٥ و ١٦١٤ ، وهكذا رحلت منهم جماعات كثيرة يقدرها البعض بأكثر من نصف مليون إلى بلاد الاسلام في شمال افريقيا وغيرها . وآثر البعض التظاهر بالتنصر حتى يضمّنوا بقاءهم في اسبانيا . وكان هؤلاء الذين يدعون بالموريسكيين قد تمثّلوا في ذلك الوقت اللغة والثقافة الاسبانية ، فكانوا يكتبون ويفكرون بها وإن لم ينسوا تقاليدهم الاسلامية وتراثهم الشعبي الأندلسي . ومن الطبيعي أن يعين هؤلاء بحكم معيشتهم للشعب الاسباني المسيحي على نقل كثير من ثمرات تراثهم إلى الفكر الاسباني .

وقد ظل أدب الموريسكيين الذين كتبوا باللغة الاسبانية وإن كانوا قد استخدموا الحروف العربية (وهو ما يعرف بالأدب المستعجم Literatura Aljamiada - مجهولا في الأوساط العلمية حتى بدأ الاهتمام به والبحث عن مخطوطاته منذ منتصف القرن التاسع عشر . وكان الكشف عنه حدثا

عظيما في تاريخ الأدب الاسباني ، إذ يمكن أن نجد فيه حلقة جديدة من حلقات الاتصال الوثيقة بين الفكر العربي من ناحية والاسباني والأوربي من ناحية أخرى . ويزيد من أهميته وخطره أنه يمثل آخر حلقات هذا الاتصال في فترة بدأت الحضارة الأوربية فيها تأخذ سبيلها إلى الاكتمال والنضوج .

ولقد نشر المستشرق جين روبلس Guillen Robles بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ ثلاثة مجلدات كبار بعنوان « أساطير موريسكية Legendas Moriscas » نقلها عن بعض المخطوطات التي عثر عليها في اسبانيا مما كتبه أفراد هذه الطائفة الإسلامية .

ويدل استقراء هذه المجموعة على أن كثير منها يمكن أن يسلك في القصص الديني أو الوعظي مثل الأحاديث الخاصة بالسيرة النبوية والمغازي ، و « قصة عيسى والجمجمة » أو قصص الأنبياء مثل أيوب وموسى ويوسف وغيرهم ، والقصص المتنوعة المتعلقة بصدر الاسلام وبأبطاله مثل عمر بن الخطاب وعلى ابن أبي طالب (ومن أهم هذه القصص قصة قصر الذهب والثعبان وحديث علي مع الجواري الأربعين) .

ويشيع في هذا الفن القصصي الذي حفظه لنا الزمن من أدب الموريسكيين اهتمام كبير بقصص الفروسية . ونحن نرى أن هذا النوع من القصص كان شائعاً في الأندلس العربية منذ زمن بعيد ، بل إن أول قصصي نعرفه في الأندلس منذ القرن العاشر الميلادي كان على ما يبدو منتبهاً إلى هذا النوع . رأينا ذلك في تلك القصص التي قدمها إلى المنصور بن أبي عامر أدباء مثل صاعد البغدادي وابن الكتاني المدحجي وحسان بن مالك بن أبي عبدة ، وهذا أمر منطقي إذا قدرنا أن هذه الفترة كانت تتميز بصراع شديد بين الاسلام والمسيحية ، ولكنه كان صراعاً فيه كثير من مظاهر الفروسية الحقة . وهذا هو في نظرنا ما يفسر رواج تلك القصص الفروسية في عصر المنصور بن أبي عامر بالذات ، واستمر اهتمام الأندلسيين بهذه الكتب ، سواء ما ألف منها في الشرق مثل

قصة « عنتر » أو ما كتبه بعض الأدباء الشعبيين في هذه البلاد وكان هذا النوع الأخير مجموعة من اثنتي عشرة قصة يشتمل عليها أحد مخطوطات الاسكوريال، وقد اهتم بهذه المجموعة المستشرق الاسباني فرنانديث جرنثالث Fernandez y Gonzalez فنشر ترجمة اسبانية لها في سنة ١٨٨٢ . وتعتبر أول هذه القصص وهي المدعوة « حديث زياد بن عامر الكتاني وما جرى عليه من العجائب والغرائب بقصر اللوالب » من أجمل نماذج هذا اللون القصصي، وهي تروى لنا مولد زياد ورياضاته الفروسية الأولى ، وغرامه بالفارسة الحميلة سعدى ومنازلته لها حتى غلبها ، ثم أسفاره ولقاؤه للأميرة قوس الحسن وما رآه من عجائب في الجنة المسحورة في قصر الجوهرة وفكه لسراح الأميرات الثلاث ومغامراته مع الظبية الحميلة وفتح مدينة المحوس واعتناقه الاسلام وغير ذلك .

وقد كان اهتمام الموريسكيين بقصص الفروسية امتدادا لهذا الاتجاه ، ولا بد أن يكون لهم يد في ظهور كتب الفروسية الاسبانية التي استلها كتاب « أماديس دي جاولا Amadis de Gaula » (نشر في سنة ١٥٠٨) والتي كان لها ذبوع كبير طوال القرن السادس عشر حتى جعلها ثيرفانتيس موضع سخريته اللاذعة في روايته الرائعة « دون كيخوتي » التي تمثل أعظم قمم الأدب الاسباني .

على أن تبين العناصر العربية في هذا اللون الممثل للفروسية من القصص الذي يزخر الأدب الأوربي به خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ما زال يحتاج إلى دراسة وافية لم يضطلع بها أحد حتى الآن .

(٩)

ولا بد لنا في نهاية الحديث من الكلام عن شخصيتين كبيرتين من شخصيات عصر النهضة في إيطاليا ، ممن يتمثل فيهم ما استفاده الفن القصصي الوليد في أوربا من التراث العربي والاسلامي .

أولهما الكاتب العبقري دانتى الليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١) الذى يعتبر بحق من أكبر مفاخر عصر النهضة ، ولسنا فى حاجة إلى بيان ما تمثله « الكوميديا الالهية » (١) فى أدب عصر النهضة من مكانة . وهى أن تكون فى شكلها شعراً من نوع خاص فإنها تشتمل على عناصر قصصية كثيرة .

ولم يكن أحد ممن توفروا على دراسة دانتى قد تنبه إلى إمكان تأثيره بمصادر عربية اسلامية حتى طلع المستشرق الاسباني الكبير ميغيل أثين بلاثيوس Miguel Asin Palacios بنشر دراسته الممتعة « قصة الاسراء والمعراج » الاسلامية وأثرها فى الكوميديا الالهية Escatalogia Musulmana en la Comedia Divina (مدريد ١٩١٩) . وخلاصة هذه الدراسة أن دانتى استقى فكرة الكوميديا الالهية من مصادر اسلامية هى قصة إسراء الله برسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد الأقصى ثم « عروجه » إلى السماء ، وما أحاط بذلك من أساطير اسلامية . وتتبع أسين بلاثيوس رحلة دانتى ومشاهداته فى الجحيم والمطهر والفردوس موازناً بينها وبين ما هو مذكور فى الأساطير الاسلامية ، منتهياً إلى أن هناك تشابهاً لا يمكن أن يرد إلى اتفاق عفوئى ، وهو اتفاق ليس فى الخطوط العامة فحسب ، بل فى تفاصيل المشاهدات وفى المعانى الرمزية الأخلاقية التى قصد إليها دانتى ، إذ نرى كثيراً منها فى تفاسير الصوفية المسلمين لقصة المعراج ، ولا سيما فيما كتبه ابن عربى المرسى (١١٦٤ - ١٢٤٠) فى مؤلفه الكبير « الفتوحات المكية » .

ولا نطيل هنا بضرب أمثلة وشواهد على هذا التطابق الغريب بين الكوميديا الالهية وما جاء فى المصادر الاسلامية ، ويكفينا أن نحيل على دراسة أسين بلاثيوس وعلى موجز طيب للجديد من آرائه فى الفصل الخاص بدانتى والاسلام من كتاب أنخل جونثالث بالنشيا « تاريخ الفكر الأندلسى » (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) .

(١) ترجمها إلى العربية د . حسن عثمان (دار المعارف)

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى تطور البحث في هذا الكشف الجليل الذي يعود فضله إلى المستشرق الأسباني العظيم ، فقد أثارت آراؤه عاصفة من الجدل والنقد الشديد ، ولا سيما من قبل أولئك الذين كانوا عز عليهم أن يروا دانتى عملاق أدب عصر النهضة الأوربية آخذاً عن مصادر عربية اسلامية ، وكأن ذلك مطعن في عبقريته وقدرته الخلاقية . وظل الجدل محتدماً حول الكيفية التي وصل إلى علم دانتى بها الاطلاع على كتابات العرب والمسلمين عن قصة الإسراء والمعراج . وكان أسينى بلاثيوس قد تنبه إلى أنه سيطلب بدليل يثبت ما يقول ، فخصص القسم الرابع من بحثه لدراسة « إمكانية انتقال النماذج العربية حول قصة المعراج إلى أوربا المسيحية وإلى دانتى بصفة خاصة » ، وتحدث فيه عن الصلات الوثيقة بين إيطاليا المسيحية والعالم العربي الإسلامي بحكم التجارة والحج إلى الأراضي المقدسة والحروب الصليبية ، ثم أشار إلى الدور الذي قامت به صقلية الاسلامية باعتبارها حلقة اتصال بين الاسلام والمسيحية ، ثم قيامها بمثل هذا الدور بعد غلبة النورمان عليها ، ومن المعروف أن بلاط ملوك النورمان كان يشتمل على كثير من العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود ممن قاموا بحركة واسعة النطاق في نقل العلوم العربية إلى اللاتينية . وأشار كذلك إلى الدور المعروف الذي اضطلعت به الأندلس الاسلامية في ذلك وإلى مدرسة المترجمين في طليطلة وإلى المدارس التي أنشأها الملك الأسباني ألفونسو الحكيم للغرض نفسه ، وكل تلك عوامل لا بد أن تكون قد ساعدت على نقل الأحاديث والأساطير الاسلامية حول المعراج إلى إيطاليا ، ونبه أسينى بلاثيوس بصفة خاصة إلى أن أستاذ دانتى ومعلمه « برونيتولايني Brunetto Latini » كان متشبعاً بالثقافة العربية ، بل إنه اضطلع في سنة ١٢٦٠ بسفارة معروفة إلى بلاط قشتالة التي كان يحكمها في ذلك الوقت ألفونسو الحكيم نفسه ، وهكذا أتاحت له الفرصة لكي يتعرف على نحو مباشر ببعض العلماء المسلمين الذين كانوا يعملون في خدمة الملك العالم والذين كانوا يشتركون مع غيرهم في ترجمة المعارف العربية إلى اللاتينية والاسبانية ،

ثم إن حديث دانتي نفسه عن العلماء العرب في الكوميديا الإلهية أو غيرها من كتبه يدل على احترام كبير ، كما نرى في كلامه عن أبي معشر الفلكي والفرغاني والبطروحي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد ، بل نجد مثل ذلك في إشاراته إلى صلاح الدين الأيوبي الذي كان يمثل عدو المسيحية الأول في العصور الوسطى .

وعلى الرغم مما ساقه أسين بلاثيوس من حجج ، فقد بقي في نفوس كثير من الباحثين ولاسيما في إيطاليا شك من أمر هذه الصلة المحتملة بين دانتي ومصادر الثقافة العربية . وظل الأمر كذلك حتى سنة ١٩٤٩ حينما أتى كشف جديد قيلت به الكلمة النهائية القاطعة في ذلك الجدل . فقد عثر الباحث الأسباني خوسيه مونيوث سندينو José Muñoz Sendino على المخطوطات الثلاثة : القشتالية (الأسبانية) واللاتينية والفرنسية لترجمة قصة المعراج الإسلامية العربية ، وكان الملك ألفونسو الحكيم قد أمر بترجمتها إلى هذه اللغات عن الأصل العربي ، وتم نشر هذه النصوص الثلاثة في مدريد سنة ١٩٤٩ تحت عنوان : La Escala de Mahoma (أي معراج محمد) ، ويلاحظ أن الترجمتين الفرنسية واللاتينية هما اللتان عثر عليهما كاملتين أما الأسبانية فقد ضاعت ، وإنما بقي موجزها مخطوط في مكتبة الأسكوريال هو الذي استعاض به الناشر عن الأصل المفقود . وهكذا أصبح أمام الباحثين الدليل المادي القاطع على أن دانتي قد تمكن بالفعل من الاطلاع على إحدى الترجمتين اللاتينية أو الفرنسية لقصة المعراج ، وهو دليل لم يكن يوسع أثين بلاثيوس أن يقدمه حينما نشر نظريته الثورية التي كانت تقوم على ما يشبه الألهام والتنبؤ ، وإن كان قد ساق في الدفاع عنها براهين نظرية مقنعة . ومن أسف أن هذا الدليل الحاسم لم يأت إلا بعد أن كان أسيني بلاثيوس قد انتقل إلى جوار ربه .

وفي نفس الوقت نشر الباحث الدانتي الإيطالي انريكو تشيرولي Enrico Cerulli ترجمة إيطالية للنصين الجديدين مع بحث واف للمسألة من

وجهة النظر الجديدة وعلى ضوء هذا الاكتشاف الأخير تحت عنوان « كتاب
المعراج ومسألة الأصول العربية للكوميديا الآلهية Il libro della Scala e la
Questione della Fonti Arabo spagnole della Divina Comedia
(مدينة الفاتيكان سنة ١٩٤٩) . وقد أوجز المستشرق الإيطالي ليفي دلافيدا
Leir della Vida الاتجاه الجديد في البحث حول هذه الناحية بقوله
معلقاً على كتابي مونيوث سندينو وتشيرولي :

« اليوم لم يعد هناك مجال لأي شك في هذه الحقيقة : وهي أن كتاب
المعراج الذي كان بوسع العالم اللاتيني الاطلاع عليه بلغتين أو ريتين (يعني
اللاتينية والفرنسية) إن لم يكن بثلاث (أي باضافة الاسبانية) ما كان ليبقى
بعيداً عن متناول دانتى ، وإلا كان أمراً خارجاً عن المنطق المعقول . وهكذا
يتأكد لنا اليوم أن نظرية أسين بلاثيوس قد أصبحت فوق مستوى النقاش .
إن القضية لم تعد قضية إمكان إطلاع دانتى على المصادر العربية ، وإنما هي
قضية حقيقة ينبغي التسليم بها » .



والشخصية الثانية من شخصيات عصر النهضة ممن يستحقون منا وقفة
خاصة هو : جوفاني بوكاتشو Giovanni Bocaccio (١٣١٣ - ١٣٧٥)
الذي يمثل في النثر الأدبي الإيطالي ما يمثله دانتى في الشعر ، بل إنه يعتبر أحد
خالقي الحركة الإنسانية في الأدب الأوربي الجديد الذي بشر به عصر النهضة .
وأهم هذه القصص تلك المجموعة التي تتألف من مائة قصة والتي سماها : -
« الديكاميرون Il Decamerone » (أي الليالي العشر ، إذ أنه ساقها
على ألسن عشرة أشخاص (سبعة رجال وثلاث نساء كانوا قد هربوا
من الطاعون المتفشى في إيطاليا وفي جميع بلاد البحر الأبيض في سنة ١٣٤٨
(وهو الطاعون الذي اختصه الكاتبان الأندلسيان لسان الدين بن الخطيب
الغرناطي وتلميذه ابن خاتمة المرى برسالتين مازالتا مخطوطتين ، ولجأوا

إلى قرية صغيرة يقضون فيها أياماً حتى تخف حدة الوباء . وتتميز قصص هذه المجموعة بالجرأة والحديث المكشوف عن الحب الحسى وبنزعة متحررة تهاجم رجال الدين في عنف وسخرية لاذعة . وتعتبر هذه القصص صوراً واقعية صادقة للمجتمع الإيطالي في القرن الرابع عشر ، وأسلوب بوكاتشو يفيض حيوية وبساطة ، ودقة ملاحظة . ولبوكاتشو كتب أخرى من أهمها كتاب «الكرباج Il Corbaccio» وهو في مثالب النساء ، كما أن له تعليقات على الكوميديا الإلهية لدانتى .

والذى يتأمل مجموعة قصص بوكاتشو لا يسعه كذلك إلا ملاحظة التشابه الكبير بينه وبين مجموعات القصص العربية ، سواء في الشكل العام أو في تفاصيل كثير من الحكايات . أما الشكل العام فإن الذريعة التى اتخذها مبرراً لحكاية القصص المائة تشبه إلى حد كبير ما نراه في بعض المجموعات العربية مثل قصة الوزراء السبعة في « ألف ليلة وليلة » وهى قصة ذاعت واشتهرت في الأندلس قبل أن تأخذ مكانها في مجموعة الليالى الألف . وأما التفاصيل فإن هناك قصصاً كثيرة في مجموعة بوكاتشو من مصادر عربية وإن كانت يد الأديب الصناع قد تصرفت فيها وجعلتها في قالب أوربى أو إيطالى ، ونحن نرى عدداً من الحكايات حول صلاح الدين الأيوبي وغيره من أمراء المسلمين ، ونلاحظ فيها ما كان يمكنه الكاتب الإيطالى من إجلال للقائد المسلم الكبير وإعجابه به ، وهو في هذا يتفق مع دانتى في تقديره لهذا الزعيم الذى كان خصم المسيحية الأول ، كما يتفق أيضاً مع معاصره الأسباني خوان مانويل الذى كتب عنه بمثل هذه الروح ، ويبدو في هذه القصص ما باشرته الحروب الصليبية من تعريف لأوربا بكثير من مظاهر الحياة في المجتمعات الإسلامية وشخصيات قادتها . كما أننا نرى طائفة أخرى من القصص يظهر أنها انتقلت إلى إيطاليا عن طريق الأندلس الإسلامية .

والإلحاح في قصص بوكاتشو على مثالب النساء والحديث عن كيدهن وخياناتهن يبدو أيضاً مما تأثر فيه بطائفة من القصص العربية التى كانت كثيرة

التناقل في الشرق والأندلس على السواء. وقد رأينا أمثلة لذلك في بواكير
الفن القصصي الأسباني، هذا وإن لم يكن ما نذكر عن احتمال تأثير بوكاتشو
بتلك القصص العربية حاثلاً بينه وبين واقعية صورته وإمكان استيعابه
نماذجها وأبطالها من الحياة الإيطالية في عصره.

وعلى الحملة فإن هناك كثيراً من التشابه بين قصص بوكاتشو وما نجده
في المجموعات العربية، وهذه ناحية جديرة بدراسة تحليلية مقارنة لم تتم حتى
الآن.

شعر الملاحم والمسرح

تركنا في نهاية هذه الفصول الحديث عن الآثار المحتملة
للأدب الغربي في فنى الشعر الملحمى والمسرح لأن هذين
الجانبين هما أكثر جوانب الاتصال بين الأدب العربى والآداب
الأوروبية غموضاً وأقلها نصيباً من عناية الدارسين .

(٨)

أما الشعر الملحمى فإن أصوله في أوروبا مغرقة في الغموض ، ولم تكشف
أبحاث المتخصصين حتى الآن عن رأى يطمأن إليه . فإذا تأملنا الشعر الملحمى
في أسبانيا — وهى أقرب بلاد أوروبا بطبيعة وضعها إلى التأثير بالفنون العربية
وجدنا أن ظهور أول ملحمة أسبانية (وهى ملحمة السيد El Poema del Cid)
قد تأخر عنه في فرنسا وجرمانيا حتى منتصف القرن الثانى عشر ، لذلك كثر
الجدل حول أصل الملحمة الأسبانية أهو فرنسى أو جرمانى ، وكان الباحثون
يستبعدون دائماً احتمال وجود أصول عربية للشعر الملحمى سواء في أسبانيا
أو غيرها ، إذ كان الذى استقرت عليه آراء المستشرقين دائماً هو أن العرب
لم يعرفو الشعر الملحمى أصلاً ، ولهذا فإنه من العبث البحث عن مؤثرات
عربية في نشوء هذا اللون من الشعر . وكل ما سلم به منتدث بيدال هو أن
هناك ألفاظاً وتعابير عربية كثيرة تشيع في الملحمة الأسبانية بحكم التعايش
العربى الأسبانى وكذلك بعض التقاليد المتبعة في أحداث القتال مثل أداء خمسة
الغنيمة إلى الملك أو صاحب السلطان .

وفي سنة ١٩١٥ طلع المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا Julien Ribera برأى جديد في هذا الميدان: هو أن الشعر الملحمي الأسباني ذو أصول أندلسية إسلامية هي مزيج من الثقافة العربية واللاتينية الدارجة ، وهي أصول نرى بقايا لها في الكتب الأندلسية التي ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وإذا كنا لا نملك الآن نصوصاً لهذه الأغاني الملحمية فإن ضياعها لا يقوم بحجة على عدم وجودها أصلاً ، وعلى كل حال فإننا لو تأملنا الروايات التاريخية التي بسوقها الكتاب الأندلسيون والمسلمون - وأوضح مثل لهم هو ابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس - لرأينا فيه كثيراً من حكايات البطولة ذات الطابع الملحمي ، مما يحمل على افتراض كون هذه الحكايات قد أدخلت نثراً في كتب التاريخ ، بعد أن كانت منظومة شعراً يتغنى به الشعب الأندلسي سواء مسلموه أو مسيحيوه .

وقد ضرب ريبيرا أمثلة على ذلك ؛ فساق كثيراً من الأخبار الواردة في كتاب ابن القوطية مما يحمل هذا الطابع الملحمي مثل حديث أرطباش أول قومن (كونت) في الأندلس ومثل حديث موسى بن موسى القوى الثائر على الأمير محمد بن عبد الرحمن في سرقة سطة والثغر الأعلى ومغامراته لصهره أزراق بن متيل صاحب مدينة وادي الحجارة .

وأشار ريبيرا إلى أن العرب الأندلسيين أنفسهم نظموا كثيراً من أخبار فتح الأندلس ووقائع هذا الفتح وأحداثه ، وقد كان من بين الشعراء الذين أسهموا في هذا الميدان يحيى بن الحكم الغزال وتمام بن عامر بن علقمة وغيرهما ممن برزوا في القرن التاسع الهجري .

والحقيقة هي أن الفكرة الجديدة التي دلت عليها ريبيرا بكثير من الشواهد والحجج جديدة بالتصديق أو بمناقشة جديدة بما كانت اليوم أقرب إلى التوصل إلى نتيجة مؤيدة لرأيه مما كان عليه الأمر في عهد ريبيرا ، فقد نشرت منذ أن نادى ريبيرا برأيه حتى الآن نصوص أندلسية جديدة نرى فيها ما يؤيد

كلامه ، ومن أهمها قطعة من جغرافية العذرى نشرها الدكتور عبد العزيز الأهواني (معهد الدراسات الإسلامية بمطرد سنة ١٩٦٥) ، وفيها نرى هذا المؤرخ الجغرافى ينقل عن الرازى (وهو مؤرخ أندلسى عاش فى القرن العاشر) أخباراً كثيرة ملحمة الطابع تماماً مما وقع فى الأندلس خلال القرنين التاسع والعاشر ، كذلك نشر خلال السنوات الأخيرة ديوان للشاعر الأندلسى ابن دراج القسطلى (بتحقيق محمود على مكى - دمشق ١٩٦١) ، ونرى فيه عدداً كبيراً من القصائد التى تصف غزوات المنصور بن أبى عامر وانتصاراته على إسبانيا المسيحية بصورة تسمح بأن ندرجها فى باب الأدب الملحمى . وهو أدب يتميز بما تميزت به الملحمة الإسبانية الكبرى من بعد ، نعى « ملحمة السيد » بما فيها من إنسانية وواقعية وبعد عن استخدام العناصر الجغرافية لتشويق المستمع ، وهذا هو الطابع البدائى فعلاً للملاحم الأوربية القديمة سواء منها الإسبانية أو الفرنسية .

وقد كانت البيئة الأندلسية بطبيعتها ميداناً خصباً لازدهار الأدب الملحمى ، فإن فتح العرب نفسه لإسبانيا وامتدادهم العجيب فى خلال سنوات قليلة إلى أقصى جبال الپيرينيه بل وتجاوزهم هذه الحدود إلى جنوب فرنسا ، كل ذلك لم يكن إلا ملحمة بطولية ينبغى أن تكون قد ألهمت أخيلة الشعراء والقصاص .

فإذا تقدمنا قليلاً من الناحية الزمنية وجدنا أن التاريخ الأندلسى المبكر كان تاريخ صراع بطولى فروبى سواء بين أمراء قرطبة الأمويين وقلول المماكة النصرانية فى الشمال أو بين هؤلاء الأمراء وأمراء الاقطاع الثائرين عليهم فى مختلف جهات الأندلس ، وهو صراع كشفت النصوص الأندلسية التى اكتشفت أخيراً عن أبعاده وأعماقه الملحمة (ويكفى أن نحيل فى تصويره على القطعة التى ستظهر قريباً من كتاب المقتبس لابن حيان والتى تطبع الآن فى بيروت بتحقيق محمود مكى حول إمارة محمد بن عبد الرحمن الأموى فى القرن التاسع الميلادى) .

ويقول ريبيرا في تأييد رأيه : أنه من المسلم به أن الأندلس الإسلامية كانت خلال تلك الفترة المبكرة من القرن الثامن حتى الحادى عشر (هى أكثر بلاد أوربا تقدماً وحضارة بغير منازع ، وقد رأينا كيف كان لها نفوذ هائل لا يمكن إنكاره على كل أوضاع أوربا الحضارية من أدب وفنون وعلوم ، فلماذا نستبعد تأثير الفكر العربى على هذا اللون من الأدب ، وهو أقربها إلى حياة الأندلس الإسلامية .

فإذا انتقلنا إلى دراسة الملحمة الإسبانية الأولى وهى « ملحمة السيد » وجدنا أنها مشبعة بالتأثيرات العربية التى تبدأ بعنوان الملحمة نفسها ، فاسمها ينصب على شخصية بطلها الذى عرف باسم « السيد القنبيطور El Cid Campeador » ، و« السيد » هو الاسم الذى اشتهر به وهو الصيغة الدارجة للفظ « السيد » العربى ، والواقع هو أن هذا ليس إلا رمزاً لتعرب هذه الشخصية التاريخية التى عاشت فى القرن الحادى عشر الميلادى ، فقد كان رودريجت دياث دى بيار Rodriguez Díaz de Vivar — وهذا هو اسم السيد الحقيقى مغامراً مسيحياً قائداً لجماعة من المرتزقة المغامرين أمثاله ، وعاش كل حياته فى بيئة عربية إذ كان يضع نفسه فى خدمة ملوك الطوائف .

وعلى ترجمة حياة السيد وقصته ومغامراته كما تروى لنا المراجع التاريخية الإسلامية والمسيحية ، بنيت ملحمة بعد أن هذبتها أخيلة الشعراء الشعبيين وأضفت عليها مزيداً من مظاهر البطولة ، ونرى منها كيف عاش السيد فى بيئة إسلامية مسيحية ، وكيف كان اضطرابه بين قشتالة وبين ممالك المسلمين الأندلسية فى عصر الطوائف . ولهذا فان باكورة الأدب الملحمى الأسباني التى تروى لنا قصة هذا المغامر الشجاع كانت مبنية على أحداث واقعية وليست كلها من نسج الخيال .

وتنقسم الملحمة إلى ثلاثة أقسام : وتدور أحداثها فى هذه البيئة الأندلسية التى كانت مزيجاً من العناصر الإسلامية والمسيحية ، ونحن نرى فى طريقة

العرض نفسها شبيهاً كبيراً بما تذكره الكتب الأندلسية الإسلامية من حكايات وأخبار نصف تاريخية ونصف أسطورية ، وهو شبه يتناول كل جوانب الملحمة من عادات وتقاليد ومن تصوير للمفارقات بين بطولة بعض الرجال ونبيلهم ونخسة أعدائهم وجبنهم . حتى طريقة التعبير وإن كانت بالاسبانية الدارجة ، فإنها أشبه بالتراكيب العربية منها بالأوربية .

وقد درس منندث بيلايو هذه الملحمة دراسة وافية ، وإن كانت الجوانب العربية فيها مازالت تحتاج إلى مزيد من البحث ، وعلى كل حال فإن آراء خوليان ريبيرا قد أدخلت إلى ميدان هذا البحث عنصراً له قيمته الكبرى هو صلتها بالأدب العربي صلة وثيقة .

بل إن الكشف عن هذه الصلة بين أدب الملحمة الإسباني والأدب العربي لابد أن يترتب عليه تغير شامل في وجهات النظر التي ظلت سائدة حتى اليوم حول الملاحم الأوربية عامة والفرنسية بشكل خاص ، إذ ستؤدي - إذا اكتملت الأبحاث حول هذه الناحية - إلى أن تصبح الملحمة الفرنسية هي التي تأثرت بالاسبانية الأندلسية لا العكس ، وهذا أمر يبدو منطقياً تماماً إذا تأملنا عالم العصور الوسطى بنظرة شاملة .

وقد بقيت هذه الصبغة العربية للملاحم الاسبانية التي تلت ملحمة السيد نرى ذلك في الأغاني الملحمية المعروفة باسم «الرومانسيات Romances» والتي ازدهرت خلال القرن الخامس عشر ، ومن أشهرها ملحمة لندريق آخر ملوك القوط ، وملحمة برناردو الكاربيو Bernardo el Carpio وملحمة فرزاندين غرسية Ferman Gonzalez منشئ إمارة قشتالة الذي كان معاصراً لعبد الرحمن الناصر ، وملحمة أبناء لارا السبعة Los Infantes de Lara وبعض الملاحم الأخرى المتعلقة بحياة السيد . ويستوقف نظرنا ضربان من الشعر الملحمي الإسباني الأول هو المعروف باسم الأغاني الثغرية Romances Fronterizos (إذ هي مستوحاة

من حياة القتال على ثغور الممالك الإسلامية والمسيحية في اسبانيا (والثاني هو أغاني الموريسكيين Romances Moriscos وهي المروية على ألسنة المسلمين ، ونحن نجد في هذين النوعين من آثار الثقافة الإسلامية والعربية ما يصوره اسماهما . وقد تناولهما بالبحث كثير من الدارسين الأسبان مبينين أنهما يعكسان هذا التفاعل والامتزاج العميق بين الأدبين الأسبان والعربي) وقد كان هذا الشعر الملحمي معيناً استقى منه الأدب الأسباني القصصي والمسرحي روافد أغنته وأسبغت عليه طابعاً مميزاً أصيلاً منذ العصور الوسطى حتى اليوم . فلوبي دي فيجا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) وكالديرون دي لباركا (١٦٠٠ - ١٦٨١) عملاقا المسرح الأسباني في العصر الذهبي استمدا من هذا الأدب الملحمي الحافل بالعناصر العربية آثاراً خالدة ما زالت حتى الآن تعتبر من أجمل روائع الأدب المسرحي العالمي .

بل كان للأدب الملحمي الأندلسي امتداد كبير خارج نطاق اسبانيا ، ولندكر مثلاً أن أول أثر أدبي مسرحي له قيمته في الأدب الفرنسي هو بالذات ما استوحى فيه كاتبه ملحمة السيد بكل ما فيها من عناصر الفروسية العربية ، ونعني به مسرحية « السيد Le Cid » الخالدة التي ألفها ببيركورني Pierre Corneille (١٦٠٦ - ١٦٨٤) خالق الفن المسرحي الفرنسي ، فمن المعروف أن كورني اقتبس عمله من مسرحيتين حول السيد قام بتأليفهما الأديب الأسباني جين دي كاسترو Guillén de Castro (١٥٦٩ - ١٦٣١) الذي كان تلميذاً وصديقاً للوبي دي فيجا .

(٢)

وإذا كان الباحثون الأوروبيون قد اعترضوا على إمكان تأثير الأدب العربي في نشأة الأدب الملحمي الأوروبي وتطوره فمن الطبيعي أن اعترضهم على أثر العرب في الفن المسرحي كان أشد وأعنف . فقد كان الرأي الشائع المستقر

في أذهان الناس هو أن الإسلام يحرم كل نشاط تمثيلي أو مسرحي ، ولكن النصوص والأبحاث الجديدة قد أثبتت أن ألوان الأدب المسرحي الأغريق لم تكن مجهولة تماماً بين العرب ، ثم أن المسلمين في الشرق والغرب قد عرفوا ضرورياً بدائية من الأدب المسرحي نشأت بينهم دون أن تكون بحاجة إلى تلمس مصادر أجنبية لها .

أما في المشرق فإن البلاد الشيعية ظهر بها ضرب من المسرح نبع من طبيعة معتقداتها الدينية ، فقد كان تقديس الشيعة لآل البيت أمراً جوهرياً في مذهبهم ، وأدى بهم ذلك إلى الإلحاح على ما وقع على آل البيت من اضطهاد عنيف وتنكيل وصل في بعض الأحيان إلى القتل الجماعي والتمثيل البشع ، وكان مصرع الحسين بن علي في كربلاء حدثاً هائلاً رأى فيه الشيعة بجماع مأساة آل البيت ، فكان التذكير المستمر به والإلحاح على استحضاره مما رأوا فيه تعميقاً لعقيدتهم وتثبيتاً لبصيرتهم ، ومن هنا نشأ هذا الضرب من الفن المسرحي الديني الذي أراد الشيعة به تمثيل هذه الواقعة في ذكراها السنوية ، وهو المعروف باسم « التعزية » وأصبح هذا العرض المسرحي السنوي تقليداً متبعاً لدى شيعة إيران حتى اليوم ، وأعانهم عليه الطابع المأساوي الذي صبغ استشهاد الحسين في كربلاء ، وهو يشبه إلى حد كبير ذلك المسرح الديني الذي عرفته أوروبا المسيحية منذ القرن الثالث عشر ، وهو المعروف بمسرح « الأسرار » (Mysteres) ، وحجر الأساس فيه هو تمثيل مأساة السيد المسيح وما يؤمنون به من آلامه وصلبه على أيدي اليهود . ومع ذلك فإن هذا الفن المسرحي الشيعي قد ظهر في الإسلام مستقلاً تماماً عن كل مصدر مسيحي ، ومن الخطأ أن يظن أحد أنه نشأ نتيجة لنفوذ باشرته المسيحية على تعاليم الشيعة . وخطأ أكبر أن يعتقد أحد أنه بدوره أثر على أوروبا المسيحية في مسرحها الديني ، وكل ما هناك هو أن التشابه بينهما إنما أتى من تشابه ظروف المأساة التي اتخذ منها كل من المسيحيين والشيعة عنصراً أساسياً في عقيدتهم ، وإن كان الفنان قد وجداً وتطورا مستقلين تماماً .

وفضلاً عن هذا المسرح الدينى فقد عرف المجتمع العربى خلال العصور الوسطى ألواناً أخرى من المسرح ، منها « خيال الظل » ، وهو ضرب من مسرح العرائس عرفته مصر المملوكية على ما يبدو . وهذا الفن الذى كان من أبرز ممثليه محمد بن دانيال (١٢٤٨ - ١٣١١ م) ويذكر عنه أن من بين المسرحيات التى كتبها فى هذا الميدان « طيف الخيال » و « المقيم » .

أما فى الأندلس الاسلامية فإن التنقيب فى التراث الباقى من الأدب الأندلسى يكشف لنا عن وجود ما يشبه أن يكون أدباً مسرحياً شعبياً ربما كان يمثل للترفيه عن الناس فى الأعياد والمواسم . ويبدو أنه كان من نوع المسرح الغنائى الذى يقوم على محاورات تجرى باللغة العامية الشائعة فى الأندلس وهى خليط من العربية واللاتينية الدارجة كما سبق أن ذكرنا . وفى ديوان أزجال ابن قزمان القرطبى - (المتوفى سنة ٥٥٥ - ١١٦٠ م) أزجال هى محاورات فكهة ذات طابع شعبى ساخر تبدو كما لو كانت قد كتبت لتأخذ طريقها إلى خشبة مسرح . ولا نستبعد أن يكون ابن قزمان وغيره من زجالى الأندلس قد ابتكروا فى هذه القطع مسرحاً شعرياً بدائياً من نوع تلك المسرحيات القصيرة التى كانت تتألف من فصل واحد والتى كانت تمثل فى أسبانيا المسيحية أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر .

كذلك من المؤكد أن لونا من مسرح العرائس الذى كان يقوم على تماثيل متحركة لشخصيات بشرية أو حيوانية قد عرف فى الأندلس الاسلامية . فقد رأينا إشارات صريحة إلى هذا المسرح البدائى فى قصائد لبعض زجالى الأندلس المتأخرين مثل الفقيه عمر الزجال الذى عاش فى غرناطة خلال القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد أشرنا فى حديثنا عن الفن القصصى إلى أن أدب المقامات الذى ابتكره أدباء المشرق قد تطور فى الأندلس على نحو مغاير لتطوره فى المشرق ، إذ اتخذ على أيدي الأندلسيين طابعاً شعبياً ، فرأيناه يسجل مشاهد من حياة

الناس في بيوتهم وشوارعهم وأسواقهم ، وصوراً واقعية بعيدة عن تكلف
النماذج الأدبية الصماء ، في أسلوب بسيط أقرب إلى لغة الكلام ، وبشكل فكاهي
ساخر نابض بالحياة والحركة ، حتى أن هذه المقامات تبدو لنا فصولاً هزلية
جديرة بأن تمثل ، ولنا نستبعد أن تكون هذه « المقامات » الشعبية قد تجسدت
فعلاً في صورة من صور الأداء المسرحي .

غير أن هذه البقايا « المسرحية » التي نعتقد في وجودها في الأدب
الأندلسي مازالت بحاجة إلى تجميع واستقصاء ودراسة فاحصة دقيقة ، ولا شك
في أنها - إذا صح الرأي الذي نذهب إليه - ستكون كشفاً أدبياً جديداً
ربما يقلب كثيراً من المفاهيم المتداولة الشائعة حول الأدب العربي ، ويدل
على أن العرب - على الأقل في الأندلس - عرفوا الأدب التمثيلي وعالجوه ،
بل أنه ليس من البعيد أن يدل على أن للمسرح الإسباني المسيحي الذي بدأ
يظهر في القرن الخامس عشر الميلادي ربما كانت له أصول عربية موهلة في
القدم على غرار ما تأكد اليوم من وجود أصول عربية قديمة في آداب إسبانيا
الغنائية والقصصية والملحمية .

وربما دلنا على ذلك أن أول بواكير المسرح الإسباني - ولعلها في الوقت
نفسه أول ما عرف من أدب مسرحي في القارة الأوروبية كلها بعد اندثار المسرح
الكلاسيكي الأغريقي ونسيان الناس له - إنما ولدت وترعرعت في رحاب
الأندلس التي كانت قريبة العهد بالحضارة العربية متشعبة بها كل التشعب .

فمؤرخو الأدب الإسباني يجمعون على أن خالق المسرح الإسباني أو
« أباه » كما كانوا يسمونه إنما هو راهب من سلمنكة يدعى « خوان
دل انثينا Juan del Encina » ولد في سنة ١٤٦٨ والتحق في شبابه
المبكر بخدمة أحد النبلاء وهو المعروف باسم دوق ألبا Duque de Alba
وكان خوان دل انثينا شاعراً موسيقياً في الوقت نفسه ، فكان
يؤلف قطعاً مسرحية غنائية يضع هو نفسه موسيقاها لكي تمثل في قصره .

ثم رحل دل انثينا إلى روما حيث نال وظيفة مغن في كنيسة البابا ليون العاشر .
وفي سنة ١٥٠٩ عاد إلى اسبانيا حيث عين راعياً لكنيسة مالقة Málaga
التي كانت قد سقطت في أيدي المسيحيين منذ سبع عشرة سنة (سنة ١٤٩٢)
وإن كانت بيئتها لا تزال اسلامية عربية خالصة . ولم ينخرط شاعرنا المسرحي
في سلك الرهبنة إلا في سنة ١٥١٩ حينما عين رئيساً لرهبان كنيسة ليون العظمى .
وفي هذه السنة أدى فريضة الحج إلى بيت المقدس وزار بلاد الشرق الاسلامي
ثم عاد إلى اسبانيا حيث توفي على الأرجح سنة ١٥٢٩ .

وهكذا نرى كيف كانت صلة دل انثينا بالحضارة العربية سواء في الأندلس
أو في المشرق . والحقيقة أن ما بقي لنا من قصائده ومقطعاته الغنائية يكشف
لنا عن عمق تأثيره بالأدب العربي ولا سيما بالشعر الغنائي الذي ينتمي إلى طراز
الموشحات والأزجال .

أما ما بقي من تراثه المسرحي فهو ؛ كما يمكن أن نتصور ؛ قطع بدائية يتألف
كل منها من فصل واحد هو حوار بين ثلاث شخصيات أو أربع حول
موضوع عاطفي أو اجتماعي بسيط التخطيط :

وتطور المسرح الاسباني بعد ذلك تطوراً سريعاً ، إذ سرعان ما نجد
في سنة ١٤٩٩ أول عمل مسرحي متكامل يكاد يجاوز ما نعرفه من سنن النمو
والتطور الطبيعي . ونعني بهذا العمل رواية « لا ثلستينا La Celestina »
وهي رواية لم تعرف شخصية مؤلفها ، وإن كانت تنسب لرجل يحيط باسمه
وبحياته الغموض يدعى فرناندو روجاس Fernando de Rojas
ويبدو أنه يهودي أو مورييسكي متنصر ، وذلك هو ما نستخلصه من قراءة
الرواية نفسها ، إذ لم تحفظ لنا كتب التاريخ أو التراجم شيئاً عن هذا المؤلف :

وعنوان الرواية الأصلي هو ، « مأساة كاليستو وميليبيا
Trajicomedia de Calixto y Milebia » ، ولكنها اشتهرت باسم بطلتها
الحقيقية وهي « ثلستينا La Celestina » ، وتدور الرواية حول قصة حب

عنيف بين شاب عابث وفتاة من أسرة نبيلة، ويطارد كاليستو - وهذا هو اسم الفتى - محبوبته مبايبيا ، ولكن محاولاته في الظفر بها تفشل حتى يدبر أحد خدمه له الأمر ، وذلك بأن يتفق له مع امرأة عجوز قوادة هي « ثلستينا » المذكورة ، ونرى بعد ذلك حيل هذه المرأة الخبيثة لكي تغوى الفتاة البريئة حتى توقعها في حب صاحبها لقاء ما يغدق عليها من هدايا وأموال ، ولا تزال العجوز تدبر اللقاءات بين الحبيبين ، ولكن خادمي كاليستو اللذين توسطوا له لدى ثلستينا يريان كيف تنفرد هي بهبات سيدهما دون أن تعطيهما شيئاً فيطالبانها بنصيبهما ولكنها ترفض فيقتلانهما في دارها . ويعرف خبر العلاقة بين الشابين وتكون فضيحة مدوية ، ويسمع كاليستو ضجة الرجال المتوجهين إليه في هدأة الليل وقد اعتلى سور بيتها لكي يقابلها كما كان يفعل كل ليلة ، ويأخذ منه الفرع فيحاول الهرب ، ولكنه يتعثر من أعلى السور فيهوى صريعاً وترى الفتاة مصرع حبيبها فتؤثر الموت بعده ، وتلقى بنفسها منتحرة . وهكذا تختم هذه المأساة بموت كل أبطالها .

والرواية بشكلها الذي وصلت به إلينا تعتبر في الحقيقة لوناً أدبياً يقف في مركز وسط بين المسرحية والرواية الطويلة ، فهي أشبه بقصة تقوم على الحوار ، ومع ذلك فإنها تجمع كل مقومات الفن المسرحي من رسم دقيق لنفسيات شخصياتها وإدارة ماهرة للحوار ، ولعل خير ما وفق فيه مؤلفها المجهول هو رسم لمعالم شخصية ثلستينا القوادة وحيلها في الجمع بين الرجال والنساء ، ثم ما تنبض به الرواية من قوة درامية ولا سيما في مشاهدتها الأخيرة بحيث لا نرى مثل ذلك في تلك الفترة المبكرة من تاريخ المسرح العالمي إلا في رواية « روميو وجولييت » عمل شيكسبير الخالد .

وليس من العسير أن نميز العروق العربية في هذا الأثر الذي يعتبر باكورة الفن المسرحي الأسباني ، نذكر من ذلك إلحاح الرواية على مسألة شرف المرأة ، وهو ما اتخذ منه المؤلف محور الرواية كلها وعصب طاقتها الدرامية ، وهو شيء

يتفق مع مفهوم المجتمعات العربية الاسلامية ، والذي يتأمل المسرح الاسباني في العصور التالية يمكنه أن يرى كيف تسيطر عليه هذه الفكرة منذ ذلك الوقت حتى مسرح غرسية لوركا García Lorca في العصر الحاضر . ونحن نجد كذلك في رسم شخصية القوادة العجوز تمثلاً لعنصر ما أكثر ما ألحت عليه القصص العربية المشابهة مما يدور حول « مثالب النساء » أو ذكر حيلهن وكيدهن . بل إننا نجد أمثلة لا تحصى لها في القصص العربي الشعبي مثل « ألف ليلة وليلة » حيث نرى العجوز المتظاهرة بالصلاح التي تدخل بيوت سراه الناس لإغواء بناتهم لقاء ما تناله من عطايا شاب عابث يأجرها على « خدماتها » .

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا العناصر العربية في هذا الأثر الأدبي الذي كان يعتبر من أول ما أنتجه المسرح الأوربي وأكثره نضوجاً واكتمالاً . وهذا هو ما يفسر إقبال الآداب الأوربية عليها نقلاً وترجمة واقتباساً ، فقد ترجمت هذه الرواية إلى الإيطالية سنة ١٥٠٦ وإلى الألمانية سنة ١٥٢٠ وإلى الفرنسية سنة ١٥٢٧ ، وفي إنجلترا عرفت بعد ظهورها بقليل في عصر الملك هنري الثامن ، إذ قام اللورد برنرز Lord Berners بنشر رواية مقتبسة شعراً منها في سنة ١٥٣٠ ، ثم ترجمت ترجمة كاملة في ١٦٣١ على يد جيمس مابل James Mable وكانت بذلك أول كتاب أدبي اسباني يترجم إلى الإنجليزية .

ولا نزال نرى في المسرح الاسباني الحديث العهد بالميلاد كثيراً من العناصر العربية التي تمثلها اسبانيا المسيحية خلال ما يزيد على ثمانية قرون من المعاشة ، ونغض النظر عن أصاغر المؤلفين المسرحيين خلال القرن السادس عشر ، وإن كنا نشير بصفة خاصة إلى المؤلف لوبي دي رويدا Lope de Ruedas (الذي توفي سنة ١٥٦٥) ، فهو يعتبر الممهد لعملاق المسرح الاسباني لوبي دي فيجا ، ونلاحظ أن مسرحه حافل بالصور الشعبية التي

تذكرنا بالمقامات الأندلسية ، ونلاحظ أنه كثيراً ما كان يجعل في رواياته شخصية موريسكية أى رجلاً من المسلمين الأسبان يضع على لسانه حواراً ظريفاً هو خليط من العربية والأسبانية كما كان ينطقها الموريسكيون ، وهو عنصر ظل مستخدماً بعد ذلك في المسرح الأسباني خلال العصر التالي في القرن السابع عشر .

وتأتى بعد ذلك إلى شخصية عبقرى المسرح الأسباني في جميع العصور وهو لوبي دى فيجا Lope de Vega (١٥٦٢ - ١٦٣٥) الذى ألف مئات من الروايات المسرحية تمثل مجتمع اسبانيا في وقته خير تمثيل ، وقد كان من أهم المصادر التى استقى منها لوبي تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى وأدبها الشعبي ، ولنا أن نتصور مدى عمق التأثير العربى في أدب لوبي إذا ذكرنا أن تاريخ اسبانيا الوسيط كان بطبيعته مزيجاً متفاعلاً من الإسلام والمسيحية . وقد أشرنا إلى تأليف لوبي بعض مسرحياته على أساس بعض القصص العربية التى عرفت في الأندلس الإسلامية مثل « مسرحية » لقصة الحارثية « تودد » وغير ذلك كثير في إنتاج هذا المؤلف الخصب الذى خلف لنا مئات من المسرحيات .

ومثل ذلك نجده في مسرح تلاميذ لوبي وأكبرهم هو كالديرون دى لباركا Calderón de la Barca (١٦٠٠ - ١٦٨١) الذى كان مسرحه أكثر اهتماماً بالعقليات والتحليل النفسى ، وفي مسرحيته المشهورة « الحياة حلم » La Vida es Sueño « كثير من العناصر الفلسفية والصوفية مما أمد اسبانيا به ذلك التيار المستمر من الثقافة العربية ، وكان بعض مظاهر التأثير العربى في المسرح كالديرون مما اختصه بعض الباحثين بدراسة مفردة تبين عمق هذا التأثير سواء في الاتجاه الفلسفى العام لهذا المسرح أو في جزئياته وعناصر تركيبه . (محمود مكى : عمدة سلمية والحياة حلم لكالديرون - تراث الإنسانية ، المجلد الخامس مارس ١٩٦٧ ص ١٧٩ - ٢١٠) .

وقد أخذ عن لوبي بعض تلاميذه استغلال القصص الشعبي الإسباني ولا سيما الملحمي في كتابة مسرحيات جديدة ، نذكر منهم جبين دى كاسترو Guillén Castro ١٥٦٩ - ١٦٣١ (الذى ألف مسرحية مستوحاة من حياة بطل أول ملحمة اسبانية أصيلة هي «ملحمة السيد Poema del Cid» .

وظل المسرح الإسباني معيماً يغذى المسرح الفرنسي والأوربي بشكل عام ، ترى ذلك بعد كورنى في مسرح موليير Molière (١٦٢٢ - ١٦٧٣) ولا سيما في روايته المشهورة « دون جوان Don Juan » التى اقتبسها من رواية تيرسودى مولينا Tirso de Molina (١٥٨٤ - ١٦٤٨) المعروفة التى تحمل نفس هذا العنوان « دون خوان تينوريو Don Juan Tenorio

وفي مسرح شيكسبير نفسه كثيراً مما استمدته من قصص كانت شائعة في العصور الوسطى مما انتقل إلى الثقافة الأوربية عن طريق الأندلس الإسلامية مما لا يتسع المجال هنا لبسطه .

وخلاصة القول هي أن الأدب العربي في الأندلس قد أثر تأثيراً مباشراً في نشوء المسرح الإسباني أما في المسرح الأوربي فقد تعرض لتأثيرات عربية كثيرة بشكل غير مباشر : إما عن طريق ما تلقاه من الأدب المسرحي الإسباني ، أو عن طريق التراث القصصي العظيم الذى ظل يغذى الثقافة الأوربية في تيار مستمر لم ينقطع خلال العصور الوسطى و شطر من العصور الحديثة ...

الفصل
الثاني
في الفلسفة

اعداد : دكتور ابراهيم بيومي مكيور

فهرس الفصل الثاني

- مقدمة الفلسفة الإسلامية والنهضة الأوربية ... ١٣٩
- (أ) خصائص الفلسفة الإسلامية ومميزاتها ... ١٤١
- ١ — هي فلسفة دينية روحية ... ١٤١
- ٢ — » » عقلية ... ١٤٣
- ٣ — » » توفيقية ... ١٤٦
- ٤ — » » وثيقة الصلة بالعلم ... ١٥٦
- (ب) انتقالها إلى الغرب ... ١٦٢
- ١ — الاتصال الشخصي ... ١٦٢
- ٢ — الترجمة اللاتينية ... ١٦٥
- ٣ — ما ترجم من الكتب الفلسفية ... ١٦٨
- (ج) أثرها ... ١٧٦
- ١ — الوجود والماهية ... ١٧٩
- ٢ — نظرية المعرفة ... ١٨١
- ٣ — النفس ... ١٨٤
- (د) خاتمة ... ١٨٩
- مراجع ... ١٩٢

مقدمة

الفلسفة الإسلامية والنهضة الأوروبية

انقضى ذلك الزمن الذي كانت تُفصل فيه الثقافات العالمية الكبرى بعضها عن بعض ، وتقام بينها حواجز منيعة لا تسمح باتصال أو تبادل . وأصبحنا نؤمن بأن الحضارات القديمة أخذت وأعطت ، كما نأخذ نحن اليوم ونعطي ، وأن الثقافة الإنسانية ذات موارد متعددة بين شرقية وغربية ، وما أشبهها بنهر جار تصب فيه فروع مختلفة ، وهو في مجراه يغذي آفاقاً جديدة ويبعث طاقات شابة . ويزداد هذا الإيمان يقيناً كلما كشفنا عن الثقافات القديمة ، وعرفناها على وجهها .

وفي الربع الأول من هذا القرن قامت في أكسفورد حركة موفقة ترمي إلى تسجيل تراث الثقافات القديمة ، فبدأت بثقافة اليونان والرومان ، وضمت إليهما ثقافة القرون الوسطى المسيحية ، وثقافة اليهودية والإسلام ، ثم تابعت السير ، وأخرجت ثقافة الهند ، ومصر ، وفارس . (١) وفي هذه المحاولة جادة وطرافة ، وجمع وتنسيق ، وبحث وتحقيق ، اضطلع بهما متخصصون ، كل في واديه . وفيها بوجه خاص ربط للثقافات بعضها ببعض ، وكشف عما تم من تبادل بين الحضارات المختلفة . وفي « حلقة تراث الإسلام » التي ظهرت عام ١٩٣١ جهد ملحوظ ودرس عميق ، ولكن البحث يسير

(١) بدأت هذه السلسلة بكتاب *The Legacy of Greece* الذي ظهر سنة ١٩٢١ ، وتلتها حلقات أخرى في سنوات ١٩٢٣ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣١ ، ١٩٣٧ ، ١٩٤٢ .

وقد أتى على هذا التراث في الثلاثين سنة الأخيرة أضواء جديدة ، وكشف
عن أمور لم تكن معروفة من قبل .

وانقضى أيضاً ذلك الزمن الذي كان ينظر فيه إلى الفلسفة المدرسية ،
مسيحية كانت أو إسلامية ، نظرة لا تخلو من تعسف وسوء تقدير . فقبل إنها
مجرد محاكاة للفلسفة اليونانية ، وأخذ عن أرسطو بوجه خاص . ومن ذا الذي
قال إن فلسفة ما لا تأخذ عن الفلسفات السابقة ، وهل يضير الفلسفة الحديثة
أو المعاصرة أن فيها تلاقياً مع بعض الفلسفات القديمة أو المتوسطة ؟ ورميت
أيضاً بعدم الأصالة وقلة الابتكار ، وظن أن ليس فيها إضافات ينوّه بها
ولاجواب خاصة تُعزى إليها .

ومنشأ هذا في الغالب أن الفلسفة المدرسية حتى نهاية القرن الماضي
لم تدرس الدرس الكافي ، ولم يكشف عن شتى جوانبها . فبقيت مخطوطاتها
محبوسة في المكتبات العامة والخاصة ، ولم ير كثير من مصادر النور . وقد
بدلت في القرن العشرين جهود متضافرة ومتلاحقة للكشف عنها ، ونشر
أصولها ، والتعريف برجالها ، وشرح مذاهبها ونظرياتها . وربما كان حظ
الفلسفة المسيحية من الدرس أعظم من حظ الفلسفة الإسلامية ، ولكنهما
يتعاونان اليوم ويتضافران . واستبان بوضوح أنهما مهدها معاً للنهضة الأوروبية .

ويعني هنا أن نبين ما كان للفلسفة الإسلامية من أثر في هذه النهضة ،
ولا نزاع في أنها لم تصل إلى ذلك إلا عن طريق اتصالها بالفلسفة المسيحية
وتأخوها معها . ولا بد لنا أن نبين وسائل هذا الاتصال ، ونشير إلى عوامل
هذا التأخر . ولا يتسع المقام للبسط والتفصيل ، ونقنع بأن نقف عند بعض
القضايا الكبرى وسنحصر بحثنا في نقط ثلاث :

(أ) خصائص الفلسفة الإسلامية ومميزاتها ،

(ب) انتقالها إلى الغرب

(ج) أثرها فيه

(١) خصائص الفلسفة الإسلامية ومميزاتها

عاجلت الفلسفة الإسلامية المشاكل التقليدية الكبرى ، وهي مشكلة الإله ، والعالم ، والإنسان : وفصلت القول فيها ، متأثرة أولاً ببيئتها والظروف المحيطة بها ، ومستعينة ثانياً بما وصل إليها من دراسات فلسفية سابقة ، شرقية كانت أو غربية . وانتهت إلى طائفة من الآراء ، إن اختلفت في بعض التفاصيل والجزئيات باختلاف رجالها ؛ فإنها تلتقي في مذهب شامل ونظريات مشتركة . وتمتاز بوجه عام بالمميزات الآتية :

١ - هي فلسفة دينية روحية : تقوم على أساس من الدين ، وتعول على الروح تعويلاً كبيراً . هي فلسفة دينية لأنها نشأت في قلب الإسلام ، وتربى رجالها على تعاليمه ، وأشربوا روحه ، وعاشوا في جوه . وهي إنما جاءت امتداداً لأبحاث دينية ودراسات كلامية سابقة . ومن الخطأ أن يظن أن الفكر الفلسفي الإسلامي لم يولد إلا في القرن الثالث للهجرة على أيدي الكندي فيلسوف العرب (٨٦٥) بل سبقه في مدرسة المعتزلة مفكرون آخرون ذوو مذاهب فلسفية مكتملة ، أمثال النظام (٨٤٥) وأبي الهذيل العلاف (٨٤٩) ، والدراسات الكلامية في صميمها باب من أبواب الفلسفة ، والكندي نفسه يمكن أن يعد بين جماعة المعتزلة . وكثيراً ما حاول فلاسفة الإسلام بوجه عام - شأن المفكرين الإسلاميين الآخرين - أن يدعموا آراءهم بأسانيد من الكتاب والسنة :

والفلسفة الإسلامية دينية في موضوعاتها ، تبدأ بالواحد ، وتحلل فكرة الألوهية تحليلاً شاملاً دقيقاً لم يسبق إليه : وكأنما كانت تبارى المدارس الكلامية

الكتاب
الذي
هو
مجموع
الرسائل
التي
كتبها
ابن
سينا
في
الفلسفة
والعلم
والنفس
والروح
والإلهيات
والسياسة
والفلك
والطب
والزراعة
والهندسة
والفنون
والصناعة
والحرف
والسفن
والسلاح
والحرب
والدبلوماسية
والعلاقات
الدولية
والسياسة
الدولية
والفلسفة
والعلم
والنفس
والروح
والإلهيات
والسياسة
والفلك
والطب
والزراعة
والهندسة
والفنون
والصناعة
والحرف
والسفن
والسلاح
والحرب
والدبلوماسية
والعلاقات
الدولية

المعاصرة من معتزلة وأشاعرة ، فتتدارك نقصها ، وتمعن في تصوير البارئ جل شأنه تصويراً أساسه التجريد والتنزيه والوحدة المطلقة ، والكمال التام (١) . وعن الواحد صير كل شيء ، فهو المبدع والخالق ، أبداع كل شيء من لا شيء ، وخلق العالم في الأزل ، ونظمه وسيره (٢) . فالعالم معلول له في وجوده وبقائه ، أبداعه بمحض فضله ، ورعاه بعنايته ، وأخضعه لقوانين ثابتة ونظم محكمة . وعلى هذا فالطبيعة والكسملوجيا مرتبطتان في الفلسفة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالمتيازقي . ولا يخرج علم النفس والأخلاق عن ذلك كثيراً ، فالنفوس البشرية ، مهما اختلفت فلاسفة الإسلام في حقيقتها ووجودها ، فإنهم يسلمون جميعاً بأن فيها شيئاً نورانياً وإلهياً . فهي لا تستطيع الكشف عن الحقائق الكلية إلا بمدد سماوي وفيض علوي ، وبعبارة أخرى ، إلا بمعونة العقل الفعال إن شئنا أن نستعمل لغة الفارابي (٩٥٠) وابن سينا (١٠٣٧) . وكماله في أن تسمو عن طريق النظر والتأمل إلى مرتبة الاتصال بالعالم العلوي ، ويسلم فلاسفة الإسلام جميعاً ، بين مشاركة ومغاربة ، بهذا الاتصال ، حتى ابن رشد (١١٩٨) الذي يبدو عليه أنه يربط النفس بالجسم برابط أوثق ، على نحو ما صنع أرسطو . (٣) وللفضائل قيم ذاتية ، والحلال بين ، والحرام بين ، وفي وسع العقل البشري أن يكشف عن ذلك ، ولكن الوحي يدعم العقل ويؤيده (٤) .

وما من فلسفة دينية إلا وللروح فيها نصيب ملحوظ ، والأديان تخاطب القلوب عادة قبل أن تخاطب العقول . ويرى فلاسفة الإسلام أن الروح مصدر الحياة والحركة والإدراك ، ووسيلة البهجة والسعادة . ففي الكائنات الحية نفوس تغذيها وتحركها ، وتمد بعضها بالعلم والمعرفة ، فهناك نفوس نباتية ،

(١) Madkour, La place d'al Fārābī dans l'école philosophique musulmane, (١) Paris, 1934, t. 58-66.

(٢) ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، ليدن ١٨٥٢ ، ص ١٤٧-١٥٧ .

(٣) د. مدكور ، في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣٧-٥٩ .

(٤) ابن رشد ، مناهج الأدلة في عقائد الملة ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٣٣-٢٣٨ .

وأخرى حيوانية ، وثالثة إنسانية ، ولكل فلك من الأفلاك السماوية نفس خاصة به ، مملوءة شوقاً ورغبة في الكمال ، فتتحرك وتحرك فلكها . ورئيس المدينة الفاضلة أو الجمهورية المثلى بشر سميت نفسه وتخلصت من شوائب البدن ، وأضحى نبياً أو فيلسوفاً يسوس الناس بالحكمة ، ويدير شئونهم بالعدل والقسطاس (١) . فعالم السماء وعالم الأرض محكومان عند فلاسفة الإسلام بالنفوس الفاضلة ، ونزعتهم الروحية أوضح من أن نطيل الحديث فيها .

بهذا الطابع الديني والروحي استطاعت الفلسفة الإسلامية أن تقترب من الفلسفة المدرسية ، بل أن تتلاقى مع بعض الفلسفات الحديثة والمعاصرة . وما كان لرجال الدين في القرون الوسطى أن ينكروا فلسفة تقول بالخلق والإبداع ، وتبرهن على خلود الروح ، وتؤمن بالجزاء والمسئولية ، والبعث والسعادة الأخروية . ولقد وصل الأمر بروجر بيكون (١٢٩٤) أنه كان معجباً بنظرية الخلافة والإمامة الإسلامية ، على نحو ما شرحها ابن سينا في كتاب الشفاء (٢) ، إلى حد أنه رغب في أن يطلق على البابا لقب «خليفة الله في أرضه» . (٣) .

٢ - هي فلسفة عقلية : وبرغم هذا الطابع الديني الروحي ، تعتد الفلسفة الإسلامية بالعقل اعتداداً كبيراً ، وتعول عليه التعويل كله في تفسير مشكلة الألوهية ، والكون ، والإنسان . فواجب الوجود عقل محصن ، يعقل ذاته بذاته ، فهو عقل ومعقول في آن واحد (٤) . وعنه صدر العقل الأول ، فهو أول شيء خلقه الله ، وفي سلسلة متلاحقة صدرت العقول

(١) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ليدن ١٨٩٥ ص ٥٩-٦١ .

(٢) ابن سينا ، الشفاء ، الإلهيات ، القاهرة ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٤٥١-٤٥٥ .

(٣) مذكور ، مقدمة الإلهيات ، ص ١ ، ص (٢٨) .

(٤) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١٠ .

الأخرى التي تدبر شئون السماء ، فيما عدا العقل العاشر ، أو العقل الفعّال ، الذي يرعى شئون الأرض (١) . وليس بغريب أن تكون شئون السماء أنظم وأحكم ، لأن العقول المفارقة والنفوس الفلكية هي التي تشرف عليها . ولعالم السموات قداسة عرفها اليونان من قديم ، وأيدتها الأديان السماوية . وعن العقل العاشر صدر عالم الكون والفساد ، فمنه استمدت العناصر الأولية ، التي نشأ عنها المعدن ، والنبات ، والحيوان ، ثم الإنسان الذي هو أشرف الكائنات .

والعقل البشري قوة من قوى النفس ، ويسمى النفس الناطقة . وهو ضربان : عمل يسوس البدن وينظم السلوك ، ونظري يختص بالإدراك والمعرفة . فهو الذي يتقبل المدركات الحسية ، ويستخلص منها المعاني الكلية بعون من العقل الفعّال^٢ ، الذي^٣ هو من نفوسنا بمثابة الشمس من أبصارنا . وفي وسع العقل البشري أن يسمو إلى مرتبة يستطيع أن يتصل فيها مباشرة بالعقول المفارقة ، فتتكشف له المعقولات دفعة ، ويخلص إلى عالم القدس واللذة العليا^٤ ، وهذه هي السعادة التي ليست وراءها سعادة (٢) .

بالعقل نعلل ونبرهن ، وبه نكشف الحقائق العلمية ، فهو باب هام من أبواب المعرفة . وليست المعارف كلها منزلة ، بل منها ما يستنبطه العقل ويستخلصه من التجربة . وفي منطق أرسطو^٥ ما يرسم طرائق الحد والبرهان ، وقيمة البرهان فيما يعتمد عليه من مقدمات يقينية يقرها العقل ، ويسلم بها جميع الناس . وكم أعجب^٦ فلاسفة الإسلام بهذا المنطق^٧ ، وعنوا بشرحه وتلخيصه ، وسموا صاحبه « المعلم الأول » ، لأنه بحق « المنطق الأول » (٣) أفادوا من منطقه كثيراً في درسهم وبحثهم ، وطبقوه في جدلهم ومناقشاتهم :

(١) ابن سينا ، الإلهيات ، ص ٤٠٠-٤٠٨ .

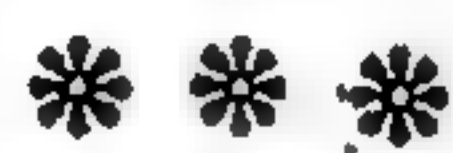
(٢) ابن سينا ، الإشارات ، ص ١٩٠-١٩٨ .

(٣) Madkour, L'Organon d'Aristote dans le monde arabe, Paris 1934, (٣)

p. 1-6.

استعانوا به في إثبات كثير من القضايا الدينية على نحو ما صنع المعتزلة والأشاعرة ، وقد عرف عن الأشعرى (٩٣٥) ، زعيم أهل السنة ، أنه كثيراً ما لجأ إلى القياس الأرسطي في برهنته الدينية . (١) .

والواقع أن فلاسفة الإسلام بنزعتهم العقلية يلتقون بوجه خاص مع المعتزلة الذين سبقوهم إلى تعظيم العقل والنزول عند حكمه ، وقد سموا « مفكرى الإسلام الأحرار » . حكموا العقل في أمور كثيرة ، فاتفقوا على أن الإنسان قادر بعقله على التمييز بين حسن الأشياء وقبحها ، وعلى التفرقة بين الخير والشر قبل ورود الشرع — وقالوا بالصلاح والأصلح ، فلا يخلو فعل من أفعاله تعالى من الخير والصلاح (٢) . وقرروا حرية الإرادة وقدرة العبد على خلق أفعاله ، كي يكون للشواب والعقاب معنى — وتأولوا النصوص الدينية التي لا تتماشى مع العقل ، ولا يقرها المنطق ، وأتوا بحجج عقلية بارعة في دفاعهم عن الدين وردهم على خصومهم^٣ ، ولهم في ذلك مجالس ومناظرات كانت مضرب المثل^٤ (٣) . وبالحملة تعد المعتزلة في مقدمة العقليين في الإسلام وهم أقرب الفرق الإسلامية إلى الفلاسفة . ويقترب منهم في هذا أيضاً جماعة الإسماعيلية وبعض المتصوفين الفلاسفة ، أمثال السهروردي المقتول (١١٩١) وابن عربي (١٢٤٠) ، وابن سبعين (١٢٧٠) . واستطاع هؤلاء جميعاً أن يبرزوا التيار العقلي في الإسلام ، وأن يدعموه ويؤيدوه ، ووجدوا في الكتاب والسنة ما يتماشى معه ويعتز به (٤) .



(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(٢) الشهرستاني ، نهاية الاقدام في علم الكلام ، أكسفورد ١٩٣٤ ، ص ٣٩٧ ، ٤٠٠ .

(٣) المرتضى ، المنية والأمل ، حيدر آباد ١٩٠٢ ، ص ٢٧-٣٠ .

(٤) ابن رشد ، فصل المقال ، القاهرة ، ص ٢-٣ .

وقد انتقل هذا التيار إلى الفلسفة المسيحية ، وكان فلاسفة الإسلام بوجه خاص حملة رايته . وأثاروا في القرن الثالث عشر حركة فكرية قوية ، فأيدهم بعض المدرسين ، وعارضهم آخرون . ونمت الدراسات العقلية نمواً كبيراً ، وكانت الدراسات النقليّة في القرون السابقة أقوى وأغلب . ويوم أن يتقابل العقل والنقل تقابلاً واضحاً في بيئة دينية ، تثار الخصومة بينهما ، وتمس الحاجة إلى تغليب أحدهما على الآخر أو التوفيق بينهما . ويمتاز القرن الثالث عشر بكثرة ما صدر فيه من قرارات كنسية تحرم كتباً فلسفية أو دراسات عقلية بعينها ، وإن لم تمنع عشاق هذه الدراسات من التعليق عليها . ولا نزاع في أن ازدياد سلطان العقل يعدو على نفوذ الكنيسة ، ويفسح السبيل لبحث حقوقها وواجباتها . وأمر آخر يمكن ملاحظته وهو أن مشكلة التوفيق بين الفلسفة والدين لم تثر من قبل في الفلسفة المسيحية مثلما أثرت في القرن الثالث عشر على أثر اتصال اللاتينيين بالفلسفة العربية .

٣ — هي فلسفة توفيقية ، توفق بين الفلسفة بعضهم وبعض . وقد عرف العرب شيئاً من الفلسفات الشرقية القديمة ، كما عرفوا شيئاً عن السابقين لسقراط والسفسطائيين ، والسقراطيين ، وأنصاف السقراطيين ، والرواقيين ، والأبيقوريين ، وجماعة الشكاك ، ورجال مدرسة الإسكندرية (١) . ولكنهم عنوا عناية خاصة بأفلاطون وأرسطو ، فترجموا لأول أهم محاوراته ، وهي : « الجمهورية » ، « النوااميس » ، « وطيماوس » ، « والسوفسطائي » ، « والسياسي » ، « وفيدون » ، « واحتجاج سقراط » (٢) . وترجموا للثاني مصنفات الكهولة كلها تقريباً ، من منطقية ، وطبيعية ، وميتافيزيقية ، وأخلاقية ، وكانت الخطابة والشعر ، وهما كتابان فنيان ، يعدان عندهم بين

(١) Madkour, L'Organon d'Aristote, p. 35-36.

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، لبيتزج ١٨٨١ ، ص ٢٨٦ ؛ الفضلي ، تاريخ الحكماء ،

لبيتزج ١٩٠٣ ، ص ١٧ وما بعدها ، ابن أبي أصيبعة ، عيون الاتباع ، لنجسيريج

١٨٨٤ ، ١٠ ، ص ٤٩ وما بعدها

الكتب المنطقية (١) : ولم يفتحهم إلا كتبه السياسية ، وقد أحاوا محلها « جمهورية » أفلاطون ، وبعض كتبه الأخلاقية . وأضافوا إلى هذا مؤلفات منحولة ليست من عمل أرسطو ، مثل « السماء والعالم » ، « وكتاب الربوبية » . ولم يقنعوا بترجمة الكتب الأرسطية وحدها ، بل حرصوا ما استطاعوا على أن يترجموا معها شروحها ، وكان لهذه الشروح شأن كبير في نظرهم (٢) وعرفوا من الشراح ثاوفرسطس (٢٨٧ ق . م) خليفة أرسطو الأول ، والاسكندر الأفروديسي (٢١١) الذي كان يسميه ابن سينا « فاضل المتأخرين » (٣) . وعرفوا من شراح مدرسة الإسكندرية عدداً غير قليل ، أمثال : أمونيبوس سكاس (أوائل القرن الثالث) ، وفرفوريوس (٣٠٤) ، وتامسطبوس (٣٩٥) ، وداود الأرمني (القرن الخامس) ، ويحيى النحوي (٦٤٣) . وربما كان هؤلاء أعظم أثراً من المشائين الأول ، لأنهم كانوا إلى العرب أقرب ، وفي نظرتهم الدينية ما يلائم بين فلسفتهم والفكر الإسلامي ، وهم على كل حال مصدر هام من مصادر الأفلاطونية والإفلوطينية في العالم العربي (٤) .

فعرف العرب إذن أفلاطون وأرسطو معرفة مباشرة ، عن طريق مؤلفاتهما ، إلى جانب ما نقله عنهما المؤرخون السابقون ، أمثال فلوطرخس (١٢٥) وجيلينوس (٢٠٠) ، وما نقله عنهما حنين بن اسحق (٨٧٧) في كتابه تواتر الفلاسفة والحكماء (٥) . وقد أثرا تأثيراً كبيراً في كثير من المدارس الإسلامية ، وحوطما بوجه خاص دار التوفيق بين الفلاسفة .

(١) المصادر السابقة .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) Madkour, La place d'al Fārābi, p. 133-134.

(٥) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

وللفارابي في هذا موقف واضح ، فهو يؤمن بوحدة الفلسفة ، وأن كبار الفلاسفة يجب أن يتفقوا فيما بينهم ، ما دامت الحقيقة هدفهم جميعاً — ولاشك في أن أفلاطون وأرسطو هما زعما الفلسفة ، وضعا أصولها ، وفصلا القول فيها ، وبلغا بها الغاية ، ولا يمكن أن يتصور خلاف بينهما . والأتباع والتلاميذ هم الذين توهموا هذا الخلاف ، ووسعوا هوته ، والفرق ضارة في الفلسفة ضررها في الدين والسياسة . وكأنا نسمع أحد رجال القرن السابع عشر ، الذين كانوا بمقتون خصومه الفرق والمذاهب التي أولع بها رجال عصر النهضة (١) . وقد أخذ الفارابي على عاتقه أن يبين أن مظان هذا الخلاف لا أساس لها ، وحاول على طريقته الجمع بين رأيي الحكيمين (٢) . فإرد أفلاطون إلى أرسطو تارة ، أو أرسطو إلى أستاذه تارة أخرى ، وإذا عز عليه المزج بينهما قرب مسافة الخلاف ما وسعه .

ولا يمكن أن ننتظر نجاح محاولة أساسها خاطيء ، فالأفلاطونية شيء والأرسطية شيء آخر . ولكن لهذه المحاولة شأن كبير في تاريخ الفلسفة الإسلامية ، فهي نقطة بدء سار عليها الفلاسفة اللاحقون . فنلاحظ أن ابن سينا لم يعن بالفرقة بين أفلاطون وأرسطو ، وفي فلسفته بجانب أفلاطوني واضح . ونلمح لدى ابن باجه (١١٣٨) وابن طفيل (١١٨٥) اتجاهات أفلاطونية وأفلوطينية قوية . وإذا كان ابن رشد قد أخذ على عاتقه العودة إلى أرسطو وتخليص الأرسطية مما لحق بها من عناصر أجنبية ، فإنه لم يسلم هو نفسه من هذه العناصر ، وبدأت فلسفته في جملتها استمراراً للفلسفة التي قال بها الفارابي وابن سينا . وعلى هذا تربط الفلسفة الإسلامية الأفلاطونية بالأرسطية ، وتوفق بينهما ، وتنسجهما ، وتضيف إليهما أموراً أخرى ، وبذا أصبحت هي نفسها مذهباً جديداً ذا شخصية مستقلة .

Madkour, La place d'al Fārābī, p. 11-13.

(١)

(٢) الفارابي ، الشجرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية ، ليدن ١٨٩٠ ، ص

٣٣-١ .

وليست نزعة التوفيق هذه من ابتكار فلاسفة الإسلام ، فقد سبقوا إليها في التاريخ القديم ، وتوسعت فيها مدرسة الإسكندرية توسعاً كبيراً . ويلاحظ فورفيوس أن مؤلفات أستاذه أفلوطين (٢٧٠) تشتمل على آراء رواقية وأخرى أرسطية قد امتزج بعضها ببعض (١) وشرح أرسطو من الإسكندريين موفقون في جملتهم (٢) . وقد مهدوا لفلاسفة الإسلام ، ولكن هؤلاء خطوا في التوفيق بين أفلاطون وأرسطو خطوات أفسح ، وصوروه بصورة أدق وأشمل .

إذا كان التوفيق بين أفلاطون وأرسطو يعد أساساً من الأسس التي قامت عليها الفلسفة الإسلامية ، فإن أساسها الثاني هو التوفيق بينها وبين الدين . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أنها فلسفة ذات طابع ديني واضح ، حاولت في جدد التوفيق بين النقل والعقل . ونستطيع أن نقرر أن فلاسفة الإسلام دون استثناء شغلوا بهذا التوفيق ، من الكندي إلى ابن رشد ، وبدلوا فيه جهوداً ملحوظة ، وأدلو بأراء لا تخلو من طرافة . وكان لمجهودهم أثر في انتشار الفلسفة ، ونفوذها إلى صميم الدراسات الإسلامية الأخرى .

والتوفيق تقريب بين جانبيين ، وجمع بين طرفين وفي الفلسفة نواح لا تتفق مع الدين ، وفي بعض النصوص الدينية ما قد لا يتماشى مع وجهة النظر الفلسفية . لذلك عني فلاسفة الإسلام بأن يصبغوا الفلسفة بصبغة دينية ، وأن يكسوا بعض التعاليم الدينية بكساء فلسفي ، ويكاد يدور توفيقهم حول هذين البابين .

والواقع أن في فلسفة أرسطو ثلاث مسائل جوهرية تتعارض مع تعاليم الإسلام ، وهي : فكرة الألوهية ، والصلة بين الله والعالم ، وخلود النفس — فلم يعن أرسطو كثيراً بمعرفة الله ، ولم يعول عليه في قوانينه الأخلاقية والسياسية

Porphyre, Vie de plotin, Tr. de Brehier. T. I, p. 15.

(١)

Madkour, l'Organon, p. 38-39.

(٢)

وكأنما شغل بالعالم الحسى وحده ، دون أن يفكر فى قوة خارجة عنه تدبره .
بعد أن استكملت الطبيعة وسائلها ونظمها ، انتهى به المطاف إلى محرك يحرك
غيره ولا يتحرك هو ، فهو محرك ساكن . (١) ويمكننا أن نقول إن هذا
المحرك الساكن هو الإله عنده ولا يذكر من صفاته إلا أنه عقل دائم التفكير ،
وتفكيره منصب على ذاته (٢) . وواضح أن هذه الفكرة تختلف كل الاختلاف
عن العقيدة الإسلامية ، وما كان فى وسع فلاسفة الإسلام أن يأخذوا بها .
وعلى عكس ذلك أثبتوا أن الله هو الموجود الأول ، والسبب الحقيقى لسائر
الموجودات ، وأنه منزّه عن الشريك والنظير ، وعن المكان ، والجسمية ،
وأنه الحىّ القادر السميع العليم (٣) .

وإذا كان أرسطو قد قال بقدّم المادة والحركة فإنه لم يدع لله مكاناً فى العالم ،
حقاً إنه يسميه المحرك الأول ، ولكنه محرك لا يتحرك ، وكل وظيفته أن يتجه
إليه العالم فى حركته ، فهو أشبه ما يكون بالهدف والغاية ، وليس تأثيره
فى العالم بأكثر من تأثير التمثال الحميل فى نفس المعجب به (٤) . وإله هذا
شأنه يتنافى مع ما صرح به القرآن من أن الله خالق كل شىء ، وأنه الفاعل
المختار . وقد وقف فلاسفة الإسلام أمام هذه المشكلة موقفاً وسطاً ، فقالوا
إن المادة مخلوقة وقديمة ، مخلوقة بفيض من الله أزلاً ، خلقت من العدم ،
وجاءت معلولة للعلّة الأولى . وهى أيضاً قديمة ، لأنها خلقت قبل الزمان
والحركة . وقد تعهد لها الله برعايته وعنايته منذ خلقها ، لنتحقق للكون ما أعد
له من نظام وقوانين ثابتة (٥) .

(١) Aristote, Physique, 285 a-b.

(٢) Aristote, Metaphysique 1072 b. 27.

(٣) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٦٠٥ - ابن سينا ، الاشارات ،
ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) Aristote, Métaphysique, 1074 a 23.

(٥) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٥٨-٥٩ ، ابن سينا ، الاشارات ، ص
١٧٤-١٧٥ .

ونحن نعلم أن أرسطو ينتقد نظريات الفيثاغوريين والأفلاطونيين الذين يقولون إن النفس جوهر روحي متميز من الجسم ، ويذهب إلى أنها مجرد صورة (١) ، ومن مبادئه أن الصورة لا وجود لها بمعزل عن المادة ، فمنطق مذهبه يؤدي إلى القول بفناء النفس . وهو بوجه عام لا يتكلم عن مشكلة الخلود إلا عرضاً ، وحديثه عنها متهافت متناقض — ولم ير فلاسفة الإسلام بدءاً من أن يفترقوا عنه ، لأن الذي ينكر الخلود يهدم المسئولية من أساسها ، ويقضي على غاية الأخلاق والقوانين والشرائع — ولعل الفارابي قد تردد قليلاً في القول بالخلود ، فقسم النفوس قسمين : عارفة خيره وهي وحدها الخالدة ، وجاهلة مرتبطة بالجسم تفنى بفنائها (٢) . وقد تدارك ابن سينا هذا النقص ، وبرهن على الخلود برهنة مفصلة . وكان لهذه البرهنة أثرها ووزنها في نظر بعض مفكري الأندلس ، أمثال ابن باجه ، وابن طفيل (٣) ، وابن سبعين (٤) . (١٢٦٠) ويبدو على ابن رشد شيء من القلق في هذا شبيه بقلق الفارابي ، فيقول مع أرسطو إن النفس صورة الجسم ، ويقسم العقل إلى قسمين : عملي وهو فاسد ، ونظري وهو أزلي خالد (٥) .

هذا في إختصار هو جملة ما حاوله فلاسفة الإسلام من تطويع فلسفة أرسطو للدين ، فالتوفيق بين الفلسفة والدين ينصب عندهم أساساً على الفلسفة الأرسطية . ولم يقفوا عند هذا ، بل حاولوا أن يقربوا الدين بدوره من الفلسفة : ومن القضايا الدينية ما يحتاج إلى سند عقلي ، وفي ظاهر بعض النصوص مالا يقره العقل ، ونكتفي من هذا ببعض الأمثلة . فالوحي والإلهام وهما مصدر

(١) Aristote, De l'âme, I, 2-5.

(٢) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٦٧ .

(٣) ابراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ص ٢٢٤-٢٣٦ .

(٤) ابن طفيل ، حى بن يقظان ، القاهرة ، ص ١١ ، وانظر أيضاً رأى ابن سبعين

Massignon, Recueil des textes inédits, Paris 1929, p. 129.

(٥) ابن رشد ، تلخيص كتاب النفس ، تحقيق الدكتور الأهواني ، القاهرة ١٩٥٠ ،

النبوة يمكن أن يفسر تفسيراً علمياً سيكولوجياً ، وأن يردا إلى بعض قوى النفس ووظائفها . وقد عني بذلك الفارابي عناية كبرى ، لاسيما وقد عاش في بيئة سادت فيها موجة من الشك تنكر النبوة والأنبياء وترغم هذه الحركة بعض كبار المفكرين الاسلاميين ، أمثال الرازي الطبيب (٩٢٥) . واستطاع الفارابي (١) في ضوء نظرية الأحلام أن يفسر النبوة تفسيراً علمياً ، ملاحظاً أن الإنسان بمخيلته يمكنه أن يتصل بالعالم العلوي في نومه ، فإذا ما رزق مخيلة قوية ، وهذا أمر يختص به أشخاص معينون ؛ أمكنه أن يحقق هذا الاتصال في حال اليقظة ، وهذا هو شأن الأنبياء (٢) . وقد توسع ابن سينا في ذلك ، وكون منه نظرية النبوة التي تعد من أطرف المحاولات للتوفيق بين الفلسفة والدين ، وهي كما لاحظ ابن رشد بحق من صنع فلاسفة الإسلام وحدهم (٣) .

والسمعيات ، وهي أمور ثقيلة خالصة ، يمكن أن تفسر تفسيراً عقلياً ، فالملائكة مثلاً أشبه ما يكون بالعقول والنفوس الفلكية (٤) . واللوح والقلم يرمزان لقضاء الله وقدره ، والحشر والنشر إنما يتعلقان بالأوراح لا بالأجساد ويمكن تأويل كل ما يتصل بهما من مظاهر مادية وحسية (٥) .

والتوفيق عادة أخذ وعطاء ، وربما أغضب الموقف الوسط الطرفين المتقابلين معاً . ولم تسلم محاولات التوفيق السابقة من نقد وملاحظة ، وقد تصدّى لها الخزالي (١١١١) في كتابه تهافت الفلاسفة ، وحصر ما يوجه إليها

(١) ابراهيم مذكور ، في الفلسفة الاسلامية ، ص ٩٣-١٠٧ .

(٢) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٧-٥٣ .

(٣) ابن سينا ، الاشارات ، ص ٢١٢-٢١٤ ؛ ابن رشد ، تهافت التهافت ، بيروت ٢١٩٣٠ .

(٤) الفارابي ، الثمرة المرضية ، ص ٧٧ .

(٥) المصدر السابق .

من مآخذ في عشرين مسألة ، تدور تمان منها حول الباري و صفاته ، ومن أهم ما يلاحظه أن الفلاسفة يقصرون علم الله على ذاته مع جهله بغيره (١) ، وعلم الله بالجزئيات من المسائل التي أثير حولها جدل طويل في العالم الإسلامي . وتنصب تسع مسائل أخرى على علاقة الله بمخلوقاته ، وفكرة الصدور أو النبض التي قال بها الفارابي وابن سينا لا تقنع الغزالي ، لأنها تجعل الخلق أمراً صورياً لا تبدو فيه بوضوح قدرة الله وإرادته (٢) . والمسائل الثلاث الباقية موقوفة على خلود النفس والحشر والنشر ، وجدل الغزالي هنا غير مستساغ ، لأنه لا يقبل من متصوف وإمام ديني أن يتشكك في أمر الخلود (٣) .

وكيفما كان الشأن ، فإن لهذه الحملة أثراً كبيراً في تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام . وقد شاء ابن رشد أن يخفف من وقعها ، وأن يرد على اعتراضات الغزالي ، ووقف على ذلك كتابه تهافت التهافت . وكان هدفه الأول أن يدافع عن أرسطو ، ويؤيد ما أمكن اخوانه الفلاسفة المسلمين . وهو يرى مثلهم ضرورة التوفيق بين الفلسفة والدين ، وعنده أن « الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجوهر والغريزة (٤) والحق حق دائماً مهما اختلفت الظروف والبيانات ، هو حق في ذاته بصرف النظر عن مصدره ، سواء أكان عقلياً أو نقلياً . » والحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له (٥) . فابن رشد يقول بوحدة الحقيقة ، ومن الخطأ أن يعزى إليه — كما زعم بعض المدرسين — أنه يقول بثنائيتها ، ومعارضة الحقيقة العقلية للحقيقة النقلية . وكل ما في الأمر أنه يسلك في التوفيق سبيلاً غير تلك التي سلكها الفارابي وابن سينا ، فهو يرى أن سلامة الدين والفلسفة

(١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، بيروت ١٩٢٧ ، ص ١٦٣-١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٥-١٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٧-٣٣٣ .

(٤) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ٢٥-٢٦ .

(٥) المصدر السابق .



فى أن يفصل أحدهما عن الأخرى (١) ، فلا تضاف إلى التعاليم الدينية نظريات فلسفية ، ولا تصبغ الفلسفة بصبغة دينية . ذلك لأن لكل مقام مقالا ، والفلسفة إنما تعنى الخاصة ، فى حين أن الدين يخاطب العامة ، ومن الحكمة أن نخاطب الناس على قدر عقولهم (٢) . وقد أساء الغزالي بأن نزل بالقضايا الفلسفية الدقيقة إلى مستوى الجماهير ، وعامة الشعب .

لم يكن فلاسفة الإسلام أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين ، فقد سبقهم إلى ذلك مفكرون من يهود ومسيحيين . فأريد من قديم — رد الفلسفة اليونانية إلى التوراة ، وإلى أصول يهودية ، ولجأ فيلون (٣) إلى الرمز والتأويل للتوفيق بين الفلسفة والنصوص المقدسة وعلى نحو شبيه بهذا حاول بعض المسيحيين الأول أن يربطوا الفلسفة بالكتب المقدسة ، ويكنى أن نشير إلى أن القديس أوغسطين (٤٣٠) كان يرى أن ما هو حق من الأفلاطونية الحديثة له أصل فى إنجيل يوحنا (٤) . وقد حرص يحيى النحوى ، وهو معروف جد المعرفة من المسلمين ، على البرهنة على وجود الله ، ليوفق بين الفلسفة والتعاليم المسيحية (٥) . ويعتد المعتزلة ، وهم رواد الفكر الفلسفى الإسلامى ، فى مقدمة من حاولوا التوفيق بين العقل والنقل من المسلمين ، فتوسعوا فى التأويل لكى يفسروا النصوص الدينية تفسيرا عقليا ، وحاولوا صياغة العقيدة الإسلامية صياغة فلسفية (٦) . وعلى نهجهم سار فلاسفة الإسلام ، وفى مقدمتهم الكندى الذى كان يرى أن الحقائق النقلية

(١) المصدر السابق ، ص ١٥-١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٣) Bréhère, Les idées philosophiques et religieuses de Philon d'Alexandrie, Paris, 1908, p. 43.

(٤) Gilson, L'Esprit de la philosophie médiévale, Paris 1944, p. 17.

(٥) النقطة ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٥٤-٣٥٥ .

(٦) محمد يوسف موسى ، بين الدين والفلسفة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٣٠-١٣٤ .

يمكن أن تقاس بالمقاييس العقلية ، ويذهب إلى إدماج أبحاث الربوبية
في الفلسفة (١) .



ولاشك في أن التوفيق الذي حاوله الفلاسفة المسلمون يعد وشيجة
من وشائج القربى بين الفلسفة العربية والفلسفة اللاتينية : ففي أخذ العرب
عن أفلاطون ما قربهم من الأوغسطينيين ورجال المدرسة الفرنسيسكانية
بوجه خاص ، وقد رأى هؤلاء في بعض النظريات الإسلامية ما يتلاقى
مع آراء أفوها من قبل ، فاستساغوها واطمأنوا إليها . وفي تعلق فلاسفة
الإسلام بأرسطو ما وجه إليه أنظار المسيحيين ، وحملهم على ترجمة كتبه ،
ودفع كثيرين من رجال القرن الثالث عشر إلى درسه والتعليق عليه ، وبخاصة
القديس توماس الأكويني (١٢٧٤) الذي يعتبر في هذه الناحية بين اللاتينين
بمثابة ابن رشد بين العرب .

وإذا كان المسيحيون في القرون الوسطى قد حرصوا الحرص كله على
التفرقة بين الفلسفة والدين ، فإن فلسفتهم في أساسها دينية ، ولم يترددوا
في أن يستعينوا بالعقل والمنطق على إثبات كثير من القضايا اللاهوتية . ويرى
ألبير الكبير (١٢٨٠) أن التعاون بين الفلسفة واللاهوت ممكن ونافع ،
وأن العقل والنقل لا يتعارضان ، وإن كان للنقل أمور خاصة به (٢) .
وتلميذه القديس توماس الأكويني في آن وأحد شيوخ الفلاسفة وشيوخ
اللاهوتيين في القرن الثالث عشر ، وقد سار على نهج استاذة في التوفيق
بين الفلسفة والدين ، فهو يرى أن كثيراً من الحقائق العقلية يزداد وضوحاً
بالأدلة العقلية ، وليس بلازم أبداً أن يكون كل ما فوق الطبيعة مخالفاً للعقل (٣) .

(١) الكندي ، رسائل الكندي الفلسفية ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٩٧-١٠٤ من
من الرسائل . (تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة)

(٢) Wulf, Philosophie Médiéval, Paris 1930, T. II, p. 144.

(٣) Ibid, T. II, p. 177-178.

٤ - هي فلسفة وثيقة الصلة بالعلم : تغذية ويغذيها ، وتأخذ عنه وتأخذ عنها ، ففي الدراسات الفلسفية علم وقضايا علمية كثيرة ، وفي البحوث العلمية مبادئ ونظريات فلسفية - والواقع أن فلاسفة الإسلام كانوا يعتبرون العلوم العقلية جزءاً من الفلسفة ، وقد عالجوا مسائل في الطبيعة كما عالجوا في الميتافيزيقى . ومن أوضح الأمثلة على ذلك كتاب الشفاء ، أكبر موسوعة فلسفية عربية ، فإنه يشتمل على أربعة أقسام : ينصب أولها على المنطق ، والثاني على الطبيعيات ، والثالث على الرياضيات ، والرابع على الإلهيات . وفي قسم الطبيعيات يدرس ابن سينا علم النفس ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا . وفي قسم الرياضيات يدرس الهندسة والحساب والفلك والموسيقى .

وفلاسفة الإسلام علماء ، ومن بينهم علماء مبرزون ، فالكندى عالم قبل أن يكون فيلسوفاً ، عنى بالدراسات الرياضية والطبيعية . وكان يرى - كما رأى أفلاطون من قبل - أن الإنسان لا يكون فيلسوفاً قبل أن يدرس الرياضة (١) . واجتهد في تطبيق الرياضيات في الفلك والطبيعة والطب ، بل والميتافيزيقى ، حيث حاول أن يبرهن على وجود الله برهنة رياضية (٢) . وعول على التجربة ، واستخدمها في بعض دراساته الكيميائية ، وكان في مقدمة الذين أبطلوا دعوى صنع الذهب والفضة من غير معدنيهما (٣) . وعاد في عصر النهضة واحداً من إثني عشر قطباً من أقطاب الفكر في العالم . وللغرابي بحوث في الهندسة وعلم الحيل (الميكانيكى) ، وهو دون نزاع أكبر موسيقى في الإسلام . عرض الموسيقى في عدة كتب ، وخاصة في كتاب الموسيقى الكبير ،

(١) القنطلى ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٦٦ ، ابن أبي ربيعة ، عيون الانبياء ١٠٠ ، ص ٢٠٦-٢١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

وأدخل على الموسيقى اليونانية إضافات جديدة (١). وابن سينا حجة في الطب بقدر ما هو حجة في الفلسفة ، تعلم الطب في سن مبكرة ، وزاوله عملاً ولما يجاوز العشرين ، وأحرز فيه شهرة فائقة . وتوسع فيه درساً وبحثاً ، وكتابه القانون من أهم المؤلفات الطبية العربية (٢) ، وقد ظل يتدارس في جامعات أوروبا إلى القرن السادس عشر ، وفي بعض المعاهد الإسلامية إلى أوائل هذا القرن . ولم يخرج الأمر في الأندلس عن ذلك كثيراً ، فقد كان فلاسفته الثلاثة الكبار ، ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد ، أطباء وإن تفاوتت رتبتهم : وكتاب الكليات في الطب لابن رشد ، الذي ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر ، مثال جيد لعرض القضايا الكلية والمبادئ العامة (٣) .

والواقع أن العلوم الطبيعية والرياضية وثيقة الصلة بالدراسات الفلسفية في الإسلام ، ولا يمكن أن يفهم أحدها بدون الأخرى ، ويوم أن ضعف البحث الفلسفي ضعف مع الدراسات العلمية . وإذا كنا قد أشرنا إلى الفلاسفة العلماء فإننا نستطيع أن نضيف إليهم العلماء الفلاسفة : ويمكن أن نذكر من بينهم محمد بن زكريا الرازي ، وهو دون نزاع أكبر طبيب في الإسلام ، بل وفي القرون الوسطى على الإطلاق (٤) . ويمتاز بالأصالة ودقة الملاحظة ، واستطاع أن يكشف عن أمراض لم تكن معروفة من قبل ، وكتابه الحاوي في مقدمة كتب الطب العربية التي عول عليها اللاتين (٥) . وقد منح الكيمياء قسطاً كبيراً من عنايته ، ودرسها دراسة واقعية تجريبية . واتجه أيضاً نحو الفلسفة ، وحرص على أن يلقب بالفيلسوف (٦) . وهو في طبه وفلسفته

(١) القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٢٧٨-٢٨٠ .

(٢) انظر هنا فصل الطب .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ص ١٠١-١٠٣ .

(٥) انظر هنا فصل الطب .

(٦) الرازي - السيرة الفلسفية ، نشر بول كراوس سنة ١٩٣٥ .

واثق من نفسه كل الثقة ، ينتقد جالينوس ، ولا يتردد في أن يهاجم أرسطو .
وأبو الحسن بن الهيثم (١٠٣٩) من أعظم الرياضيين والطبيين في القرون
الوسطى ، انتهى في البصريات إلى آراء ونظريات أكبرها المدرسيون ، وسبق
بها علماء عصر النهضة والتاريخ الحديث (١) . وشاء أن يطبق هندسته
في مجرى النيل بمصر ، فينظم الري ، ويحول دون الفيضانات الطاغية .
وأولع كذلك بالفلسفة ، لأنها في رأيه أساس ينبغي أن تقوم عليه العلوم
جميعها (٢) . وكان معجباً بأرسطو ، شأن المشائين العرب ، فدرس كتبه
وشرحها وعلق عليها .

ويمكن أن يلاحظ أن الحركة العلمية في الإسلام سبقت الدراسات الفلسفية ،
ولابد لنا أن نعيش قبل أن نتفلسف . ويوم أن استقر العرب في بلاد فارس
ومصر ، لفتت نظرهم حركات علمية في جند يسابور وحران والإسكندرية .
فحاولوا أن يفيدوا منها ، وشغلوا أولاً بما تقتضيه ظروف الحياة . وإنا نرى
خالد بن يزيد الأموي (٧٠٤) يعني في عهد مبكر بالكيمياء والطب والنجوم ،
ودعا في أثناء ولايته على مصر ، بعض المتخصصين لترجمة رسائل فيها
عن اليونانية أو القبطية (٣) . ويوم أن اتجه المنصور (٧٧٥) نحو مدرسة
جند يسابور ، التي أسسها كسرى أنوشروان ، إنما كان يبحث عن أطباء
لا عن فلاسفة ، وقد اهتدى إلى بني ينجيشوع الذين كان لهم شأن في نشأة
الدراسات الطبية العربية ، وإسهام في حركة الترجمة الكبرى (٤) . وهذه
الحركة مدينة بوجه خاص لرجال الصدر العباسي الأول ، فقد جعلوا من
بغداد مركزاً للحركة من أكبر حركات الترجمة في التاريخ . والمترجمون

(١) انظر هنا فصل العلوم .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٤٢ .

(٤) القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ١٠٣-١٠٣ ، ١٣٦-١٣٥ .

أنفسهم رواد في ميدان البحث العلمي ، فحنين بن اسحق (٨٧٧) شيخ المترجمين في الإسلام طبيب ، وطبيب عيون بوجه خاص . وقد تخصص في ترجمة كتب أبقراط (٢٧٠ ق . م) وكتب جالينوس (٢٠٠) وجمع منها أكبر عدد ممكن (١) . وثابت بن قرة (٩٠١) رياضي ومترجم ، ويكاد يتخصص في ترجمة كتب اقليدس (٢٨٥ ق . م .) وأرشميدس (٢١٢ ق . م) وبطليموس (١٦١) . (٢) ولم يكن غريباً أن يعنى الكندي ، أول مشائى العرب ، بالرياضة والفلك والكيمياء كما بينا من قبل ، فقد عاصر هؤلاء المترجمين وعاش معهم (٣) .

وقد أسهمت بعض الجماعات السياسية في الحركات العلمية الناشئة ، للشيعة بوجه عام والإسماعيلية بوجه خاص شأن في تاريخ العلم والفلسفة في الإسلام . ففي أخريات القرن الثامن الميلادي ، ظهرت في الكوفة حركة علمية ترمى إلى البحث عن خصائص المعادن والنبات ، وقد تزعمها جابر ابن حيان الصوفي (٧٧٦) الذي يمت إلى الشيعة بنسب ، ويعد « أبا الكيمياء العربية » . وإليه تعزى مجموعة كبيرة من الرسائل ترجمت كلها إلى اللاتينية (٤) وقد غمرت مدرسته من بعده ، وعززت التجربة ، واستخدمت الأجهزة والآلات - وإخوان الصفاء الذين ظهوروا في النصف الأخير من القرن العاشر جماعة سرية سياسية ، ولهم صلة بالإسماعيلية . وقد مزجوا العلم بالفلسفة ، ورسائلهم نموذج من الثقافة العامة السائدة ، وجملتها ٥١ رسالة ، وتقسم إلى أربعة أقسام : رياضيات ، وطبيعات ، وعقليات ، وإلهيات ، عدا الرسالة الحادية والخمسين التي تسمى « الجامعة » ، وهي توضح هدفهم

(١) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ١٩٧ . ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء ، ج ٢

ص ١٨٨ .

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ١١١-١١٢ .

(٣) ص

(٤) ابن النديم الفهرست ، الناصره ١٩٣٠ ، ص ٥٠٠-٥٠٣ .

وتجمل ما ورد في الرسائل الأخرى (١) :

ولا نزاع في أن أرسطو قد غذى الثقافة الإسلامية بعلمه بقدر ما غذاها بمنطقه وفلسفته وكان له ولوع كبير بعلوم الأحياء إلى حد أنه أعد في « اللوقيون متحفاً خاصاً لبقايا الحيوانات » ترجمت كتبه الطبيعية إلى العربية ، وكانت مدداً للفلاسفة والعلماء على السواء . ولم يقف العرب عندما وضعه بنفسه ، بل أضافوا إليه كتباً من صنع آخرين ، مثل كتاب النبات الذي هو بيقين من تأليف تلميذه تاو فرسطس ، وكتاب العالم الذي يصعد في الغالب إلى بوزيد ونئوس (٥٠) ، من أواخر رؤساء المدرسة المشائية وفي تقسيم أرسطو المعروف للعلوم يضع الطبيعيات إلى جانب الرياضيات والالهيات ، فيربط العلم والفلسفة برباط وثيق تأثر به فلاسفة الإسلام وعلماءه (٢) .



وكان لهذا التأخر صدهاء في الفلسفة المسيحية في القرن الثالث عشر ، يدرس العلم مع الفلسفة جنباً إلى جنب ، ويغذيان بغذاء أرسطي عربي ، ومن مفكرى هذا القرن من يعد فيلسوفاً وعالماً على السواء ، فأبير الكبير يدعو إلى دراسة العلم والفلسفة معاً ، ويفسح لهما المجال في دراساته اللاهوتية ، ويدفع البحث العلمي دفعة قوية ، ويعنى مثل كثير من فلاسفة الإسلام بالفلك والجغرافيا ، والحيوان والنبات ، والكيمياء والطب . وصبح روبر حروستيت (١٢٥٣) الدراسات اللاهوتية في جامعة أكسفورد بصيغة علمية قوية ، ولعله هو الذي وجهها هذه الوجهة ، منذ البداية ، وله آراء هامة

(١) النفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٨٢-٨٨ .

(٢) Madkour, La physique d'Aristote dans le monde arabe, Roma, 1965, p. 219-288 (actes du Congrès de la Mendola 1914)

Wulf, Histoire, II, p. 135.

في الفلك والطبيعة ، والبصريات والسمعيات . وعلى نهجه سار تلميذه روجر
بيكون الذي كان معجباً بمفكرى العرب ، وحذا حذوهم في الأخذ بملاحظة
و دراسة الطبيعة ووضع دعائم المنهج التجريبي وكتابه الهام Opus majus
محاكاة لشفاء ابن سينا الذي كان يعرفه بجد المعرفة ، ففيه دراسات علمية
متنوعة ، رياضية وطبيعية ، إلى جانب دراساته الفلسفية واللاهوتية .

(ب) انتقالها إلى الغرب

انتقلت الثقافات قديماً وحديثاً بالاتصال والاختلاط عن طريق الرحلة والهجرة ، أو عن طريق الغزو والفتح . وانتقلت أيضاً بالرسوم والنقوش ، والآثار والمخطوطات ، والكتب والمصنفات . ولم تخرج الثقافة الإسلامية عن ذلك في شيء ، فقد عرفها الغرب عن طريقين أساسيين : الاتصال الشخصي ، النقل الترجمة .

١ - الاتصال الشخصي : اتصل مسيحيو الشرق بالمسلمين على أثر فتوحات فارس والشام ومصر ، وقاسموهم العيش والحياة ، ونعموا معهم بتسامح ديني كان مضرِب المثل . واشتركوا في نشاطهم الفكري والثقافي ، وقادوا الحركة العلمية الإسلامية الناشئة ، وكان منهم أطباء وكيميائيون ، ورياضيون وفلكيون ، أسهموا خاصة في نقل التراث اليوناني إلى العربية ، وللنسطرة والبعاقبة في ذلك شأن كبير . وبدأ البحث العلمي الفلسفي في الإسلام طليقاً لا تقيدته قيود الجنس ولا الدين ، فأتخذ العربي عن الفارسي والمسلم عن المسيحي ، وبالعكس . ودخل بعض مفكري المسيحيين مع المسلمين في حوار وجدل لم يخل من دقة ، فقد لمس أموراً تتصل بال عقيدة وبعض المشاكل الدينية . ويكفي أن نشير إلى مشكلة الكلمة والجبر والاختيار التي أثارت في الشام منذ عهد مبكر ، وعرض لها يحيى الدمشقي (٧٥٤) فيما خالف من دراسات . وإذا كان المسيحيون لم يتصلوا بالكنيسة الغربية ، فإنهم كانوا على صلة وثيقة بالكنيسة الشرقية ، وكانوا يتبادلون معها دروسهم وبحوثهم . والدولة البيزنطية بحكم موقعها متاخمة للعالم الإسلامي ، وقد

عَرَفَتْ عنه برغم الخسومة الشيء الكثير ، وعن طريقها انتقلت أمور إلى العالم الغربي ، وخاصة بعد الحروب الصليبية .

وقد أتاحت هذه الحروب فرصة لاتصال مباشر بين مسيحيي الغرب والمسلمين دام نحو قرن أو يزيد (١٠٩٦ - ١٢٠٤) ولهذا الاتصال آثار سياسية وعسكرية واجتماعية ، فكان مدعاة لاضعاف سلطة الكنيسة وخلق نواة جديدة للوحدة الأوروبية ، ونقل إلى أوروبا شيئاً من الفنون العسكرية وبعض العادات والتقاليد الشرقية ، وأصاب نظام الإقطاع في الصميم . أما آثاره الثقافية فكانت محدودة ، لأن المسيحيين لم ينعموا في هذه الفترة بالهدوء اللازم للبحث والدراسة ، وحملة أساسها خصومة دينية لا تفسح السبيل عادة لتبادل ثقافي وفكري .

وهناك اتصال آخر أوثق وأعمق ، وهو اتصال مسيحيي الغرب بالمسلمين في الأندلس وصقلية ، فقد بعثوا إليهم بعوثاً في طلب العلم ، وبخاصة الرياضيات والفلك والطب . وسعى إليهم الأمراء والوجهاء بحثاً عن العلاج ، أو رغبة في الوقوف على الفنون ومظاهر الحضارة الإسلامية . وقد فتح المسلمون صقلية في أوائل القرن التاسع ، وحكموها نحو قرنين ونصف ، وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ازدهاراً كبيراً وعاش فيها مسيحيو الغرب مع المسلمين جنباً إلى جنب ، كما عاش مسيحيو الشرق . ويوم أن سقطت تحت حكم النورمان (١٠٩٠) ازداد هذا الاتصال وثوقاً ، وأخذ الغرب يفيد من حضارة الإسلام وثقافته . وبلغ التبادل الثقافي بين المسيحيين والمسلمين في صقلية قمته في عهد فردريك الثاني (١٢٥٠) الذي أولع بالعلوم الإسلامية وعرف لها قدرها ، والرسائل الصقلية المتبادلة بينه وبين ابن سبعين خير شاهد على ذلك (١) .

(١) Ibn Sab' in, Correspondance philosophique avec l'Empereur Frederic II, Paris, 1943.

أما الأندلس فقد فتحها المسلمون في أوائل القرن الثامن ، وقضوا فيها نحو سبعة قرون ، وأقاموا فيها حضارة لا تقل عن حضارة المشرق الإسلامي . واتصلوا بالمسيحيين اتصالاً وثيقاً ، أسلم منهم من أسلم ، وبقي آخرون على دينهم في تعايش سلمي أمين ، برغم الحروب والمناوشات التي وقعت بين خلفاء المسلمين وملوك قشتالة . وكانت طليطلة أول مدينة أندلسية سقطت ، في أيدي ألفونس السادس ملك قشتالة سنة ١٠٨٥ ، وهي دون نزاع أكبر مركز انتقلت منه الثقافة الإسلامية إلى الغرب : أمها طلاب العلم من مختلف مدن أوربا ، وكانوا بعد أن يتموا دراستهم يعودون إلى أوطانهم لينشروا العلم فيها . فكانت الأندلس مشعل النور في أوربا ، أمدتها بالعلم والثقافة الإسلامية ، وقضت في ذلك نحو ثلاثة قرون .

ولم يكن اليهود أقل شأنًا من المسيحيين في الاتصال بالمسلمين ، عاشوا معهم في المشرق والمغرب ، وأحرزوا ثقتهم ، وسموا إلى بعض المناصب الكبرى . تعلموا العربية ودرسوا العلوم والفنون الإسلامية ومهروا فيها ، فكان منهم أطباء وفلاسفة ، نخص بالذكر منهم ابن جبرول (١٠٥٨) وموسى بن ميمون (١٢٠٤) اللذين كان لهما أثر واضح في الفلسفة المسيحية . ونحن لا نستطيع في الواقع أن نفصل البحث العلمي والفلسفي الذي قام به اليهود في القرون الوسطى عن الثقافة الإسلامية ، فقد تتلمذوا للمسلمين وأخذوا عنهم واعتدوا بهذا الأخذ وفاخروا به ، وفلسفة ابن رشد بوجه خاص دعامة الفكر الفلسفي اليهودي حتى عصر النهضة .



وكان اليهود عاملاً قوياً من عوامل نشر الثقافة الإسلامية في الغرب ، نشروها بأنفسهم في اتصالاتهم بمسيحيي الغرب ، أو بكتبهم التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية . ونشروها أيضاً بتزويد الغرب بالكتب والمصادر الإسلامية ، وبإسهامهم في حركة الترجمة التي تمت في القرون الوسطى . فكانوا حلقة

اتصال بين الإسلام والمسيحية ، وربطت العبرية اللغة العربية باللغة اللاتينية ، كما ربطت السريانية من قبل اللغة اليونانية باللغة العربية .

٢ - الترجمة اللاتينية : الكتاب 'خير' معبر عن العلم والفلسفة ، وأصدق رسول يحمل أمانة الثقافة . ولو لم يصل إلينا ما بقي من مؤلفات اليونان لضاع تراثهم العلمي والفلسفي على جلالة قدره . ولا تزال تكشف حتى اليوم عن مصادر جديدة للثقافة الإسلامية ، فنكمل بها نقصا ونسد حاجة الترجمة خير وسيلة لربط الثقافات بعضها ببعض ، وقد شغل بها العرب نحو ثلاثة قرون (٨ - ١٠) ، فنقلوا عن الفارسية والهندية ، والسريانية والعبرية ، كما نقلوا عن اللاتينية واليونانية (١) . وربطوا أثينا والاسكندرية ببغداد من جانب ، كما ربطوا بها جند يسابور وحران من جانب آخر (٢) . وشغل بها اللاتين نحو قرنين (١٢ - ١٣) ، فنقلوا عن العبرية والعربية ، كما نقلوا عن اليونانية ، وربطوا بغداد وقرطبة بباريس وأكسفورد . حركة شبيهة بحركة الترجمة في الإسلام ، وإن كانت أضيق مجالا وأقل تنوعا . بدأنا معا بالعلم ، ثم انتهنا إلى الفلسفة ، ولم يعنينا كثيرا بالناحية الأدبية ، فلم يحرص اللاتين على الأخذ من الأدب العربي ، كما لم يحرص العرب من قبل على الأخذ من الأدب اليوناني . عولنا في البداية على مترجمين أجانب ، ثم اضطلع بالأمر فيما بعد العرب واللاتين أنفسهم .

ولا نزاع في أن الثقافة الإسلامية هي التي دفعت اللاتين إلى الترجمة ، وقفوا على بعض ذخائرها ، فرغبوا في الاستزادة منها . حاولوا ترجمة القرآن في القرن العاشر (٣) ، وقام قسطنطين الأفريقي (١٠٨٧) في القرن الحادي عشر بترجمة بعض الكتب الطبية ترجمة عرفت بنقصها وردائها .

Madkour, L'Organon, p. 26-35.

(١)

Meyerhop, Von Alexandrin nach Bagdad, Berlin 1930.

(٢)

D'Alverny, La Connaissance de l'Islam en Occident du IXe au milieu du XIIe siècle, Spoleto 1964.

(٣)

ولم تبدأ حركة الترجمة الحقيقية إلا في القرن الثاني عشر فتوسع فيها ، ونظمت وسائلها ، وركزت في بيئات خاصة ، واضطلعت بها جماعات معينة - بدىء بالترجمة عن العربية ، وعن طريقها اتجهت الأنظار إلى بعض الأصول اليونانية . ولذلك رأى تكوين جيل يلم باللغات الأجنبية ، وأنشئت معاهد لتعليم العربية والعبرية واليونانية . فأسست في طليطلة مدرسة لتعليم العربية والعبرية ، وفيها تخرج ريمون مارثان الدومنيكاني (ق ١٣) الذي كان على اتصال بالقديس توماس الأكويني . وبعد هذا بقليل استطاع ريمون لول (١٣١٦) أن يقرر مبدأ تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعات الأوروبية (١).

وطليطلة وبلرمو أكبر مركزين للترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . فأما الأولى فهي دون نزاع المركز الأول ، جمع فيها كثير من المصادر العربية بفضل توسط اليهود وصالتهم بالطرفين ، لاسيما وبيع المخطوطات في ذلك العهد تجارة رابحة . وأعان على هذا الفونس الحكيم ملك قشتالة (١٢٨٤) الذي كان نصيرا للعلم والفلسفة ، وكان يريد بالقشتالية أن تصبح لغة عالمية . وتوافر لطليطلة بعض كبار المترجمين ، فنظمت فيها جماعات للترجمة ، وعلى رأس كل جماعة مراجعون ومحققون . فينقل أولا من العربية إلى العبرية أو إلى القشتالية ، ثم يترجم من العبرية أو القشتالية إلى اللغة اللاتينية (٢) . وكم يذكرنا هذا بصنع العرب ، فقد كانوا ينقلون أولا من اليونانية ، ومجيدوها قليلون ، إلى اللغة السريانية ، وليس بعسير ترجمة هذه إلى العربية . ومع هذا فقد كان بين اللاتين من يترجم من العربية إلى اللاتينية رأسا ، كما كان بين العرب من يترجم من اليونانية إلى العربية .

وقد مر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة ، ومنهم من استقر فيها وأقام بها . ويمكن أن نذكر من بينهم إبراهيم بن داود الإسرائيلي (١١٨٠) ،

wulf, Histoire, II, p. 310.

(١)

D'Alverny, Les traductions latines d'Ibn-Sina, Millénaire d'Avicenne, Le Caire 1952, p. 59-69.

(٢)

والراهب هرمان الألماني (١٢٧٢) وعلى رأسهم جيرار الكريموني (١١٨٧) ، ذلك الإيطالي الذي اجتذبت الترجمة ، فقصد طليطلة ، وعنى خاصة بالمؤلفات العلمية ، وترجم في الطب والكيمياء ، والفلك والرياضة . وإلى جانبه المطران دومنيك جندسا لينوس (١١٥٠) الذي عنى بالناحية الفلسفية ، وإليه يرجع الفضل في إدخال عدد من فلاسفة الإسلام في العالم اللاتيني . ولم يقنع بالترجمة ، بل كتب وألف ، وكتبه أشبه ما تكون بملخصات لبعض الكتب العربية ، وهو في هذا شبيه ببعض مترجمي العرب الذين ألفوا أن يضعوا « مداخل » ، للدراسات المختلفة . واسنا في حاجة إلى أن نشير إلى أن ترجمة القرن الثاني عشر هذه في طليطلة كانت تتم على مقربة من ابن رشد ، وفي الوقت الذي كان يضع فيه شروحه ومؤلفاته في أشبيلية وقرطبة .

أما بلرمو ، عاصمة صقلية ، فقد نشطت فيها حركة الترجمة في القرن الثالث عشر تحت رعاية الامبراطور فردريك الثاني الذي شاء أن ينشر الحكمة اليونانية والعلوم الإسلامية . وكان على صلة بحكام الشرق وولاته ، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية ، ولعله حصل على كتب ابن رشد جميعها ، ولما مضى على موته ربع قرن ودعا إليه كبار المترجمين ، وفي مقدمتهم ميشيل اسكوت (١٢٣٥) ، تلك الشخصية شبه الأسطورية التي كانت مملوءة نشاطاً وحركة ، والتي عزي إليها عدد غير قليل من المترجمات . ويظهر أنه كان يعرف كيف ينظم أعمال الترجمة ، فكان يوزع العمل على عدد من التلاميذ والأعوان ، ثم يتابع نشاطهم ويراجع أعمالهم (١) . وبهذا استطاعت بلرمو أن تترجم أحسن مؤلفي العرب ، وعلى رأسهم ابن رشد . وقد حرص الامبراطور على أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوروبية ، رغبة في نشر العلم ، وبدافع من منافسة البابا في الغالب .

ولم تقف الترجمة عند القرن الثالث عشر ، بل حولت ترجمات في القرنين

(١) De Vaux, La première entrée d'averrres chez les Latins, Rev. des Sciences Philos. et Théol., No. 22, 1933, pp. 193-242.

التاليين ، ولكنها كانت في الحملة أعمالاً فردية أو إعادة لترجمات سابقة . ولم يكن المترجمون في مستوى واحد ، وقد تفاوتت ترجماتهم تبعاً لتمكنهم من اللغة التي ينقلون عنها وإليها . وكان يحلو لروجر بيكون أن يوازن بينهم وأن يفضل ترجمة على أخرى . ويظهر أنه كان على صلة ببعض من كانوا يجيدون العربية ، وفي ذلك ما يمكنه من الحكم على أشياء لا يلم بها من جهل اللغة (١) . وتنزع الترجمة اللاتينية ، بوجه عام ، منزع الحرفية ، وتلتزم ترتيب الحملة العربية ، مما أدى إلى دخول بعض الألفاظ العربية في اللغة العلمية الفلسفية ، ومع هذا استطاع المترجمون أن يضعوا طائفة من المصطلحات الملائمة . ولم يتردد اللاتين في أن يعيدوا ترجمة ما ظهر نقصه ، وقد يترجم النص الواحد في أكثر من جهة . وبرغم هذا لم تسلم ترجمتهم من أخطاء ، فيعزى إلى باحث ما ليس من عمله ، ويؤدي المعنى أداء فاسداً . ومهما يكن من أمر فإن الترجمات اللاتينية احتفظت لنا بنصوص لم نقف بعد على أصولها العربية ، وفيها ما يعين على تحقيق نصوص ساء نسخها ، لاسيما وهي ترجع في الغالب إلى أصول أقدم عهداً ، وربما كانت بخط المؤلف نفسه .

٣ - ما ترجم من الكتب الفلسفية : أشرنا من قبل إلى أن اللاتين عنوا أولاً بالعلوم كما صنع العرب من قبل ، والتاريخ يعيد نفسه . فترجموا كتباً في الرياضة والفلك ، والطب والكيمياء ، والنبات والحيوان بل والسحر والتنجيم . وعرفوا كبار علماء الإسلام ، أمثال جابر بن حيان والرازي في الكيمياء ، والخوارزمي (٨٤٤) وابن الهيثم في الرياضة والبصريات ، والبتاني (٩٢٩) والبتروجي (١٠٨٥) في الفلك وابن زهر (١٠٦٢) وعلى ابن رضوان (١٠٦٧) في الطب ، عدا الفلاسفة الأطباء (٢) .

(١) Bouyges, Roger Bacon a-t-il lu des livres arabes ? Archives, Paris 1930, V, P. 311-315.

(٢) انظر هنا فصول : العلوم والطب ، والموسيقى .

ويعني أن نقف قليلا عند الفلسفة والفلاسفة لنتبين مدى صلة كل واحد منهم بالعالم اللاتيني ، ونعرف ما ترجم من كتبه الفلسفية . وقد عرف اللاتين الكندي ، وإن لم يردد اسمه كثيرا ، ويظهر أن علمه غلب على فلسفته عندهم . ولم يترجم من كتبه الفلسفية إلا أربع رسائل صغيرة هي : (١) في العقل ، (٢) في ماهية النوم والرؤيا ، (٣) في الجواهر الخمسة (٤) في البرهان المنطقي (١) - وقد وصلتنا الرسائل الثلاث الأولى في نصوصها العربية (٢) - أما الرسالة الرابعة فلم نقف عليها بعد ، وإن وردت في ثبوت كتب الكندي (٣) - ولارسلتين الأوليين شأن في الفلسفة المدرسية ، وخاصة الرسالة الأولى التي تدور حول مشكلة المعرفة ، وتتصل برسائل أخرى مشابهة للأسكندر الأفروديسي والفارابي ، وابن سينا . وفي بعض المخطوطات اللاتينية مجموع يحوى هذه الرسائل الأربع ، ويرمز لقربها وارتباط بعضها ببعض (٤) والرؤى والأحلام من الموضوعات الطريفة والهامة في القرون الوسطى لأنها تتصل بالوحي والإلهام ، وقد عالجها الفارابي وابن سينا بعد الكندي وبنيا عليها نظرية النبوة التي تعد من النظريات الإسلامية الخالصة ، ولادبير الكبير بحث في النوم واليقظة يحذو فيه حذو مفكرى الإسلام (٥) .

ويظهر أن صورة الفارابي لدى اللاتين كانت أوضح وإن لم يترجم من كتبه الفلسفية إلا إثنان ، أولهما إحصاء العلوم الذي ترجم مرتين في القرن الثاني عشر على أيدي جند ساليونس وجيرار الكريموني ، وكان له أثره في محاولات تصنيف العلوم في القرون الوسطى ، وخاصة عند أحد مترجميه

(١) Nagy (A.) Die Philosophischen Abhandlungen des Ja'qub ben ishaq al Kindi Beitrage, 2, 5, 1897.

(٢) أبو ريذة - رسائل الكندي ، ج ١ ، ص ٢٨٢-٣٦١ ، ص ٢٠ ، ص ٣٥-٥

(٣) القفطي - تاريخ الحكماء ص ٣٦٩ .

(٤) Gilson, Les Sources greco-arabes de l'Augusténisme camicemisant

Archives, IV, 1929, p. 5-149.

Wuf, Histoire, II, p. 131. (٥)

جند ساليانوس (١) - ولم يحاول الفارابي في الإحصاء وضع نظرية في تقسيم العلوم كما صنع أرسطو في قسمته السداسية للعلوم النظرية والعملية ، وإنما شاء فقط أن يحصر العلوم المعروفة لعهد ، وتعرف بها (٢) - وما أشبهه في ذلك بأسبير (١٨٣٦) الذي جاء بعده بنحو تسعة قرون ، وحصر العلوم المعاصرة له في ١٢٨ علما (٣) - والكتاب الثاني مقالة في العقل ، وقد عرضنا له منذ قليل : ومشكلة العقل أو مشكلة المعرفة إحدى مشاكل الفلسفة المسيحية الكبرى التي أسهم فيها الفارابي وابن سينا بنصيب كبير . ومما يلفت النظر أن المدرسين لم يتجهوا إلى منطق الفارابي مع أنه المعلم الثاني ومنطقي العرب الأول ، وكأنهم اكتفوا بمنطق أرسطو بعد أن اكتمل لديهم ، ولا أدل على هذا من أنهم لم يتموا ترجمة منطق الشفاء بعد أن بدعوا فيه وعرفوه . ومع هذا يمكننا أن نقرر أن كبار مفكري القرن الثالث عشر من المسيحيين عرفوا الفارابي ، وكثيرا ما أشار إليه البير الكبير وروجرييكون . وكأنهم أدركوا تلاق آرائهم مع آراء تلميذه ابن سينا ، وطغى التلميذ على الأستاذ هنا كما طغى عليه عند العرب (٤) . وقد عني اللاتين فعلا بابن سينا عناية كبرى ، وتخبروا موسوعته الفاسفية ، وأخذوا يترجمونها وقضوا في ذلك زمنا . ترجموها على مرحلتين : مرحلة مبكرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ومرحلة لاحقة بعدها بنحو مائة سنة . فترجموا أولا من قسم منطق الشفاء « المدخل » وفصلا من « التحاليل الثانية » ومن قسم الطبيعيات الكتاب الأول ، والثاني والسادس وهو « كتاب النفس » المعروف ، وقسم « الالهيات » بأسرها - ثم أتموا في المرحلة الثانية بقية قسم الطبيعيات (٥) - ولا ندرى

(١) Bouyges, Notes sur les philosophes arabes connus des Latins, Mélanges, Beyrouth T. IX, p. 95.

(٢) الفارابي ، إحصاء العلوم ، تحقيق الدكتور عثمان أمين ، القاهرة ١٩٤٩ .

(٣) Ampère, Essai sur la philosophie des sciences.

(٤) Madkour, La place d'Al Fârâbi, p. 79-98.

(٥) D'Alverny, Les traductions latines, op. cit.

لماذا لم يعرضوا لقسم الرياضيات مع حرصهم على هذه الناحية ، ولعله لم يقع في أيديهم وقد ترجموا أيضا لابن سينا شذرات من النجاة والإشارات وبعض الرسائل الفلسفية الصغرى (١) .

وما إن ترجمت أجزاء الشفاء حتى تلقفتها الأيدي في مختلف العواصم الأوروبية ، ونسخت منها عشرات المخطوطات ، وكانت تجارة الكتب رائجة (رواجاً كبيراً في القرن الثالث عشر -) وما ترجم من كتاب الشفاء كاف في إعطاء صورة صادقة عن فلسفة ابن سينا ، وكانت له آثار عميقة في الحركة الفكرية اللاتينية . وفي طبيعياته آراء ونظريات أسهمت في النهضة العلمية الحديثة ، فأنكر ابن سينا دعوى الكيميائيين السائدة من إمكان تحويل المعادن الدهنية إلى معادن نفيسة ، وكان لرأيه هذا وزن عند البير الكبير وروجريكون (٢) . وقال مع القدماء بكروية الأرض ، فمهد لكوبرنيك وجاليليو . وشرح تكوين الجبال والصخور شرحاً اعتمدت عليه نظرية البراكين في القرن السابع عشر - وأخذ بالملاحظة والتجربة في دراساته الطبيعية أو الطبية ، ووضع حجراً في بناء المنهج التجريبي الحديث . وغذى كتاب المدخل مشكلة الكليات التي كان لها شأن في القرون الوسطى المسيحية : وعالج كتاب النفس أموراً كانت الفلسفة المدرسية في أمس الحاجة إليها ، فعرض للنفس في حقيقتها وخلودها ، وشرح جانبي المعرفة الحسي والإشراقى (٣) . وبحث كتاب الألطيات نشأة العالم ، وطبيعة الإله ، وصلته بمخلوقاته ، وحاول التوفيق بين العقل والنقل فلمس أدق الموضوعات التي شغلت « كلية أصول الدين » بباريس زمناً (٤) .

Op. cit.

(١)

Madkour, Ibn Sina, et l'alchimie arabe, Revue du Caire, paris 1951.

(٢)

Crombie Avicenna's influence on the medieval scientific tradition
Cambridge 1951.

(٣)

De Vaux, l'avicennisme latin, Paris 1934 P 21-30

(٤)

ومقاصد الفلاسفة للغزالي من الكتب التي ترجمت في عهد مبكر على أيدي جند سالينوس ، وهو عرض واضح لفلسفة ابن سينا ، شاء الغزالي أن يمهّد به لحماته على الفلاسفة كما نص على ذلك في مقدمته ويظهر أن هذه المقدمة وإن كانت قد ترجمت إلى اللاتينية ، لم تقع في أيدي كثيرين فعزوا إلى الغزالي كل ما ورد في هذا الكتاب ، وعدوه واحدا من المشائين العرب ، ولم يفت هذا الخلط روجر بيكون ، وأشار إليه صراحة (١) - وعلى كل حال أعان كتاب المقاصد اللاتين على فهم الفلسفة الإسلامية ، وعرضها أمامهم عرضا واضحا .

أما كتاب تهافت الفلاسفة ، الذي يشتمل على أعنف حملة على الفلاسفة عرفت في التاريخ فإنه لم يترجم إلى اللاتينية إلا في آخريات القرن الخامس عشر ، ولم يقد منه رجال القرن الثالث عشر عن طريق «بشير» . وكل ما يمكن أن يكونوا قد وقفوا عليه إنما هو شذرات استمدوها منه ريمون مارثان ، وسجلها في كتابه Pugiofide الذي يشير إلى كتب غزالية أخرى لم تترجم وليس ببعيد أن يكون القديس توماس الأكويني قد وقف على شيء من ذلك ، وأفاد منه في كتابه « الخلاصة في الرد على الأمم » والغزالي في إثباته لعلم الله وقدرته وإرادته وقوله بخلق العالم من عدم ، أقرب ما يكون إلى علماء اللاهوت المسيحيين :

وعرف اللاتين ابن باجة أول فلاسفة الأندلس الكبار ، وإن لم يقدروا عنده طويلا ، فلم يعرضوا لتعليقاته على بعض كتب أرسطو الطبيعية وإنما استوقفهم رسالته في الاتصال التي أشار إليها ألبير الكبير ، وهي بدورها تنصب على مشكلة المعرفة التي شغلت مفكرى القرون الوسطى عامة . ولم تصلهم رسالته « تدبير المتوحد » برغم طرافتها ، وترجمتها إلى العبرية في القرن الرابع عشر .

(١) Archives, Pa-Bouyges, Roger Bacon a-t-il lu des livres arabes? ris 1930, V, P 311 315.

ولم يكن حظ ابن طفيل بأعظم من حظ ابن باجة ، فقد عرفه اللاتين معرفة عابرة برغم معاصرته لحركة الترجمة في طليطلة وقربه منها — ولم يعنوا برسالة حى بن يقطان التي تعد إحدى روائع القصص الفلسفى ، ولم تترجم إلى اللاتينية إلا فى القرن السابع عشر (١٦٧١) . وكان ابن رشد بغزارة مادته ومواجهته لأرسطو مواجئة تامة ، قد أغنى اللاتين عن فلاسفة الأندلس الآخرين .

والحق أن ابن رشد كان أكبر فلاسفة الإسلام حظا من الترجمة اللاتينية ترجمت شروحه على أرسطو فى صورها المختلفة من صغيرة وكبيرة وتلخيصات ويبلغ عددها نحو ٣٨ شرحا ترجمت مرتين : أولاها فى القرن الثالث عشر ، وعول فيها على الأصول العربية ما أمكن والثانية فى القرن السادس عشر وقامت كلها على العبرية (١) خاصة . وترجمت له غير الشروح كتب أخرى أهمها تهافت التهافت الذى ترجم إلى اللاتينية فى القرن الرابع عشر عن أصل عربى مرة وعبرى مرة أخرى (٢) وترجع هذه العناية إلى أسباب أهمها (١) تعلق فردريك الثانى بالعلوم الطبيعية ، وقد وجد منها مادة غزيرة فى شروح ابن رشد على طبيعيات أرسطو ، ولاشك فى أن ما ترجم من هذه الشروح فى القرن الثالث عشر مدين له فى قدر كبير منه ، تمت ترجمته فى بلاطه وتحت إشراف مترجمه الأول ميشيل اسكوت وقد حرص على أن ينشره فى البيئات العلمية الأوروبية (٣) . (٢) تمسك اليهود بفلسفة ابن رشد وتبنيهم لها ، فجمعوا كل مصادرها ، وترجموها إلى العبرية . وكانوا واسطة بينها وبين الفلسفة المسيحية ، فقد أسهموا فى الحركة الفلسفية فى القرون الوسطى وإبان عصر النهضة ، ويمكن أن يقال إن فلسفتهم كانت رشدية خالصة (٤) .

(١) Wolfson, The Twce Revealed Averroes, in Medéaval Academy of America 1961.

(٢) Bouyges, Tahafot at Tahafot, Beyroulh 1930, P 23 .

(٣) De Vaux, Art. Cité.

(٤) Renan Averroes et L'averroisme Paris 8 ed. P. 85-87.

هذا إلى أنه كان منهم مترجمون ، ألموا بالعربية واللاتينية . (٣) ارتباط
ابن رشد بأرسطو ، وإذا كان بعض دارسيه قد طلبوه لذاته فإن فريقا منهم
كان يرجو أن يفهم في ضوءه الفيلسوف اليوناني ، وكم خلطوا آراءهما
وعز عليهم التفرقة بينهما . وإعادة ترجمة ابن رشد في القرن السادس عشر
لم تكن تصوب إليه في الغالب بقدر ما كانت تهدف إلى إلقاء ضوء على أرسطو .
ومما يؤسف له أننا لم نقف بعد على كثير من شروح ابن رشد في أصولها
العربية ، ومصدرنا الوحيد فيها حتى الآن ترجمتها اللاتينية أو العبرية .
وفي هذه الترجمات ما أعان على نشر المذهب الرشدي في الغرب وهيا مصادر
وفيرة لدرسه وبخثه ، وهو هنا دون نزاع أعرف منه في الشرق ، وقد نشرت
شروحه اللاتينية غير مرة كاملة أو مجزأة في القرنين الخامس عشر والسادس
عشر ، وأكمل نشرها هو ذلك الذي يحمل اسم دار النشر الكبرى في القرن
السادس عشر ، « الجونث » . وفي المكتبات الأوروبية الكبيرة بقايا وفيرة
من هذه الشروح ، وبخاصة « دار الكتب الأهلية » بباريس . وفي هذا
ما يبين مدى الإقبال على ابن رشد ، ويدل على كثرة المدارس له .

وإذا كان اللاتين قد قصدوا أولا إلى ترجمة المشائين العرب ، فإنهم
اتجهوا عن طريقهم إلى أرسطو ، ترجموه عن العربية ، ثم حرصوا
على ترجمته عن اليونانية ، وتفتحت أمامهم آفاق الفكر اليوناني أكثر من ذي قبل
وانواقع أنهم لم يكونوا يعرفون من مؤلفات أرسطو حتى أخريات القرن
الثاني عشر إلا بعض كتبه المنطقية وما أشبههم في ذلك بجماعة السريان
في المدارس الفلسفية الشرقية قبل حركة الترجمة الإسلامية . فاستطاع العرب
أن يلفتوا أنظار اللاتين إلى الدراسات القديمة علمية كانت أو فلسفية ،
وأن يحببهم فيها ، وكان لهذا أثره في النهضة الأوروبية .

لم يترجم اللاتين — فيما نعلم — شيئا من كتب المتكلمين معتزلة كانوا
أو أشاعرة ، ذلك لأن الأول كانوا قد اختفت آثارهم في المشرق قبل حركة
الترجمة اللاتينية ، وابن رشد نفسه ، وهو معاصر لها ، يشكو من نقص

مصادر المعتزلة التي وصلت إلى الأندلس (١). وأما الأشاعرة فلم يكن
ملهمهم في بعض نواحيه ملائما للفكر الفلسفي المسيحي ، ولم يتردد القديس
توماس الأكويني أن يحمل عليه في « الخلاصة في الرد على الأمم » ، فنقض
نظرية الجوهر الفرد على نحو ما صنع ابن سينا ، ورفض انكار الأشاعرة
للسببية الذي يتعارض مع القوانين الطبيعية . ويصرح بأنه عول ذلك
كله على كتاب دلالة الحائرين ، الذي ترجم إلى اللاتينية في الثالث الأول
من القرن الثالث عشر . وجدير بنا حقا ألا يغفل مفكرى اليهود الذين
ربطوا الشرق بالغرب ، فقد عاشوا في العالم الإسلامي وتأثروا به ، ثم ترجمت
مؤلفاتهم إلى اللاتينية ، فكانوا همزة وصل بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية .
وفي مقدمتهم ابن جيرول صاحب « نبع الحياة » وموسى بن ميمون صاحب
« دلالة الحائرين » . وقد اعتبر الأول عند المسيحيين مسلما حينما ومسيحيا
حينما آخر ، ونفذت آراؤه إلى رجال القرن الثالث عشر ، وهي مستمدة
من الفكر الإسلامي . وكم من آراء ونظريات إسلامية انتقلت إلى الغرب
عن طريق مفكرى اليهود وربما امتد أثرها إلى التاريخ الحديث .



وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نلاحظ أن اللاتين عرفوا المشائين العرب
عامّة ، وترجموا قدرا من كتبهم ، وفيما ترجموه ما يعطى صورة صادقة
في جملتها عن الفلسفة الإسلامية . ولكن ابن سينا وابن رشد في نظرهم
هما الممثلان الحقيقيان لهذه الفلسفة ، قرعوا لهما في عناية ، ودرسوهما
دراسة عميقة : وأخذوا عنهما ما أخذوا ، ورفضوا ما رفضوا ، وكان لهما
تلاميذ وأتباع ، وخصوم ومعارضون . فأثرا في الفلسفة المسيحية تأثيرا كبيرا ،
وأحدثا فيها تيارات فكرية واضحة ، وامتد أثرهما إلى عصر النهضة والتاريخ
الحديث ، ويعيننا أن نبين هذا الأثر ، ونحدد معاملة .

(١) ابن رشد ، مناهج الأدلة ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١٤٩ .

(ج) أثرها :

لم يبق اليوم شك في تأثير الفلسفة المسيحية بالفلسفة الإسلامية ، ويمتد ذلك إلى آخريات القرن الثاني عشر ، يوم أن أخذ اللاتين يتصلون بالعرب عن طريق بعوثهم إلى صقلية والأندلس ، أو عن طريق ترجمتهم للكتب العربية ، وبدأ هذا الأثر واضحاً وقوياً في القرن الثالث عشر ، وامتد صدهاء إلى القرنين التاليين حتى بلغ عصر النهضة . ويعتبر القرن الثالث عشر بحق العصر الذهبي للفلسفة المدرسية ، وقد أمدّه ابن سينا وابن رشد بمدد وافر ، فأثارا مشاكل جديدة ، وغلّيا مشاكل قائمة وبعثا حركة فكرية نشيطة متنوعة . استشهد بهما وأحيل عليهما ، أو نوقشت آراؤهما ورد عليهما ، والمعارضة لا تحول دون التأثير والتأثر . وقد ينتصر المدرسيون لأحدهما ، ويرفضون الآخر . ويمكن أن نقرر في اختصار أنه لا سبيل إلى فهم الفلسفة المسيحية فهماً دقيقاً إلا إذا درست في ضوء الفلسفة الإسلامية .

ولم يكن هذا الأثر واضحاً في القرن الماضي وضوحه اليوم ، وإن كان رينان قد وجه النظر إليه في كتابه : ابن رشد والرشدية . ذلك لأن معالم الفلسفة الإسلامية نفسها لم تكن قد اتضحت تماماً ، ورجال القرن الثالث عشر لم يكونوا قد درسوا ذلك الدرس العميق المقارن الذي اضطلع به أمثال الأستاذ جاسون شيخ مؤرخي فلسفة القرون الوسطى المعاصرين غير منازع ، وسن في ذلك سنة هدت إلى نواحي كثيرة من وجوه الشبه والتلاق ، بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية . وكشف بوجه خاص عن أثر ابن سينا في الغرب ، ولم يكن مقدراً من قبل حق قدره ، فأبان أنه ربما كان أعمق من أثر ابن رشد ، وهو

على كل حال إلى نفوس المسيحيين أنفذ وأقرب (١) .

لا نكاد نجد أحدا من كبار رجال القرن الثالث عشر إلا وله صلة بابن سينا ، أو بابن رشد أو بهما معا ، فإذا كان سيجر البربنى (١٢٨١) يتعصب لابن رشد ، فإن روجر بيكون يفضل عليه ابن سينا (٢) . وفي فلسفة القديس توماس الأكوينى جوانب سينية وأخرى رشدية . ويمكن أن يلاحظ بوجه عام أن المدرسة الفرنسيسكانية ذات اتجاه سينوى واضح ، بدا عليها منذ نشأتها ، ونما بنموها ، فمؤسسها الاسكندر الهالسى (١٢٤٥) من أوائل المدرسين الذين تقبلوا آراء ابن سينا ونشروها ، ورئيسها دنس سكوت (١٣٠٨) يقرب من ابن سينا قريبا واضحا لما لآرائه من شبه بآراء القديس أوغسطين . والمدرسة الدومنيكانية لم تخل من آثار رشدية ، وإن عارضت ابن رشد ، واستصدرت قرارات كنسية بتحريم كتبه . ورئيسها القديس توماس الإكوينى أقرب إلى ابن رشد منه إلى ابن سينا . ولا نطن أحدا في أخريات القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر عارض ابن رشد أشد من معارضة جيل دى روم (١٣١٦) وريمون لول ومع ذلك لم يسلموا من عدوى الفلسفة الإسلامية .

ويمكن أن يرد أثر الفلسفة الإسلامية إلى جانبين : أحدهما منهجى ، والآخر موضوعى . فمن الناحية المنهجية نجح العرب في أن يوجهوا نظر اللاتين إلى أرسطو ، وحملوهم على درسه ، وقد كانوا من قبل إلى أفلاطون أقرب ، وبالأفلاطونية الحديثة ألصق . درسوه وتأثروا به وإن لم يقرؤا بعض نظرياته وأضحت الفلسفة المسيحية مشائية هى الأخرى كالفلسفة الإسلامية ، ومن أوضح أمثلتها مذهب القديس توماس الأكوينى . وراقهم أرسطو العالم ، بقدر ما تعلقوا بأرسطو المنطقى والفيلسوف ، ورأوا فيه ما يسد حاجة

Gilson art - Cité.

(١)

Madkour, Duns Scot entre Avicenne et Averroès, Congrès de Duns Scot, Oxford 1966

(٢)

ويكمل نقصا : ودرسوه في ضوء ابن سينا وابن رشد ، فخلطوا بينه وبينهما وأسننوا إليه بعض آرائهما . حاولوا أن يشرحوه ويعلقوا عليه على نحو ما فعلا ، فيعرضوا آراءه بأسلوبهم وطريقتهم كما صنع ابن سينا في الشفاء ، أو يشرحوا نصوصه ويعلقوا عليها كما صنع ابن رشد في تفاسيره الكبيرة (١) ويكاد يدور النشاط الفلسفي للجامعات الأوروبية في القرن الثالث عشر حول أرسطو وشارحيه ابن سينا وابن رشد ، ولا تخلو هذه الجامعات الناشئة من أثر عربي . فقد كانت الأصل معاهد دينية كمسجد القرويين (٨٥٩) والجامع الأزهر (٩٧٢) ، تقوم على الهبات والعطايا ، يؤمها الطلاب من جميع الجهات دون تفرقة بين بلد وآخر ، ويلقن العلم فيها بلا أجر ، ويعتمد على أصالة الطالب بأستاذه وأخذ عنه وإجازاته له . وفردريك الثاني ، وهو من أكبر الدعاة إلى نشر الجامعات الأوروبية ، كان قطعاً على بيته من أمر الجامعات الإسلامية .

ومن الناحية الموضوعية أثار العرب في العالم اللاتيني مشاكل كثيرة ، رددت في المعاهد والجامعات ، وكانت موضوع كتب ومؤلفات ، وقد شغلت البيئات الثقافية على اختلافها . ويظهر أن هذه المشاكل كانت من الحدة والأهمية بحيث لم يقنع المسيحيون بما ترجموا من كتب عربية ، وشاءوا أن يستنبروا بآراء المعاصرين من المسلمين . وبين أيدينا نموذج قيم من التبادل الثقافي بين الشرق والغرب ، فقد بعث فردريك الثاني صاحب صقلية إلى ملوك مصر والشام والعراق والأندلس بأسئلة ، آملاً أن يجيب عنها حكماء المسلمين . وقد وصلتنا إجابة ابن سبعين ، أكبر مفكري الأندلس في القرن الثالث عشر ، وهي المسماة بالمسائل الصقلية (٢) . وتدور حول نقط

(١) Rashdall, The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford

1936, 365.

(٢) كشف أمرى لأول مرة سنة ١٨٥٣ عن مخطوط هذه الرسائل الوحيدة الموجودة في أكسفورد Journal Asiatique T.V. ، وترجمها مهران الى الفرنسية وعلق عليها سنة (Journal As t — xIV ١٨٧٩) ونشر النص العربي أخيراً سنة ١٩٤٣ .

أربع : قدم العالم ، أسس الميتافيزيقا ، المقولات ، حقيقة النفس ، ويتفرع
عن النقطة الأخيرة بحث في أوجه الخلاف بين أرسطو والاسكندر الأفروديسي .
وهناك مسائل أخرى أثرت كمسألة الصدور ، وصفات الباري جل شأنه
ونخصوصها العلم والإرادة ، ومشكلة العناية والخير والشر : ويطول بنا الحديث
لو عرضنا لهذه المسائل على اختلافها ، ويمكن أن نقف عند ثلاث منها ،
وهي : مشكلة الوجود والماهية ، ونظرية المعرفة ، النفس ، فنبين في اختصار
وجهة نظر المسلمين فيها وموقف المسيحيين منها .

١ - الوجود والماهية : التفرقة بين الوجود والماهية من الأفكار
الإسلامية الخالصة وإن اتصلت ببعض آراء يونانية ، وقد صادفت نجاحا
لدى اللاتين يزيد على نجاحها عند العرب ، ويرجع ذلك في الغالب إلى صلتها
بفكرة الألوهية ، والتعويل عليها في البرهنة على وجود الله . قال بها الفارابي -
وعزها ابن سينا تعزيزا كبيرا ، بحيث أصبحت أساسا من أسس الميتافيزيقا
عنده . ومما خصها أن الوجود ليس جزءا من ماهية الشيء ، اللهم إلا بالنسبة
للباري جل شأنه الذي لا ينفصل وجوده عن ذاته ، فنستطيع أن نتصور
ماهية شكل هندسي مثلا دون أن نعرف أهو موجود أم لا ، ففما عدا الإله
الوجود عرض من أعراض الذات . ذلك لأن الموجود إن كان حلة ذاته ،
فهو الحق في ذاته ، والواجب الوجود بذاته وإن كان معلولا لغيره ، فوجوده
مستمد من غيره وليس جزءا من ذاته . وإذن ليس ثمة إلا الله الذي هو واجب
الوجود بذاته (١) . ففكرة الوجود والماهية تتصل بذلك التقسيم الثلاثي
الذي قال به الفارابي وابن سينا ، وهو قسمة المدركات إلى ممكن وواجب
بغيره ، وواجب بذاته (٢) . على وجه شبيه بما قال به ليبتز (١٧١٦)
بين المحدثين وقد يكون لهذا التقسيم أصل عند أرسطو ، ولكنه لم يعرف من قبل
بهذه الصورة ، اللهم إلا عند المتكلمين الذين يقسمون الأشياء إلى واجب

(١) الفارابي ، الشجرة المرضية ، ص ٥٧ ، ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

ومستحيل ، وجائز ، ولا يستطيع الممكن أن يوجد وحده ، لأنه بطبيعته
محتمل الوجود والعدم ، ولا بد من مرجح لوجوده على عدمه . والعالم قبل
أن يوجد يدخل في مقولة الممكن ، وبإبداع الله له أصبح واجباً بغيره .
وما دام الواحد جل شأنه واجب الوجود بذاته ، فهو ليس في حاجة إلى إثبات
وجوده ، وإدراك ذاته يكفي وحده في التسليم بوجوده . ولكم يذكرنا
ذلك بالدليل الانتولوجي الذي أثبت به القديس انسلم (١١٠٩) وديكارت
(١٦٥٠) وجود الله . فالبرهنة على وجود الله جزء من الميتافيزيقى ، ولا محل
لذكرها في الطبيعيات .

ولا يقر ابن رشد صنيع زميله الفارابي وابن سينا ، وينكر أن يكون
الوجود عرضاً ، لأنه ليس واحداً من أعراض الجواهر التسعة التي قال بها
أرسطو وتمشياً مع أرسطيته المخلصة ، يرى أن برهان الحركة الذي أورده
أرسطو في الجزء الثامن من كتاب الطبيعة خير دليل على وجود الله ، ولا يصح
أن ينقل إلى مكان آخر ويعيب على ابن سينا هذا النقل (١) ، وبرهان
الحركة في رأيه أليق بكبار النظائر والفلاسفة ، أما العامة فلا بأس من أن يستدل
لهم على وجود الله بما سماه « برهان الإخضاع » أو برهان العناية (٢) .
وكان لهذا الخلاف بين فيلسوفى الاسلام صداه لدى بعض المسيحيين ،
ونخاصة دنس اسكوت .

والفرقة بين الوجود والماهية من المبادئ « الميتافيزيقية الأساسية التي
عرض لها مفكرو القرن الثالث عشر ، وتأثروا فيها بابن سينا كل التأثر .
ونلاحظ أولاً أنه يمكن أن تعد هذه الفرقة أساساً لفلسفة جيوم الأوفرنى
(١٢٤٩) كلها . والمدرسة الفرنسيسكانية تعتنقها ، وتستخدمها في البرهنة
على وجود الله ، فجان الروشلى (١٢٤٥) يعنى بها عناية خاصة ، والقديس
بونا فنتور (١٢٧٤) يعول على دليل ابن سينا الانتولوجي في البرهنة

(١) ابن رشد ، تلخيص ما بعد الطبيعة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤ ، ٤١ .

(٢) ابن رشد ، مناهج الأدلة ، ص ١٥٠-١٥٤ .

على وجود الله (١) . ويناقش دنس أسكوت وجهتي نظر ابن سينا وابن رشد في البرهنة على وجود الله وأنسب مكان لها مناقشة لا تخلو من طرافة ، وينتهي إلى الأخذ بما ارتآه ابن سينا (٢) : وبين الدومنيكان نكتفي بأن نشير إلى ألبير الكبير الذي يأخذ بالتفرقة بين الوجود والماهية ، وهو في الحملة شديداً التأثير بابن سينا ويحس أنه أحياناً كأنه يقرأ ابن سينا . ويتوسع القديس توماس الأكويني في هذه التفرقة ، ويستعين بفكرة الإمكان والضرورة على إثبات وجود الله ، وإن كان لا يأخذ بالدليل الأنتولوجي ، لأن في الانتقال من الوجود المتصور إلى الوجود الفعلي شيئاً من المغالطة . فأوضحت التفرقة بين الوجود والماهية مبدأً ميتافيزيقياً يسلم به المسيحيون ، ويرتبون عليه نتائج .

٢ — نظرية المعرفة . من أهم النظريات في الفلسفة المدرسية بوجه عام ، درسها المسلمون وعنوا بها عناية كبيرة ، ولمسوا فيها التقابل بين عالم الحس وعالم المثل ، بين الأرسطية والأفلاطونية ، وحاووا — كمعاداتهم — التوفيق بين الطرفين . ودرسها المسيحيون تحت اسم مشكلة الكليات (*Problème des universaux*) تارة ، وتحت اسم نظرية العقل (*Théorie de l'intellect*) تارة أخرى ، وأفادوا كثيراً من الدراسة الإسلامية ، وأخذوا عنها . ولا سبيل لأن نتبع هنا تاريخ هذه النظرية في الفلسفة الإسلامية ، ويكفي أن نعرضها على نحو ما صورها ابن سينا ، وأن نبين موقف ابن رشد من هذا التصوير ، ثم نشير إلى ما كان لذلك من أثر في الفكر اللاتيني .

يرى ابن سينا أن للمعرفة طريقين : طريق الحس والاستقراء ، وطريق الفيض والإشراق . فعن طريق الحس نستمد الصور الذهنية من العالم الخارجي ، فمن فقد حساً فقد علماً . ومن هذه الصور نستخلص الكلي ، فهو موجود في أفرادها بالقوة ولا يمكن تحقيقه في الذهن بالفعل إلا بعون خارجي وقوة

Wulf, Histoire, t. II, P 110 - 118

(١)

Madkour, Duns Scot, Art, Cité.

(٢)

عليها . وليست هذه القوة شيئاً آخر سوى العقل الفعال ، فهو يمدنا بنور منه ، أو بضرب من الإشراف نستطيع به أن نتقبل الحقائق مباشرة من العقل الفعال (١) . فالمعرفة حسية تجريبية في أساسها ، كسمولوجية إشراقية في قمتها . وللمعاني الكلية ثلاثة أنواع من الوجود : فهي موجودة أولاً في العقل الفعال ومع الصور والنفوس البشرية ، قبل الكثرة والأعيان الخارجية ، وموجودة ثانية في الكثرة والأعيان الخارجية وجوداً عرضياً بالقوة ، لأنها هي أفرادها وكل كلي موجود بالقوة في أفرادها ، وموجودة أخيراً في الذهن بعد الكثرة والأعيان الخارجية ، لأنها مستمدة منها (٢) . وواضح أن هذا الوجود الثلاثي ضرب من التوفيق بين أفلاطون وأرسطو ، فالكلى الأزلى القائم بذاته الموجود في العقل الفعال شبيه كل الشبه بمثل أفلاطون والكلى الملحوظ في أفرادها والمستخلص في الذهن ليس شيئاً آخر سوى نظرية التجريد الأرسطية وبذا جمع ابن سينا بين الأسمية والواقعية ، ووفق بين أرسطو وأفلاطون ، وفي توفيقه هذا ما مكن لآرائه في العالم اللاتيني .

وبواسطة المعرفة ينمو العقل البشرى ويتطور ، يبدأ أولاً على صورة عقل هيولاني هو مجرد قوة محضة واستعداد خالص ، فإذا ما اكتسب قدراً من المعرفة أصبح عقلاً بالملكة ، وإذا زادت معارفه صار عقلاً بالفعل يدرك المحركات والمعقولات الثانية ، فضلاً عن إدراكه بالمعقولات الأولى . وقد يقدر له أخيراً أن يصبح عقلاً مستفاداً تنكشف له المعقولات كلها بحيث تكون ماثلة حاضرة ، ويتصل مباشرة بالعقل الفعال . وهذه مرتبة لا يسمو إليها إلا نفر قليل ينعم بقوة قدسية ، وتنكشف له الحجب ويتصل بالعالم العلوى (٣) ، تلك هي نظرية العقل عند ابن سينا ، وهي جزء من نظرية المعرفة وترتبط بدورها بالسمولوجيا . ويبدو منها أن العقل قوة منحها

(١) ابن سينا - النجاة ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن سينا - المدخل ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٦-١٦٩ .

(٣) ابن سينا - النجاة ، ص ١٦٦ .

كل إنسان ، وهى أهل للرقى إلى درجات متلاحقة ، ولا يتم رقيها إلا بعون إلهي .
لعل من أهم ما يباعد بين ابن سينا وابن رشد هو نزعة الأول الأفلاطونية ،
ورغبة الثاني الأكيدة في العودة إلى أرسطو . وقد لا يكون بين المدرسين
جميعاً من عنى بالمعلم الأول عناية ابن رشد ، ولا من فهمه على وجهه مثله ،
ولا من أعجب به إعجابه ، ولا من دافع عنه دفاعه ، حتى ضد زملائه
الإسلاميين . ونظرية المعرفة التي قال بها ابن سينا تجافى المذهب الأرسطي ،
وتشتمل على عناصر أفلاطونية واضحة . لذلك لم ير ابن رشد بداً من أن يرد
عليها ، وهو ينكر أن تكون الكليات جواهر مفارقة قائمة بنفسها ، بل هى
موجودة في الأفراد بالقوة وفي الذهن بالفعل (١) ، ونحن نستمدّها من العالم
الخارجي بالحس والتخيل ، ثم نجردها فتصبح حقائق ذهنية (٢) . وإذا
ليس ثمة فيض ولا اشراق ، وإنما تستمد المعرفة من عالم الحس وحده .

ولكن ابن رشد من جهة أخرى يقسم العقل إلى ثلاثة أقسام : هيولاني
هو مجرد استعداد ، وعقل بالملكة تحول من القوة إلى الفعل ، وعقل فعال
هو فعل دائم ، وصورة محضة ونخارج عن أنفسنا وبه يتحول العقل الهيولاني
إلى عقل بالملكة (٣) وهو بهذا لا يختلف عن العقل الفعال الذي قال به
ابن سينا . وإذا كانت لا تفيض منه علينا صور مفارقة في رأى ابن رشد ،
فإن في وسعنا أن نصعد إليه ونستمد منه هذه الصور كما نستمد الكليات
من عالم الحس (٤) — فلم يسلم ابن رشد من التيارات الأفلاطونية
التي عابها على ابن سينا ، برغم حرصه على التخلص منها .

ولا نزاع في أن هذه التيارات هي التي قربت نظرية المعرفة الإسلامية
من الفكر اللاتيني ، عرضها لأول مرة جند سالسينوس مترجم كتاب النفس

(١) ابن رشد ، تلخيص ما بعد الطبيعة ص ٤٥ ، ٥٥ .

(٢) ابن رشد ، كتاب النفس ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٧٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

لابن سينا ، وتوسع فيها جيوم الأوفرنسي ، ووضع دعائم ما سماه الأستاذ جاسون « الأوغسطينية السيناوية » : واستمسكت بها المدرسة الفرنسيسكانية كلها ، لأخذها بالفيض والاشراق اللذين قال بهما القديس أوغسطين من قبل : ولعل هذا هو الذي دفع القديس توماس الاكوينى إلى نقدها والخروج على ابن سينا بعد أن كان يؤيده ، وهو ينكر بوجه خاص الجانب الكسمولوجى فى نظرية المعرفة السيناوية ، لأنه يجعل من العقل الفعال علة المعرفة مع أنه ليس إلا مجرد علة صورية . ويعيب على بعض الفرنسيسكان الذين ذهبوا إلى أن العقل الفعال هو الله (١) ، وهذا ما لم يقل به ابن سينا ، وكأنه كابن رشد يريد هو الآخر العودة إلى أرسطو .

أما الوجود الثلاثى للكليات الذى قال به ابن سينا ، فيلتقى عنده الفرنسيسكان والدوميكان على السواء ، ويفرقون كما فرق ابن سينا بين ثلاثة أنواع من الأجناس : جنس طبيعى (Genus naturale) ، وجنس عقلى (Genus mentale) وجنس منطقي (Genus Logieum) . وهناك تعبيرات مشهورة فى اللاتينية تفصح وحدها عن أصلها العربى فيقال ان الكليات موجودة ante rost (قبل الكثرة) ، أو « in rebuy » (فى الكثرة) ، أو بعد الكثرة . وباختصار ارتبطت نظرية الوجود الثلاثى للكليات بنظرتي العقل والمعرفة الاسلاميتين ، وشاركتهما فيما أحدثتا من حركة فى الفلسفة المسيحية وخاصة فى القرن الثالث عشر (٢) .

٣ - النفس : قد لا يكون ثمة مؤلف عربى أثر فى الفكر الفلسفى اللاتينى تأثير كتاب النفس لابن سينا ، وما إن ترجم إلى اللاتينية حتى ذاع وانتشر ، وأثار عدة أمور حول وجود النفس ، وحقيقتها وخلودها ، وكان لها صدى فى البيئات الثقافية على اختلافها وفى المسائل العقلية التى أشرنا

(١) Gilson art - Cité.

(٢) مذكور مقدمة المدخل ، منطق الشفاء ، ص ٦٧ .

إليها من قبل ما يدل على أهمية هذه الأمور وتعلق المعاصرين بها : فقد سأل
فردريك الثاني ابن سبعين عن حقيقة النفس والدليل على بقائها وأجاب (١)
عليه الفيلسوف الصوفي إجابة تلتقى مع ما قال به صاحب كتاب النفس من قبل.

ويبدل ابن سينا جهداً كبيراً في إثبات وجود النفس ، وقيم عليه عدة
أدلة فيها عمق ودقة وسبق لنظرية الشعور الحديثة : ونود أن نشير إلى واحد
منها ، هو أشدها أخذاً وأعظمها ابتكاراً ونعني به برهان الرجل المعلق
في الفضاء . وما خصه أن لو تصورنا شخصاً مكتمل القوى العقلية والجسمية ،
ثم غطي وجهه فلا يرى شيئاً ، وترك في الفضاء يهوى هوىً بحيث لا يحس
شيئاً ولا يحس بأي احتكاك ، فإنه لا يشك برغم هذا أنه موجود ، ولا شأن
للحس ولا للجسم في إثبات وجوده ، وإنما قاده إليه أمر غير جسمي
وهو النفس (٢) :

وبعد أن يثبت ابن سينا وجود النفس ، يحاول أن يعرفها ويبين حقيقتها.
فيردد أولاً عبارة أرسطو المشهورة من أنها « كمال أولى لجسم آلي » ، فهي إذن
صورة الجسم ، والصورة تفنى بفناء مادتها : لذلك لم ير ابن سينا بداً من أن
يذهب إلى أن النفس جوهر روحي ، هي جوهر لأنها تستطيع القيام بذاتها ،
وروحية لأنها تدرك المعقولات ، والمعقولات لا يمكن أن تكون في جسم
ولا قائمة بجسم . وهنا ينزع ابن سينا مرة أخرى منزعاً أفلاطونياً ، وإن كان
يرى أن النفس جوهر في ذاتها ، وصورة من حيث صلتها بالجسم : وكأنما
شاء أن يوفق بين أفلاطون وأرسطو ، برغم ما في هذا التوفيق من عسر (٣)

ويبرهن أخيراً على مخلود النفس برهنة تذكرنا برهنة أفلاطون في محاوره
فيدون ، فهو يرى أنها جوهر بسيط ، والجواهر البسيطة لا تفنى بعد أن توجد

(١) ابن سبعين ، المسائل الصقلية ص ٦٢-١٦٣

(٢) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١١٩-١٢٠

(٣) ابراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ص ١٩٧-١٢٠٨

لأنها لا تحمل في نفسها عوامل فنائها (١) . وهي أيضاً متميزة من البدن وسابقة عليه في الوجود ، فلا يتوقف وجودها على وجوده ، ولا تنعدم بانعدامه . وهي أخيراً من عالم العقول المفارقة والنفوس الفلكية ، وهذه لا يطرأ عليها فناء بحال ، وكل ما شابهها خالد مخلودها . « وأنت إذا حصلت على ما أصلته لك ، علمت أن كل شيء ما من شأنه أن يصير صورة معقولة ... غير جائز عليه التغيير والتبديل » (٢) .

وكان لهذه الآراء أثرها لدى مفكرى المسيحيين على اختلافهم ، راقهم بوجه خاص برهان الرجل المعلق في الفضاء ، وكثيراً ما رددوه بنصبه . واستمسكت به المدرسة الفرنسيسكانية ، لما لاحظت من شبه بينه وبين برهنة سابقة على وجود النفس قال بها القديس أوغسطين — وقد مهد دون نزاع لفكرة الكوجيتو الديكارتية ، فإن ديكارت يقرر أنه يستطيع أن يشك في كل شيء ، اللهم إلا في أنه يفكر (٣) . والقول بأن النفس جوهر روحى إن أَرْضَى أنصار الأفلاطونية من المسيحيين ، فإنه لا يقنع مشائياً مثل القديس توماس الاكوينى الذى يعتبر أوفى تلميذ لأرسطو في الفلسفة المسيحية . وقد استراح البير الكبير إلى ذلك التوفيق الذى ذهب إليه ابن سينا ، من أن النفس جوهر وصورة معاً (٤) . أما البرهنة على خلود النفس فقد قبلها المسيحيون بقبول حسن ، لأنها تتفق مع التعاليم الدينية ، وتشبه ما قال به القديس أوغسطين في كتابه *De immortalitate animae* ويرى البير الكبير وتوماس الاكوينى أن القول بروحية النفس يستلزم خلودها ضرورة .



(١) ابن سينا ، النجاه ، ص ٣٠٦-٣٠٩ .

(٢) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٣٤ .

(٣) Furlani, avicenna e il cogito, in Islamica, Leipzig 1927

(٤) Gilson, L'esprit de la philosophie me drévale, T I, P. 185-186.

تلك أمثلة من تلاقى الفكر اللاتيني مع الفكر العربي وأخذ عنه ، وكان هذا التلاقى قوياً وواضحاً في القرن الثالث عشر ، إلى حد أن الجامعات الأوروبية شغلت بابن سينا وابن رشد بدرجة لا تقل عن اشتغالها بأرسطو . فدرسوا ونوقشوا واستحدثوا تيارات فكرية كان لها شأنها . وفي منتصف القرن الماضي وضع رينان تاريخاً مفصلاً للرشدية في أوروبا (١) . وفي أوائل هذا القرن وضع الأب مندونييه بحثاً آخر مطولاً عن « الرشدية اللاتينية » (٢) . ومن بجانب آخر استطاع الأستاذ جليسون في دراسات متصلة أن يبرز أثر ابن سينا في القرن الثالث عشر ، وأبان كيف تأخى مع الفكر المسيحي ، ونتج عن هذا التأخى ما سماه « الأغسطينية السيناوية » (٣) . وذهب الأب ولغو إلى ما هو أصرح من ذلك ، وكشف عن « مذهب سينوي لاتيني » في حدود القرنين الثاني عشر والثالث عشر (٤) .

وقد امتد هذا التلاقى إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وإن طغى في هذه الفترة ابن رشد على زميله ، برغم ما ألحق به من خرافات وأباطيل . ولعل هذه الخرافات نفسها هي التي زادت شهرته ، ونفذت به إلى ميادين لم يكن له بها صاغة ، كالشعر والتصوير . ولابن رشد أثر واضح في فن التصوير الإيطالي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وتحفظ المتاحف والكنائس الأوروبية بلوحات معبرة أوحى بها الفيلسوف الإسلامي (٥) . ولم يكن أثره في ميدان الفلسفة والعلم بأقل من أثره في ميدان الفنون فعد شارح أرسطو الحقيقي الذي يعول عليه ، والتف حوله أنصارهم جماعة الرشديين

Renan, Averroès et l'averroïsme, Paris 1858. (١)

Mandonnet, Siger de Barbant et l'averroïsme. (٢)

Archeves de histoire doctrinale et litteraire du moyenage, 1926, 27, 29, 33. (٣)

Notes et textes sur l'avicennisme latin aux confins des XII^e et XIII^e siècles, Paris, 1934. (٤)

Renan, Averroès, 301-316. (٥)

الذين يمثلون اتجاهات قوية من اتجاهات الفكر الغربي حتى عصر النهضة .
والواقع أنه فيما عدا أوكام (١٣٥٠) لم يكن بين مفكرى الغرب فى القرنين
الرابع عشر والخامس عشر إلا أنصار ومؤيدون ، يؤيدون أعلام القرن
الثالث عشر وبعض من سبقهم . فكان هناك الأوغسطينيون ومن نحوهم
من جماعة الفرنسيسكان والتوماسيين أتباع القديس توماس الأكويني
من الدومنيكان ، والرشديون أتباع ابن رشد . ولا شك فى أن الأخيرين
كانوا من أقوى هذه الجماعات ، استطاعوا أن يردوا لابن رشد اعتباره ،
وأن يقودوا حركة فكرية فى بيئات مختلفة ، وخاصة فى جامعات شمال إيطاليا .
ولا يتردد دانتى — برغم تعصبه — فى أن يضع ابن رشد فى مكان ممتاز ،
واو فى جهنم ، إلى جانب ابن سينا وجالينوس (١) . وحين أراد لويس
الحادى عشر سنة ١٤٧٣ أن ينظم التعليم الفلسفى ، أوصى بمذهب أرسطو
وشارحه ابن رشد المعروف بصدقه وسلامته (٢) .

وتعتبر جامعة بادوا القلعة الكبرى التى عمر فيها المذهب الرشدى
حتى القرن السابع عشر ، ولعل ذلك راجع إلى حماية مجلس الشيوخ فى البندقية
لحرية الباحثين ، فلم يجد الجزويت ولا محاكم التفتيش إلیهم سبيلا . وقد أولع
البادويون بدراسة ابن رشد والأخذ بأرائه ، واستطاعوا أن يصححوا
بعض ما نسب إليه من أخطاء ، ودافعوا عنه فى قوة . وفى مقدمة المدافعين
بومبونتزى (١٥٢٥) الذى نصره على الأسكندر الأفروديسى . وتابعت
الجامعات الإيطالية الأخرى فى البندقية وبولونيا تلك الحركة الرشدية التى
ترعمتها جامعة بادوا . والبادويون فى أغلبهم أطباء وفلكيون ، وكان لدراساتهم
الطبية والفلكية شأنها فى تنشيط العلوم التجريبية ، وبذا استطاعت الفلسفة
الإسلامية عن طريق المسيحيين أنفسهم أن تجد سبيلها إلى النهضة الأوروبية
وأن تسهم فيها .

(١) Renan, Ibid., P. 251.

(٢) Ibid., P. 317.

(د) خاتمة

لم تخرج النهضة الأوروبية عن قانون النهضة الإنسانية الأخرى ، والتقت معها في أنها يقظة ووعي يحتاجان إلى شيء من الإعداد والتمهيد ، وقد مهد لها قرنان من الزمان أو يزيد ، وأعدت لها عوامل مختلفة يمكن أن ترد إلى ثلاثة رئيسية ، وهي : (١) اتجاه نحو الطبيعة وعناية بالبحث والتجربة ، (٢) ميل إلى التفكير الطليق وتحرر من سلطة الكنيسة ، (٣) اتصال بالثقافات الأجنبية وتفهم لها ، وخاصة الثقافة اليونانية . ويبدو من بحثنا هذا أن الفلسفة الإسلامية أسهمت في ذلك إسهاماً كبيراً .

فقد دفعت إلى دراسة الكون ، ووجهت النظر إلى آيات الطبيعة ، وعنيت بالبحث العلمي ، ووضعت أساس المنهج التجريبي : وسبق لنا أن بينا أن الفلاسفة الإسلامية وثيقة الصلة بالعلم ، وأنها غذت الحركة العلمية الناشئة في جامعة أكسفورد إبان القرن الثالث عشر (١) . وأشرنا إلى موقف ألبير الكبير وروجر بيكون من العلم والتجربة ، وهما وثيقا الصلة بفلاسفة الإسلام ، ويكادان يقرران معهم أن التجربة ترجمان الطبيعة ، وأن العالم هو ذلك الكتاب الذي يقرأ فيه الحقائق الناصعة . ولم يبق اليوم شك في أن روجر بيكون يعتبر الجلد الأعلى للمنهج التجريبي الذي قال به فرنسيس بيكون ، وهو بدوره تلميذ مخلص لابن سينا (٢) . وأشرنا أخيراً إلى أن جامعة بادوا ، وهي آخر معقل لابن رشد والرشدية ، قد قامت بدراسات فلسفية وطبية مهدت بها للحركة العلمية الحديثة .

(١) ص ١٨-٢٣ .

(٢) ص ٣٣ .

وأثارت الفلسفة الإسلامية في العالم اللاتيني مشاكل شتى ، وحكمت العقل في أمور كثيرة ، ووضعت طائفة من القضايا الدينية موضع البحث والتحليل . فعرضت لخلق العالم وقدمه ، وحقيقة النفس وخلودها ، وحاولت أن تفسر الوحي والإلهام تفسيراً علمياً (١) . وكانت آراؤها موضع أخذ ورد ، وتأيد ومعارضة . وشاعت الكنيسة أن تتدخل في هذا البحث الطليق ، فتضيق من حدوده ، وتفرض على أبنائها آراء معينة . ولم يفتنا أن نشير إلى ما استصدرت من قرارات في القرن الثالث عشر ، تحاول بها أن تحرم وتحلل ، وأن تتحكم في البحث والدرس (٢) . وإذا كانت قد استجابت لها الغالبية العظمى ، فإن بعض الباحثين لم ينزلوا عند أمرها ، ووجدوا في بلاط فردريك الثاني ملجأً ونصيراً ، وقد بينا ما كان لهذا البلاط من شأن في تشجيع البحث وتأيد حرية الرأي (٣) .

وحاول بعض رجال الدين ، أمثال ألبير الكبير وتوماس الأكويني ودنس أسكوت ، أن يوفقوا بين العقل والنقل ، كما صنع فلاسفة الإسلام وهذا التوفيق نفسه استجابة لدعوة العقل لا محالة ، وإن لم يقنع به عقليون آخرون شاءوا أن يفسحوا للعقل مجالا أوسع . وسيجر البربنتي ، وهو في آن واحد كاهن ورشدي مخاص ، لم يكن إلا مثلاً من أمثلة التحرر من سلطة الكنيسة وإطلاق العنان للعقل ، وقد انتهى به الأمر أن أصدرت الكنيسة قرارات سنة ١٢٧٧ بتحريم تعاليمه ، وقدر له أن يقتل بعد ذلك بسبع سنين على أيدي شماسه (٤) . ولم يمنع هذا الرشديين من أن يسيروا في طريقهم طول

(١) ص ١٤ .

(٢) ص ١٨ .

(٣) ص ٢٩-٣٠ .

(٤)

القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وأن يقودوا حركة تحرر أضعفت الكنيسة ، وكانت من عوامل الإصلاح الديني ، ومهدت لحركة البحث والدراسة التي امتازت بها النهضة الأوروبية .

وأخيراً فتحت انفسا فلسفة الإسلام أمام اللاتين أفاقاً جديدة ، ووجهت أنظارهم نحو ثقافات لم يكونوا يأبهون لها . حببتهم في الثقافة العربية ، فجدوا في طلبها والأخذ عنها . وربطتهم بالفكر اليهودي ، فأضحى جزءاً لا ينفصل عن الفكر المسيحي في القرون الوسطى . وعن طريق الثقافة اليهودية العربية نفذوا إلى الثقافة اليونانية ، فكشفوا عن ذخائرها ، وأقبلوا عليها أكثر من ذي قبل . ولقد عرضنا لحركة الترجمة اللاتينية التي حاولت النقل عن الثقافات الأجنبية ، وبيننا مدى نشاطها ، ومراكزها الكبرى والهيئات التي قامت عليها (١) . وبيننا أيضاً الاتجاه نحو تعلم اللغات الأجنبية من عربية وعبرية ويونانية ، والمعاهد التي أنشئت من أجل ذلك (٢) . ولم تقف الترجمة عند القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وقد أشرنا إلى حركة ترجمة متأخرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ربطت القرون الوسطى بالتاريخ الحديث ، وغذت عصر النهضة بالتراث القديم . (٣) وإذا كان اللاتين قد عنوا أولاً بالفلسفة والعلم ، فإنهم لم يلبثوا أن اتجهوا نحو الأدب اليوناني والروماني . وشاء دانتى وبترارك (١٣٧٤) أن يحطما قيود الأدب اللاتيني القاسية ، وأن يضعوا الحجر الأساسي في بناء النهضة الأدبية الحديثة . فأسهم العرب في نهضة أوروبا الأدبية والعلمية والفلسفية ، وربطوا التاريخ القديم بالتاريخ الحديث . والثقافات في حاجة دائماً إلى تطعيم ينهض بها ويجدد شبابها ، والحاضر قطعة من الماضي ، وهما معاً يمهدان للمستقبل .

(١) ص ٢٦-٣٠ .

(٢) ص ٢٧ .

(٣) ص ٣٠ .

مراجع

أشرنا إلى تفاصيلها في ثنايا البحث ، ونكتفي هنا بأن ننوه ببعضها ،
موزعة على عناصر البحث الثلاثة .

(أ) خصائص الفلسفة الإسلامية .

١ — إبراهيم مدكور ، فلاسفة الإسلام ، مجلة الرسالة عدد ١٤١ ،
١٤٢ لسنة ١٩٣٦ .

٢ — إبراهيم مدكور ، في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، القاهرة
١٩٤٧ .

٣ — Madkour, *L'Organon d'Aristote dans le monde* —
Arabe, Paris 1935.

٤ — Madkour, *La Place d'Al Fārābī dans l'Ecole* —
philosophique Musulmane, Paris, 1934.

٥ — مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، القاهرة
١٩٤٤

(ب) انتقالها إلى الغرب .

1 — D'Alvarney, *Les traductions latines d'Ibn Sina le Cavé*
1952.

2 — D'Alverny, *Les traductions d'Avicenne, moyen age et*
Renaissance Academia National, Roma 1957.

3 — D'alverney, *Survivance et Renaissance d'avicenne à*
Venise et à Padoue.

4 — De Vauxe, *La Première entrée d'Avicenne chez les La-*
tins, Revue des Sciences Philosophiques et théologi-
ques, 1933.

- 5 — Moritz Schneider, *Die Europäischen Übersetzungen aus dem Arabischen*, Groz 1956.
- 6 — Walfoson, *The Twice Revealed Averroes in the Medieval Academy of America* 1961.

(ج) أثرها :

- 1 — De Vaux, *Notes et textes sur l'avecénisme latin aux cofins des XIIe et XIIIe*, Paris, 1934.
- 2 — Gilson, *Pourquoi St. Thomas a critiqué St. Augustin ?* (Archives, 1926).
- 3 — Gilson, *Avicenne et le point de départ de Duns Scot* (Ibid, 1927).
- 4 — *Les sources greco-arabes de l'augustinisme avicennisant* (Ibid, 1927).
- 5 — Madkour, *Duns Scot entre Avicenne et Averroés*, Congrès de Duns Scot, Oxford, 1966.
- 6 — Mandounet, *Siger de Barbant et l'averroïsme latin*, Louvain, 1911.
- 7 — Renam, *Averroés et l'averroïsme*, Paris, 1858.

الفصل
الثالث



في العلوم والطبيعة

إعداد : دكتور عبد الحليم منصور



فهرس الفصل الثالث

١ - مقدمة : الفكر العلمى على مر العصور ... ١٩٩

(أ) العصر القديم ٢٠٠

(ب) العصر الإغريقى ... ٢٠١

(ج) العصر الإسكندرى ٢٠٢

(د) العصر الإسلامى ... ٢٠٤

(هـ) عصر النهضة الأوربية ٢٠٧

(و) العصر الحديث ... ٢٠٨

٢ - إنجازات العرب فى العلوم الطبيعية : ... ٢١٢

أولاً : فى الرياضيات والفلك والطبيعة ... ٢١٦

(أ) الحساب : ... ٢١٦

(ب) الجبر ... ٢١٨

(ج) الهندسة ... ٢١٢

(د) المثلثات والفلك ... ٢٢٤

(هـ) الطبيعة والميكانيكية ... ٢٣٢

٣ - إنجازات العرب فى علوم الحياة والكيمياء والصيدلة والتعدين ... ٢٣٦

(أ) الكيمياء ... ٢٣٧

(ب) النبات ... ٢٤٠

١٩٧

| | |
|-----|------------------------------------|
| ٢٤٥ | (ج) الحيوان |
| ٢٤٩ | (د) الصيدلة |
| ٢٥١ | (هـ) المعادن والحيو لوجيا |
| ٢٥٤ | ٤ — خاتمة |
| ٢٥٧ | ٥ — المراجع : |

مقدمة

الفكر العلمى على مر العصور

نستطيع أن نقرر ، فى غير تحفظ قليل أو كثير ، أن الفكر العلمى ، كان دائماً وراء كل تقدم أحرزته الإنسانية فى عصورها المختلفة ، وإنما بدأ ذلك منذ عرف الإنسان ، كيف يمارس التجربة بخطىء ثم يصيب ، فعرف الطريق إلى المعرفة العلمية ، أو العلم ، وهو ما اصطاح على أنه يتضمن التجربة والملاحظة والاختبار ، وهو الذى يشمل العلوم الطبيعية الأساسية ، من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وجيولوجيا ونبات وحيوان ، وتطبيقاتها فى الطب والزراعة والهندسة والصيدلة والبيطرة وما إليها .

وقد درج كثير من مؤرخى العلم على التأريخ للعلم بعصرين لا ثالث لهما ، وهما العصر الإغريقى وعصر النهضة الأوروبية الحديثة . وعندى أن فى ذلك إغفالا للحضارات التى سبقت العصر الإغريقى ، من صينية وسومرية وآشورية وبابلية وفينيقية ومصرية قديمة ، إذ أن من البديهي أن العلم الإغريقى ، لا يمكن أن يظهر فجأة أو أنه لم يستفد من الحضارات التى تقدمت عليه فى التأريخ ، كما أنهم بذلك يدجون العصر الاسكندرى فى العصر الإغريقى ، فقد حملت الإسكندرية مشعل الحضارة العلمية عدة قرون ، صحيح إنها امتداد للعصر الإغريقى ، ولكنها نهضة وطنها مصر ومقرها الإسكندرية وجامعتها القديمة وما كان بها من مكتبة غنية ومتحف عظيم . أما ثالثة الأثافي بالنسبة لهذا التأريخ فهي إغفال دور العلماء العرب فى العصر الإسلامى الذى ازدان بعشرات ومئات من العلماء الذين يزدان بهم العلم فى كل عصر وآن — ترجموا إلى العربية علوم من تقدمهم وأضافوا

الكثير من مبتكراتهم ، وظلت مؤلفاتهم مراجع معتمدة في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر ، مما جعل بعض المنصفين يعترف بأنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون (١) .

وسنحاول في هذا الفصل أن نشير إلى العصور العلمية المختلفة قبل أن ندل على ما قدم العلماء العرب في مجال العلوم الطبيعية .

(أ) العصر القديم

ويؤرخ البعض للمعرفة العلمية ، منذ العصر الحجري ، عندما صنع إنسان ذلك العصر ، أدوات وأسلحة ، ذات أشكال معينة ، وكان ذلك منذ نحو أربعمئة ألف من السنين ، مما يدل على أن تفكيراً في شكلها قد سبق صناعتها ، وعلى أن صانعها قد فكر في الهدف الذي كان يتغياها ولا شك من أنه حاول وأنفق مرة ومرات ، فهي صور بدائية من التجريب والخطأ والصواب . وعندما عرف الإنسان كيف يجرب ويخطئ ثم يصيب ، فإنه عرف الطريق إلى حل مشاكله . وبالتالي عرف الطريق إلى العلم . ومنذ نحو ثلاثين ألف عام عرف الإنسان كيف يصور الحياة ، وعرف الزراعة منذ نحو خمسة عشر ألف عام ، فتحول من جامع غذاء يلتقطه من حب وشجر وفاكهة وثمر ، إلى منتج غذاء يفيض عن حاجته ، ومع الزمن عرف الأوقات الملائمة للزراعة ، وتلك التي تلائم الحصاد ، وربط بين أوقات العمل والراحة وبين الليل والنهار ، وطلوع القمر وغروبه ، وربط بين أوقات الزراعة ، وبين فصول السنة ، وحركات الشمس والقمر ، ومع ازدياد العمران ظهرت معيشة الجماعات ، وصارت الحاجة لتحديد الأوقات ومعرفة الأيام - وانتقل الإنسان من عصر الحجر إلى عصر المعدن ، وعرفت مصر الفرعونية أصول الزراعة ومسح الأرض وحساب فيضان النيل . وبازدياد العمران

(١) جورج ساتون - مقدمة تاريخ العلم .

وتشابهت المصالح ، ازدهرت التجارة ، وظهرت الحاجة إلى معرفة الأعداد ، وتقدمت المعرفة بالكتابة المصورة ورفرت الحضارات على ضفاف الأنهر في وادي النيل عند المصريين . وفما بين النهرين عند الآشوريين والبابليين والسومريين ، وما وراء النهر عند الصينيين والهنود . وازدهرت هنا وهناك علوم الفلك والرياضيات والتعدين والحساب وهندسة البناء والطب والتحنيط . وكذلك أهدى الفكر العلمي إلى الإنسانية في هذا العصر القديم كثير آ من مظاهر الحضارة والترف والرفاهية ، لم يكن للإنسانية بها عهد في فجر تاريخها ، فسكن الإنسان القصور ، وبني المعابد والأهرام والهياكل ، ومارس الطب ، وصنع الورق والزجاج والأصباغ ، ونسج الملابس ، وعرف الروائح وحضر العقاقير ، وفضلا عن ذلك كله ، فقد عرف الكتابة فسجل معارفه على أوراق البردى ، وعلى جدران المعابد والهياكل بالخط الهيروغليفي عند المصريين القدماء ، وعلى قوالب الطوب بالخط المسماري عند الآشوريين والبابليين . (١) .

(ب) العصر الإغريقي

ثم انتقلت هذه المعارف العلمية إلى الإغريق ، وسطعت حضارة علمية في بلاد الإغريق منذ القرن السابع قبل الميلاد ، وظهر من العلماء الإغريق من فلسف العلم ووضع النظريات والفروض ، وسطع في سماء العلم ، أعلام من أمثال طاليس ، Thales ، واناكسمندر Anaximander ، واناكسميوس ، Anaximenes وابقراط Hippocrates وفيثاغورس Pythagoras وديموقريطس ، ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ممن لا تزال أسماؤهم ترن في آذان الدهر ، وأهدى الفكر العلمي إلى الإنسانية في العصر الإغريقي ، ما لم يعرف أنه أهدى إليها من قبل قط من فلسفات وعلوم ونظريات وفروض لا عهد للإنسانية بها . وعرفت الإنسانية بنظريات كيميائية ونظرية العناصر ،

(١) شجرة الحضارة - رالف لنستون - ترجمة الدكتور أحمد فخرى .

ونظرية الأعداد ، وعرفت آراء ديموقريطس Democritus في الذرة ،
وايقراط في الطب ، وفيثاغورس في الرياضيات ، وأفلاطون في الهندسة
وأرسطو في التشريح والنبات والحيوان ، والمعادن ، وظفرت الإنسانية
بمعلمها الأول « أرسطو » الذي قدم إلى المعرفة أعظم إضافة قدمها فرد. (١)
وساد العلم الإغريق ، وتاهت أثينا على العالم بأكاديمية أفلاطون وليسيوم
أرسطو ، وسيطرت الحضارة العلمية الإغريقية على ما جاورها من بلاد ،
كانت ذات حضارة سادت يوماً ، ولكنها لم تقو على الصمود أمام تيار
المعارف الإغريقية مما جعل كثيرا من المؤرخين يؤرخ بالعصر الإغريق
بداية للمعرفة العلمية الحقيقية ، وإن تبين أن العلم الإغريق لا يمكن أن يظهر
فجأة بهذا السمو ، وأنه استفاد على التحقيق مما سبقه من علوم وحضارات ، -
وأنه كانت هناك صلات واتصالات بين علماء الإغريق وبين علماء المصريين
القدماء ، على ضفاف النيل ، وبين علماء البابليين فيما بين النهرين . والذي
لاشك فيه ، أن الفكر العلمي قد قفز في العصر الإغريق قفزة هائلة ، وأهدى
إلى الإنسانية ترفاً عقلياً إلى جانب الحضارة المادية . إلا أن هذا العصر الذهبي
للحضارة العلمية الإغريقية ، قد انتهى مع الأسف بموت الاسكندر وموت
أرسطو من بعده ، بعام واحد سنة ٣٢٢ ق . م . ووقع اضطهاد على العلماء
الإغريق نتيجة الخلاف بين خلفاء الاسكندر ، فاضطر العلماء إلى الهجرة
من بلاد الإغريق .

(ج) العصر الاسكندري

هاجر نفر كبير من علماء الإغريق وراء البطالمة إلى الإسكندرية ،
وقد اشتهر البطالمة بحب العلم ورعاية العلماء ، ولذلك لم يكن غريباً أن تنتقل
الكثرة الغالبة من علماء أثينا إلى الإسكندرية . ليؤسسوا حضارة علمية ينتقل معها
مركز الثقل العلمي من أثينا إلى الإسكندرية ، حيث أنشئت جامعة Museum

(١) جورج سارتون - مقدمة تاريخ العلم .

الاسكندرية القديمة في القرن الثالث قبل الميلاد ، انشأها بطليموس واستدعى « ستراتون Straton » رئيساً لها ، وظل على رأسها اثنتى عشرة سنة ، ثم استدعى مرة أخرى ليعود إلى أثينا ويرأس الـ Lyceum ثمانية عشر عاماً ، ولم تكن جامعة الاسكندرية معهداً علمياً فحسب ، ولكنها كانت تضم مكتبة تحوى مئات الألوف من المجلدات ، ومتحفاً يضم العينات والنماذج من نبات وحيوان ومعادن .

حملت الاسكندرية مشعل الحضارة العلمية ، وغدت منارة للعلم ، عدة قرون ، وأهدى الفكر العلمى إلى الإنسانية حضارة لم تبلغها من قبل ، وذلك على أيدي نفر من العلماء الأفذاذ من أمثال بطليموس وأرشميدس ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، Dioseorides ، وأوريباسوس Oribasios وبركلييس ، وثاون Theon وابنته هوباتيا Hypatia ، وترك هؤلاء العلماء من المؤلفات العلمية الشيء الكثير ، ويكفى أن نذكر لبطليموس كتابه المجسطى في الفلك ، وكتابه في الجغرافيا وآخر في البصريات ، وأن نذكر لاقلميدس كتابه « الأصول » في الهندسة وجالينوس كتابه في الطب ، ولاوريباسوس كتابه « الجامع » في الطب ، ولديسقوريدس كتابه في النبات ولتاون كتابه في الرياضيات .. إلى غير ذلك من كتب ومؤلفات ليس إلى حصرها من سبيل ، ويكفى أنها ظلت مراجع يترجمها ويحررها وينقدها العلماء عدة قرون طوال العصر الوسيط .

وكانت جامعة الإسكندرية مركز هذا النشاط العلمى العظيم ، وأضاف علماءؤها إلى المعارف العلمية إضافات بالغة الأهمية . ومن أسف أن أحرقت مكتبة الاسكندرية مرة بعد أخرى ، أحرقتها قيصر عند هروبه أو أحرقتها الغوغاء ليضطروه إلى الهرب ، ولكن مارك انطونيو أراد أن يعوض كليوباترة عن هذه الخسارة الفادحة فأهداها مائتى ألف مجلد من مكتبة بروجامون بآسيا الصغرى وأصابها الحريق بعد ذلك مرات ، وكانت قد تدهوت آخر الأمر ووقع الاضطهاد مرة أخرى على العلماء نتيجة خلاف وقع بين المسيحيين

والوثنيين ، واضطر العلماء إلى الهجرة مرة أخرى ، وكانت هجرتهم هذه المرة نحو الشرق ، تلبثوا حيناً في الرها ، ثم أمعنوا مشرقين نحو الضوء الذي سطع كالشهاب في الشرق العربي ، نحو بغداد حاضرة العباسيين .
ومضت الإنسانية قدماً وراء الفكر العلمي ، إنه يمدّها بالرفاهية والحضارة.

(د) العصر الإسلامي

وليس من شك في أن ظهور الدين الإسلامي كان دفعة قوية للفكر العلمي ، لكي يفتح وينتشر ويزيد في معارف الإنسان ورفاهيته ، أليست معجزته الخالدة كتاباً ، هو القرآن الكريم ، أليست أولى آياته « اقرأ » ، ألا تدعو كثير من آياته إلى التفكير في ملكوت السموات والأرض ، والكون والكائنات ، كيف خلقت ، ومم خلقت ، ألا تفرق الآيات بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون وبين الذين أوتوا العلم والذين لم يؤتوه ، ألم يفضل الرسول مجلس العلم على مجلس الذكر ، ألم يقسم الناس إلى فئات ثلاث ، عالم ومتعلم والباقي همج ، ألم يدع إلى طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وإلى طلب العلم ولو في الصين ، ألم يوازن بين مداد العلماء ودماء الشهداء ، ألم يقل غدوة في سبيل العلم خير من مائة غزوة إلى آخر مالا يكاد يقع تحت حصر من آيات وأحاديث ، كلها حض شديد على طلب العلم .

ولذلك ما إن استقرت الدولة الإسلامية ، وامتد سلطانها من مشارف الصين شرقاً ، إلى مشارف فرنسا غرباً ، حتى أخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلم بمختلف فروع وفنونه ، فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية وينقلون إلى اللغة العربية علوم الإغريق والرومان والفرس والهنود ... ترجموا عن الإغريقية والفارسية والقبطية والآرامية والهندية ، Hindu ونقلت ألوف الكتب من المكتبات القديمة ، وأقيمت دور الكتب والمكتبات ، وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الخلفاء والحكام في رعاية العلم والعلماء ، وتسابقوا في الإنفاق في سخاء على العلم والعلماء ، وقبل الرشيد

الحزبية كتباً ، كما دفع المأمون وزن ما ترجم ذهباً ، وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ، ومنازل العلماء ودور الكتب والمساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض ، وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهداً يتعلم فيه ، ومعلماً يقوم على تعليمه وراتباً يقوم بأوده . وكان الجامع المنصور في بغداد ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجامع القرويين في فاس ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء ، إلى جانب بيت الحكمة في بغداد ، ودار العلم في الموصل ، ومكتبه ابن سوار بالبصرة ، ومكتبه ابن الشاطر بالشام ودار الحكمة بالقاهرة كانت جميعاً بمثابة معاهد للعلم في أرقى صورته وكانت في رعاية الخلفاء والحكام من أمثال المأمون ونظام الملك ونور الدين زنكي والحاكم بأمر الله وصالح الدين الأيوبي ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

وفي هذه البيئة العلمية الصالحة ، وفي هذا الجو العلمي الحافل ، نشأ عدد من العلماء يقرنون إلى أعظم العلماء في كل عصر وآن ، وكانت العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ليقراها الناس في أي صقع من أصقاع الوطن الإسلامي الكبير ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية ، نقلوا علوماً وابتكروا أخرى ، وأضافوا كثيراً من الآراء والنظريات التي نسبت إلى غيرهم .

تكلموا في التطور ، وإن نسب إلى « داروين » في القرن التاسع عشر ، وقد كتب فيه « ابن مسكويه » وأخوان الصفاء وابن خلدون قبل داروين بقرون (١) ، وتحدثوا في الحاذبية والربط بين السرعة والثقل والمسافة وإن نسب كل ذلك إلى نيوتن دون سواه ، وقد ثبت أن الخازن وغيره كتبوا في ذلك قبل نيوتن بمئات السنين . (٢) وتحدثوا في أثر البيئة على الأحياء

(١) تجارب الأمم - ابن مسكويه .

(٢) تراث العرب العلمي - قدرى حافظ طوفان .

قبل لامارك ، كما نسب إلى ابن خلدون . وشرح ابن النفيس الدورة الدموية
 الصغرى قبل هارفى ببضعة قرون ، وكذلك الحال فى طبيعة الضوء وسرعته
 وانكساره والذى كتب فيه ابن الهيثم قبل أبطاله من علماء أوروبا (١) .
 كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوا مبادرة الاعتدالين ، وقدروا حجوم
 الكواكب وما بينها من مسافات ، قبل جاليليو وكبلر وكوبرنيق . وأضافوا
 إلى المعارف الفلكية الشيء الكثير ، وأضافها البتاني والفرغانى والكندى والحوارزمى
 والصوفى وغيرهم . وابتدع الخوارزمى استعمال الأرقام فى الحساب بدلا
 من حساب الحمل الذى كان سائداً ، واختار سلسلتين من الأرقام الأولى
 ما يعرف بالأرقام الهندية (١ و ٢ و ٣ و ١٠٠) والثانية ما يعرف بالأرقام
 الغبارية أو العربية (1, 2, 3...) . وتستعمل الأولى فى أغلب البلاد العربية
 والثانية فى بلاد المغرب العربى وفى أوروبا . وكذلك أنشأ الخوارزمى
 من معلومات مشتتة فى الحساب والجبر علم الحساب وعلم الجبر وعلمهما
 للناس أجمعين . وكذلك ألف العلماء العرب فى النبات والحيوان والمعادن
 والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة وحساب المثلثات والهندسة والطب
 والموسيقى وغيرها - ولا يمكن أن يحجب فضل ابن الهيثم والبيرونى والكندى
 والغافقى والبغدادى والقزوينى وابن مسكويه والجاحظ والخازن وجابر
 ابن حيان وابن النفيس وابن البيطار وداود الأنطاكى والمقدسى والبتانى
 والفرغانى والإدريسى وابن ماجد والدينورى والدميرى والصوفى وابن حمزة
 وابن يونس والرازى والجلدكى والحوارزمى وموسى بن شاكر وغيرهم .
 وظلت مؤلفات هؤلاء العلماء المراجع المعتمدة فى جامعات أوروبا حتى القرن
 السابع عشر . واعترف عدد كبير من مؤرخى العلم بفضلهم على العلم
 والإنسانية حتى قال قائلهم انه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة
 الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون .
 وحتى قال آخر « إن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا

(١) الحسن بن الهيثم - مصطلح نظيف .

فإذا العرب سبقونا إليها . وظلت الأمة الإسلامية والعربية حاملة لواء النهضة عدة قرون ، في وقت كانت أوروبا ما تزال غارقة في الظلام . وأهدى الفكر العلمي في العصر الإسلامي إلى الإنسانية كثيراً من مظاهر الترف والحضارة والرفاهية كما أهداها معلمها الثاني والثالث الفارابي وابن سينا . ولو قدر لهذه النهضة العلمية الشاملة أن تستمر في عنفوانها وانتشارها ، لكانت هذه النهضة التي تتيه بها أوروبا في العصر الحاضر من نصيب أمتنا العربية وكانت تتقدم على تاريخها الحالي عدة قرون ولكن وقعت بغداد تحت سنابك الغزاة من المغول والتتار وسقطت الأندلس في يد الفرنجة في الغرب ، وتداعت دويلات المشرق والمغرب العربي واحدة بعد الأخرى ، تحت وطأة الاستعمار التركي ثم الغربي ... وصحت أوروبا .

(هـ) عصر النهضة الأوروبية

وفي الوقت الذي أخذت فيه شمس الحضارة العلمية العربية في العصر الإسلامي تميل إلى الغروب ، وبدأ مدها العالي في الانحسار ، جعلت أوروبا تفيق من سباتها الطويل لتصحو فتلقى إشرافه شمس الحضارة العربية ، ويغمرها فيض العلم العربي ، فقد شعر الأوروبيون بتخالفهم عن العرب ، وحاجتهم إلى الاغتراف من هذا المعين الحديد ، والنهل من هذا النبع الصافي ، فترجموا الكتب العربية إلى اللاتينية وبدأ ذلك في القرن الثالث عشر ونشأت في الوقت نفسه جامعات في أوروبا ، جامعة باريس أولاً ، ثم أكسفورد وكمبريدج ، ثم جامعات في إيطاليا وغيرها من بلاد أوروبا ، وظهر عدد من العلماء كان لهم أثرهم في انهاض الفكر العلمي الأوروبي من أمثال روبرت جروست (١٢٥٠ م) وألبرت ماجنوس (١٢٨٠ م) (وروجر باكون) (١٢٩٤ م) وكانوا من أساتذة الجامعات (١) .

(١) دائرة المعارف البريطانية .

وبدأ عصر الأسفار والرحلات العلمية في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ونظمت رحلات استكشافية على نطاق واسع مثل رحلة فاسكو دي جاما إلى جزر الهند الشرقية ، وكان ربانها فيها « ابن ماجد » الملاح العربي ، ورحلة كريستوفر كولومبس إلى جزر الهند الغربية وتجمعت المعلومات عن غرائب الكائنات والموجودات وبدأ الاهتمام بالحضارات القديمة والعلوم الإغريقية إلى جانب الاهتمام بالحضارة العلمية العربية . وكان اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر نقطة تحول في دفع النهضة الأوروبية ونشر المعارف العربية والإغريقية لتأخذ مكانها في التعليم في الجامعات الأوروبية . وسطع في سماء النهضة العلمية الأوروبية أفذاذ من أمثال فرانيس باكون ، « ورينه ديكرت » « واسحق نيوتن » ، وكيلر وكوبرنيك ، وجاليليو ، وبرونو ، ولافوازييه ، ومولر ، وباستير ، وكوخ ولينيس ثم داروين ولامارك وكوفييه ودالتن وغيرهم ممن كان لهم أثرهم البارع في تقدم المعارف العلمية ولا ننسى ذلك المارد الجبار الذي قفز بالعلوم البيولوجية أوسع قفزة وهو المجهر بعلمساته المختلفة ، وقوة تكبيره للكائنات الدقيقة ، مما يسر دراستها . وكذلك انتشرت الجامعات ، وتكونت الجمعيات العلمية ، ويسمونهم الكليات غير المنظورة واتسعت آفاق المعارف العلمية وزادت فروع العلوم الطبيعية ، وغدا من المستحيل على العالم أن يكون موسوعياً كما كانت الحال قبلاً ، ولكن حسبته أن يقف على رافد واحد من روافد المعرفة ينهل منه ويضيف إليه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وابتكر العلم من الأجهزة والأدوات ووسائل النشر والاعلام ما يسر له التقدم ، وجعله يعدو وثباً نحو مشارف العصر الحديث ، عصر الذرة والصاروخ .

(و) العصر الحديث .

والواقع أنه ليس من السهل وضع حد فاصل بين عصر النهضة الأوروبية والعصر الحديث ومن الناس من يرى أن العصر الحديث ما هو إلا امتداد

لعصر النهضة الأوروبية ولكن الواقع أيضاً أن الفكر العلمى يتقدم بالإنسان
فى سرعة فائقة ، لأنه يعمل بمحصلة قوى العصور السابقة جميعاً ولذا قفز
الإنسان من عصر البخار إلى عصر الكهرباء إلى عصر الذرة والصاروخ
والإلكترون والمذياع والتلفاز وسفن الفضاء فى خطى أشبه بالوثبات
الجارية .

فها نحن نتحدث فى ثقة واطمئنان عن تركيب الذرات ، وعن الفيروس
والبكتريا بفضل المجهر الإلكتروني الذى يكبر الأشياء مئآت الألوف من المرات ،
ثم تكبر مرة أخرى بطرق إبصارية ليبلغ تكبيرها ملايين المرات ، وغدونا
نرسل الصواريخ المتعددة المراحل تنطلق نحو هذا الكوكب أو ذاك القمر بسرعة
تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر فى الساعة وما زال العلم يطمع فى زيادة
السرعة باستعمال الوقود النووي حتى ليعتقد أن الرحلة إلى القمر لن تستغرق
سوى بضع ساعات . وكان كشف الأجهزة المطيافية مما ساعد على معرفة
ما بالأجرام السماوية من عناصر ، كذلك كان كشف البنسلين ومشتقاته
وأضرابه نقلة هائلة فى علاج كثير من الأمراض ، وعرفت المضادات الحيوية
وكان لها أثرها فى تقدم علوم الطب ، ومن قبله كان كشف مركبات السلفا
التي كان لها شأن فى تقدم نواحي كثير من العلوم الطبية .

وفى القرن الحالى ، وقعت حربان عالميتان ، كان لهما أثر بالغ على الفكر
العلمى ، واتجاه البحوث العلمية ، فقد نشطت إلى جانب الصناعات الحربية
صناعة المواد البديلة ، فعرفنا صناعة السكر الصناعى والمطاط الصناعى
والبتروول الصناعى والألياف الصناعية والمنظفات الصناعية . وفى الحرب العالمية
الثانية كان المعسكران عاكفين على كشف أسرار القوى النووية وأطلق
الحلفاء ذلك المارد الجبار من عقله ، ومنذئذ والصناعات الذرية لتتقدم
بخطى ثابتة ، وغدونا نسمع عن المفاعلات الذرية ، التي تنتج العناصر المشعة
التي تستعمل فى علاج كثير من الأمراض كالذهب واليود والفسفور

والاسترنيوم كما نسمع عن مفاعلات للقوى ، تنتج طاقة تستعمل في نتاج الكهرباء أو في تقطير ماء البحر ليكون عذبا يسقى الزرع ، فيساعد على مشكلة إطعام السكان الذين يتزايد عددهم كل يوم ، مما يهدد بخطر انفجار سكانى ، ولكن توفير الطاقة لتحويل ماء البحر ليروى ملايين الأفدنة من الصحارى لتنتج ما يكفي من الغذاء ، سيحل جانبا كبيرا من المشكلة . كما ابتكر الفكر العلمى في العصر الحديث الاصباغ الصناعية تخضر كيميائيا فيوفر الأرض التى كانت تزرع بنباتات الاصباغ لتزرع محاصيل غذائية وكذلك ابتكر الإنسان الألياف الصناعية ، فيوفر الأرض التى تزرع بنباتات الألياف ، والمطاط الصناعى فيوفر الأرض التى كانت تزرع بنباتات المطاط ، وابتكر الفكر العلمى في العصر الحديث كثيرا من الكيماويات البترولية التى تزيد في رفاهية الإنسان .

والواقع أنه حينما اتجه الإنسان ببصره ، يجد بصمة الفكر العلمى على كل أسباب التقدم والرفاهية التى ينعم بها الإنسان في العصر الحاضر ، في مجال الزراعة تقدم في وسائلها ، واستنباط سلالاتها وعلاج آفاتها ، وفي مجال المواصلات ينتقل الإنسان اليوم بطائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت فضلا عن المذياع والتلفاز مما يتيح الرؤية والاستماع على بعد ألوف الأميال ، وفي مجال الطب نسمع كل يوم عن جديد يخفف من آلام الإنسان ويطب لأدوائه وكذلك في مجالات الصناعة والحرب والسلام مما لا سبيل إلى حصره .

وكذلك يقدم الفكر العلمى كل ما من شأنه أن يوفر أسباب الرخاء والرفاهية للجنس البشرى فضلا عن توفير الاحتياجات الضرورية من مأكلا ومشرب وملبس ، وأنه في الوقت نفسه ليلحق بالإنسان في الفضاء العريض ، يريد أن يغزوه ولعله أن ينجح في الوصول إلى القمر أو الكواكب .

وإنه ليبتر كل يوم جديدا في ميادين المعرفة العلمية حتى ليستحيل حتى على المتخصص متابعة التقدم الهائل في كل مناحى الفكر العلمى .

وكذلك قفز الفكر العلمى بالإنسان من عصر الحجر إلى عصر المعدن ،
ومن عصر الدابة إلى عصر البخار ، ثم إلى عصر الكهرباء ، فعصر الذرة
والفضاء ، فى حقبة لا تزيد على واحد بالمائة من حياة الإنسان على الأرض ،
ومن يدرى إلى أى مدى يتقدم الإنسان بالعلم فى المستقبل القريب
علم ذلك عند الله .

إنجازات العرب في العلوم الطبيعية

أجملنا في الفصل السابق الدور الذي قام به العلماء العرب من بناء النهضة العلمية العالمية ، وقلنا إنهم كانوا حلقة الاتصال بين علوم العصر القديم وعلوم العصر الحديث ، وإنهم لم يكتفوا بنقل التراث الإغريقي ، بل زادوا عليه وأضافوا إليه كثيرا من ابتكاراتهم وأنه كما قال سارتون بحق « لولا أعمال العلماء العرب ، لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون » وأنه لو لم تصبنا محنة المغول والتتار والترك ممن جلبوا علينا الجهل والدمار ، وجعلوا الأمة العربية تغفو هذه الاغفلة الطويالة ، التي لم تكد تفيق منها إلا مع الاستعمار الغربي الذي كان أثقل وطأة وأفظع أثرا ، والذي نجح في طمس معالم هذه الحقبة الوضاعة من تاريخنا ، لو لم يصبنا ذلك كله ، لكانت هذه النهضة التي تفاخر بها أوروبا ، من نصيب الأمة العربية ، ولتقدم تاريخها بضعة قرون .

لقد سطع في سماء الحضارة العلمية العربية والإسلامية ، نفر من أكابر العلماء يقرنون إلى أعظم العلماء في العصر الحاضر ، بل في كل عصر وآن ، فقد ظلت كتبهم المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر وكان دأب هؤلاء العلماء العرب في تحصيل العلوم من طبيعية وفلكية ورياضية مضرب الأمثال وأنه لتشهد بذلك أعمال الرازي ، والكندي ، وابن الهيثم ، وابن النفيس ، وابن سينا والبيروني ، وجابر بن حيان ، والخوارزمي ، والبتاني ، والبوزجاني ، والصوفي ، والطوسي ، والكاشي ، والانطاكي ، والبغدادى ، والحازن ، والقزويني ، والغافقي ، وابن البيطار

والدميرى والجاحظ ، والزهرائى ، وابن طفيل ، والفارابى ، وابن العوام ،
وابن يونس وابن حمزة والصورى ، والجلدكى ، والمقدسى ، والأدريسى ،
... وغيرهم . لقد كان كل منهم هو الأعلى كعباً ، والأرسخ قدماً فى علمه
وفنه ، وإن كتب العالم منهم لتعد بالعشرات إن لم نبليغ المثات . وإنما أعانهم
على هذا الانتاج العلمى الرائع الضخم ما وهبوه أغلب الأمر ، من عقل
راجح جبّار ، وعبقريّة فذة ناضجة إلى صبر ومصابرة مع علو فى الهمة ،
وعشق للمعرفة ، وعزوف عن النزول إلى مستوى الدهماء . إلى زهد فى الترف
والسلطان ، واستعلاء بالعلم عن زخارف الحياة ومباهجها .

وكان اقتناعهم بأن الأسلوب العقلى المنطقى وحده لا يكتفى للنهوض
بالعلوم الطبيعية ، بل لابد من إجراء التجارب وتسجيل المشاهدات والملاحظات
وتجميع البيانات والقرائن ، فاتبعوا الطريقة العلمية الصحيحة ، التى ينسب
كشفها إلى علماء النهضة الأوروبية وخاصة « باكون » وإن ثبت أن من العلماء
العرب من اتبعها قبل باكون بمئات السنين ، بل تفوق على « باكون »
وأدرك ما لم يدركه فقد قرنوا المنطق بالتجريب مع الوضوح فى العرض
وعدم التعقيد فى الأسلوب (١) .

فقد كان جابر ابن حيان يوصى تلاميذه بالاهتمام بالتجربة وعدم التعويل
إلا عليها ، مع التدقيق فى الملاحظة ، والاحتياط ، وعدم التسرع فى الاستنتاج .
ويقول « إن المعرفة لا تحصل إلا بها ، كما يوصى الذين يعنون بالعلوم الطبيعية
أن يعرفوا السبب فى إجراء العملية ، وأن يفهموا التعليمات جيداً ، لأن لكل
صناعة أساليبها (٢) .

ويعترف « دراير » بأن تفوق العرب فى العلوم ، إنما هو ناشئ من الأسلوب
الذى تونخواه فى بحوثهم ، فقد تحققوا أن الأسلوب العقلى وحده لا يؤدى

(١) الحسن بن الهيثم - مصطلحى نظيف .

(٢) عبد الحميد احمد - المؤتمر العلمى العربى الاول ١٩٥٣ مطبوعات الاتحاد العربى .

إلى التقدم ، وأنه ينبغي أن تجرى التجارب والمشاهدات ، هذا ما هيا لهم
هذا الترقى الباهر فى الرياضيات والفلك والهندسة والمثلثات والطبيعة وغيرها (١)
فالعلماء العرب هم واضعو أسس البحث بالمعنى الحديث ، فقد تميزوا
بدقة الملاحظة والرغبة فى التجربة والاختيار ، ابتدعوا طرقاً ، واخترعوا
أجهزة وآلات ، لاستخراج الوزن النوعى لكثير من المعادن والسوائل
والأجسام التى تذوب فى الماء ، وابتدع الخازن ميزاناً لوزن الأجسام فى الماء
والهواء ، كما ابتدع البيرونى تجربة لحساب الوزن النوعى ، وعرف العرب
الضغط الجوى ، وإن وزن الجسم فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقى ، وإن كثافة
الهواء فى الطبقات السفلى أكبر منها فى الطبقات العليا وإن الهواء لا يمتد إلى
إلى مالا نهاية ، بل ينتهى عند ارتفاع معين ، واخترع ابن يونس البندول ،
واستعمله العرب فى حساباتهم وتجاربهم الفلكية ، كما كان لابن يونس
وابن حمزة الفضل فى بحوث المتواليات العددية والهندسية ، وكان لبحوثهما
أكبر الأثر فى وضع الأسس التى بنيت عليها حسابات التكامل والتفاضل ،
وجداول اللوغاريتمات .

كذلك قدر البيرونى الوزن النوعى لثمانية عشر معدناً ، قدرها حتى الرقم
العشرى الرابع ، وهى تقديرات بلغت من الدقة أنها لا تكاد تختلف عن تقديراتها
فى العصر الحديث ، وبأجهزة العصر وأدواته وما تزال قاعدة أو معادلة البيرونى
معروفة لدى علماء الغرب (٢) .

ووصف الرازى الأجهزة العلمية التى كانت معروفة فى عصره ، وصف
خمسة وعشرين جهازاً ، منها الزجاجى ومنها المعدنى .

وتكلم الأدريسى والخازن والبيرونى وغيرهما عن الجاذبية ، وتبين
من كتاب ميزان الحكمة للخازن ، أن كانت لديه فكرة عن العلاقة بين السرعة

(١) تراث العرب العلمى - قدرى حافظ طوقان .

(٢) البيرونى للاستاذ قدرى حافظ طوقان كتاب المؤتمر العلمى العربى الخامس سنة ١٩٦٦

والثقل والمسافة كما أنه طبق قاعدة أرشميدس في السوائل على الغازات .
وكذلك تحدث ابن مسكويه وابن خلدون وإخوان الصفا عن التطور
والارتقاء وأثر البيئة على الأحياء وذلك قبل داروين بمئات السنين .
كل ذلك وغيره كثير ، يدل على سبق العرب في كثير من الميادين
والمجالات العلمية ، ويؤيد رأى بعض المستشرقين مثل كاجورى وغيره
إلى القول « إن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية ، حسبناها من صنعنا ،
وإذا بالعلماء العرب سبقونا إليها والواقع أن وجود ابن الهيثم والخازن
والبيروني وجابر وابن سينا وغيرهم كان ضرورياً لظهور جاليليو وكوبرنيك
ونيوطن ، من علماء النهضة الأوروبية .

أولاً : في الرياضيات والفلك والطبيعة

(١) الحساب :

لعل أول ما ينبغي أن يذكر للعرب في مجال العلوم الرياضية والفلكية هو استعمالهم لنظام الترقيم ، بدلاً من حساب الحمل الذي كان سائداً في العصور القديمة فقد اطلع العرب على حساب الهنود ، وأخذوا عنهم نظام الترقيم ، إذ رأوا أنه أفضل من حساب الحمل . وكان لدى الهنود أشكال مختلفة للأرقام . فاختاروا سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية (١ و ٣ و ٤ و ٥ و ١٠٠) وهي المستعملة في أغلب البلاد العربية . وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية (S - I - ES - I) وهي المستعملة في بلاد المغرب العربي ، وكانت سائدة في الأندلس العربية ، ومنها انتقلت إلى أوروبا وتعرف هناك باسم الأرقام العربية . ويرى بعض العلماء أنها مرتبة على أساس الزوايا فرقم ١ يتضمن زاوية واحدة ، ورقم ٢ يتضمن زاويتين ، ورقم ٣ يتضمن ثلاث زوايا وهكذا . أما الأصل في تسميتها غبارية فهو أن الهنود كانوا ينثرون غباراً على لوح من الخشب ويرسمون عليه الأرقام .

ويرجع الفضل في نقل هذه الأرقام واستعمالها إلى العالم العربي الأشهر محمد ابن موسى الخوارزمي ، وهو أول من أوردها في مؤلفاته وكتبه في الحساب ، وكان كتابه في الحساب الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد نقل إلى اللاتينية وظل مرجعاً للعلماء الحاسبين ، كما بقي علم الحساب نفسه قروناً معروفاً باسم الغوريثمي (Algorithmi) نسبة إلى عالمنا العربي .

وليس ثمة وجه للموازنة بين سهولة استعمال هذه الأرقام ، وصعوبة استعمال حساب الحمل ، فمن السهولة يمكن تركيب أي عدد مهما كان

كبيراً من هذه الأرقام الهندية أو العربية ، كما أنها تقوم على النظام العشري الذى ابتكره العرب كذلك ، وذلك بدلا من النظام الستيني الذى كان شائع الاستعمال قبلهم . حيث تتغير قيمة الرقم حسب موضعه فهو فى خانة الآحاد غيره فى خانة العشرات أو المئات وهكذا كما أن للصفر الذى ابتكره العرب ميزة كبيرة فى الحساب ، فقد كان الهنود يستعملون « سونيا » أو الفراغ لتمثيل على الصفر ، فنقلت هذه النقطة الهندية إلى العربية باسم الصفر واستعملها الأفرنج متطورة إلى CIPHER, Chiffre ثم Zero كذلك ابتكروا علامة الكسر العشري ويرجع الفضل فى استعمالها إلى العالم الرياضى غياث الدين جمشيد الكاشى ، وفى الرسالة المحيطية « وردت النسبة التقريبية وهى النسبة بين محيط الدائرة وقطرها بالكسر العشري ، وقد أعطى قيمة ٢ ط لستة عشر رقماً عشرياً وذلك على النحو الآتى :- ٢ط = ١٦,٢٨٣١٨٥٠٧١٧٩٥٨٦٥ (١)

وقد وضع العرب مؤلفات كثيرة فى الحساب ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، وكانوا يقسمونه إلى أبواب ، منها ما يسمى حساب الصحاح ومنها ما يسمى حساب الكسور ، وثمة فصول للجمع أو التصنيف وأخرى للطرح أو التفريق ، وغيرها فى الضرب والقسمة ، ثم التجذير أى استخراج الجذور ، وكانت لهم طريقتهم فى إجراء هذه العمليات ، ويذكرون لكل مسألة طرائق مختلفة لحلها ، ومن هذه الطرق ما يكون ملائماً للمبتدئين مما يصلح للتعليم . (٢).

كذلك عرفوا النسب العددية والهندسية والتأليفية ، والأخيرة خاصة بتأليف الألحان الموسيقية ، وعرفوا موضوعات التناسب واستخراج المجهول بواسطة التكبير والمساائل والتمارين التى تلائم العصر من مسائل التجارة ، والصدقات والغنائم والمواريث وكذلك أتقن العلماء موضوع المتواليات

(١) جورج سارتون - مقدمة تاريخ العلم .

(٢) تراث السرب العلمى . قدرى حافظ طوقان .

الحسابية والهندسية ووضعوا القوانين الخاصة بجمعها كما وضعوا القواعد لاستخراج الجذور وجمع المربعات والمكعبات .

واتخذ بعض العلماء العرب من المربعات السحرية رياضة فكرية ومتاعاً عقلياً ذلك أنهم كانوا يكونون مربعاً ذا تسع خانات مثلاً ويضعون في كل خانة رقماً فكيفما عدت الحملة ١٥ ، وثان ذا ١٦ خانة ، وكيفما عدت أرقام خاناته كان المجموع ٣٤ وثالث ذا ٣٦ خانة ، وكيفما عدت أرقام خاناته كانت الحملة ١٠١ ورابع ذا ٦٤ خانة ، وكيفما عدت أرقام خاناته كانت الحملة ٢٦٠ وهكذا .

(ب) الجبر :

كذلك كان العرب ، أول من استعمل كلمة جبر للدلالة على العلم المعروف بهذا الاسم وما تزال الكلمة (Algebra) مستعملة في اللغات الأجنبية حتى الآن ، ويعتبر الخوارزمي أول من ألف فيه بطريقة منتظمة ، وكان كتابه « الجبر والمقابلة » المصدر الذي اعتمد عليه في أوروبا ، وكان أثره في تقدم علم الجبر لدى الغربيين ، كما كان كتابه في الحساب مصدراً استقى منه الأوروبيون ، بحيث يمكن أن يقال إن الخوارزمي واضع على الحساب والجبر .

يقول الخوارزمي ، إنه وجد أن الأعداد التي يحتاج إليها في حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب ، وهي جاور — وأموال — وعدد مفرد ، لا ينسب إلى جاور ولا إلى مال . فالجادر كل شيء مضروب في نفسه من الواحد وما فوقه من الأعداد وما دونه من الكسور ويرمز له بالحرف س مثلاً .

والمال — كل ما اجتمع من الجاور والمضروب في نفسه س ٢ مثلاً .
والعدد المفرد — كل ملفوظ به من العدد لا بالنسبة إلى جادر ولا مال ،
وهو العدد الخالص من س . (١)

(١) الجبر والمقابلة — محمد بن موسى الخوارزمي — تحقيق الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى .

وقد ظهر أن العرب عرفوا حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعرفوا الحالة التي يكون فيها الجذر كمية تخيلية ، فقد جاء في كتاب الخوارزمي « واعلم أنك إذا نصفت الأجزاء وضربتها في مثلها ، فكان ذلك يبلغ أقل من أعدادهم التي مع المال فالمسألة مستحيلة » . كذلك حلوا معادلات من الدرجة الثانية ذات مجهولين كما حلوا معادلات من قوى أعلى ، وابتكروا طرقاً هندسية لحل بعض معادلات الدرجة الثانية .

وفي باب المساحة من كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي عمليات هندسية حلها بطرق جبرية مما يدل على أن العرب كانوا أول من استعان بالجبر في حل مسائل هندسية . (١)

ولسنا نريد أن نقول أن العرب هم الذين ابتكروا علمي الحساب والجبر ولكننا نقول كما قال المرحوم الدكتور مشرفة « صحيح إن حل معادلات الدرجة الثانية كان معروفاً عند الإغريق والهنود ولا شك أن الخوارزمي قد اطلع على ما لدى الهنود والإغريق من علم رياضي ، ولكننا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمي ويقول « إنه يميل إلى الظن بأنه لم يكن قبل الخوارزمي من علم يسمى الجبر وتتجلى عبقرية الخوارزمي في أنه خلق علماً من معلومات مشتتة وغير متماسكة كما خلق نيوتن علم الديناميكا من معلومات مشتتة عرف بعضها قبله . ويظهر أنه كان ينبغي أن تنتقل هذه المعلومات المشتتة إلى عبقرى الخوارزمي ، لكي ينسقها ويعلمها للناس أجمعين (٢) .

ويقول كاجوري « إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر ويظهر أنه كان ينبغي أن تجتمع الهندسة الإغريقية والحساب الهندي ، لكي ينشأ علم الجبر فقد كانت الطريقة الإغريقية في الحساب عقيمة ، بقدر ما كانت هندستهم خصبة فقد كانوا يستخدمون تسعة حروف أبجدية للدلالة على الأرقام

(١) تراث العرب العلمي - قدرى حافظ طوقان .

(٢) مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم - المحاضرات التذكارية لابن الهيثم العدد الثالث .

من ١ - ٩ ، ثم تسعة أخرى للدلالة على الأرقام من ١٠ - ٩٠ ثم تسعة أخرى للدلالة على المئات . ويستعملون نفس الأحرف بالإضافة ، ولنا أن نتصور صعوبة عمليات الضرب والقسمة بهذه الحروف ، وكان العرب يستعملون نفس الأسلوب في حساب الجمل . فلما انتقل حساب الهنود وهندسة الإغريق إلى عبقري كاخوارزمي ، وضع علمي الجبر والحساب وعلمهما للناس . واستعمل العلماء العرب الرموز في الأعمال الرياضية ، وسبقوا الغربيين في ذلك واستعملوا لعلامة الجذر الحرف الأول من كلمة جذر (ج) وتستعمل الآن بهذه الصورة ($\sqrt{\quad}$) وللمجهول الحرف الأول من كلمة شيء (ش) ويستعمل الآن الحرف (س) .

ولمربع المجهول الحرف الأول من كلمة مالوم \times وتستعمل الآن س^٢
ولمكعب المجهول الحرف الأول من كلمة (ك) وتستعمل الآن س^٣
ولعلامة المساواة حرف (ل) وتستعمل الآن =
وللنسبة ثلاث نقط (. . .) وتستعمل الآن :
أما علامة الجمع فكانت عطفاً بلا « واو » وتستعمل الآن +
وعلى ذلك فالمعادلة $٥٢ = ١٢ س + ٥٤$
كانت تكتب كذلك ٥ م ل ١٢ ش ٥٤

$$\text{و } \frac{ج}{٤٩} \text{ تدل على } \sqrt[٤٩]{\quad}$$

وقد حقق استعمال الرموز في الرياضيات قفزة هائلة في الرياضيات وقد اشتهر من علماء الرياضيات العرب الخوارزمي ، وأبو كامل وقسطا ابن لوقا وسانان بن أبي الفتح والقلصاوي وبهاء الدين العاملي ، وغياث الدين جمشيد الكاشاني وابن الهيثم وثابت بن قرة والقوهي والحيام وغيرهم .

وقد حل العرب معادلات من الدرجة الثالثة ، فقد حل بعض علمائهم معادلات تكعيبية من الطراز التالي س^٣ + ص = ط^٢

كما ثبت أن ثابت بن قرة أعطى حلولاً هندسية لبعض المعادلات التكعيبية وكذلك الخازن والخيام وابن الهيثم والقوهي ، واستخدموا الهندسة لحل بعض الأعمال الجبرية ، وبذلك وضعوا أسس الهندسة التحليلية وقد قدمنا أن من العلماء العرب من مهد لعلوم التكامل والتفاضل وبحثوا في نظرية ذات الحدين وعرفوا الجذور الصماء وكان الخوارزمي أول من استعمل كلمة أصم لتدل على العدد الذي لا جذر له ، ووجدوا طرقاً لإيجاد القيم التقريبية للأعداد والكميات التي لا يمكن استخراج جذورها .

كما مهد ابن يونس وابن حمزة لاكتشاف اللوغاريتمات التي شاع استعمالها بعد ذلك عن طريق نابير Napier وبرجز Briggs ، فقد عرفوا فكرة تسهيل الأعمال التي تحتوي على الضرب والقسمة واستعمال الجمع والطرح بدلا منهما وعرفوا المتواليات العددية والهندسية .

(ج) في الهندسة :

لقد توفر عدد كبير من العلماء العرب ؛ على دراسة كتاب الأصول لأقليدس كما ألفوا كتباً على مستواه ، وأدخل بعضهم تمارين لم يعرفها القدماء ومنهم من ابتكر حلولاً لبعض المسائل الهندسية مغايرة للحلول التي عرفها القدماء ومنهم من توصل إلى حل ما لم يتوصل إليه هؤلاء ، منهم من أبرز الصلة وأكد التتابع بين النظريات والتمارين الهندسية ، مما لم يلحظه القدماء من أمثال أقليدس وأبولونيوس Apollonios .

وللعلماء العرب مؤلفات كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية واستخراج المسائل الحسابية بالتحليل الهندسي وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية .

وقد استعمل ابن الهيثم الهندسة بنوعها المستوية والمجسمة في بحوث الضوء ، وتعيين نقطة الانعكاس في المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية المحدبة منها والمقعرة (١) .

(١) الحسن بن الهيثم - للأستاذ مصطفى نظيف .

وبين ابن الهيثم كيف ترسم مستقيمين من نقطتين مفروضتين داخل دائرة معلومة إلى نقطة مفروضة على محيطها بحيث يصنعان مع المماس المرسوم من تلك النقطة زاويتين متساويتين .

يقول المرحوم الدكتور مشرفة إن المطلع على كتاب حل شكوك اقليدس لابن الهيثم يرى فيه عالماً في الرياضة البحتة بكل ما تحمل من معنى وأبلغ ما تصل إليه من حدود. وفي مؤلفات البيروني نظريات ودعاوى هندسية وطرق البرهنة عليها ، وهي طرق جديدة ، فيها ابتكار وعمق ، وتختلف عما ألفه فلاسفة ورياضيو اليونان مثل رسالة استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني ، وفيها برهان جديد لمساحة المثلث بدلالة أضلاعه ، وهو غير البرهان الذي أتى به هيرون من رياضي جامعة الاسكندرية القديمة (١) .

كما تنبه نصير الدين الطوسي إلى نقص اقليدس في المتوازيات وحاول البرهنة عليها في كتاب تحرير أصول اقليدس ، وقد نشرت هذه البحوث مترجمة إلى اللاتينية . ومن رأى الأستاذ قدرى طوقان أن أوربا لم تكد تعرف الهندسة إلا عن طريق العرب .

وقد قسم العرب الهندسة إلى نوعين عقلية وحسية ، فالحسية معرفة المقادير وهي ما يرى بالبصر ويدرك باللمس ، والعقلية ما يعرف ويفهم . قالوا والنظر في الهندسة الحسية يؤدي إلى الخلق في الصنائع كلها وخاصة المساحة وهي صناعة يحتاج إليها العمال والكتاب وأصحاب الضياع والعقارات . أما النظر في الهندسة العقلية ، فإنه يؤدي إلى الخلق في الصنائع العلمية لأن هذا العلم هو أحد الأبواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس التي هي جذر العلوم وعنصر الحكمة .

ويرون أن الهندسة العقلية ، هي أحد أغراض الحكماء الراسخين في العلوم الإلهية المرتاضين بالرياضيات الفلسفية . ولعنا لمذكر بهذه المناسبة .

(١) الأستاذ قدرى حافظ طوقان والاستاذ احمد سعيد الدمرداش .

قول أفلاطون إن الفلسفة تحتاج إلى جسر من الرياضيات والهندسة .
وفي الحق أنه ليس من اليسير الإحاطة بأعمال العلماء العرب في الهندسة
فقد يبدو أنها استهوت كثيراً منهم أمثال « محمد البغدادي » وله رسالة
في الهندسة فيها سبع مقالات في المثلث وتسع في المربع ، وست في الخمس ،
والخوارزمي الذي أورد في باب المساحة ، كتابه الجبر والمقابلة عمليات
هندسية حلها بطرق جبرية ، مما يدل على أن العلماء العرب كانوا من أول
من استعان بالجبر في حل مسائل هندسية كما ابتكروا طرقاً هندسية لحل بعض
المعادلات من الدرجة الثانية . (١)

ويعترف سميث في كتابه تاريخ (٢) الرياضيات بأن البيروني كان ألمع
علماء عصره في الرياضيات ، وهو من الذين بحثوا في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة
أقسام متساوية ويعتبر البيروني واضح أصول الرسم على سطح الكرة وله كتاب
في استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط فيها (٣) .

ولثابت بن قرة مؤلفات وابتكارات في الهندسة التحليلية ، ووضع كتاباً
في الجبر بين فيه علاقة الجبر بالهندسة ، وله بحث في المثلث القائم الزاوية والمدخل
إلى إقليدس ، وكتاب في المخروط المكافئ وثنان في المربع وقطره وأشكال
إقليدس ، كتاب في تصحيح الجبر بالبراهين الهندسية .

واستعمل بنو موسى الطريقة المعروفة الآن في إنشاء الهيكل الاهليلجي
وهي أن تغرس دبوسين في نقطتين وتأخذ خيطاً طوله أكثر من ضعف البعد
بين النقطتين وتربط الخيط من طرفه وتضعه حول الدبوسين وتدخل فيه قلم
رصاص ، فعند إدارة القلم يتكون الشكل الاهليلجي ، وتسمى النقطتان
بؤرتي الاهليلجي كما استعملوا القانون المعروف بقانون هيرون لتقدير مساحة

(١) الاستاذ قدرى حافظ طوقان .

(٢) المرجع السابق .

(٣) حقيقته حديثاً - الاستاذ احمد سعيد الدمرداش .

مما يعرف بعلم التنجيم . فقد كان الخلفاء يستشيرون المنجمين فينظرون في حالة
الفلك واقتراعات الكواكب ثم يشيرون بمقتضى ما يرون من ذلك ، وكذلك
كانوا يستشارون في علاج بعض الأمراض ، وبالحملة فقد كان منهم
من يراقبون النجوم ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أى عمل .

إلا أن الفلك كعلم كان ضروريا لبعض الأمور الدينية ، كأوقات الصلاة
حسب موقع البلد ومعرفة الموقع الجغرافى وحركة الشمس في الأبروج
وأحوال الشفق وهلال رمضان ، وتعيين سمت القبلة .

ولقد أدى ذلك وغيره إلى دراسات كتب الأقدمين *Almagest* في كل من
الفلك والتنجيم فدرسوا أعمال الاغريق ، وعلماء الاسكندرية وخاصة مجسطى
بطليموس ثم الكلدان والسريان والفرس والهنود ، وأتيح لكثير من العلماء
العرب أن يضيفوا ابتكارات هامة في الفلك وأن يقوموا برصدات على أعظم
جانب من الأهمية وأول كتاب ترجم في علم الفلك كان من اليونانية إلى العربية
في زمن الأمويين ، وهو كتاب مفتاح النجوم لهرمس الحكيم .

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى مشغولاً بالمنجمين يصطفاهم
ويصحبهم في أسفاره ورحلاته ، وهو الذى أمر بترجمة كتاب في حركات
النجوم ترجمه محمد بن إبراهيم الخزازى وسماه السند هند الكبير ، وبقى
معمولا به إلى أيام المأمون واختصره الخوارزمى ، وصنع منه زيجه المشهور ،
يقول القفطى إنه زواج فيه بين مذاهب الهند والفرس وبطليموس .

وفي خلافة المنصور ، نقل أبو يحيى البطريق كتاب الأربع مقالات
Abu Yahya al-Batriq (VIII-2) لبطليموس في صناعة أحكام
النجوم ، ونقلت كتب أخرى هندسية وطبيعية أرسل المنصور في طلبها
من ملك الروم .

وفي زمن المهدي اشتهر علماء كثيرون في الأرصاد : وفي زمن المأمون
ألف يحيى بن أبى منصور زيجا فلكيا مع سند بن على وعمل سند أرصادا مع

على بن البختري وفي زمنه أيضاً اُصلحت أغلاط المحسطة لبطليموس وألف
موسلي بن شاكر أزياجه المشهورة ، وشعف علماء كثيرون بالفلك ، ألفوا فيه ، وعملوا أرساداً وزياجاً
مثل ثابت بن قرة والبلخي ، وحسين بن اسحق ، والعبادي ، والبتاني « الذي
عده لالاند من العشرين الفلكيين المشهورين في العالم كله » ، وسهل بن ابشار ،
وقسطالب البعلبكي Qusta al-Ba'labakki ، الكندي والبوزجاني ، وابن
يونس ، والصاغاني ، والقوهي ، والبيروني ، والحازن ، والطوسي
وجمديد الكاشي والفرغاني ، والغزالي وغيرهم .

لقد درس هؤلاء كتاب المحسطة ، وافقوه في بعض آرائه ، وخالفوه
في بعضها قالوا كما قال بطليموس أن الأرض مركز الكون ، وأنها قائمة
في الفضاء ، وقالوا بدوران الشمس والقمر والنجوم حول الأرض ، وأن القمر
أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض ، ويليه عطارد والزهرة والشمس والمريخ
والمشتري وزحل وأنها جميعاً تدور حول الأرض دورة كاملة كل يوم .
كما قاسوا أبعاد الشمس والقمر والكواكب وأبعاد النجوم بطرق هندسية
حسابية ، وكانت نتائج قياساتهم قريبة من الحقيقة ، وقاسوا أبعاد هذه الأجرام
عن الأرض ، وقد بقيت آراؤهم وقياساتهم سائدة حتى عصر النهضة الفلكية
الكبرى التي قادها كبلر وجاليلو Galileo وكوبرنيك Copernicus الذين قالوا
بدوران الأرض حول محورها وأنها والكواكب تدور حول الشمس . ويجدر
بنا أن نذكر في هذا المقام أن بعض العلماء العرب كانوا قد خرجوا على بطليموس
ونادوا بما نادى به كوبرنيك من دوران الأرض والكواكب الأخرى حول
الشمس .

ولابن الهيثم والبيروني والبوزجاني ، والبتاني والفرغاني آراء علمية قيمة
في تقدير محيط الأرض ، وقالوا باستدارة الأرض ، وعملوا الأزياج الكثيرة
وأقروا كثيراً من المراصد وحسبوا طول السنة الشمسية ، وتحققوا مواقع

كثير من النجوم ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وكتبوا عن البقع
الشمسية ، ومنهم من انتقد كتاب المجسطي .

ويقول سارتون في ذلك كانت بحوث العرب الفلكية مفيدة جداً ، إذا أنها
أنها هي التي مهدت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى :

وقد وضع عبد الرحمن الصوفي مؤلفاً عن النجوم الثوابت به صور
ورسوم لنحو ألف وأربعة وعشرين نجماً وكوكباً ، رسمها كوكبات على صورة
الأناسي والحيوان ما زال أسماء بعضها مستعملاً حتى الوقت الحاضر مثل
الدب الأكبر والدب الأصغر والحوت والعقرب والعذراء وغيرها .

ولا بد لنا أن نذكر أن عدداً كبيراً من العلماء العرب ، لم يكونوا من المؤمنين
بالتنجيم ، كالكندي والفارابي وابن سينا Ibn-Hatm وابن حزم وابن طفيل
وغيرهم . ويذهب ابن سينا إلى أن قول المنجمين بأثر الكواكب على الناس من خير
أو شر إما هو قول هراء وقد أخذوه من غير برهان ولا قياس وكذلك لم
يكن الكندي مؤمناً بأثر الكواكب في أحوال الناس ، ولا يقول بما يقول به
المنجمون في التنبؤات القائمة على حركات الكواكب ومع ذلك فقد اهتم بعلم
الفلك وله آراء جريئة في نشأة التنجيم وقال ان القول بأن بعض الكواكب
يجلب السعادة وأن بعضها يجلب النحس ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم
لا تستحق إلا الشك والارتياب .

ويقول ابن حزم ليس للنجوم تأثير في أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به
إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعياً ، كتدبير الغداء لنا ، وتدبير الماء
والهواء ، ونحو أثرها في المد والجزر وتأثير الشمس في عكس الحر ،
وتصعيد الرطوبات . والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة .

ويقول ابن طفيل بوحدة القوانين والأنظمة الكونية ، وشمولها فيما يسيطر
على النباتات والماء والهواء والجماد والحيوان والإنسان وعلى سائر الموجودات ،
وإن العالم بجملة كشيء واحد يتحرك في دائرة من القوانين والأنظمة ،
والخلاصة أن أغلب العلماء العرب كانوا يرون في علم الفلك علماً رياضياً

مبنياً على الرصد والحساب وكان أساس تقدمه ، ما أقاموه من مراصد وما ابتكروا من أجهزة وآلات وأدوات وما قدموا من ازياج وجداول فلكية .

والفرغانى كتاب « أصول الفلك » الذى كان كبير الأثر فى جامعة بولونا فى إيطاليا فى عصر النهضة ، كما ترك البيرونى والبوزجاني ذخيرة قيمة فى علم حساب المثلثات الكروية . وفى المغرب الإسلامى ، ألف جابر بن الأفاح الأندلسى فى اشبيلية كتاب الهيئة ينقد بطليموس ، يعتقد أنه كان من المصادر التى استقى منها كوبرنيق كما وضع أبو إسحاق البطروجى من اشبيلية ؛ وكان تلميذاً لابن طفيل ؛ كتاباً فى الهيئة يعتقد أنه كان له الفضل فى زعزعة نظريات بطليموس وبذلك يكون قد أسهم فى مساعدة كوبرنيق على تقويض نظريات بطليموس التى ظلت سائدة طوال العصر الوسيط فقد تزود كوبرنيق بالمجسطى وبأعمال العلماء العرب ممن ذكرنا فى الفلك والرياضيات وقد ترجم كتاب الهيئة للبطروجى إلى اللاتينية ترجمه ميشيل سكوت فى طليطلة سنة ١٢١٧ م ونشر فى بولونا سنة ١٢٢٠ م وكان يعرف باسم Albatrogi والذى لاشك فيه أن كوبرنيق قد اتخذ المجسطى منهاجاً يتبعه ، ولكنه أضاف إليه المعارف المتراكمة من بحوث الفلكيين العرب فى حساب المثلثات الكروية التى كانت تنقص المجسطى ، واستفاد كوبرنيق من كتاب الفرغانى « جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية الذى طبعت ترجمته اللاتينية سنة ١٤٩٣ م وكان من المراجع التى اعتمد عليها كوبرنيق .

[١] ومن الفلكيين العرب الذين ذاع صيتهم أبو سهل ويحيى رستم القوهى وهو عالم فى الهيئة وآلات الرصد ، وهو من علماء القرن العاشر الميلادى ، وقد بنى بيتاً للرصد فى بغداد وقام بجملة أرصاد ، سجل فيها مسيرات الكواكب فى بروجها وله عدة مؤلفات ورسائل ترجم كثير منها إلى اللغات الأجنبية ، وتعتبر بحوثه فى النهايات مما استفاد منه نيوتن فى علم التفاصيل والتكامل (١)

(١) الأستاذ أحمد سعيد الدمرداش .

ولقد اهتم الخلفاء والحكام والولاة ببناء المراصد، وتزويدها بالآلات الرصد وأجهزته وأدواته . فقد بنى الأمويون مرصداً في دمشق ، كذلك بنى المأمون مرصداً في جبل قيسون في دمشق ، وفي الشامية في بغداد ، كما أنشئت في إبان خلافته وبعد وفاته عدة مراصد في بلاد مختلفة . فقد بنى بنو موسى مرصداً في بغداد وبنى شرف الدولة مرصداً في بستان دار الحكمة رصد فيه القوهي : وأنشأ الفاطميون المرصد الحاكي على جبل المقطم في القاهرة . كما يعتبر مرصد المراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد وأكبرها فقد اشتهر بآلاته الدقيقة وبراعة المشتغلين والعاملين به ، وهناك مرصد ابن الشاطر في الشام . كذلك كان هناك كثير من المراصد الخاصة في مصر والأندلس .

ومن الآلات الفلكية التي استعملها العرب : اللينة والحلقة الاعتدالية ، وذات الأوتار ، وذات الحلق وذات اشعبتين ، وذات السميت والارتفاع وذات الحيب والمشبهة بالمناطق والاسطرلاب ووردة الرياح والبوصلة . وقد ثبت أن بعضاً من هذه الآلات ، إنما هي من مبتكرات العلماء مثل ذات السميت والارتفاع ، وذات الأوتار والمشبهة بالمناطق وعصا الطوسي ، والرابع التام ، فضلاً عن التعديلات التي أدخلوها على الاسطرلاب وما صنعوا من براكير ومساطر ، بل انه ليقال ان الفراري كان أول من صنع اسطرلاباً من العرب ، وأول من ألف فيه كتاباً أسماه العمل بالاسطرلاب المسطح . كما أن من أشهر الأزياج التي برع كثير من العلماء العرب في عملها زييج البلاخي ويعتبر كتاب البيروني في الفلك الموسوم « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » من أضخم مؤلفاته ويشمل ١٤٢ باباً ، وله بحوث في تصحيح أطوال البلدان بالكسوفات ثم ما بينها من مسافات ، وفي استخراج المسافة بين بلدين معاً ومي الطول والعرض وطريقة صناعية لايجاد معرفة سمت القبلة في أي مكان . وله كتب ورسائل في الفلك والظواهر الجوية والآلات الفلكية والمذنبات . وله خوازمي مؤلفات في الفلك ، كما أنه وضع زيجاً سندهند الصغير . كذلك اهتم

الكندي بالفلك من الناحية العلمية وله فيه رسائل ومؤلفات قيمة ، وقد اعتبره
 بعض المؤرخين واحداً من ثمانية من أئمة العلوم الفلكية في القرون الوسطى ،
 كما اعتبره كاردانو من الإثني عشر عبقرياً الذين ظهوروا في العالم وقد وضع
 الكندي رسالة في زرقة السماء ترجمت إلى اللاتينية ، وفيها يقول أن اللون
 الأزرق لا يختص بالسماء بل بالأضواء الأخرى الناتجة عن ذرات الغبار وبحار
 الماء الموجود في الجو . وله رسالة في المد والجزر ، امتدحها المستشرق
 « دي بور » وقال إن نظرياتها وضعت على أساس تجريبي .
 ولبنى موسى كتاب في الخيل ، يعرف بحيل بنى موسى ، يعده البعض
 الأول من نوعه الذي يبحث في الميكانيكا ، ويحتوي على نحو مائة تركيب
 ميكانيكي ، وألفوا أيضاً في مراكز الثقل ، كما كتبوا في الآلات وأكثرها
 وضع أنواعاً من الخيل العلمية مبنية على مبادئ الميكانيكا .
 ويعزى لبنى موسى القول بالجاذبية العمومية بين الأجرام السماوية ،
 وربط كواكب السماء بعضها ببعض ، ويجعل الأجسام تقع على الأرض ،
 وقد كلفهم المأمون قياس محيط الأرض وقد قدروه بنحو أربعة وعشرين
 ألف ميل ويعتبر قياسهم من الأعمال العلمية الحيدة التي شارك فيها بنو
 موسى ، وقد بنوا مرصداً على جسر بغداد قاموا فيه بكثير من الرصدات
 وعول ابن يونس في أرصاده الفلكية على أرصادهم ، واعترف البيروني
 بمهارتهم في الرصد وقد ترجمت كتب بنو موسى إلى اللاتينية .
 وقد ترجم ثابت بن قرة كتاب المحسطنى في الفلك ، وكذلك اختصاره
 بقصد تعليمه وتسهيل قراءته ، وله أرصاد قليلة تولاها في بغداد ،
 واستخرج حركة الشمس وحسب طول السنة الشمسية فكان أكثر من الحقيقة
 بنصف ثانية - وثان في المدخل إلى المحسطنى وثالث في حلة الكسوف ورابع
 في أشكال المحسطنى ، وخامس في حركة الفلك ، وكتاب فيما أغفله ثانون
 في حساب كسوف الشمس والقمر ، وكتاب في حساب خسوف القمر والشمس
 وتركيب الأفلاك ، رسالة في ركني العالمين ، رسالة في ركني العالمين .

ويقول سارتون عن الصوفي (١) أنه من أعظم فلكي الإسلام وله مؤلفات كثيرة في الفلك منها كتاب الكواكب الثابتة وكتاب التذكرة وكتاب مطارح الشعاعات ، وقد رصد الصوفي آلاف النجوم وصور كثيرا من الكواكب ، وقد قدر أحجام الكواكب ومبادرة الاعتدالين ويعتبره البعض نقطة تحول من عصر بطليموس إلى عصر الصوفي ، ثم إلى عصر النهضة ، ويقول البعض إن كتاب الصوفي أصبح من كتاب بطليموس ، وأن زيجه أصبح زيح وصل إلينا من كتب القدماء ويعد سارتون كتاب الصوفي في الكواكب الثابتة أحد الكتب الرئيسية الثلاثة التي اشتهرت في علم الفلك عند المسلمين . أما الكتابان الآخران فأحدهما لابن يونس والثاني لآل بك . ويمتاز كتاب الكواكب الثابتة برسومه للأبراج والكوكبات التي مثلها على هيئة الاناس والحيوانات فمنها ما هو على صورة رجل أو امرأة .

كذلك يعتبر البوزخاني من أئمة العلوم الفلكية وكان عضوا في مرصد شرف الدولة وله كتاب الريج الشامل والمجسطي ومعرفة الدائرة من الفلك ، وكان المحريطي من أشهر علماء الفلك في الأندلس وله رسالة في الاسطرلاب ومشروح على كتاب بطليموس ترجمت جميعا إلى اللاتينية . وقد بنى الفاطميون لابن يونس مرصدا على جبل المقطم قرب القسطنطينية ، وجهازوه بكل ما يلزم من آلات وأدوات ووضع الزيح الحاكمي الذي يقول عنه «سيدبو» بأنه يقوم مقام المجسطي والرسائل التي وضعها علماء بغداد سابقا ويشتمل على مقدمة طويلة وواحد وثلاثين فصلا . وقد ترجمه «كوسان» إلى الفرنسية . وقد رصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة سنة ٩٧٨ م وقد وصف في زيجه الحاكمي الطريقة التي اتبعها فلكيو العرب في عصر المأمون في قياس محيط الأرض . ولقد سبق «ابن يونس» جاليليو إلى اختراع البندول بعدة قرون واستعمله في حساب الفترات الزمنية في أثناء

(١) مقدمة تاريخ العلم - جورج سارتون

الرصد : وكذلك اشتهر الخازن بزيج الفلكي وبارصاد غاية في الدقة ، ومن أشهر كتبه ، ميزان الحكمة ، الذي ترجمه إلى اللغات الأجنبية ، ويقول عنه سارتون إنه من أعظم ما أنتجته قريحة القرون الوسطى . كما تحدث الخازن عن الجاذبية ، حيث قال بقوة جاذبة لجميع جزيئات الأجسام ، وأوضح أن الأجسام تتجه في سقوطها نحو الأرض .

وقد اشتهر «البثاني» بالزيج الصابى ، كما استدرك على بطليموس ، وله رسالة في مقدار الاتصالات ، ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات ، ومعرفة مطالع البروج ، وقد رصد زاوية الميل الأعظم بمدينة الرقة ، وقاس موضع أوج الشمس في مسيرها الظاهري ، فوجد أنه تغير عما كان عليه أيام بطليموس ، وقدر طول السنة الشمسية ، ومقدار تقهقر الاعتدالين وأثبت احتمال حدوث الكسوف الحلقى للشمس ، وعمل جداول جديدة صحيح فيها حركات القمر والكواكب : وحقق مواقع عدد كبير من النجوم : وتحدث عن مسيرات الكواكب : ووازن بين التقاويم العربية والرومية والفارسية والقبطية ، كما تحدث عن منازل القمر وأرصاد النجوم ، ووصف الآلات الفلكية وطرق صناعتها . وقد ترجمت كتب البثاني إلى اللاتينية واللغات الأجنبية ونشر نلليو الزيج الصابى سنة ١٨٩٩ .

(هـ) الطبيعة والميكانيكا :

عالج «ابن سينا» موضوع سرعة الصوت وسرعة الضوء في كتابه الشفاء ، قال ان البصر يستبق السمع فاذا اتفق أن قرع إنسان من بُعد جسما على جسم رأيت القرع قبل أن تسمع الصوت لأن الأبصار ليس له زمان والاستماع يحتاج إلى آن يتأدى تموج الهواء الكائن إلى السمع وذلك في زمان وقال عن السحب إنها تتولد من الأبخرة الرطبة إذا تصعدت بالحرارة فوافقت الطبقة الباردة من الهواء وقال إن البخار مادة السحاب والمطر والثلج والطلل والحديد والصقيع والبرد ، وعليه تتراعى الحالة وقوس قزح والشمسيات

والنيازك : وقال البرق يُرى والرعد يُسمع ولا يُرى ، فإذا اتفق حدوثهما معا ، رؤي البرق في آن وتأخر سماع الرعد ، لأن مدى البصر أبعد من مدى السمع فإن البرق يحس في الآن بلا زمان ، وأما السمع فيحتاج تموج الهواء أو ما يقوم مقامه من أجساد صلبة أو سائلة . وقد أبطل ابن الهيثم السرعة الآتية للضوء التي قال بها ابن سينا وأثبت بالتجربة أن للضوء زمانا وسرعة معينة .

أما ابن الهيثم فإنه يعتبر في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور والأحقاب وهو من أئمة علماء الضوء ، وقد عرفته أوروبا باسم الهازن وهو تحريف لكلمة الحسن : الف في علم الطبيعة نحو أربعة وعشرين كتابا .

ومن رأى الأستاذ مصطفى نظيف الذي توفر على دراسة ابن الهيثم ، أنه في أخذه بالاستقراء يكون قد سبق « باكون » وأنه ليضعه في المقدمة بين علماء الطبيعة النظرية بما وضع في ظواهر الضوء من نظريات في الإبصار وقوس قزح وانعكاس الضوء وانعطافه (انكساره) كما يضعه في المقدمة بين علماء الطبيعة التجريبية ، بما أجرى من تجارب في كيفية امتداد الأضواء الذاتية التي تنبعث من الأجسام المضيئة بذاتها كضوء الشمس وضوء النهار والأضواء العرضية التي تشرق من سطوح الأجسام الكثيفة التي تستضيء بضوء الأجسام المضيئة بذاتها والتي تستضيء بضوء عرضي يشرق من سطح جسم كثيف آخر هو نفسه يستضيء بضوء ذاتي ، وناولت تجاربه ضوء القمر وضوء الكواكب والضوء المشرق من ضوء أبيض يستضيء بضوء القمر أو ضوء النهار : واستقصى أحوال الاضاءة الشديدة والاضاءة الضعيفة . كما يضعه في المقدمة بين علماء الطبيعة التطبيقية بما يطبق من تجارب وأوجه من أجهزة ينتفع بها ، ويقول إن ابن الهيثم أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث وإن أثره في علم الضوء لا يقل عن أثر نيوتن في علم الميكانيكا : (١)

(١) الحسن ابن الهيثم - مصطفى نظيف .

وكذلك اشتهر البيروني في الطبيعة ولا سيما الميكانيكا والايديروستاتيكا ،
وله شروح في ضغط السوائل وتوازنها ، وصعود مياه الفوارات والعيون
إلى أعلى .

وألّف بنو موسى كتابهم الذي يعتبر الأول من نوعه في الميكانيكا
وإيجاد مراكز الثقل ووصف الرازي الأجهزة العلمية التي كانت معروفة
في عصره ، وصف أكثر من عشرين من هذه الأجهزة المعدنية والزجاجية .
وقد اعترف « بلتن » في أكاديمية العلوم الأمريكية بأثر كتاب « ميزان الحكمة »
للخازن وما له من شأن في تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر العلمي عند العرب ،
فقد سبق الخازن « تورشيللي » في الإشارة إلى مادة الهواء ووزنه ، وأشار إلى أن
للhواء وزنا وقوة رافعة كالسوائل ، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن
وزنه الحقيقي وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتوقف على كثافة الهواء ،
وبين أن قاعدة أرشميدس لا تسري فقط على السوائل ، ولكن تسري أيضا
على الغازات ، وبذلك يكون الخازن قد سبق تورشيللي وباسكال وبويل
وغيرهم . وقد بحث الخازن كيفية إيجاد الكثافة للأجسام الصلبة والسائلة
واختراع ميزانا لوزن الأجسام في الهواء والماء له خمس كفّات تتحرك
إحداها على ذراع مدرج ، وقدر الكثافة لكثير من العناصر والمركبات لدرجة
عظيمة من الدقة . وتحدث الخازن على الحاذبية ورأى أن اختلاف قوة الجذب
يتبع المسافة بين الجسم وهذا المركز . ومن رأى الأستاذ مصطفى نظيف أن
مؤلف كتاب ميزان الحكمة يعلم العلاقة الصحيحة بين السرعة التي يسقط
بها الجسم نحو سطح الأرض والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه ،
وهي العلاقة التي تنص عليها القوانين والمعادلات التي ينسب الكشف عنها
إلى علماء القرن السابع عشر مثل جاليليو ونيوتن (١) . وللخازن بحوث في
مراكز الأثقال وشرح بعض الآلات وكيفية الانتفاع بها والأنابيب الشعرية
كما ميز بموازينه الأحجار الكريمة عن أشباهها .

(١) تراث العرب العلمي - للأستاذ قدرى طوقان .

انجازات العرب

في علوم الحياء والكيمياء والصيدلة والتعدين

— ٣ —

ليس من اليسير الإحاطة بأعمال العلماء العرب في هذه الميادين ،
والواقع إنه قل منهم من لم يكن نخب الانتاج في كثير من مجالات علوم
الحياه والكيمياء والصيدلة ، وخاصة لعلاقة هذه العلوم بالطب إن كانت
هذه المواد متفرعة عليه أغلب الأمر ، وأنا لنجد أنه حتى من اشتهر منهم
 بالرياضيات أو الفلك أو الطبيعة فانا نجده قد مارس التأليف في بعض نواحي
الطب ، كابن الهيثم مثلالذي اشتهر بدراسة البصريات والرياضيات ، ومع
ذلك فقد ألف في الطب كذلك . كما نجد أن ابن سينا وقد اشتهر بالطب
والفلسفة ، نجده قد خصص بعض فصول كتابه القانون للصيدلة ، وما يتصل
بها من وصف للنباتات الطبية التي تتخذ منها عقاقير واستخلاص العقار
ثم طريقة استعماله في العلاج . كما خصص جزءا كبيرا من كتاب الشفاء
في دراسات نباتية وحيوانية ، وصف فيها أنواعا مختلفة من النبات وطريقة
امتصاص النبات لغذائه وسريان العصارة بين أجزائه ، كما تكلم عن بيئة
النبات وطرائق تكثره ، وأحوال معيشته كذلك عرض الشيخ الرئيس اوصف
مئات من أنواع الحيوان والطيور والحيوانات المائية والبرية ووصف الغضاريف
والعظام والأوردة والشرابين والأعصاب والأغشية والرياضيات والأجهزة
الهضمية والدورية والتناسلية والتنفسية والعضلية وغيرها ، وما من شك
في أن ابن سينا وغيره من العلماء العرب ممن كتبوا في علوم الحياة قد مارسوا
التشريع وإلا فكيف يتفق لابن سينا مثلا أن يصف الألياف العضلية الطولية

في الأمعاء وقوله انها تؤدي الحركة الدودية في الهضم ، ثم العضلات العرضية وقوله انها تؤدي الحركة العاصرة ، ثم الألياف المورية التي تربط النوعين السابقين ، ومن المعلوم أن كتاب القانون لابن سينا طبع باللغات الأجنبية التي تُرجم اليها خمس عشرة مرة ، وكان يدرس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر . وليس من شك في أن علماء أوروبا قد تأثروا به وأخذوا عنه .

(أ) الكيمياء

يعتبر جابر بن حيان شيخ الكيمائيين العرب ، ومن قائل انه لم تكن الكيمياء قبل جابر علما بالمعنى المعروف ، انما كانت صناعة وخبرة ، وتحتاج إلى درية ومراثة ، تستخدم في التعدين والتحنيط والنسيج والصباغة وصناعة الزجاج وتحضير الزيوت والعطور ولذلك فانه يعتبر كذلك مؤسس علم الكيمياء بالمعنى الحديث ، فقد بين أهمية التجارب ، وكان يوصي بالدقة في الملاحظة والاحتياط ، وعدم التسرع والتأني في عصر كانت نظرية العناصر الأربعة هي السائدة ، وكان القول بتحويل العناصر بعضها إلى بعض ، وتحويل المعادن الحسيسة إلى نفيسة وخاصة الذهب هو الشغل الشاغل والهدف الرئيسي للمشتغلين بالكيمياء وقد رأى جابر أن آراء العلماء الأغريق لا تفسر الظواهر والمشاهدات التي كان يلاحظها في تجاربه ، فقال أن الفلزات لا تتكون من صورتى العناصر في باطن الأرض ، بل انهما تتحولان إلى عنصرين جديدين هما الزئبق والكبريت وباتحاد هذين العنصرين في باطن الأرض تتكون الفلزات وفسر اختلافهما بتباين نسبة الكبريت فيها . ومن الغريب أن قد بقي معمولا بنظرية جابر عدة قرون ، حتى القرن الثامن عشر وكانت نواة النظرية التي تلتها وهي نظرية الفلوجستين وهي القائلة أن كل المواد القابلة للاحتراق والفلزات القابلة للتأكسد تتكون من أصول زئبقية وكبريتية وملحية .

وقد أدخل جابر على الصناعة شيئا جديدا اسمه علم الميزان فجعل لكل

من الطبائع الأربع ميزانا ، وقال لما كان الذهب أصبح المعادن على النار ، فقد اعتبر أن الطبائع متوازنة ومتعادلة فيه . أما الفلزات الأخرى فطبائعها غير متوازنة وفي رأيه أنه إذا ما تعادلت الطبائع في أي منها أمكن تحويله إلى الذهب الأبريز . . .

وعرف جابر كثيرا من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير والترشيح والتكليس والإذابة والتباور والتصعيد ، وحضر كثيرا من المواد الكيميائية وعرف خواصها مثل نترات الفضة وحامض الازوتيك ، وهو أول من لاحظ أن نترات الفضة يكون مع محلول ملح الطعام راسبا أبيض ، وأن النحاس يكسب الذهب لونا أخضر ، وكان يميز بين التقطير والترشيح ، فيقول إن الأول يذهب الدنس ، وأن التصفية تبعد ما يظهر من الأوساخ والأدناس ، لأن الأوساخ التي في الماء مخالطة لنفس جرمه فالتصفية لا تعمل فيه شيئا البتة .

ويقول جابر عن تحضير الزنجفر أو كبريتور الزئبق ؟ لتحويل الزئبق إلى مادة صلبة حمراء نخذ قارورة مستديرة وصب فيها مقدارا ملائما من الزئبق واستحضر آنية من الفخار بها كمية من الكبريت حتى يصل إلى حافة القارورة ، ثم أدخل الآنية في فرن واتركها فيه ليلة بعد أن تحكم سدها ، فإذا ما فحصتها بعد ذلك ، وجدت الزئبق قد تحول إلى حجر أحمر ، وهو ما يسميه العلماء بالزنجفر ، وهي ليست مادة جديدة في كليتها ، والحقيقة أن هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما ، وكل ما حدث أنهما تحولتا إلى دقائق صغيرة ، امتزجت هذه الدقائق بعضها بعضا ، فأصبحت العين المحردة عاجزة عن التمييز بينهما ، وظهرت المادة الناتجة متجانسة التركيب ، ولو كان في قدرتنا وسيلة تفرق بين دقائق النوعين لأدركنا أن كلا منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة ، وهذا تصوير جابر للاتحاد الكيميائي لعل فيه شيئا من تصوير دالتن الذي قال بأن الاتحاد الكيميائي يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض .

والمعروف أن كتب جابر بن حيان في الكيمياء وغيرها قد ترجمت إلى اللاتينية وظلت المراجع المعتمدة في الكيمياء خاصة عدة قرون وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب من أمثال كوب ، وهوليارد وبرثوليه وكراوس وسارتون ، (١) وقد أنصفه هوليارد حين وضعه في القمة بين العلماء العرب ، وبدد الشكوك التي أثارها حوله علماء مغرضون (٢) وكذلك أنصفه سارتون الذي أخرج به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة العلمية الإسلامية ، ويقول إن العلماء لم يتصوروا أن هذه المعلومات والأعمال العلمية القيمة في الكيمياء يمكن أن تنسب إلى رجل عاش في القرن الثاني للهجرة . ومن الحق أن نقول أن أمثال الكندي وابن سينا وغيرهما لم يكونوا يؤمنون بمسألة تحويل العناصر الحسيسة إلى نفيسه ، ويقول الكندي في ذلك إن الاشتغال بالكيمياء قصد الحصول على الذهب مضيعة للوقت .

أما أبو بكر الرازي فقد اشتهر بالطب والكيمياء ، ويعده البعض من مؤسسي الكيمياء الحديثة وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى ، فوصف أكثر من عشرين جهازاً منها المعدني ومنها الزجاجي وكان يعنى بوصف التفاصيل ، وكان لمعرفته الكيمياء أثر في طبه ، فكان ينسب الشفاء إلى التفاعلات الكيميائية التي تجري بالجسم . ويقسم المواد الكيميائية إلى أربعة أقسام هي المعدنية والنباتية والحيوانية والمواد المشتقة ، ثم قسم كل منها إلى أقسام أخرى فقسم المعدنية إلى ستة أقسام وذلك لكثرتها واختلاف خواصها مما يدل على ممارسة وتجربة ومعرفة بتفاعلاتها .

وقد حضر الرازي الأحماض مثل حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج ، إذ أنه أنه حضره بتسخين الزاج الأخضر كما حضر الكحول بتقطير

(١) جورج سارتون - مقدمة تاريخ العلم .
(٢) عبد الحميد أحمد - المؤتمر العلمي العربي الأول سنة ١٩٥٣ مطبوعات الاتحاد العلمي العربي .

مواد نشوية وسكرية متخمرة ، وكان يستعمله في الصيدليات والأدوية
كما قدر الكثافة النوعية لعدد من السوائل مستعملا ميزانا خاصا .

وللمجريطى من علماء القرن العاشر الميلادى كتاب في الكيمياء ،
ترجم إلى اللاتينية ويعتبر من أهم المصادر في تاريخ الكيمياء .

وليس من شك في أن عددا كبيرا من العلماء العرب قد أولع بالكيمياء ،
وكتب وألف فيها حتى لو لم يشهروا بها من أمثال داود الانطاكى ،
وابن البيطار والبغدادى وابن ميمون وابن النفيس والزهرائى .

(ب) النبات :

كان لعلم النبات عشاق ومريدون كثيرون من بين العلماء العرب ،
على أن من الحق أن نقول إن اهتمامهم بعلم النبات ، لم يكن أغلب الأمر ،
مقصودا لذاته ، ولكن باعتباره تابعا لعلوم الطب والصيدلة ، إذ كان
أغلب العقاقير المستعملة في العلاج إن هي إلا نباتات أو خلاصات نباتية .
ولعلمهم اتبعوا في ذلك قول ابقراط «أبو الطب» بأن الله الذى خلق الداء ،
خلق له الدواء ، فالتسوه فيما تنبت الأرض من نبات في المنطقة نفسها .
ولذلك راحوا يدرسون نباتات كل أرض ، واعتنوا في ذكر تفاصيل دقيقة
عن كل نبات ، أصله وساقه وورقه وزهره وثمره ، وذلك حتى لا يخلط
بين نبات نافع وآخر ضار ، كما اهتموا بوصف البيئة التى ينمو بها النبات ،
إن كان ينمو في أرض رملية أو أرض طينية أو مبللة أو ينمو على الماء ،
ويعتبر هذا الجزء من وصف النبات ، إنما هو وصف علمى نباتى بحت ،
ثم يعقبون بذكر العقار المفيد في العلاج وكيف يؤخذ ومتى يؤخذ وكيف
يعد الدواء ، وكيف يتعاطى ، ومقدار الجرعة ، وهذه الأجزاء الأخيرة
هى ما نسميه بالنبات الصيدلى أو الطبى . وقد أوفوا فيه على الغاية .

وقد خصص ابن سينا الكتاب الثاني في الأدوية المفردة من كتابه القانون في الطب ، (١) خصصه لدراسة النباتات ، قسم الحملة الأولى منه إلى ست مقالات في تعرف أمزجة الأدوية المفردة بالتجربة والقياس وقواها . وقسم الحملة الثانية إلى عدة ألواح وقواعد ، وذكر في كل فصل النباتات التي تتخذ منها الأدوية . ونهج في ذكر هذه النباتات منهاجا خاصا ، فكان يذكر الماهية وفيها وصف النباتات وصفا دقيقا مقارنة هذا النبات بنظائره ، موردا صفاته الأساسية ناقلا ما ذكره من تقدمه من العلماء من أمثال ديسقوريدوس أو جالينوس أو غيرهما ، ثم يذكر بعد ذلك الاختبار بالطبع والخواص . وقد استقصى ابن سينا نسبة كبيرة من النباتات المعروفة آنثد . وأورد مزاجا مختلفا من هذه النباتات الشجرية والعشبية والزهرية والفطرية والطحلبية ذكر الأجناس المختلفة من النبات ، والأنواع المختلفة من الجنس الواحد ، وتكلم عن التشابه وغير التشابه ، كما يذكر موطن النبات والتربة التي ينمو بها إن كانت ملحة أو غير ملحة . وافتن في ذكر ألوان الأزهار والثمار ، جافها وطريها . والأوراق العريضة والضيقة ، كاملة الحافة أو مشرشرتها . ومن خير ما أورده ابن سينا الأسماء المختلفة لبعض النباتات من أغريقية أو محلية ، كما فرق بين البستاني أو المنزرع وبين البري ، وتكلم عن ظاهرة المسانة في الأشجار والنخيل ، وذلك بأن تحمل الشجرة سنة حملا ثقيلًا وسنة حملا خفيفا أو تحمل سنة ولا تحمل أخرى . وأشار إلى اختلاف الرائحة والطعم في النبات وسبق «كارل منز» الذي قال بأهمية التشخيص بالعصارة في سنة ١٩٣٤ :

وقد اعتمد ابن سينا في وصفه للنبات على مصدرين الأول «الطبيعة» فيصف النبات غضا طريا ، ويتكلم عن طوله وغلظه وورقه وشوكة وزهره وثمره مما يتفق وعلم الشكل الحديث والثاني ما يباع جافا عند العطارين من أخشاب أو قشور أو ثمار أو أزهار ، مما يتفق وعلم النبات الصيدلي ،

(١) القانون - ابن سينا .

وقد اصبحت ابن سينا على هذه النحو أربع مائة نبات لا يملك اسمها تستنفذ نسبة كبيرة من النباتات التي اكانت معروفة آنذاك ، وخاصة وانها كانت أغلب الأهم من النباتات الطبية .

أما في كتاب الشفاء Shifa فقد خصص الشيخ الرئيس بعض أجزاء الدراسة للنبات وأورد كثير من النظريات ، والآراء حول تولد النبات وذكره وأنماه ، وقال إن النبات قد شارك الحيوان في الأفعال والأنفعالات المتعلقة بالغذاء اير اذا على البدن وتوزيعا ويكون الغذاء على سبيل جذب الأعضاء منها بالقوة الطبيعية ، ليست عن شهوة جنسية ، وليس له من الغذاء إلا ما ينجذب اليه ، لا عن إزادته كالأعضاء فليس هناك شهوة ، إن لم يعط النبات شيئا ؛ إذ كان لا سبيل له إلى الحرب عن ضرر والطلب لنافع ثم يقول وأبعد الناس عن الحق من جعل للنبات مع الحياة عقلا وفهما فالتصرف في الغذاء يدل على الحياة ولكنه لا يدل على الإدراك والإرادة ، وتكلم عن الثمار والأشواك والنبات السمي أو الساحلي والسبخي ، والرمل والمائي ، والجبلي كما تحدث عن التطعيم بمختلف وسائله والنباتات المستدمنة الحضرة والتي تسقط أوراقها في مواسم معينة . كما تكلم عن الذكر والأنثى في النباتات وعن التكاثر . (١)

ومن الذين اشتهروا بالنبات ابن البيطار Ibn al-Baitar العشاب الاندلسي المعروف ، حاب شمال أفريقيا ومراكش والجزائر وتونس وكان رئيسا للعشابين في مصر ، كما درس نباتات سوريا واشتهر بأنه الطبيب الحاذق والعشاب البار . وقد اشتهر بمؤلفين هما ثمرة دراساته . أولهما الجامع في مفردات الأدوية والأغذية والثاني كتاب المغنى في الأدوية . وقد عني في كتاب المفردات بذكر ماهيات هذه الأدوية ، وقوامها ومنافعها ومضارها ، وأصلاح ضررها ، والمقدار المستعمل في جرورها أو عصارتها أو طبخها والبدل منها عند عدمها وأنه توخى في ذلك ستة أهداف ، وأنه جمع فيها كل ما ذكره

جالينوس وديسقوريدوس : وذكر فيه أسماء النباتات بعدة لغات : وقد وصف
عدة مئات من النباتات رتبها ترتيبا أبجديا ، وإن غلب على كتابه المادة
الطبية .

وكذلك اشتهر داود الانطاكي بكتابه الضخم تذكرة أولى الألباب
والجامع للعجب العجائب . ويتميز داود بأمانته في نقد سلفه وذكر ما نقله
عنه ، وكان يذكر أسماء النبات بالألسن المختلفة ، ويعني بذكر موطن النبات
وزمان قطعه وقد أتى على وصف مئات من أنواع النبات وإن غلب فيه
المادة الطبية : (١)

ومن النباتيين العرب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (٢) ، الذي
عاش في عصر صلاح الدين الأيوبي واشتغل بالتدريس في الأزهر ، بالقاهرة ،
كما درس في الجامع الأموي بدمشق وقد وصف البغدادي نباتات مصر وصفا
دقيقا من موز ونخيل وقلقاس وتوت وجميز وأترج وليمون وبطيخ وعبد اللاوي
وسنط وخيار ونخروب وغيرها وقال عن اللسان لا يوجد في مصر إلا بعين
شمس في موضع مُحاط به ، متحفظ عليه مساحته سبعة أقدنه وارتفاع
شجرته نحو ذراع وعليه قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر
تخين ، ويستخرج منه دهن ذو رائحة عطرة غالي الثمن يباع بضعف وزنه
فضة ، وقال إن دهن اللسان يستعمل في الطب .

كذلك شغف القزويني بعلم النبات ، وأتى في كتابه عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات على وصف كثير من النباتات من محاصيل ونضراوات
وفاكهة ، كما تحدث عن الحركة اليومية للأزهار وكان اهتمامه أغلب الأمر
بالنباتات الطبية .

وأورد ابن سيدة في كتابه المخصص وصف كثير من أنواع الكلا

(١) تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب .

(٢) الافادة والاعتبار في الأحوال المشاهدة والأمور المعينة في أرض مصر .

والشجر والعشب والكمأة وما شاكلها والحنظل والقطن والنخل والكرم .
وقد عني الادريسي (١) بالاستدراك على ما أغفله ديسقوريدوس
كالاهايلج الاصفر والهندي والكابلي وخيار شنبير والتمر الهندي والحو لنجان
والقائلة والحوزبوا والكبابة والقرنفل والريباس وحب الزلم والآس والمحب
والنفل والامير باريس والبهمن الابيض والاحمر وغيرها وعلل الادريسي
عدم ذكر ديسقوريدوس لهذه النباتات اما أنه لم يبلغ علمها أو لم يسمع عنها ،
أو كان ذلك ضنة من يونانا أو تعمدا ، لأن أكثر هذه الأدوية ليست في
بلادهم . واهتم الادريسي بذكر المراجع التي استقى منها مثل مفردات جالينوس
أو حنين بن اسحق أو ابن جليجل أو الزهراوى ، وحقق أسماء النباتات
بلغات مختلفة وذكرها على حروف المعجم وأورد أسماء النبات باللغات
السريانية واليونانية والفارسية والهندية واللاتينية والبربرية كما عني بتفسير
هذه الأسماء وما تدل عليه من معان .

وكذلك فعل الداودي والدينورى والغافى والقرطبي وابن الصورى
في وصف مئات الأنواع النباتية من نحو الأراك والأسحل والاثاب والآ والارطى
والآس والاقحوان والدباء والذنون والعناب والبعيثران والسنبل والعود . الخ .
فقد اشتهر الدينورى مثلا بأنه شيخ النباتين العرب ، وأنه كان يعتمد
في وصفه للنبات على مشاهداته هو ، أو يستشهد بأقوال من شاهدوه من العرب
كما عني بذكر مواطن النبات وذكر تفاصيل دقيقة عن أعضائه وأجزائه .
وأنه كان نباتياً فقط فلم يعن بذكر الفوائد الطبية إلا بمقدار . أما ابن الصورى
فقد عني هو الآخر برسم النباتات في مواطنها وفي أطوار حياتها المختلفة ،
فقد ذكر أنه كان يستصحب معه المصور والأقلام والأوراق والأصباغ
ويريه النبات ويطلب منه أن يرسم بحسبها ، في أطوار إنباته ثم إيراقه وازهاره
ولثمارة ، ثم في إبان ذويه ويبسه ، كما أورد محمد بن يوسف الخوارزمي في كتابه

(١) النبات - للادريسي .

مفاتيح العلوم وصفاً للكثير من أنواع النبات مثل السنبل الهندي والميعة والساذج والضرو والحنطيانا والبيروح وعصا الراعي وعنب الثعلب ولسان الثور .

ووصف الداودي في كتابه نزهة النفوس والأفكار في معرفة النبات والأحجار والأشجار عدداً كبيراً من أنواع النبات مثل الأذخر وأصل سوس وأملج ، وبلبع وجوزبوا وزنجبيل ومصطكى كما أورد القرطبي وصف مئات من أنواع النبات مثل الأذخر والاس والافاقيا واناجالس واميريارييس ، وانجدان ، وانيسون واقمحوان وأهمل وأذئاب الخيول والبابونج وبهرامج وينج وبلوط وبهار وبهمن وبطيخ وبطم وبصل ويرنجاسف وجرجير وجزر وجناطيانا وجلبان وجوز ودوس ودبق ، ودار صيني ودم الانخوين ودقلى وزعوور وزوان وزرنب وحنديق وحنضفن وحرمل وحسك وحب زلم وحبه خضراء وحبه سوداء وطحلب وكثيرا وكراوية ولحلاح ومخروث ومر وبرزنجوش ونسرين ونمام وعناب وعلقم وعود الثعلب وخلاف وخروع وخشخاش وغافت ونميراء . الخ .

والذى لاشك فيه أن أغلب علماء النبات من العرب إنما تغلب عليهم الناحية الطبية وإن اهتم بعضهم بوصف بعض النباتات غير الطبية كما اهتم آخرون بطرق الزراعة وما أشبه من موضوعات تعتبر بعيدة نوعاً عن الفوائد الطبية أو استغلال النواحي العلاجية .

(ج) الحيوان :

وكذلك اشتهر بدراسة الحيوان عدد غير قليل من العلماء العرب ولعل هؤلاء قد شايعوا المعلم الأول أرسطو في كلفه بالحيوان بنوع خاص . فكتبوا على غرارهِ في علم الحيوان دون تقيد بالنواحي العلاجية أو الفائدة الطبية التى تكون لهذا الحيوان أو ذلك .

فقد عرض ابن سينا في أحد أجزاء كتابه الشفاء لدراسة الحيوان ، فأورد نماذج رائعة لوصف أنواع مختلفة من الحيوان والطيور ، يقول

من الحيوانات المائية البحرية وشنطية ومنها طينية صخرية والحيوانات المائية منها ذات ملاصق كأصناف الأصداف ومنها متبرئة أي متحررة الأجساد مثل السمك والضفادع والملاصقة منها ما تزال تلتصق ولا تبرح مثل أصناف من صدف الإسفنج ، وتكلم عن العظام والغضاريف والشرابين والأوردة والأغشية والرباطات والحركة الإرادية والطبيعية وأسهب في التشریح المقارن بين الحيوانات المختلفة والطيور والأسماك ثم الأجهزة العضلية الهضمية والدورية والتناسلية والتنفسية وإن جولاته في وصف أنواع الحيوان من طير وأسماك وزواحف وثدييات وبرمائيات لما يذكر له بالتقدير ولا شك أن ابن سينا قد مارس التشریح سواء في ذلك تشریح جسم الإنسان ، أو مختلف أنواع الحيوان وإلا لما استطاع أن يصف بدقة تنتزع التقدير والإعجاب هذه الأجهزة المختلفة ، بل يذكر تفاصيل لا تكاد تعرفها في الوقت الحاضر إلا باستعمال العدسات والمجاهر فهو يتحدث عن الألياف الطولية في جدار الأمعاء لتجرى الحركة الدودية في الهضم ، وتلك العرضية التي تجرى الحركة العاصرة ثم المورية التي توثق عمل الآخرين .

وكذلك عنى بعض العشابين مثل ابن البيطار وداود الأنطاكي بوصف كثير من أنواع الحيوان مما تستخلص منه عقاير علاجية كما وصف البغدادى كثيراً من حيوانات مصر من سمك وطير وسلحفاة وفرس النهر ، وكذلك فعل القزويني في كتابه عجائب المخلوقات حين قال ثم لننظر إلى أصناف الحيوان وانقسمها إلى ما يطير وما يقوم وما يمشى ، وينقسم الماشى إلى ما يمشى على بطنه وما يمشى على رجليه وما يمشى على أربع ، وإلى أشكالها وأنواعها وتجميع عداثها وادخارها القوت لوقت الشتاء وحذقها في هندستها ، وكيف صنعت النحل هذه المسدسات المتساوية الأضلاع التي عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة . لقد أورد القزويني في كتابه المذكور وصف مئات من مختلف أنواع الحيوان ، وفي الجزء السادس ما يختص بالخيول وصفائها وذكر ابن سيده في بعض أبواب الجزء السادس ما يختص بالخيول وصفائها

وأصواتها كما تكلم في الجزءين السابع والثامن عن الإبل والغنم والماعز والسباع
والكلاب والطيور والنحل والنمل والعناكب وغيرها من مختلف أنواع الحيوان
وعنى بصفة خاصة بالأوصاف الدقيقة للأعضاء في الحيوانات مما يفيد الدارسين
لعلم الشكل وسلوك الحيوان . أما الجاحظ (١) فقد ألف سقراً ضخماً في علم
الحيوان في سبعة أجزاء وقد قسم الحيوان إلى ثلاثة أقسام شئ يمشى ، وشئ
يسبح ، وشئ ينساح ، والنوع الذي يمشى على أربعة أقسام ناس وبهائم وسباع
وحشرات ، ثم انتقل إلى حيوان الماء ، فيقول ليس كل حائم سمكة ، وإن كان
مناسباً لسمك في كثير من معانيه ويقول ألا ترى في الماء كلب الماء وعنبر الماء ،
وخنزير الماء ، وفيه الرق والسلحفاة وفيه الضفدع وفيه السرطان والتمساح
والدخس والدلفين ، ثم يقسم الحيوان إلى فصيح وأعجم ، فانفصيح هو الإنسان
والأعجم هو الحيوان ، ويقول من الحيوان الأعجم ما يرغب ، وينهق
ويصهل ، ويسنح وينخور ويبغم ويعوى ، وينبح ، ويزقو ويصفق ويهدير
ويصوص ، ويقوق وينعب ويزأر ويكش وينبح . ويخلص الجاحظ بعض
فصول كتابه بالحديث عن الكلاب وغيرها عن تكوين البيضة من الفروج ،
ويتحدث عن بيض الطيور عامة ، وعدد مرات وضعه وحضنه . ثم باب
للإنسان وأسمائها ، ويتحدث في الجزء الثالث عن صفوف الحيوان ،
وأسهب في الحديث عن الحمام القمري وعن بناية العش ورعاية الأبوين
للصغار ، ويتكلم عن الهجن وعن أمراض الحمام وطرق علاجها ، ثم يتحدث
عن الذباب والفراش والغربان والجعلان والحنافس والرخم والمدهد والحفاش
والنمل والزنابير ثم يتطرق إلى الحديث عن النوم في الحيوان ويعود في الجزء
الرابع للحديث عن النمل والقرد والخنزير والحيات والأفاعي واليرابيع
والجراد وسمك القرش . وقد سجل الجاحظ ملاحظات عجيبة
في سلوك الحيوان ، سجلها بدقة تنتزع التقدير والإعجاب كما أنه أجرى
بعض التجارب على بعض أنواع الحيوان ، كما كان يسقى الحيوانات خمراً

(١) الحيوان - للجاحظ .

ويجرب أثرها عليها ، أو يضع الحيوانات تحت أوان زجاجية ليراقب سلوكها ، كما كان يقرر بطون الحيوانات ليعرف ما في بطونها وأنه ليعتبر عالماً في الحيوان التجريبي ، وفي سلوك الحيوان ، فضلاً عن علم الشكل وعلم التشريح المقارن . وكذلك عالج الدميري (١) موضوع حياة الحيوان بالطريقة التي جرى عليها العلماء العرب من حيث ترتيب أسمائها حسب حروف الهجاء ، مبتدئاً بحرف الألف حيث يتكلم عن الأسد ذا كراً أسمائه باللغة العربية ، معقباً بوصف طباعه وهيئته ، ثم مؤيداً حديثه بما ورد من أحاديث شريفة أو أشعار ، ثم يذكر الإبل فالإنسان فالأخطب والأخيل والأربد والأرنب والآنكليس والأوز وهكذا . ويستطرد الدميري أحياناً قائلاً أن الحديث ذو شجون ، ويذكر ما يسميه فائدة أجنبية لعله يريد أنها بعيدة عن موضوع الكتاب ، ثم يستأنف حديثه عن الحيوان ، منتقلاً إلى الحرف التالي من حروف الهجاء ، فيذكر البازي والبازل والباقة والبجعة والبرغوث والبط والبعوض والبعير والحمل والبغل والبقر والبلشون والبوم وعلى هذا النحو عالج الدميري مئات من أنواع الحيوان ويختتم الجزء الأول بانتهاء أسماء الحيوانات التي تبدأ بحرف الراء ثم يبدأ في الجزء الثاني في الحيوانات التي تبدأ بحرف الزاي وينتهي بحيوانات حرف الياء من يامور ويحموم ويراعة ويربوع ويعفور ويعسوف وغيرها .

ويلاحظ أن الدميري كثيراً ما يستشهد بآراء من سبقوه من العلماء العرب من أمثال الجاحظ وابن سيده والقزويني كما يستشهد بآراء أرسطو كما يعنى بذكر الشواهد الأدبية والأحكام الشرعية وغالباً ما يذكر بعض الفوائد الطبية.

ولما كانت طريقة تأليف معجمية موسوعية ، فقد جمعت بين الطائر والسمك والحشرات والزواحف في فصل واحد ، كما جمعت بين مادة العلم الطبيعي من وصف للحيوان وسلوكه وموطنه وبين ما روى فيه من شعر وأدب ونوادر ، مما يجعل قراءته ميسرة محببة إلى بجانب ما فيه من نفع علمي محقق .

(١) جياه الحيوان الكبرى - للدميري .

(د) في الصيدلة :

قدمنا أن الصيدلة كانت تابعة بالضرورة لعلم الطب ، وأن جميع الأطباء العرب قد كتبوا في الصيدلة كما كتبوا في النبات بوصفهما فنين لازمين للطب وقد نخص الشيخ الرئيس ابن سينا جزءاً خاصاً من كتابه القانون للمادة الطبية والصيدلة فقد كان يورد وصفاً تفصيلياً للنباتات التي تتخذ منها الأدوية ولقليل من الحيوانات والمعادن التي تستخلص منها عقاقير نافعة ، وقد وصف ابن سينا عدداً من الأعضاء النباتية مما يباع جافاً عند العطارين من أخشاب أو قشور أو ثمار أو أزهار مما يتفق وعلم النبات الصيدلي . ثم يصف طريقة استخلاص العقار ، ثم طريقة استعماله كما أن للبيروني كتاباً في المادة الطبية وعنوانه كتاب الصيدلة وكذلك فعل ابن الهيثم في كتاب الطب ، الذي قيل إنه يقع في ثلاثين جزءاً ، كما فعل ثابت بن قرة الذي خصص كتاباً في أجناس ما تنقسم إليه الأدوية . وكما فعل الرازي الذي حضر الكحول بتقطير المواد النشوية وكان يستعمله في الأدوية والصيدليات ، كما أن له كتاباً في الصيدنة كذلك . أما ابن البيطار فقد جمع في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية مجموعة من العلاجات المستخلصة من النباتات والحيوانات والمعادن ، وفيه يختص بالنباتات الطبية التي تتخذ منها العقاقير لعلاج الأمراض ، وكذلك العقاقير التي كانت تتخذ من بعض الحيوانات أو المعادن . وقد عني ابن البيطار بذكر ماهيات الأدوية ، وخواصها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل من جرعتها أو عصارتها أو طيخها والبدل منها عند عدمها ، ويعترف بأنه استوعب ما في المقالات الخمس من كتاب الأفضل ديسقوريدوس بنصه ، وكذلك جميع ما أورده الفاضل جالينوس في المقالات الست من مفرداته : كما ذكر كثيراً من الأدهان مثل دهن الورد ودهن النرجس ودهن القيصوم ودهن البابونج .

وكذلك فعل داود الأنطاكي في كتابه تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجيب وقد عني بذكر الزمان الذي يقطع فيه اندواء ، وكيف يدخر

حتى لا يفسد ، وكذلك عنى بذكر موطن الدواء ، وذلك بالإضافة إلى الوصف الدقيق للنباتات الطبية . وكانت طريقة ابن النفيس في العلاج تعتمد على تنظيم الغذاء أكثر من اعتمادها على الأدوية والعقاقير ، ولذلك نقر منه الصيادلة ، ومع ذلك فقد عالج موضوعات صيدلانية في موسوعته الطبية ، أما الإدريسي فقد أورد في كتابه الجامع أصناف أشجار النبات ثبثاً حافلاً من الوصفات الطبية بعد وصف النباتات وطرق التداوى ، ويعترف بأنه اتخذ من كتاب ديسفوريديروس مرجعاً ، كما أنه اطلع على كتاب استيفن في المفردات وكذلك كتاب جانينوس والأدوية المفردة لحنين بن اسحق ، والفائدة لابن شيزاعون والنبات لابن جليل والأدوية المفردة لحاف بن عباس الزهراوى وغيرها من الكتب وكذلك فعل محمد بن يوسف الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم فقد عالج الأمراض والأدواء والأدوية المفردة والمركبة وذكر المنه والسادج والضرو والخطاينا والبروح والفسفور والعصارات والألبان والصمغ . وكذلك فعل عبد الرحمن الداودى في كتابه نزهة النفوس والأفكار في معرفة النباتات والأشجار والأشجار وهو يبحث في العقاقير النباتية والمعدنية واستعمالاتها الطبية وأورد تراكيب كثير من السموم والترياقات والأشربة والدهانات والحبوب ، وطريقة تحضير كل منها ، والأجراء التى تدخل في تركيبها من أنيسون أو حنظل أو مصطكى أو أذخر أو سنبل أو زنجبيل أو جوزبوا الخ أما القرطبي فقد وضع كتاباً سماه شرح أسماء العقار قال أنه اعتمد فيه على كتاب ابن جليل والجامع للغافى وابن سميحون وغيرهم ، وقد أورد ثبثاً حافلاً بالعقاقير النباتية وطرق تحضيرها وكذلك ذكر كثيراً من العقاقير الحيوانية والمعدنية فأورد من النباتات الحبة السوداء والحبة الخضراء والطلح والخلنج والمحروث والسرخس والسوس والخلنجبان والحشخاش والسقمونيا والنباب والعلقم والصعتر والخروع والخردل والنقطف وغيره ثم ذكر من العقاقير المعدنية وانتونيا والبورق والحسين والزنجفر وزهرة النحاس والطلق ، كما ذكر الورل وغيره من الحيوانات .

وكانت طريقة هؤلاء العلماء ترتيب كتبهم على حروف المعجم، لكي تكون سهلة التناول كما يقولون. (هـ) المعدنيات والحيولوجيا : في هذا الكتاب، يتحدث المؤلف عن المعدنيات والحيولوجيا. وقد شغل العرب منذ فجر الحضارة العلمية الإسلامية بالمعادن والتعدين وقد شغل كثير من علماءهم بموضوع تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة وخاصة الذهب وقد ورث العرب عن الإغريق نظرية العناصر الأربعة، وهي القائلة إن كل الموجودات إنما نشأت من عناصر أربعة هي الماء والتراب والهواء والنار، وإن لها أطباع أربع هي الحرارة والجفاف والرطوبة والبرودة، وإن لكل عنصر منها طبيعتين تشترك إحداهما مع عنصر آخر فالنار جافة حارة والتراب جاف بارد، والماء بارد رطب والهواء رطب حار، وكان من رأى أرسطو أن هناك حالة وسطاً بين النار والتراب هي الدخان وحالة أخرى بين الهواء والماء هي القوام المائي، وأنه ينشأ من تفاعل هاتين الصورتين الوسطيتين في باطن الأرض تنشأ الفلزات جميعاً. وكان جابر بن حيان أول من قال بأن الفلزات لا تتكون من هاتين الصورتين مباشرة بل إنهما تتحولان إلى عنصرين جديدين هما الزئبق والكبريت، وباتحاد هذين العنصرين في باطن الأرض تتكون الفلزات وفسر اختلافهما بتيارين نسبة الكبريت فيها، وبقي معمولاً بنظرية جابر هذه حتى القرن الثامن عشر وكانت نواة للنظرية التي تلتها وهي نظرية الفلوجستين، وهي القائلة بأن كل المواد القابلة للاحتراق والفلزات القابلة للتأكسد تتكون من أصول زئبقية وكبريتية وملحية. ولم يكن ابن سينا من المؤمنين بتحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة، وفي ذلك يقول أما ما يدعيه أصحاب الكيمياء في موضوع تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة فإنه ليس في أيديهم أن يقلبوا الأنواع قلباً حقيقياً، وللبيروني كتاب عنوانه «الجماهر في معرفة الجواهر» ورسالة في المعادن، يشهد الحيولوجيون المحدثون بأن البيروني في كتابه هذين يعتبر جيولوجياً ممتازاً. ويقول المستشرق

«ايروبوب» أن من المستحيل أن يكتمل أى بحث فى تاريخ علم المعادن دون الإقرار بمساهمة البيرونى العظيمة . وكذلك كان من رأى الكندى أن الاشتغال بالكيمياء قصد الحصول على الذهب مضيعة للوقت . وقد قدر البيرونى الوزن النوعى لعدد كبير من المعادن بدرجة عظيمة من الدقة وكذلك فعل الخازن والقزوينى ويقول الأخير فى كتابه عجائب المخلوقات ولننظر إلى المعادن المودعة تحت الجبال ، منها ما ينطبع كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، ومنها مالا ينطبع كالفيرزو والياقوت والزبرجد وكيفية استخراجها وتنقيتها . واتخاذ الحلى والأدوات منها ثم إلى معادن الأرض كالنفط والكبريت.

على أن كثيراً من العلماء العرب قد عالجوا موضوع المعادن لاستعمال بعضها فى الأدوية والعقاقير ، مثل ابن البيطار وداود الانطاكى ، كما تحدث ابن سيده فى مخصصه عن المعدنية من ذهب وفضة ورصاص وحديد . وكان ابن سينا يقسم الأجسام المعدنية إلى أحجار وكباريت وأملاح ويقول انه ليس فى مقدور أصحاب الكيمياء أن يقلبوا الأوضاع قلباً حقيقياً ، فإن جواهرها تكون محفوظة وإنما تغلب عليها كيفيات مستفادة بحيث يغلط فى أمرها .

وعلى الحملة قد تناولت كتابات العرب فروعاً مختلفة فى الجيولوجيا ، مثل علم المعادن وعلم الأحجار الكريمة وعلم الصخور . كما تناولوا الجيولوجيا الطبيعية وعلم البحار وعلم الحفريات والمساحة الأرضية واهتموا بصناعة التعدين واستغلال الخامات .

ومن رأى سارتون أن عطارى بن محمد الحسيب من علماء القرن الثالث الهجرى أول من كتب فى الأحجار كتابه المرسوم « الجواهر والأحجار » ثم الكندى ثم البيرونى ثم التيفاشى فى كتابه «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » لقد كتب العرب عن الخواص الطبيعية للمعادن والبلورات كما أجروا بعض الاختبارات الكيميائية على المعادن والجواهر بالأحماض والحل ، وكانوا

أول من اهتم بادخال التجارب لاختيار المعادن ، ولهم آراء قيمة في تصنيف المعادن .

ولابن سينا آراء قيمة في تكوين الصخور والجبال والزلازل والبراكين ، ومن العلماء العرب من قام بدراسات واسعة عن تضاريس سطح الأرض والعوامل الداخلية والخارجية ذات الأثر على تكوين سطح الأرض . كما ناقشوا دورة الماء في الكون ، وجريان الأنهار وتراكم الأملاح في البحر . فقد ناقش المسعودي ذلك في أصالة عجيبة . وكم كان ابن سينا موقفاً حين عبر عن العصور الجيولوجية ، بقوله : إنها مدد لا تفي التاريخات بحفظ أطرافها . ومنهم من أشار إشارات قيمة إلى الحيوانات المتحجرة . ولنقرأ قول ابن سينا في الشفاء « يغلب أن تكون هذه المعمورة كانت في سالف الأيام غير معمورة بل مغمورة في البحار ، فتمحجرت ولهذا كثيراً ما يوجد في كثير من الأحجار إذا كسرت أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها . كما أشار البيروني إلى الأسماك المحتجرة وكذلك فعل المازيني ، كما تكلم الغافقي عن الكهرمان .

ومن رأى سارتون أن فكرة سلم الحياة أو التطور والارتقاء كانت معروفة لدى المسلمين في العصور الوسطى ، وكان يحاولون لهم القول بتطور الحياة من المعدن إلى النبات ومن النبات إلى الحيوان واعتبار الإنسان ناشئاً من آخر البهائم وهو القرد ، بهذا تحدث ابن مسكويه وأخوان الصفاء وابن خلدون والقزويني وغيرهم .

أما علوم المساحة والجرائط ، فقد دعاهم إلى دراستها تحديد اتجاه القبلة والأماكن المقدسة وتحديد خط نصف النهار وقياس المسافات بين المدن وأطوال البلدان . وكذلك وضع الخوارزمي والمقدسي والاصطخري والبلخي وغيرهم كثيراً من الجرائط القيمة .

٤ - خاتمة

والخلاصة أن العلماء العرب في العصر الإسلامي ، قاموا بدورهم الطبيعي خير قيام في بناء النهضة العلمية العالمية ، فقد نقلوا التراث الاغريقي وغيره من ألوان التراث العلمي الذي تقدم عليهم في التاريخ ، نقلوه إلى اللغة العربية ، التي كانت لغة العلم في هذا العصر ، فعلى امتداد الامبراطورية العربية الإسلامية من مشارف الصين شرقاً إلى حدود فرنسا وجنوبي إيطاليا غرباً ، كان كل من أراد أن يكتب علماً تقرأه الناس لحاً إلى اللغة العربية ، فكتب وألف بها . وظلت كتبهم في العلوم الطبيعية المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر ، ترجمت إلى اللغات اللاتينية ، وما إن عرفت الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر ، حتى طبعت هذه الكتب عدة مرات . وشهد لهم كثيرون من مؤرخي العلم من أمثال سارتون ، وهوليارد ، وسميث ، وكاجوري ، وغيرهم بأنه أولا أعمال العلماء العرب ، لا يضطر علماء النهضة الأوروبية إلى أن يبدعوا من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير المدنية عدة قرون . وقال بعضهم إنه كان لابد من وجود ابن الهيثم والخازن والكندي وابن سينا والفارابي والبيروني والخوارزمي ، لكي يظهر جاليليو وكيلر ونيوتن وكوبرنيك .

ويدلنا تتبع تطور الفكر العلمي على مرّ العصور ، كيف أثر العلماء العرب في النهضة الأوروبية ، وكيف تأثر علماء أوروبا بأعمال العلماء العرب . فقد بينا مثلاً أثر العرب في ابتكار نظام الترقيم والصفير والنظام العشري ، وكيف نادى ابن مسكويه وابن خلدون واخلوان الصفاء ، بنظرية التطور قبل داروين بمئات السنين ، وكيف عرف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى

قبل هارفي بثلاثة قرون ، وكيف قال الإدريسي ، وابن جزم ، والخازن ، بالجاذبية قبل نيوتن بقرون متطاولة ، وكيف ربط الخازن بين الثقل والسرعة والمسافة ، مما جعل كثيرا من المحققين يقولون إن طاحب كتاب ميزان الحكمة أي الخازن كان يعرف هذه العلاقة التي وضعها نيوتن على هيئة قوانين ومعادلات ، وكيف أجري ابن الهيثم من التجارب لقياس سرعة الضوء ، وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار وكيف قدر بنوموسي محيط الأرض وكيف قاس فلكيو العرب أبعاد الأجرام السماوية وكيف ابتكروا الآلات الفلكية ، وعرفنا أن ابن ماجد الملاح العربي ، كان ربان سفينة فاسكودي ، جاما في رحلاته الاستكشافية في أعالي البحار ، وأن جابر بن حيان هو أول من أسس علم الكيمياء على دعائم قوية ، وخلصه من التشويه والاضطراب فنقله من صورته المشوبة بالشعوذة والسحر ، إلى علم له قواعده وتجاربه وأصوله ، حتى قال عنه سارتون بحق ، إن علماء العصر الحالي لم يقدرُوا أن هذه أعمال رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لوفرة ما بها من مادة علمية صحيحة ، وشهد له « هولميارد » العالم الكيميائي المعاصر .

ويدلنا هذا العرض لتطور الفكر العلمي على أن العرب كانوا بحق واسطة العقد ، تأثروا بعلماء العصر الإغريقي ، وعلماء العصر الإسكندري ، ولكنهم أثروا بدورهم في علماء النهضة الأوروبية ، ولعلمهم أصحاب الفضل الأول في وضع الطريقة العلمية والمنهج التجريبي ، فقد سبقوا في ذلك فرانسس بيكون ، ورينيه ديكارت كما سبقوا نيوتن وداروين ودالتن وغيرهم من علماء النهضة الأوروبية ، في كثير من الآراء والنظريات العلمية ؛ حتى قيل بحق إنه لولا ما أصاب الأمة العربية من محن على أيدي المغول والتتار والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة التي تفاخر بها أوروبا تكون من نصيب الأمة العربية وتكون لغتها هي العربية دون سائر اللغات ، وقد كانت لغة العلم في العصر الإسلامي . فالفكر العلمي سلسلة متصلة الحلقات امتدت من الحضارات القديمة من مصرية وأشورية وبابلية وصينية إلى حضارة الإغريق

والإسكندرية ثم إلى العصر الاسلامى الذى تأثر علماؤه بمن تقدمهم ، وأثروا بدورهم بمن لحقهم من علماء النهضة الأوروبية الذين قرعوا أعمال العلماء العرب فى كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية .

وكذلك نرى فى هذه الإمامة القصيرة كيف أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوروبية فى هذا اللون من المعرفة الذى يختص بالعلوم الطبيعية .

د. عبد الحليم نصر

٥ - المراجع

- ١ - شجرة الحضارة - رالف لنستون - ترجمة الدكتور أحمد فخري
- ٢ - قصة الحضارة - و. ديورانت :
- ٣ - العلم القديم والمدنية الحديثة - جورج سارتون - ترجمة د. عبد الحميد صبره
- ٤ - مقدمة تاريخ العلم - جورج سارتون
- ٥ - الحسن بن الهيثم - مصطفى نظيف :
- ٦ - تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك - قدرى حافظ طوقان
- ٧ - التربية الاسلامية - الدكتور أحمد شلى
- ٨ - دائرة المعارف البريطانية :
- ٩ - دائرة المعارف الإسلامية .
- ١٠ - القانون المسعودى - للبيرونى
- ١١ - صور الكواكب - عبد الرحمن الصوفى
- ١٢ - الإفادة والاعتبار - البغدادى
- ١٣ - الجامع للمفردات - ابن البيطار
- ١٤ - تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب - داود الأنطاكي
- ١٥ - القانون - ابن سينا
- ١٦ - الشفاء - ابن سينا
- ١٧ - الجبر والمقابلة - الخوارزمى (محمد بن موسى)
- ١٨ - مفاتيح العلوم - الخوارزمى (محمد بن يوسف)
- ١٩ - الزيج الصابئ - النبائى
- ٢٠ - الجامع لصفات أشتات النبات - الإدريسي
- ٢١ - النبات - الدينورى

- ٢٢ - الحيوان - الحاحظ
- ٢٣ - حياة الحيوان الكبرى - الدمري
- ٢٤ - الحضارة الإسلامية - آدم ميتز - أستاذ اللغات الشرقية بازل بسويسرا
- ٢٥ - الحماهر في معرفة الجواهر - البيروني
- ٢٦ - الصيدلة - البيروني
- ٢٧ - ابن النفيس - بول غليونجي
- ٢٨ - تجارب الأمم - ابن مسكويه
- ٢٩ - رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء
- ٣٠ - تاريخ العلم - تشارلس سنجر
- ٣١ - شمس الله على الغرب - سيجريد هونكه
- ٣٢ - الفهرست - ابن النديم
- ٣٣ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ابن أبي أصيبعة
- ٣٤ - المسالك والممالك - ابن جرداذبه
- ٣٥ - سلسلة تراث الانسانية - تصدرها وزارة الثقافة
- ٣٦ - رسالة العلم - تصدرها جمعية خريجي كليات العلوم
- ٣٧ - استخراج الأوتار المؤثرة بخواص الخط المنحني - للبيروني -
تحقيق الأستاذ أحمد سعيد الدمرداش
- ٣٨ - مطبوعات المؤتمرات العلمية العربية - يصدرها الاتحاد العلمي العربي
- ٣٩ - مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم - المحاضرات التذكارية لابن الهيثم
- ٤٠ - الدليل البليوجرافي للقيم الثقافية العربية - نشرة هيئة اليونسكو .
- ٤١ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - للدكتور عبد الحليم منتصر
- ٤٢ - نيكلسون . ر . م . - تاريخ العرب (١٩١٤)
- ٤٣ - درابر . ج . و . - التاريخ الثقافي للنهضة الأوروبية (١٩١٤)
- ٤٤ - توينبي . ا . ج . - دراسة للتاريخ (١٩٤٥)
- ٤٥ - هرنشو - ف . ج . س - أثر العصور الوسطى في الحضارة الحديثة (١٩٢١)

الفصل الرابع

في الطب والأقرباءين

إعداد : دكتور محمد كامل حسين

فهرس
الفصل الرابع

| الموضوع | الصفحة |
|-------------------------------|--------|
| الطب العربى وأثره فى الغرب | ٢٦٣ |
| الطبقة الأولى — طبقة الرواد | ٢٧٣ |
| الطبقة الثانية — حصر الترجمة | ٢٧٤ |
| الطبقة الثالثة | ٢٧٦ |
| الطبقة الرابعة — العصر الذهبي | ٢٧٧ |
| الحروب الصليبية | ٢٨٤ |
| صقلية وسالرنو | ٢٨٧ |
| الأنداس | ٢٨٩ |



الطب العربي وأثره في الغرب

لم يكن في العالم المتحضر في ما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر علم طبي يعتد به إلا ما كان منه عند العرب . وما عند غيرهم لم يكن إلا نقلاً عنهم واحتذاء لهم . ولم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب علماً وعملاً وتنظيماً . هذه حقيقة تاريخية لا نزاع فيها . ولكن المؤرخين المحدثين أرادوا أن يتبينوا حقيقة هذا التفوق ، وأن يحددوا أثره في تطور التفكير الطبي العالمي .

بذل الرواد من مؤرخي العلوم جهداً بالغاً في دراسة تاريخ الطب العربي . ووصفوا كيف نشأ في بغداد ، وكيف نما وازدهر حتى بلغ أوجه في عهد الرازي وابن سينا وكيف انتقل بعد ذلك إلى الأمم اللاتينية .. وكانت الصورة العامة التي قدمها لنا أولئك الرواد واضحة مقنعة . ولا تزال مقبولة عند أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم ، لم يغير منها كثيراً ما كشف عنه المؤرخون المعاصرون ، على كثرة ما تعلمناه من هذه الكشوف .

وقد آن لنا أن نعيد البحث في ما قال به المؤرخون الأولون . كي نتبين ما في آرائهم من شوائب . إذ كان عملهم بطبيعة الحال مشوباً بالنقص والاضطراب والخلط . أما النقص فمرجعه إلى قلة المصادر الأولية . فكان جل اعتمادهم على المؤلفات العربية في تاريخ الطب . وبعض ما ورد في هذه الكتب خيال محض ، وأكثره نواذر وحكايات عن كبار الأطباء تدل على قدرتهم الفائقة . وليس لهذه النواذر قيمة علمية أصلاً . وإنما هي قصص ممتعة وأساطير شعبية يرددها الخلف إعجاباً بالسلف . وأما الاضطراب فيرجع إلى أن الدقة

كما نفهمها نحن الآن لم تكن من الصفات الغالبة على علماء القرون الأولى والوسطى . وكان تحقيق النصوص أمراً عسيراً عليهم . ولعلمهم كانوا يرون أن الحكمة والصواب أمور عامة ثابتة مستقرة لا تتعلق إلا قليلاً بشخصية القائلين بها . فلم يكن يزعمهم أن ينسبوا الكلمة الرائعة إلى أفلاطون ما دامت جديرة أن تنسب إلى مثله . وأما الخلط فكان أوضح ما يكون في المؤلفات اللاتينية . كان من المترجمين من لا يعرف العربية فكانت الكتب تترجم من العربية إلى العبرية ومنها إلى لاتينية ركيكة . وهذه التراجم المزدوجة كانت مصدر أخطاء عديدة أو كان من المترجمين من ينسب إلى نفسه مؤلفات عربية يلمس بذلك لنفسه الشهرة . وآخرون كتبوا كتباً ضعيفة كلها أخطاء وكانوا ينسبونها إلى مشاهير العلماء العرب يبعون لها بذلك رواجاً . وكان أكثر المترجمين لا علم لهم بالطب وأوقعهم ذلك الجهل في أخطاء مضحكة .

ثم قام في عصرنا هذا عدد من العلماء المتخصصين عكفوا على دراسة هذه الوثائق اللاتينية دراسة مستفيضة . وخلصوا إلى نتائج عظيمة القدر في تحقيق النصوص وتعيين مؤلفيها ومصادرها ومعرفة المنحول منها . وتجمعت لدينا حقائق كثيرة عن هذا العصر :

ولا جدال في أن العمل الذي قام به مؤرخو العلوم في السنوات الأخيرة عمل مجيد ضخم ولا غبار عليه من الناحية التاريخية البحتة . ولكننا لا نزال نرى فيه هنات وعيوباً من وجهة النظر الطبية .

ومن ذلك أن مؤرخي العلوم شأنهم في ذلك شأن علماء التاريخ العام — يقسمون موضوعات بحوثهم تقسيماً زمنياً وقومياً . فتراهم يتحدثون عن الطب المصري القديم والطب اليوناني الهليني والهلينيني والطب العربي . وهذا التقسيم يفيد كثيراً حين نريد أن نتبع الأحداث العلمية نربطها ببعضها ببعض كي نتبين خطوات التطور العلمي في عصر بعينه عند أمة من الأمم . ولكنني أعتقد أن هناك أسلوباً آخر في كتابة تاريخ العلوم — أو على الأقل تاريخ الطب — قد يكون

أعم وأقرب إلى إيضاح حقيقة التطور العلمى من الأسلوب الذى ألفناه ه
وعندى أن الطب يصح أن يقسم إلى عصور يتميز كل عصر منها بتفكير خاص:
فيكون العصر الأول عصر الخبرة البحتة ويليه عصر الخبرة المنظمة عقلياً .
ثم يلى ذلك عصر التحليل والتجربة . وسنعود إلى تفصيل هذا الرأى قريباً .
ونكتفى هنا بالقول بأن الطب اليونانى والعربى يمثلان عصرأ واحداً يتميز بتفكير
متشابه جداً . والتشابه فى التفكير لا يكون عرضاً ولا يراد قسراً . وإنما
حمل العرب لواء النهوض بالطب اليونانى لأنهم كانوا مهيين لذلك من قبل
عقلياً وعلمياً .

ويخطئ المؤرخون الذين يقيسون التفوق الطبى بمقياس واحد هو عندهم
جودة المؤلفات الطبية . والحق أن المؤرخين جميعاً أشادوا بالمؤلفات العربية
الكبرى لحسن تبويبها ووضوح قضاياها واستقرار منطقتها . ولكن هذا الرأى
قد يدعو إلى إغفال تفوق العرب فى الطب الاكلينيكي . وقد يدعو إلى إغفال
شأن البيمارستانات التى كان يعالج فيها المرضى ويتدرب فيها الأطباء .
فكانت بذلك مستشفيات تعليمية قريبة جداً من مثيلاتها فى عصرنا الحديث .
ولا يجوز لنا أن نغفل هذين الأمرين حين نحاول تقدير الطب العربى .

وهناك قضية أخرى خاض فيها قوم كثيرون . ولا أراها تستحق ما دار
حولها من جدل . « هل أضاف العرب شيئاً إلى الطب اليونانى ؟ » . الواقع
أن الأطباء العرب لم يحاولوا أن يغيروا من الأسس الفلسفية والطبيعية التى قام
عليها الطب اليونانى . ويقول ابن سينا فى القانون عند الحديث عن الأمزجة
« يجب أن يتعلم الطبيب من الطبيعى أن المزاج المعتدل على هذا المعنى مما لا يجوز
أصلاً » . ويقول فى موضع آخر « والطبيب ليس عليه أن يتبع المخرج
إلى الحق من هذين الاختلافين بالبرهان . فليس له إليه سبيل من جهة ما هو
طبيب ولا يضره فى شئ من مباحثه وأعماله . » والأطباء اليونانيون أنفسهم
لم يغيروا من أسس علومهم الطبية على مدى القرون التى نخلت بعد أبقرراط
فلم نريد من الأطباء العرب أن يغيروا منها شيئاً ؟ . وخاصة أنهم لم يحفزهم

شيء في خبرتهم إلى الشك في هذه الأسس بل وجدوا فيها تعليلاً منطقياً معقولاً واضحاً لكل ما عرض لهم من مشاكل .

الواقع أن كبار الأطباء العرب مع إيمانهم بالكليات الطبية كما تصورهما الإغريق ، ومع إعجابهم الشديد بالفاضلين (أبقراط وجالينوس) لم يترددوا في التنبيه على خطئهما حين يخطئان . وللرازي في كتاب الفصول مواقف ثلاثة من جالينوس وأبقراط ، ويخطئ أبقراط في صراحة عنيفة في قوله أن ماء الاستسقاء يصل إلى الرئة فيزيد السعال . ويخطئه في أن ذبول الجسم يزيد رواسب البول ويقول « والذي عندي أن ذلك خطأ لا يجوز أبداً » ويعمل رأيه هذا تعليلاً لطيفاً ، وفي بعض المواضع يرى الرازي أن يجرب ما قال به الفاضلان قبل أن يقطع في قولهما برأى . ونراه يتفق مع جالينوس في قوله عن الحميات أن بعضها يكون عن ورم وبعضها بغير ورم . ولكنه يعلق على ذلك بقوله « هذا تحقيق رأينا في أننا قسمنا الحميات إلى قسمين فقلنا « الحميات إما مرض وإما عرض » وهو التقسيم الذي يطابق الطب الحديث وهو من غير شك أوضح وأصدق من قول جالينوس . على أنه ذكر مرة في كتاب الفصول بعد شرح رأى جالينوس « ينبغي أن يعمل على هذا فهو صحيح ... أما ما قد كتبناه ... فغلط » ١ .

ويطول بنا القول إذا أردنا أن نقيم البرهان على استقلال الأطباء العرب بخبرتهم وتجاربهم وآرائهم وان ظلوا داخل الإطار الفلسفي العام الذي وضعه اليونان والذي لم يجدوا فيه نقصاً ولا قصوراً .

وقيل عن الطب العربي إنه ليس فيه جديد . ومن السهل أن ندحض هذه الدعوى بذكر عدد من الكشوف العربية المعروفة . وقد يدلنا البحث في بطون المخطوطات على كشوف أخرى . وعندي أن هذا البحث عقيم . ذلك أن الرغبة في كشف عن شيء جديد لمجرد الرغبة في ذلك أمر غير مقبول عند الأطباء إلا في حدود ما هو صالح . ولا يجوز أن يكون غرضاً لذاته . والشغف

البالغ بالكشوف الجديدة نزعاً خاصة بالمذهب التجريبي . إذ ليس من العسير أن نغير ظروف التجربة بطرق كثيرة فيخرج لنا منها أشياء جديدة وأن تكن غير ذات بال . والواقع أن العلم الحديث أسرف في هذا الاتجاه . وليس كله خيراً . وقد تكون كثرة التفصيلات عائقاً للتقدم العلمي الذي يحى عن طريق التجميع بعد التحليل . وتجربة كل جديد في الطب قد تجر إلى مزالق من سوء التقدير وفساد الحكم عند ممارسة علاج المرضى .

ولم يكن من أغراض الأطباء العرب أن يبرزوا القدماء في ما قالوه . وإنما عرضوا علم أبقرات وجالينوس على خبرتهم فأبقوا على ما هو صواب ونبدوا ما هو خطأ . وقد مضى العهد الذي كان فيه تاريخ العلوم ميداناً للمفاضلة بين الأمم . ويجب أن يكون تاريخ العلم تاريخاً لتطور التفكير العلمي . والواقع أن جالينوس ظل في دائرة الكليات التي وضعها أبقرات . وكذلك أطباء الاسكندرية لم يضيفوا إلى طب أبقرات إلا شيئاً قليلاً جداً . وما فعله الرازي في الطب الاكلينيكي وما فعله ابن سينا في تنسيق العلم الطبي وأيضاً حه أكثر كثيراً مما فعل هيروفيليس وجالينوس بطب أبقرات .

والحق أنه يجب علينا ألا نتحدث عن الطب اليوناني والعربي . بل يجب أن نتحدث عنهما على أنهما يمثلان عصرأ واحداً من التفكير الطبي هو عصر الخبرة المنظمة عقلياً . وهو عصر دام عشرين قرناً . وقد نسميه طب أبقرات وجالينوس والرازي وابن سينا . وضع أبقرات كيانه ومنهجه . ثم فصله وفرع عليه جالينوس ومارسه الرازي ونسقه وأوضحه ابن سينا إيضاحاً ليس بعده مزيد . إلى أن عرف الناس العلم التجريبي .

عرف السوريان طب أبقرات وجالينوس ومارسوه عدة قرون وكانت عندهم ترجمات لكتب الطب اليونانية ولكن علمهم بهذا الطب ظل على ما هو عليه طوال تلك القرون .

ولم تعرف الأمم اللاتينية علوم الأغريق وطبهم إلا ما كان عند أهل مالراو
وكان علماً خافئاً ضعيفاً . إذ لم يكن لديهم إلا قليل من الكتب تسربت إليهم
إليهم من بيزنطة . وكان علمهم باللغة الإغريقية قليلاً وعلمهم بالفلسفة والعلوم
أقل ، فلم تنجح الترجمة في تأصيل العلوم في هذه الأمم . وظلت قاصرة
عاجزة .

أما العرب فقد عرفوا طب أبقراط وجالينوس فازدهر فيهم ونما نموا
عجيباً . وطبق الأطباء العرب العلم النظري تطبيقاً جميلاً . هذه ظواهر يجب أن
نتدبرها لأنها لم تكن مصادفة ، بل لها أسبابها ونتائجها .

كان موطن العلم السوراني بلدة جنديسابور . رحلوا إليها هرباً من اضطهاد
أباطرة بيزنطة وأساقفتها للمذهب النسطوري الذي اعتنقوه . وكانت
الامبراطورية الرومانية الشرقية في شغل بالخلافات الدينية ومحاربة الهرطقة
ووضع أسس العقيدة الصحيحة والفصل في منازعات البطارقة . شغلوا بها
كله عن العلوم والفلسفة . وبقيت الكتب العلمية في مكتبات بيزنطة بعيدة
عن متناول الباحثين خوفاً عليهم من الزيغ . واحتفظ السوراني بكتبهم
الترجمة وحملوها إلى منقاهم ، ولا نزاع في أن الطب السوراني في جنديسابور
كان أرقى كثيراً جداً من طب البلاد المجاورة بما في ذلك بيزنطة وانطاكية
والاسكندرية . ولكنه وقف عند حد محدود لأن السوراني لم يكن لهم سلطان
ولا مال . وكانت عزلتهم تمنع أن ينتشر علمهم إلا على يد قليل من الراغبين
الوافدين عليهم .

وعندنا ما يحمل على الظن بأن الترجمات السورانية اكتب أبقراط
وجالينوس لم تكن دقيقة ولا واضحة ، ولما بدأ العرب يتعلمون الطب نقلوا
عن السورانية بعض هذا العلم . والترجمات المزدوجة تدعو إلى الخلط
والغموض . ولم يلبث العرب إلا قليلاً ثم عرفوا ما في الترجمات السورانية
من ضعف ، فعدلوا عنها وأقبلوا على الكتب اليونانية ينقلونها إلى العربية
مباشرة وكان ذلك أول استقامة تفكيرهم العلمي .

ولعل ممارسة السوربان للطب لم تكن بالغة الرقي . ويقال إن طبيباً عربياً هو الحارث بن كلدة في أواخر القرن السادس تعلم الطب عليهم ولكن ما نقل إلينا عنه لا يدل على علم كبير . وقد يكون ذلك بالطبع ظناً منهم بالعلم على غير أهله أو على غير أهلهم .

وتقوم شهرة جنديسابور عند مؤرخي الطب العربي على ما أحرزه آل بختيشوع من شهرة ومجد وحظوة عند الخلفاء العباسيين . وهي أسرة عجيبة احتفظت بمظوتها عند الخلفاء على مدى قرنين . ولا نريد أن نغض من قدرهم . ولكني أعتقد أنهم يمثلون صنفاً من الأطباء كان معروفاً عند القدماء هم أطباء البلاط . هؤلاء يكون ذكائهم أكبر من علمهم . والصفات الغريبة عليهم المهارة وحسن التصرف . وكثير من الدهاء في مقاومة الدسائس وبعض الدس يقومون به لحسابهم . وكان آل بختيشوع فيهم ذلك كله . لم يغضبوا خليفة أبداً . ونجوا من نكبة البرامكة مع صداقتهم لهم . واشترك أحدهم في نكبة حنين بن اسحق . على أنه يجب أن نلاحظ أنهم لم يشاركوا كثيراً في التأليف . وذكروا أن جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع كتب كتاباً في دغل العين . والكتب في طب العين كثيرة . ولاشك أن عنايتهم بممارسة الطب كانت أكثر من علمهم بالطب النظري .

ومن أسباب شهرتهم أنهم كانوا (نصارى غرباء) وهي ظاهرة معروفة في كل عصر . ذلك أن كثيراً من الناس يحبون أن يثقوا بأطباء من غير ملتهم . وللجاحظ في ذلك قصة طريفة (١) تبين لنا سبباً جديداً لشهرة آل بختيشوع .

(١) روى الجاحظ في كتابه البهلاء قصة عن طبيب اسمه أسد بن جاني جاء فيها (وكان طبيباً فأكسد مرة فقال له قائل : السنة رديئة والأمراض فاشية وأنت عالم فلك نصبر وخدمة ولك بيان ومعرفة فمن أين يؤتى في هذا الكساد ؟ فقال أما واحدة فاني عندهم مسلم . وقد اعتقد القوم قبل أن أنطبب بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب . واسمى أسد وكان يبنني أن يكون صليبا أو مرايل أو يوحنا . وكنتي أبو الحارث . وكان يجب أن تكون أبا عيسى وأبا زكريا وأبا إبراهيم ، وعلى رداء قطن أبيض وكان يبنني أن يكون رداء حرير أسود . ولفظي عربي وكان يبنني أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور) .

وليس من شأني أن أغض من قدر أحد ولكني أقول إن طبهم لم يكن عظيماً
بالمقدّر الذي صورته مؤرخو الطب العرب . وأن فضلهم على النهضة الطبية
العربية يكاد يكون مقصوراً على أنهم نبهوا أذهان العرب إلى علم لم يكونوا
ليعرفوا عنه شيئاً : وسرعان ما ترك العرب طب السوريان . واستقلوا عنهم
وتفوقوا عليهم تفوقاً ظاهراً في التأليف والممارسة .



شهد الناس في بغداد شيئاً لم يعرفه التاريخ من قبل . شهدوا أمة فاتحة
تملي شروط الصلح على المغلوبين فتطلب إليهم أن يقدموا لها كتب العلم والفلسفة
والطب غرامة حربية ، هذا ما فعله العرب في صلحهم مع الروم ، وهذا وحده
دليل قاطع على أن العرب كانوا على استعداد لقبول هذه العلوم . وأنهم كانوا
على قدر من التقدم الفكري يسمح لهم باستيعاب هذه العلوم . بل إنني أذهب
إلى أكثر من ذلك فأقول إن التفكير العربي كان قد بلغ في تطوره حداً يجعله
قريب الشبه جداً بالتفكير اليوناني وهذا سر نموه فيهم ولو لم يكن الأمر
كذلك لبقى الطب اليوناني فيهم كما كان عند السوريان أو عند اللاتينيين
في ساليرونو .

نحيل إلى كثير من مؤرخي العلوم والفلسفة والطب عند العرب أن الحضارة
العربية كانت أرضاً جرداء حتى جاءها العلم اليوناني فرواها وأخصبها .
وهذا خطأ . فالعرب كانت لهم علومهم الخاصة بهم . ساروا فيها شوطاً كبيراً
ووضعوا لها أصولاً مستقرة ومناهج واضحة . وكان هذا من عملهم وحدهم
على غير مثال .

من ذلك علمهم بالفقه . ولعله أتم العلوم العربية وأعرقها أصالة . ولم يقل
أحد أنهم نقلوا شيئاً من عليهم بأصول التشريع عن غيرهم . ويدل تمكنهم
من هذا العلم على نضج في الفكر لم يقطن إليه من تعرضوا لتاريخ العلوم الطبيعية
وحدها عند العرب .

وكذلك علمهم باللغة والنحو والعروض . هذه علوم خاصة بالعرب

ولهم فيها بحوث عميقة وافية وقواعد مستقرة وشروح مستفيضة . وإذا كان لنا أن نعيب عليهم شيئاً في تصورهم لهذه العلوم فليس هذا راجعاً إلى بدائية في التفكير أو نقص في قدرتهم على استنباط الكليات وارغام التفاصيل على الخضوع لهذه الكليات مع ما يستدعيه ذلك من ذكاء في التخريج العجيب . هذه الصفات ليست بعيدة عن التفكير العلمي ، عند اليونان وإن اختلفت الموضوعات ، ولم ينقل العرب هذه العلوم على الأقل في أكثر نواحيها عن أحد من القدماء . وهناك علوم التفسير والحديث ، وهي علوم عربية اسلامية بحتة . وضع العلماء أصولها وفروعها وشروطها وبالطبع لم يسبقهم إلى ذلك أحد .

وليس من عملي ولا من شأني أن أحدد هنا خصائص التفكير العلمي عند اليونان والعرب ولا أن أوزان بينهما . ولكني أقول إن العرب أعدتهم علومهم الخاصة بهم ومنهجهم فيها وتقدمهم في أصولها وفروعها إلى استقبال العلوم التي لم يكن لهم بها عهد ، والتي تقوم في جوهرها على تفكير قريب جداً من تفكيرهم . ومن هنا كان النجاح الذي أحرزته الفلسفة والطب والعلوم اليونانية لدى العرب .

ويؤيد هذا الرأي أن العرب لم يأخذوا كل ما جاءهم من الحضارة اليونانية . ولم ينقلوا شيئاً من أدبهم أو شعرهم أو الدراما اليونانية . ولا تعلم إذا كانوا عرفوا شيئاً عن الميثولوجيا الاغريقية . ولكن المؤكد أنهم لو علموا بها لاستهزئوا بها كثيراً . وليس هنا مجال البحث في إعراض العرب عن فنون الإغريق وخاصة فن النحت . ولعل الدين لم يكن المانع الوحيد . ولعل العرب كانوا يطربون للمسموع من الشعر والموسيقى وما هو عقلي وجدلي أكثر من طربهم للمراثيات وهم يتحدثون أكثر ما يتحدثون عن القيان ، وقل أن يتحدثوا عن الراقصات . على كل حال لم يأخذ العرب من اليونان إلا ما وافق طريقة تفكيرهم . وليس صحيحاً أنهم تعلموا هذا النوع من التفكير بعد أن عرفوا الحضارة الاغريقية . بل الصحيح أنهم عرفوا هذه الحضارة لتوافقها مع تفكيرهم حينذاك .

ومما زاد في إقبال العرب على الطب وضوح مبادئه ونجاح وسائل العلاج القائمة على هذه المبادئ . ولم يجدوا صعوبة في التوفيق بين خبرتهم العملية والأسس الفكرية التي نقلوها فعلا عن اليونان .



لا نتعرض هنا لتاريخ الطب العربي تفصيلا . ولكن شيئا من تاريخ نموه وتطوره ضروري لمعرفة أثره في الطب الغربي .

تاريخ الطب العربي تاريخ طبيعي يشبه في جوهره تاريخ النبضات العلمية عامة : سوى أن خطواته تعاقبت سراعاً . وكان تطوره على مراحل واضحة المعالم قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة . فكانت كل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه . والتقدم العلمي في هذا التطور واضح ثابت علمياً . لا نحتاج في إثباته إلى ما روى القصاصون . وقد أكد علينا هذا التاريخ ما رواه المؤرخون العرب من نواذر لا يمكن أن تكون صحيحة (١) . وليس لها أساس علمي البتة . وأفسده كذلك مدح المادحين المسرفين الذين ظنوا أن الأطباء القدامى كانوا يعرفون من الطب ما لا نعرفه اليوم . وأفسده فوق ذلك قدح القادحين الذين ظنوا أنه كان علماً منقولاً لا حياة فيه ولا روح .

(١) روى في بعض الكتب العربية والفارسية أن الرازي جاءه مريض ينفث دماً . فسأله عن رخلته وعلم منه أنه شرب من عين في الطريق . فقدر أنه شرب مع الماء علقة . فسقاه طحلباً حتى انصرفت العلقة عن الالتصاق بجدار معدته لتأكل الطحلب وهو غذاؤها الطبيعي . ثم سقاه مقيثاً شديداً فخرجت العلقة . وشق المريض . هذا بالطبع حديث خرافة . ولكن له أصلاً . ذلك أن الرازي يروي في بعض مشاهداته أن رجلاً كان يقرء دماً . ثم استفزغ مرة استفراغاً شديداً فخرجت قطعة لحم من معدته . وقدر الرازي أن هذه القطعة كان لها ساق دقيقة انقطعت من هذه الاستفراغ . ووضح أن الحالة على هذا الوصف لا تكون إلا Polyrus وتصور الرازي لها صحيح تماماً . ولكن القصاصين جعلوا من هذه الحالة الجميلة خرافة تقوم على العلق والطحلب .

وأود أن أدلل على حياة الطب العربي وقوته بدليل بيولوجي لا يدحض وهو النمو . والمطلع على طب حنا بن ماسويه أو حنين بن اسحاق (منتصف القرن الثامن) وطب الرازي وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف أن الطب العربي كانت له حياته القوية المستقلة .



سمع الخلفاء العباسيون الأولون الكثير عن الطب اليوناني . وخبروه فوجدوه علماً نافعاً عظيم الفائدة . ورأوا أنه علم عظيم لا يليق بالأمة العربية أن تغفله . ففعلوا ما تفعله كل أمة في أول نهضتها : استقدموا الخبراء وأرسلوا البعثات إلى مواطن العلم الذي يريدون اقتباسه . فعلت مصر ذلك في أول القرن التاسع عشر . وتفعله كل الأمم الناهضة حتى الآن .

وكان الخبراء الذين استقدمهم الخلفاء العباسيون هم آل بختيشوع الذين تحدثنا عنهم آنفاً . وكان أشهر المبعوثين من العرب حنا بن ماسويه . رحل إلى جنديسابور وتعلم الطب على أهلها . والخبراء في مثل هذه الحال لا يستطيعون أن يثبتوا قواعد علمهم — ولو أرادوا ذلك مخلصين — لبعد الشقة بين علمهم وعلم أهل البلاد التي يفدون إليها . والمبعوثون لا يستطيعون لأول وهلة أن يحيطوا بكل ما يعرفه معلموهم .

هؤلاء الخبراء والمبعوثون هم أهل الطبقة الأولى من رجال الطب العربي .

الطبقة الأولى — طبقة الرواد :

أشهر رجال هذه الطبقة — فضلاً عن آل بختيشوع — حنا بن ماسويه . ولعله لم يبلغ من النجاح في العلاج ما بلغه زملاؤه من أهل جنديسابور . ترجم كتباً طبية عن السورانية . وأحسبها لم تكن جيدة لأنه نقلها عن ترجمات سورانية . ولم يلبث العرب أن تركوها وعكفوا على الترجمة من اليونانية وقيل إنه ألف كتاباً في دغل العين . وروى الرواة عن أنه شرح قرداً .

كل هذا بعيد غامض . ولعل أكبر فضل له أنه أول عربي تولى الترجمة والتأليف والعلاج . وإن لم يبلغ في أيهما مبلغاً كبيراً .

وكان طبيعياً أن يفطن هارون الرشيد إلى أهمية الطب الذي يمارسه يختيشوع ويدرسه على نحو ما يدرسه ابن ماسويه فأمر بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب اليونانية والسورانية في الطب وغيره محاولاً بذلك أن يأصل العلم في بغداد ، وأن يعلم العرب هذه العلوم فلا يكون اعتمادهم في تقدمهم على من يستقدمونهم من الأجانب .

الطبقة الثانية — عصر الترجمة :

كان هذا عصر المأمون ومن جاء بعده من الخلفاء . وكان في بغداد حينذاك ثلاثة رهط كل رهط ينسب إلى بلد بعينه وكان لكل منهم في بغداد عمل محدد . أما الرهط الأول فكان قوامه أهل جنديسابور وعلى رأسهم جبرائيل ابن يختيشوع ، كانوا أطباء البلاط ، عملهم مداواة الخلفاء والأمراء ، وكانوا على ذلك قادرين ، إذ كان في طبهم قدر كبير من الخبرة الاكلينيكية مما لم يتوفر لدى غيرهم من أطباء ذلك العصر . وكان جبرائيل مثل أبيه همه العلاج أكثر من الترجمة والتأليف . ولا شك أن نجاحه وحظوته عند الخلفاء وما نال من شهرة ومجد ، كل ذلك كان عاملاً قوياً في حمل الناس على الاهتمام بالعلوم الطبية والسعي إلى إتقانها يرجون بذلك أن يبلغوا ما بلغه جبرائيل من المجد والغنى .

أما الرهط الثاني فكانوا من أهل الحيرة وعلى رأسهم حنين بن اسحاق وهو من أكبر نوابغ ذلك العصر وكان معه ابنه اسحق وابن أخته حبيش .

أراد حنين بن اسحق أن يتعلم الطب وتتلمذ على حنا بن ماسويه . فلما تبينت له قدرته على التفقه في اللغات عكف عليها وأتقن السورانية ثم رحل إلى اليونان وحذق لغتها ثم ذهب إلى البصرة وتلقى العربية على خير علمائها . وكان طبيعياً أن يعهد إليه المأمون برئاسة بيت الحكمة ، وقام حنين بترجمة

الكتب الطبية اليونانية ترجمة متقنة دقيقة . والترجمة في مثل هذه الحالات عمل جليل يحتاج إلى كثير من الذكاء والعلم . ذلك أن المترجم لا يستطيع أن يترجم الكتب العلمية إلا إذا كان قادراً على فهم مادتها . فكان على حنين أن يفهم الطب حتى تكون ترجمته لأبقراط وجالينوس ترجمة صحيحة مفهومة . ولم يحدث هذا في صقلية والأندلس حين قام بعض المترجمين بنقل الكتب العربية إلى اللاتينية . هؤلاء لم يكونوا سوى مترجمين فجاءت ترجمتهم مشوهة مملوءة بالخطأ .

لم تكن الصعوبات التي واجهت حنين بن اسحق وزجاله الذين عملوا معه في بيت الحكمة بالشىء القليل ، كان عليه أن يترجم المصطلحات العلمية . ولم يعجزه ذلك فكان يختار الكلمات العربية للمصطلحات التي لا يتم فهمها بغير تفهم معناها كالمزاج والاختلاط والقوى والأركان . أما المصطلحات التي لا يتوقف فهمها على فهم معنى ألفاظها فقد اختار أن يعربها فعرب ليثاغورس والباسيليوس والقيفال وغير ذلك . وكان موفقاً كل التوفيق في هذا العمل . حفظ للعربية ما استطاعت أن تحتفظ به وأبقى اللغة العلمية بعيدة عن اللغة العامة فيما تتناول من أمور خاصة بها .

عرف أهل بغداد لحنين بن اسحق فضله على نهضتهم وقدره أكبر التقدير ، وبلغ من المجد العلمي غايته وأصبح المرجع الأكبر للمترجمين جميعاً . يدلنا على ذلك أن رجلاً اسمه اسطفان بن بسيل قام بترجمة كتاب ديوسقوريدس في المادة الطبية الأقربازين وعرض الكتاب على حنين فأقره . ولعل كثيراً من المترجمين كانوا يفعلون ذلك فكان إقرار حنين لترجمة كتاب ما خير دليل على صواب الترجمة . ويقال إن حنين مارس الطب والعلاج ولا أحسبه فعل ذلك كثيراً . ولا أظن أن عمله في بيت الحكمة يتيح له من الوقت والتفرغ ما يسمح له بفحص المرضى ومداواتهم . ولحنين مؤلفات طبية وأشهرها عشر مقالات في طب العين وأغلب الظن أن ذلك كان إيضاحاً

وتفسيراً لما كتب جالينوس عن أمراض العين. ولم يكن من عمل حنين أن يؤلف في الطب شيئاً يفوق ما عرفه اليونانيون وما عرفه هو عندما نقل كتبهم إلى العربية . . .

أما الرهط الثالث فكان من أهل حران وكان على رأسهم ثابت بن قرة وابنه سنان وكلاهما كان طبيباً ممارساً، ولا أظن أن ثابت بن قرة بلغ في هذه الصناعة ما بلغه أهل جنديسابور ، ولا أظنه بلغ في الترجمة شأن حنين ، ولكنه كان مع ذلك واسع الاطلاع في كل علم . ولم يقصر همه على ترجمة الكتب الطبية . نقل إلى العربية كتباً في الهندسة والفلك وكان رجلاً طليعة واعلم لم يبلغ الغاية في علم بعينه ولكن إلمامه بكثير من العلوم جعله موضع التقدير والاحترام عند معاصريه . أما ابنه سنان فكان أقدر منه وأعلم بالطب . يدلنا على ذلك أن الخليفة المقتدر عهد إليه بامتحان الراغبين في تعاطي صناعة الطب قبل أن يباح لهم علاج المرضى وهو أمر لا يعهد به إلا لكبار الأطباء الراسخين في العلم .

وليس من الإسراف أن نقارن هذه الطبقة برجال النهضة في مصر في أواسط القرن التاسع عشر . وعندى أن حنين بن اسحق يشبه إلى حد كبير رفاعة الطهطاوى في الذكاء والنشأة والدور الذى قام به في النهضة العلمية عن طريق الترجمة .

الطبقة الثالثة :

استقرت العلوم والفلسفة في بغداد ونشأ جيل من العرب فهم هذه العلوم فهماً حقاً ، وعلى رأس هذه الطبقة سنان بن ثابت وعلى بن رين . وفي عصرهما تضاعف شأن الترجمة والمترجمين ، وبدأ عهد التأليف العربى المستقل وقد بدأ متعزراً قلقاً ولكنه ما لبث أن تأصل واستقر ونما .

ولما استوثق الأطباء العرب من علمهم بالطب اليونانى وأصبحوا يتحدثون بطلاقة عن الاستقصات وإيلوس ، وعلموا أنهم أدركوا كل ما فى ذلك

انطب من أسرار . زأو أن يؤلفوا كتباً على غرار المؤلفات اليونانية لا تكون منقولة عنها . وكثير من هذا الذي نسميه تأليفاً لم يكن سوى مذكرات الطلبة ينقلونها عن أساتذتهم . وعندنا عدد كبير جداً من هذه المؤلفات الصغيرة وليسنا في حاجة إلى البحث فيها تفصيلاً : وسنقصر بحثنا على ما كتبه كبار المؤلفين في ذلك العصر .

وسنرى أن كثيراً من مؤلفاتهم الأولى تتناول طب العين . كتب فيها حنا بن ماسويه وحنين بن اسحق وثابت بن قرة وغيرهم . ولعل ذلك كان إما لكثرة أمراض العيون وإما لسهولة فحص العين ونشر يحها في الحيوان . كان أول المؤلفين العرب الذين نهجوا هذا المنهج على بن رين . ولم يتفق المؤلفون حتى على صحة اسمه . ونص ابن النديم على أن اسمه باللام لا بالنون . وقيل إنه من أصل يهودى . كتب كتابه الذي سماه فردوس الحكمة وقسمه إلى أبواب ومقالات . والذي رواه براون عن هذا الكتاب يدل على أنه لم يأت فيه بجديد . لا من ناحية التنسيق ولا من ناحية المادة العلمية . ولكنه على كل حال تأليف يدل على ثقة المؤلف بعلمه . تلك الثقة التي ظهرت واضحة عند الأطباء العرب في ذلك العصر . ولا أظن أن كتبهم كانت ترتفع إلى مستوى المؤلفات اليونانية . ولكنها كانت من غير شك شيئاً جديداً على الثقافة العلمية العربية . والنهضة العلمية المصرية فيها مثل ذلك تماماً . فبعد أن انقضى عهد الترجمة وجد الأطباء المصريين أمثال ابراهيم حسن والدرى وشكرى وكانوا على جانب كبير من الخبرة والمهارة في فنهم . ورعوا أن يؤلفوا كتباً في فنهم ، ولم تكن هذه المؤلفات في الطبقة الأولى من الكتب الطبية وكانت أقل من أن تمثل خبرتهم كلها وعلمهم الاكلينيكي . وهذا تطور طبيعي حدث في جميع النهضات العلمية المماثلة .

الطبقة الرابعة — العصر الذهبي :

الرازي أكبر رجال هذه الطبقة ، وإليه انتهى الطب الاكلينيكي عند العرب ، ولعله أن يكون أكبر الأطباء الذين نشئوا على منهج الخبرة المنظمة

عقلياً . وهو المنهج الذى بدأه أبقراط ودام عشرين قرناً . وهو ما يصح أن نسميه الطب اليونانى العربى . أو العصر الوسيط فى التفكير الطبى العالمى . وسنقف قليلاً عند الرازى . لا لنشيد بذكره بل لأن حياته تبين لنا صفات الطب العربى على أكمل صورة وأرقاها .

أعد الرازى نفسه إعداداً حسناً . درس الطب اليونانى دراسة وافية . إذ كان رأيه أن العلم النظرى أساس الطب التطبيقى ويجب أن يسبقه . فهو يقول فى كتاب الفصول (إن قليل المشاهدة المطالع على الكتب خير ممن لم يعرف الكتب على ألا يكون عديم المشاهدة) ويقول (من قرأ كتب أبقراط ولم يخدم خير ممن خدم ولم يقرأ كتب أبقراط) ويقول فى امتحان الطبيب (أول ما تسأله عنه التشريح ومنافع الأعضاء وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية فى معرفة كتب القدماء فإن لم يكن عنده فليس بك حاجة إلى إمتحانه فى المرضى) وكان كثير الاطلاع جداً وكان ينصح الأطباء بذلك . وعلل قوله تعليلاً جميلاً حيث يقول (إنما أدرك من أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية فى ألوف من السنين ألوف من الرجال . فإذا اقتدى المقتدى أثرهم صار كمن أدركهم كلهم فى زمان قصير . وصار كمن قد عمر تلك السنين) .

ومع ذلك نراه يضع قواعد للمفاضلة بين طبيب القياس وطبيب التجربة ، يقول فيها : (فينبغى للمعنى بأمر الطب أن يجمع بين رجلين : أحدهما فاضل فى الفن العلمى من الطب والآخر كثير الدرية والتجربة . ويصدر عن اجتماعهما فى أكثر الأمور . فإن اختلفا فليعرض ما اختلفا فيه على كثير من أصحاب التجارب . فإن أجمعوا جميعاً على مخالفة صاحب النظر قبل منهم . فإن الشكوك المغلطة تقع على الأكثر فى الفن العلمى النظرى أكثر منه فى التجربة . فإن لم يتهياً له إلا أحد الرجلين فليختار المحرب . فإنه أكثر نفعاً فى صناعة الطب من العارى عن الخدمة والتجربة البتة) . جمع الرازى بين الاطلاع والخبرة . ثم تولى إدارة بیمارستان العضدى الشهير فتجلت مواهبه استاذاً ومؤلفاً وممارساً .

ولاشك أنه كان أستاذاً بارعاً . كان له نظام مستقر واضح في تعليم الطب النظرى والطب الاكلينيكي . وله رأى واضح في امتحان الأطباء . ووضع نظاماً لتنسيق أسماء الأدوية باللغات اليونانية والسورانية والعربية والفارسية والهندية ومقاديرها .

كان نظام العمل في البيمارستان مستقراً ، تعرض الحالات على الناشئين من الأطباء فإن لم يعرفوها عرضت على من هم أكبر منهم ، فإن عجزوا عن تناولها عرضوها على الرازي . وكان يبدى رأيه في هذه الحالات صعبة مسبباً وكان يدون رأيه في التشخيص والعلاج . ويدون تلاميذه ذلك أيضاً .

وكان له نظام مستقر في تعليم الطب النظرى . فتراه يقول : (اطلب من كل مرض هذه الرعوس : التعريف أولاً ومثاله أن تقول : إن ذات الجنب هو اجتماع حمى حادة مع ونخ في الاضلاع وضيق في النفس وصلابة في النبض وسعلة يابسة منذ أول الأمر . ثم اطلب العلة والسبب . ومثال ذلك أن تعلم أن سبب ذات الجنب ورم حاد في ناحية الغشاء المستبطن للأضلاع . ثم اطلب هل ينقسم لسببه أو نوعه أم لا مثال ذلك أن تقسم ذات الجنب إلى الخالصة وغير الخالصة ... ثم اطلب تفصيل كل قسم من الآخر ثم العلاج ... ثم الاستعداد ... ثم ...) .

وله رأى واضح في المتعنتين من الممتحنين للأطباء فيقول : (إن الذى يروم من الطبيب أن يبين له بالنبض بين الرجال والنساء والخصيان والصبيان قد طلب أمراً غير ممكن في الأكثر ... وكذلك أرى أن الممتحن للطبيب بالفرقة بين ماء الإنسان وبعض المياه التى شبهت به جاهل) .

أما الرازي المؤلف فيجب أن نعرف له نوعين من التأليف : كتبه في العلم النظرى واضحة منسقة مبوبة ، وكتب في الطب الاكلينيكي وهى مجموعة مشاهداته وهى بطبيعتها ليست مقسمة إلى أبواب . وقد عاب عليها

اضطرابها والخلط الواضح فيها من ظنوا أنها كتب في علم الطب . وليست
من هذا في شيء .

ذكر الرازي في أول كتابه الفصول سبب تأليفه له (دعاني ما وجدت
عليه فصول أبقرات من الاختلاط وعدم النظام والغموض والتقصير عن ذكر
جوامع الصناعة كلها أو بعضها . وما أعلمه من سهولة حفظ الفصول وعلقها بالنفوس
إلى أن أذكر جوامع الصناعة الطبية وجمالها عن طريق الفصول ... ليكون
مدخلاً إلى الصناعة وطريقاً للمتعلمين ، ويقول عن جالينوس : (كتب الفاضل
جالينوس ستة عشر مقالا في النبض . وقد جمعنا نحن أيضاً باختصار معاني
هذا الكتاب . وطرحنا عنه ما حسبنا أنه يستغنى عنه) ويعيب على أبقرات
غموضه وإيجازه . ويعيب على جالينوس إطنابه البالغ . وقد ردد تلميذه
على بن العباس هذا الرأي في أول كتابه كامل الصناعة .

على أن مجد الرازي يقوم في الواقع على علمه بالطب العملي وخدمته فيه .
وما ابتدعه من تدوين المشاهدات والتعليق عليها . وهو عمل لم يسبق إليه
من قبل . جمع ذلك كله في كتابه الحاوي . وإذا قدرنا أن الحاوي ليس كتاباً
بالمعنى المأوف وأنه ليس إلا سجلاً لمشاهداته فلن نجد غرابة في ضخامته
ونقص ترتيبه واختلاف أسلوبه . فقد كان هو وتلاميذه يدونون المشاهدات
كما اتفق أن عرضت عليهم دون ترتيب خاص .

ولا أريد أن أعرض هنا لطب الرازي ومشاهداته ودقتها فإن هذا ليس
من غرض هذه الرسالة . ثم إن الحديث يطول . ولكنني أؤكد للقارىء أنه حديث
ممتع وأنه يحسن أن يرجع إلى ما نشر من هذه المشاهدات والدراسات
التي دارت حولها . ويكفيني هنا أن أشير إلى خصائص الرازي من حيث
هو طبيب . معالج .

من أظهر صفاته استقصاؤه أعراض المريض . وهو يغضب غضباً شديداً
عندما يخطئ . ويكون خطؤه راجعاً إلى نقص في سؤال المريض ويقول

عند ذلك (يجب : ألا تغفل غاية التقصى) . ومن جميل قوله أنه يضع ترتيباً للعلامات على قدر أهميتها وهو ما نسميه هيرارشية العلامات . وهو يقول ان العلامات تختلف في دلالتها على قدر وقت حملوها من تاريخ المرض . وهو يكبر أمر مقدمة المعرفة ويضع لها قواعد فنراه يقول : (أجمع العلامات الحيدة والرديئة بمراتب قواها في ورقة وأرقبها دواماً) . وله عناية خاصة بالتشخيص المقارن . وله قول جيد في أمراض الجهاز البولي والقولنج والحميات وهو أول من فرق بين الحصباء والحدري .

وليس لنا أن ننسب إلى الأطباء العرب معرفة بالعلم التجريبي كما نعرفه اليوم . ولكن الرازي في بعض أقواله يدل على فهمه لبعض أسس التجربة بالمعنى الحديث . والقديما حين يتحدثون عن التجربة إنما يعنون الخبرة . فنراه يقول : (فمتى رأيت هذه العلامات فتقدم في القصد . فإني قد خلصت جماعة به . وتركت متعمداً جماعة ، استندى بذلك رأياً . فرسموا كلهم) هذا القول يدل على إدراكه معنى ال Controls في العلم التجريبي . وان يكن إدراكاً غامضاً .

ولا بد أن نشير هنا إلى أن كتاب الحاوي ترجم إلى اللاتينية وسمى Conitnens ولعلمهم لم يفيدوا منه كثيراً لأن علمهم النظري لم يكن بالقدر الذي يسمح لهم بتفهم الطب الاكلينيكي ولم يكن عندهم من العلم بالمرضى والأمراض ما يسمح لهم بمعرفة فضل هذا الكتاب .

ثم جاء على بن العباس المجوسي ، وهو من تلامذة الرازي فوجد لديه علماً نظرياً غزيراً وعلماً عملياً مستقراً . فبدأ له أن يؤلف كتاباً جامعاً في الطب يكون أوضح من كتب أبقرات التي كان اختصارها سبباً في غموضها . ويكون أقل اطناباً من كتب جالينوس وهذا تطور طبيعي في تقدم الطب . ذلك أن كتب المراجع لا تكون لها قيمة إلا أن تكون مصداقاً لخبرة مستقرة وعلم غزير . وليس تأليفها بالأمر الهين لما تحتاج إليه من حسن الاختيار

والتبويب والتنظيم . وخاصة ما يجب على مؤلفيها من تحديد ما هو نافع دائماً
فيؤكدونه ، وما لا ينفع إلا نادراً فيتركونه .

كتب علي بن العباس كتابه كامل الصناعة وهو كتاب جيد ولعله كان أول
كتاب عربي كبير ترجم إلى اللاتينية حيث عرف بالكتاب الملكي Liber Regius
ومن سوء حظ هذا الكتاب أن كان من قبيل كتاب القانون لابن سينا الذي كتب
بعده بمدة غير طويلة . فاهمل الناس كتاب بن العباس اكتفاء بكتاب القانون ،
مفضلين هذا على الكتاب الملكي . ولا أحسبهم مخطئين في ذلك .

ثم جاء ابن سينا وهو من أذكى العالم وكتب كتاب القانون . وكان
لابن سينا على الأطباء فضل أنه فيلسوف ممتاز . وكان له على الفلاسفة فضل
أنه طبيب ممتاز أجمع في كتابه بين أسلوب الفلسفة وحقائق الطب . والواقع
أن العرب كان فيهم الأطباء الفلاسفة والفلاسفة الأطباء ، ولا أريد أن أغض
من قدر الفلسفة عند الأولين ولا من قدر الطب عند الآخرين . ولكني أقول
إن الفريق الأول كان شغلهم الشاغل التشخيص والعلاج والتفريق بين الأمراض
المتشابهة وحسن تدبير المرضى . وتجنب الأخطاء في ذلك كله . يلتزمون ذلك
عن طريق التفكير المنظم والفريق الثاني كان أكبرهم تنسيق الحقائق واستقامة
المنطق وربط الأسباب بالمسببات وصدق التقسيم والتبويب ووضوح ذلك كله .
يؤكدون أموراً قد لا يعنى بها الطبيب في عمله حين يرون ذلك ضرورياً للعرض
المنطقي الكامل .

وابن سينا بلغ الغاية في الفلسفة والطب . ولكنه مع ذلك كان أكثر ميلاً
بطبعه إلى الفلسفة . ومن هنا كان كتابه مقبولا عند المفكرين والممارسين
على حين أن كتب الرازي كانت أكثر قبولا عند الممارسين خاصة . ولعل
ابن سينا لم يتفرغ لفحص المرضى واستنباط خير علاج لهم . ولا يعنى ذلك
أن علمه بالطب كان ناقصاً . ولكنه يعنى أن تصوره للطب كان تصوراً يليق
بفيلسوف مثله . ولعله كان يرى ما كان يعتقد أنه أكثر الناس إلى عهد قريب

أن ثقافة الطبيب الممارس ثقافة مهنية . وأن فلسفة الطب أصدق وأرق من ممارسته .

وكتاب القانون من الكتب العالمية . مثله كمثل فلسفة أرسطو . وهندسة أوقليدس والماجسطي في الفلك وكتاب سيبويه في النحو . هذه الكتب تمثل غاية العلم القائم على نوع بعينه من التفكير . فيها حل لكل المشاكل المتعلقة بموضوعها بحيث لا يجد معاصروها (تفكيراً) حاجة إلى الزيادة فيها أو تغييرها . وهذه من خصائص العلم القديم القائم على كليات محدودة . فكان من الممكن للعباقرة أن يبلغوا غايته . أما العلم الحديث الذي يقوم على مشاهدات وتجارب لا نهاية لها فمن الصعب أن يستوعبه عقل رجل واحد .

وقصرنا بحثنا حتى الآن على المؤلفات الطبية ، ولا يصح أن نهمل ما حققه المشتغلين بالعقاقير . فقد بدءوا هم كذلك بترجمة ديوسقوريدس ثم فاقوه . جاب العشابون الغرب الأمصار يصفون نباتاتها وخواصها . وكتبت كتب جيدة في الأقربازين أشهرها ما كتبه ابن البيطار وداوود الأنطاكي .

ولندكر أن نهضة طبية مماثلة قامت في الأندلس وتطورت على غرار طب الشرق سوى أنهم عنوا عناية خاصة بالجراحة وكتب فيها الزهراوى كتباً قيمة وصف فيها آلات جراحية من اختراعه ووصف عمليات كثيرة وصفاً دقيقاً كالشق والكى والفصد وتفتيت الحصى .

ومع أن الطب العربى لم يتقدم كثيراً بعد ابن سينا وكتابه إلا أن فن العلاج في بیمارستانات ظل يتقدم وتحسنت حال المرضى في هذه المؤسسات وغنى بها الأمراء والأطباء فبلغت مبلغاً يتحدث به الرحالون .

ويلاحظ في النهضات العلمية أنها حين تبلغ الكمال تظهر فيها علامات تدل على انثورة على تعاليمها الكلاسيكية . ويبدأ الانتقاض عليها بالشك في بعض مسلماتها وقد حدث بعد عهد ابن سينا أن قال عبد اللطيف البغدادي أن جالينوس أخطأ في قوله أن الفلك الأسفل عظمتان وهو لا يكون إلا عظمة

واحدة ، وقال ابن النفيس أن جالينوس أخطأ في قوله أن بين البطين الأيمن في القاب والبطين الأيسر فتحة صغيرة أو فتحات صغيرة . ووصف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى وصفاً صحيحاً مخالفاً في ذلك ما قال به الناس جميعاً من قبله . وليست هذه أول مرة يخطئ فيها العرب جالينوس . ولكن اعتراضهم عليه كان في الغالب في أمور العلاج الطبي حين كانت خبرتهم تختلف عما قال به جالينوس . أما أن يكون جالينوس مخطئاً في وصف حقائق التشريح فذلك كان جرأة لم يقدم عليها أحد من قبل .



كانت هذه حال العلوم الطبية في الامبراطورية العربية الممتدة من فارس إلى الأندلس مدى سبعة قرون . ولم يعمل العرب على نشر علومهم في البلاد المحيطة . ولكن الأمم اللاتينية سمعت بتقدم الطب عند العرب وعلمت عنه الشيء الكثير . فجاءوا إلى البلاد العربية يتعلمون فيها الطب على يد المشاهير من أساتذة هذا الفن العظيم ...

اتصلت الأمم اللاتينية بالحضارة العربية في ثلاثة مواضع . في الشرق أثناء الحروب الصليبية ، وفي صقلية وفي الأندلس . وتم هذا الاتصال في عصور مختلفة ، وكان طبيعياً أن تفيد الأمم اللاتينية من الحضارة المزدهرة حينذاك . ولكنهم لم يفيدوا كثيراً من الثقافة بالعرب في أثناء الحروب الصليبية . وفي صقلية كان أثر العلوم العربية أكبر . ولكنه كان مضطرباً مشوشاً . أما في الأندلس فكان الاتصال وثيقاً نافعاً على ما فيه من شوائب .

الحروب الصليبية :

جاء الصليبيون إلى الشرق وهم يحسبون أنهم سيلقون فيها قوماً كئيباً جهلاء ودهشوا غاية الدهشة حين وجدوا المسلمين يفوقونهم علماً وحضارة . ورأوا من كرم العرب وسمو أخلاقهم ما جعلهم يشيدون بهم بعد حين ، رغم ما كان بينهم من عداوة عارمة .

ثم حملتهم الحاجة على أن يلجئوا إلى الأطباء العرب ، ولم يكن ذلك لأن في الشرق أمراضاً لا علم لأطبائهم بها فحسب . بل كان ذلك من غير شك لما ثبت لديهم من تفوق الأطباء العرب في جميع فروع الطب . واتخذ أمراء الفرنجة أطباء من نصارى العرب فكان لعمودي (عطريق الأول) طبيب اسمه سليمان بن داود وحلدا حنوه كثيرون من كبار الفرنجة .

وقد روى مؤرخو الحروب الصليبية قصصاً كثيرة تدل على جهل الفرنجة بالطب وتفوق العرب فيه . من ذلك قصة عطريق الأول حين أصيب بالمدوسنطاريا واعتراه من جراء ذلك ضعف شديد وبلغ به الضعف أن اضطروا إلى حمله على نقالة حين أراد الرحيل إلى القدس . ورفض طبيبه العربي أن يفصله أو أن يعطيه مسهلاً . لما ثبت عندهم من تعاليم الرازي أن ضعف القوة أربأ العلامات ، أما طبيبه الفرنجي ففعل به ذلك فمات من غده وكان ذلك في يولييه ١١٤٧ م ..

وروى أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار قصة جاء فيها « أن صاحب القنيطرة وهو من أمراء الفرنجة طلب إلى عمى أن يبعث إليه بطبيب عربي . فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا ما أسرع ما داويت المرضى . قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففجحت الدملة وصاححت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب فرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم وقال للفارس : أيما أحب إليك نعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . قال أعيش برجل واحدة . قالوا أحضروا لي فارساً قوياً وفارساً قاطعاً . فحضر الفارس والفارس وأنا حاضر . فمخط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجلاه بالفأس ضربة واحدة واقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مع الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . الحلقوا شعرها فحلقوه . وغادت تأكل من مآكلهم : الثوم والخردل .

فأخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس . وحكه
بالمح فماتت في وقتها . فقلت لهم بقي لكم إلى حاجة . قالوا لا فجئت وقد تعلمت
من طبهم ما لم أكن أعرفه » . على أن أسامة وهو من المؤرخين القلائل
في ذلك العصر الذين يتصفون بالانصاف يذكر حالات مستعصية نجح فيها
أطباء الفرنجة . فهو يروى أن مريضاً بالعقد الحنزية المتقيحة شفاه طبيب
أفرنجى بالرصاص المحرق المربوب بالسمن ، وهذا بالطبع لا يمكن أن يكون
صحيحاً .

عاد الصليبيون إلى بلادهم ولم ينقلوا إليها شيئاً من طب العرب رغم
ما كانوا يعرفونه يقيناً من تفوقهم فيه . ولا غرابة في ذلك . فالمحاربون
من الصليبيين كان أكثرهم من ذوى الحرف الذين لم يكن لهم حظ من الثقافة .
وكان بعض أمراءهم مثقفين . ويقال أن همفري الرابع كان يعرف العربية .
وأن رينالدو صاحب صيدا درس الإسلام إلى حد ما . وأن بلدوين الثالث
(ويسميه العرب بغدوين) وعطريق الأول كانا على جانب كبير من الثقافة .
وأغلب الظن أنها كانت ثقافة بسيطة من النوع الرشيق الذى يستطيعه النبلاء .
ولم يعن بالعلم العربى إلا القليلون . منهم جيمس المنسوب إلى فيتزى الذى
كتب كتاباً تحدث فيه عن بعض العلوم العربية . وذكر رأى العرب فى الزلازل
وغيرها . ولم يكن بينهم عالم حقاً إلا ويليام الصورى (نسبة إلى بلدة صور)
وهو من أكبر مؤرخى القرون الوسطى . ويدل على عدم عناية الصليبيين
بالعلم أنهم مع طول إقامتهم لم تكن لهم مدارس يعلمون فيها أبناءهم .
وويليام الصورى ولد فى الشرق ولكنه تعلم فى أوروبا .

يتبين من ذلك أن الصليبيين لم يعملوا ما عمله أهل صقلية وسالرنو .
الذين نقلوا كتب الطب العربية إلى لغتهم . وقد يكون ذلك لأنهم كانوا
مشغولين بالحروب . وإن كان الواقع أنه كانت هناك فترات طويلة من السلم
كان الفرنج يستطيعون فيها أن يلموا بالطب العربى . وعندى أن قصورهم
عن هذا العمل يرجع إلى أن نقل العلوم من أمة إلى أخرى لا يتم إلا أن يكون

بين الأمم تقارب في مستوى الثقافة ونوعها. ولم يكن عند الصليبيين قدر كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية ومع حاجتهم إلى الطب فإنهم لم يريدوا أن يتعلموا منه ما لم يكونوا يعرفون. ولو أرادوا ذلك ما استطاعوه.

صقلية وسالرنو :

فتح العرب صقلية في أوائل القرن التاسع الميلادي وحكموها نحو قرنين. في ذلك العصر كانت الحضارة في سالرنو وبالرمو (صقلية) مزيجاً من الثقافة العربية واللاتينية والافريقية. وكانت الصدارة بالطبع للثقافة العربية وخاصة أن تفوق العرب في العلوم عامة والطب خاصة كان واضحاً كل الوضوح. ولما زالت دولة العرب وجاء الحكم النورمان ظلت الثقافة العربية قائمة. وعنى النورمان بالعلوم العربية وخاصة ما كهمهم الشهير فردريك الثاني الذي كان يعرف العربية ويخاطب بها ضيوفه من العرب. وكان أعجوبة زمانه علماً وحكمة وسياسة وكان يشجع العلماء من كل جنس لا يفرق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي.

وكانت الصلات وثيقة جداً بين شمال إفريقيا وصقلية وسالرنو. وكانت العلوم في شمال إفريقيا في ذلك العصر مزدهرة إلى حد كبير. ولعلها لم تكن تقل كثيراً عن علوم الشرق. وكان كثير من المعنيين بالطب في تلك المنطقة من اليهود وأشهرهم اسحاق بن سليمان الإسرائيلي (توفي سنة ٩٣٢) نشأ هذا الطبيب في مصر وعاش أكثر عمره في القيروان. ونبغ من تلاميذه ابن الخزار واشتهر من الأطباء موسى بن ميمون وكان طبيب صلاح الدين. ومن علماء ذلك العصر أبو منصور الهروي وماسويه المارديني وكانا من العارفين بعلم العقاقير. ومن علماء ذلك العهد عمار الموصلي وعلي بن عيسى مؤلف تذكرة الكحالين وكلاهما رمدى. وألف ابن رضوان المصري كتاباً مفيداً اشتهر في ذلك الوقت سماه شرح الصناعة الصغيرة لحالينوس. وكتب ابن جزلة كتاباً طبياً على نحو لم يكن معروفاً من قبل، حيث وضع للعلاج السريع جداول

إجمالية يسهل على الطبيب مراجعتها . وإنما ذكرت هؤلاء المؤلفين بأسمائهم لأن كتبهم ترجمت إلى اللاتينية وكان لها أثر كبير في نهضة الطب في البلاد اللاتينية .

كانت في سالرنو حركة علمية تحاول أن تترجم الكتب الاغريقية إلى اللاتينية ولم توفق هذه الحركة في إحياء العلوم في سالرنو . وأعتقد أن ذلك لم يكن لقلة الكتب اليونانية أو لضعف علماء ذلك البلد في اللغة اليونانية فحسب . بل لعل أكبر ما عاق تقدم العلوم الغربية من هذا الطريق أن الأمم اللاتينية لم تكن معدة عقلياً لاستقبال العلوم اليونانية مباشرة .

وكانت في شمال افريقية حركة علمية تدور حول نقل الكتب الطبية العربية إلى العبرية ولعل ذلك كان لكثرة عدد اليهود في شمال افريقية أو لعنايتهم الخاصة بالطب أو لسهولة الترجمة من العربية إلى العبرية على يد اليهود . أما النقل من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عن طريق العبرية فكان يقوم به في أغلب الظن مترجمون مختلفون يتعاونون فيما بينهم ، كل فيما يحسنه على هذا العمل الشاق .

ومن عجائب التاريخ أن حركة النقل هذه ، وهي حركة على أكبر جانب من الأهمية في تاريخ العلوم والطب دارت كلها حول رجل لا تؤهله كفايته وحده لمثل هذا العمل . ذلك هو قسطنطين الإفريقي . وقد دلت البحوث المستفيضة التي قام بها مؤرخو العلوم أخيراً على أن قسطنطين لم يكن عالماً باللغة العربية علماً واسعاً ولعله لم يرحل إلى الشرق كما كان يقول . وعلمه باللاتينية ضعيف ولم يكن على علم خاص بالطب . ولم يكن صادقاً في نسبة الكتب إلى واضعها . ومن عجب أن يكون مثل هذا الرجل أكبر عامل على تقوية الحركة العلمية في سالرنو . ولعله لم يكن مصدر هذه الدعاوى العريضة لنفسه . ولعلها أمور نسبها إليه من جاءوا بعده وكانت هذه سنة شائعة بين المؤلفين حينذاك ، وأغلب الظن أنه استعان بمن يعرفون العربية والعبرية واللاتينية خيراً منه . ولعله استعان كذلك بمن يعرف الطب خيراً منه .

والذى لا شك فيه أن ما عمله قسطنطين الإفريقى (١٠٢٠ / ١٠٨٧ م) كان عملاً جليلاً بالنسبة إلى الأمم اللاتينية مهما تكن كفايته لهذا العمل . وأجل أعماله أنه ترجم كتاب على بن عباس المحوسى وهو المعروف بكامل الصناعة أو الكتاب الملكى وسمى باللاتينية Liber Regius وترجمة هذا هذا الكتاب فتح فى تاريخ الطب اللاتينى . ولعله كان أول شرح واضح مستقيم للعلم الطبى عامة . ولم تكن ترجمة قسطنطين خيراً ترجمة . وقد قام اسطفان الأنطاكى وهو ممن رحلوا إلى الشرق فى الحروب الصليبية بترجمة أخرى للكتاب فى سنة ١٢٤٧ م .

وأذكر أن أحد الباحثين قال إن الأمم اللاتينية عرفت الطب اليونانى وفوقه ضباب الطب العربى . وهذا عجيب لأن الواقع أن الضباب كان مخيماً على الطب اليونانى الذى لم تستطع الأمم اللاتينية أن تعرفه حقاً لما كان فيه من غموض عليهم ولما كان فيهم من قصور عن الإلمام به . ولا يشك أحد أن العرب هم الذين رفعوا الضباب عن الطب اليونانى . وهم الذين أوضحوا غوامض هذا الطب وشرحوه وطبقوه وعلموه لغيرهم ولا يقول أحد يعرف تطور الطب العربى أنه أحاط الطب اليونانى بضباب !

أفادت الأمم اللاتينية كثيراً من حركة الترجمة التى قام بها العلماء فى سارننو وصقلية وكان أثرها فى النهضة الأوربية أكثر كثيراً من أثر الاتصال بين العرب والفرنجية فى الحروب الصليبية . ومع ذلك فما زلت أعتقد أن الأمم تفيد من نقل العلوم إليها بقدر ما يسمح به نموها العقلى ونضج التفكير عندها ولم يكن نمو التفكير العلمى بالغاً فى الأمم اللاتينية . فكان أثر الطب العربى فيهم محدوداً وسنرى أن نقل العلوم العربية من الأندلس إلى الغرب كان أبعد أثراً مما تم فى صقلية .

الأندلس :

كان للحضارة العربية فى الأندلس بريق نخب الباب معاصريها . وكان

لمظاهر المدنية فيها رواء لم يخطئه أحد من جيرانهم . على حين كانت الحضارة في المشرق عريقة أصيلة . والحضارات العريقة كثيراً ما ترزح تحت ثقل ماضيها المجيد يحدد خصائصها الأسس العميقة التي تقوم عليها . وهذه الأسس قد لا يكون تغييرها سهلاً ولا مرغوباً فيه .

وكان العداء بين العرب ومن يليهم من الأمم اللاتينية شديداً . والحروب مستمرة . والخلافات السياسية على أشد ما تكون . ولم تمنع هذه العداوة من تبادل الفلاسفة والعلوم والطب بينهم . وللمؤرخ أن يتساءل هل أراد العرب هذا التبادل اثباتاً لتفوقهم وتباهياً به . أو كان الحافز عليه رغبة الأمم اللاتينية في منافسة العرب ونزع سلاح تفوقهم الفكري فيكون ذلك وسيلة للتفوق عليهم حربياً وسياسياً . أم كان ذلك أثراً طبيعياً للجوار بين حضارتين إحداهما فتية والأخرى ضعيفة مهلهلة . وللمؤرخ أن يسأل من الذي شجع المترجمين ومن هم الذين أمدهم بالمال اللازم لذلك ولم يكن على العرب لأن يقوموا بمثل هذا . ولعل للكنيسة شأناً كثيراً في تشجيع التبادل على شدة العداء بينها وبين المسلمين . وكان أحد كبار العاملين في هذا التبادل جربرت الذي أصبح بعد ذلك البابا سيلفستر الثاني . وكان دون ريموندو أسقف طليطلة قد جمع فيها العلماء من العرب والمسيحيين واليهود وأمر بعمل الترجمات وأدخلها في مناهج المدارس المسيحية . وبلغت حركة التبادل العلمية أوجها في طليطلة في منتصف القرن الثالث عشر تحت حكم الفونسو . ولم تكن قطاونية أقل منها في هذا الشأن . وامتد النفوذ الفكري لهذا البلد حتى موندليه .

لم تكن حركة التبادل العلمي بين العرب واللاتينيين وحركة الترجمة من العربية إلى اللغات المجاورة نتيجة لتسامح المسيحيين حينذاك ولا أحسب أن اشتراك الكنيسة في هذا العمل يرجع إلى تسامحها مع المسلمين وإنما كان الاقبال على نقل الحضارة العربية إلى الأمم اللاتينية نتيجة مباشرة ودليلاً قوياً على اعترافهم بتفوقها . وعلى رغبتهم في الاستفادة منها . والتغلب على العرب في أقوى نواحيهم وهي الثقافة .

اتخذ الغربيون السبيل الطبيعي لتحقيق نقل العلوم العربية إليهم وهو طريق الترجمة . وكان نجاحهم فيها أكثر شمولاً وأعمق وأدق وأكثر وضوحاً من الترجمات التي تمت في سالرنو . وذلك لعدة أسباب . منها أن حضارة الأندلس كانت في أغلب الظن أكثر جودة وقوة من حضارة شمال افريقية . وكان العلماء المترجمون أقدر على فهم العربية واللاتينية وعلى معرفة العلوم نفسها من مترجمي صقلية . ولعل من أسباب ذلك أن رغبة الغربيين في تعلم العلوم كانت لها دوافع سياسية واجتماعية تجعلها ماسة عاجلة . ومع ذلك لم تخل حركة الترجمة هذه من عيوب سابقاتها . لكثرة ما فيها من التراجم المزدوجة فكانت تنقل الكتب إلى لغة قشتالة ومنها إلى اللاتينية . وكان بعض المترجمين قليلي العلم بموضوع الكتب التي ينقلونها . والا فكيف نفسر ترجمة باب الصداق في كتاب القانون إلى Soda كأنها مصطلح طبي خاص ، وكذلك باب العشق ترجموه إلى اللاتينية Ishaak كأنه مصطلح . ومن العجيب أننا لا نرى خلطاً طائفاً في ترجمات حنين ابن اسحاق وغيره للطب اليوناني في بغداد . وإن كان قد وقع بعض الخلط والغموض في الترجمة من اليونانية إلى السورانية ثم منها إلى العربية .

وقد نغفر للغربيين مثل هذه الأخطاء فإن عملهم كان كبيراً والعلوم التي نقلوها متنوعة جداً . وقد عُدَّ بعض المؤرخين سبعة وثمانين كتاباً ترجمها جبرارد الكريموني . وليس من المستطاع أن تكون كلها على وتيرة واحدة . وجبرارد هذا يمثل غالبية المترجمين في ذلك العصر . وكان له أضرار كثير من ليس من غرض هذه الرسالة أن نذكرهم بأسمائهم . وكان من غير شك أقدر من قسطنطين الأفريقي وأعزر علماء وأكثر صدقاً وكان على رأس مدرسة كالتى أنشأها حنين بن اسحق وثابت بن قرة في الشرق . كانت الحركة شاملة . ولا أحسب كتاباً عربياً ذا قيمة لم يترجمه المترجمون في ذلك العصر . ترجموا الكتب الطبية الشهيرة وغيرها مما هو أقل شهرة . وعنوا كثيراً بكتب العقاقير لابن البيطار والهروى وماسويه المرديني (١٠١٥)

وكان كتابه مشهوراً جداً عندهم . وكذلك ترجمة كتب علي بن عيسى وعمار الموصلي في العيون أما كتاب علي بن العباس Liber Regius ، كتاب القانون Cannon وكتاب الحاوي للرازي Continens وكتاب المنصوري . فقد نالت عناية فائقة وترجمت ترجمة ظلت كلاسيكية تدرس في جامعات أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر على الأقل (١) .

والآن وقد ذكرنا مجمل تاريخ الطب العربي وكيف انتقل إلى الغرب . وكيف كانت البلاد اللاتينية متعطشة إليه . فقد يرى القارىء أن يسأل كما سأل غيره من قبل عما أضاف العرب إلى الطب اليوناني . وهل كان كل فضلهم أنهم نقلوه . والسؤال على هذا الوضع يعنى المؤرخين أكثر مما يعنى الأطباء . فالمؤرخون هم الذين يعنون بالتوزيع القومى . على حين أن الأطباء لا يعنيههم إلا التطور العام للطب وخطوات تقدمه .

ومؤرخو الطب اتبعوا المؤرخين في التقسيم القومى لتطور العلوم الطبية . وهذا خطأ لأن طبيعة العلوم الطبية تجعل التقدم فيها عالمياً لا يتعلق ببلد بعينه . ومؤرخ الطب يجب أن يضع نصب عينيه الأمور التى يعنى بها الأطباء . ونحن ندرس ذلك التاريخ لأن العلم بالطب الحاضر لا يتم إلا أن نعلم ماضيه مهما يكن موطن هذا الماضى . والذين لا يعرفون تاريخ الطب يظل عملهم ناقصاً كأنه حرفة ويعيننا من تاريخ الطب أن نتبين ما كان عند القدماء من حسن التدبير وصدق الرأى . ولا أعنى بذلك أن علمهم كان أكبر من علمنا . ولا أننا يجب أن نقلدهم . ولكن يجب أن نعلم كيف كان فهمهم للمرض والمرضى وكيف كان تصرفهم في العلاج على قلة ما كان لديهم من وسائله وفي ذلك متعة كبيرة لنا .

(١) يحسن أن نذكر هنا بعض الاسماء العربية كما حرفها الغربيون في الترجمات اللاتينية .
علي بن العباس Haly Abbas ابن الجزار Algizar ماسويه المارديني Messue Junior
الموصلي Jesu Haly علي بن عيسى Ganamusli

ومع ذلك فلنذكر بعض ما أضافه العرب إلى الطب اليوناني : وهو كثير جداً وليس كله في المصنفات والذي يطلع على طب الرازي ووصفه للمشاهدات الطبية وطريقة تدبير ما عرض له من مشاكل لا يشك في أنه كان أعظم طباً من سابقيه جميعاً لا تستثنى من ذلك أبقراط ولا جالينوس .

لم يحدث العرب جديداً في فلسفة الطب ولا في الكليات التي قام عليها . وظلوا على إيمانهم بالآخلاق والقوى والأمزجة ما دامت كافية لإيضاح ما يريدون استيضاحه ولم يكن عليهم أن يحدثوا جديداً فيما هو حق ولا فيما هو صحيح في خبرتهم .

والجديد في علمهم بالتشريح قليل من غير شك لأنهم لم يقوموا بالتشريح إلا نادراً . ولكننا نذكر من بين ما خالفوا فيه جالينوس قصة الفك الأسفل الذي قال عنه جالينوس أنه قطعتان وأكد عهد اللطيف البغدادي أنه لا يكون إلا قطعة واحدة .

على أن أكبر ما عمل العرب في التشريح ووظائف الأعضاء هو ما عمله ابن النفيس في شرح الدورة الدموية الصغرى . والكشف مشهور ولكن أرى أن نذكر نص كلامه هنا (١) .

« والذي نقول والله أعلم أن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح وهي إنما تكون من دم رقيق جداً وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الحرم المختلط منها وذلك حيث تولد الروح وهو التجويف الأيسر من تجويف القلب . ولا بد في قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصالح لمخالطة الهواء فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتها جسم متشابه الأجزاء وهذا التجويف هو التجويف الأيمن من تجويف القلب . وإذا لطف الدم في هذا التجويف فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح . ولكن ليس بينهما منفذ فإن جرم

(١) نقلا عن كتاب خير الله في تاريخ الطب العربي .

القلب هناك مصمط ليس فيه منفذ ظاهر كما ظن ذلك جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس . فإن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ من الوريد الشرياني إلى الرئة ليثبت في جرمها ويخالطه الهواء ويتصفي اللطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدي ليوصل إلى التجويف الأيسر من تجويف القلب وقد خالط الهواء وصالح لأن يتولد فيه الروح . وما بقي منه أقل لطافة تستعمله الرئة في غذائها . وقال بن نقيس في كلامه عن تشريح الرئة ما يأتي : « وأما الرئة فإنها مؤلفة من أجزاء أحدها شعب القصبة والثاني شعب الشريان الوريدي والثالث شعب الوريد الشرياني . ومجموعها لحم رخو متداخل أما حاجة الرئة إلى الوريد الشرياني فلأن ينقل إليها الدم الذي قد لطف وسكن في القلب ليختلط ما يرشح من ذلك الدم في مسام فروع هذا العرق في خلل الرئة بهواء الذي في خللها ويمتزج به فيكون من الحملة ما يصلح ليكون روحاً حصل ذلك المجموع في التجويف الأيسر من تجويف القلب وذلك بإيصال الشريان الوريدي لذلك المجموع إلى هذا التجويف وأما حاجة الرئة إلى الشريان الوريدي فإنه ينفذ فيه هذا الهواء المخالط لذلك الدم ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويف القلب فيصير من هذا المجموع الروح » .

ولما تكلم عن تشريح القلب ووظيفته قال « انفل القلب كما بيناه أولاً أن يولد الروح الحيواني وتوزعه على الأعضاء لتحيا وتوليد ذلك بان يسخن الدم ويلطف حتى إذا خالطه بما في الرئة من الهواء أصلح ذلك المجموع لأن يصير روحاً حيوانياً . فلذلك لا بد من أن يكون اغتذاء الروح الذي فيه القلب بان يلطف الدم في القلب ويرق قوامه جداً ثم بعد ذلك ينفذ إلى الرئة ويخالط ما فيها من الهواء وينطلق فيها حتى يتعدل ويصلح لتغذية الروح . ثم بعد ذلك أن ينفذ إلى الروح الذي في القلب ويختلط به ويغذيه . وهذا الموضع الذي هو في القلب وفيه الروح لا بد وأن يكون متسعاً ليتسع بمقدار كفاية البدن كله من الروح فلذلك لا بد من اشتغال القلب على تجويف يحوى

الدم وتجويف آخر يحوى الروح . فإن القلب له بطنان أحدهما مملوء بالدم وهو الأيمن والآخر مملوء بالروح وهو الأيسر . ولا منفذ بين هذين المغنيتين البتة وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها والتشريح يكذب ما قالوه والحاجز بينهما أشد كثافة من غيره لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو الروح فتضيع . فلذلك قول من قال أن هذا الموضع كثير التخلخل وذلك باطل فإن نفود الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرنة بعد تسخينه وتصاعده من البطين الأيمن كما قررناه أولا .

قال ابن نفيس : « وجعل ابن سينا الدم في البطين الأيمن منه يتغذى القلب لا يصح البتة . فإن غداء القلب من الدم المنبت فيه من العروق المنبثة في جرمه » .

كشف ابن نفيس عن الدورة الدموية الصغرى كشف على أكبر بجانب من الأهمية . وعندي أنه أكبر قدراً من حيث هو أول ثورة حقيقية على تشريح جالينوس .

فهم العرب الأمراض وطبيعتها بقدر ما يسمح به تسليمهم بالأخلاق والقوى . واكتنهم كانوا أقرب إلى الصواب حين كانوا يصفون المرض دون بحث في هذه الأمور . من ذلك قول الرازي يصف حالة لا أشك أنها كانت حالة التهاب في عظمة التجويف الحلمي mastoid antrum تسبب عنها خراج في المنخ خارج الأم الحافية وهو يقول في ذلك : « رجل معرض للسرسام جداً أصابته علة ثم مال الفضل إلى أذنه وخرج في أصل أذنه وكانت منه نواصير ثم هاج به المرض وأصابه صداع شديد وانحرف عن الضوء ودهوع كثيرة وحمرة في العين وكان الماء أشقر والوجه ممتعاً وبعد أربعة أيام صغرت إحدى عينيه واسانه شديد السواد والحشونة ثم غلظ أمره وظهرت العلامات الرديئة . والجهال ظنوا أن به لقوة لصغر العين اليمنى وتشنج تلك الناحية .

ويعجبنى قول الرازي في أم الدم aneurysm . الشريان مملوء بالدم

والكن لا يدخله دم كثير كحال أصحاب الربو صدرهم مملوء بالهواء ومع ذلك لا يدخله من الهواء إلا قليل .

ولعل واسطة العقد في مشاهدات الرازي حالة لاشك أنها كانت pyonaphrosis كان يأتي عبد الله بن سواده حميات مخلطة تنوب مرة في ستة أيام ومرة غباً ومرة ربعاً ومرة كل يوم ويتقدمها نافض يسير وكان يبول مرات كثيرة وحكمت أنه لا يخلو أن تكون هذه الحميات تريد أن تغلب ربعاً وإما أن تكون به خراج في كلاه فلم يلبث إلا مدة حتى بال مدة أعلمته أنه لا تعاوده هذه الحميات وكان كذلك وإنما صرفني في أول الأمر عن أن أثبت القول بأن به خراجاً في كلاه ، أنه كان يحم قبل ذلك حمى غب وحميات أخر وكان للظن بأن تلك الحمى المختلطة من احترافات تريد أن تصير ربعاً موضعاً أقوى ولم يشك إلى أن قطنه شبه ثقل معلق منه إذا قام وأغفلت أنا أيضاً أن أسأله عنه وقد كانت كثرة البول تقوى ظني بالخراج في الكلى إلا أني كنت لا أعلم أن أباه أيضاً ضعيف المثانة ويعتريه هذا الداء وهو أيضاً قد كان يعتريه في صحته فينبغي ألا نفعل بعد ذلك غاية التقصى إن شاء الله ولما بال المدة أكيبت عليه بما يدر البول حتى صنى البول من المدة ثم سقيته بعد ذلك الطين المختوم والكنندر ودم الانخوين وتخلص من علته وبرأ برءاً تماماً سريعاً في نحو شهرين وكان الخراج صغيراً ودلني على ذلك أنه لم يشك لي ابتداء ثقل في قطنه لكن بعد أن بال مدة قلت له هل كنت تجد ذلك قال نعم فلو كان كثيراً لقد كان يشكو ذلك وأن المدة تنبت سريعاً يدل على صغر الخراج فاما غيري من الأطباء فإنهم كانوا بعد أن بال مدة أيضاً لا يعلمون حالته البتة !

ولم أتصد بإيراد هذه الأمثلة أن استقصى ما كتبه الرازي من مشاهدات عجيبة ولا أن أدال على علمه وحسن بصره بالأمور . ولكني أوردتها لأبين أن العرب ابتدعوا هذا الباب من أبواب الطب . باب تدوين المشاهدات الدقيقة والعلامات المستقصاة مع تقليب الرأي فيما يمكن أن يكون وجه الحق فيها ، ويلاحظ أن الرازي واضح دائماً حين لا يتعرض لتفسير خبرته

بالحديث عن الأخلاط والأمزجة مما يدل على أن خبرته كانت أصدق من
من كليات الطب اليونانية .

وابتدع الأطباء العرب كذلك علم التشخيص المقارن وللرازي فضل
السبق في هذا المصنوع . وله في ذلك قول حسن في أسباب القولنج . وسنذكر
هنا قوله عن احتباس البول فهو مثل من عمله في هذا الباب الهام من أبواب
الطب .

« البول يحتبس إما لأن الكلى لا تجذبه ، وعلامة أن يكون البول محتبساً
وليس في الظهر وجع ثقيل ، ولا في الحاصرة والحالب ، ولا المثانة متكورة ،
ولا في عنق المثانة ضرب من ضروب السدة على ما تستبين . وأن يكون
مع ذلك البطن ليناً . وقد حدث في البدن ترهل واستسقاء وكثرة عرق .

وأما الذي يكون من الكلى ، فيكون محتبساً وفيها المرض : وذلك إما
لورم أو حجر ، أو علق دم ، أو مدة ، ويعمه كله أن يكون الوجع في القطن
مع فراغ المثانة إلا أنه إن كان حصاة ، ظهرت دلائل الحصاة قبل ذلك ،
وإن كان ورماً حاراً كان مع الوجع شيء من ضربات ، ؟
وإن كانت أوجاع الكلى ، فإنما هي ثقل فقط . ،
وإن كان ورماً صلباً ، لم يحتبس البول ضربية ، لكن قليلاً قليلاً ، وكان
ثقل فقط ،

وإن كان علق دم ومدة فيتقدمه قرحة ،

وإن كان احتباسه من أجل مجارى البول من الكلى ، فتكون المثانة فارغة
والوجع في الحالب حيث هذا المجرى ، مع نخس ووخز ، فإن وجع المجرى
ناخس لا ثقيل ، وعند ذلك استعمل سائر الدلائل في الكلى .

وإن كان من قبل المثانة ، فإما أن يكون لضعفها عن دفع البول ، فعند ذلك
فاغمز عليه ، فإنه يدر البول ، والمثانة متكورة ، فإن لم يدر ، فالآفة في رقبة
المثانة . وحينئذ استعمل الدلائل المذكورة .

وإن كان الورم جاراً في هذه المواضع ، تبع ورم المثانة حمى موصوفة ،
وورم الكلى حمى موصوفة .

وقد ينضم مجرى رقة المثانة من انضمام يقع له ، ويكون للبرد واليبس ،
ومن ثل أول يخرج فيه ، ويكون قليلاً قليلاً . وقد تفسد هذه المجارى بخلط
غليظ . وعلاج ذلك التدبير الغليظ .

وأكثر هذه الفقرة يفيد منه كل طبيب حتى الأطباء المعاصرون .
وكان لكبار الأطباء العرب فهم جيد لتقدمة المعرفة يضعون العلامات
الجيدة والرديئة مرتبة على أقدارها . والرازي يجعل لضعف القوة شيئاً أي شيء .
في ذلك ومن جميل قوله أن قدر العلامة يختلف بحسب موقعها من تاريخ بدء
المرض . ولعل الأطباء العرب الذين نصحوا عموري الأول ألا يتعرض للفصد
ولا للإسهال لضعف قوته كانوا يتبعون في ذلك رأياً مقررأ عندهم لم
يفطن إليه الأطباء الفرنج فمات في اليوم التالي .

وليس لنا أن نتعرض بالنقد لوسائل العلاج عند العرب . إذ لم يكن لديهم
من وسائله إلا القليل ونحن اليوم نرى أن كثيراً من وسائل العلاج التي كانت
شائعة مشهورة منذ أعوام قليلة لم يكن لنجاحها أصل علمي . ويقاس قدر
الطبيب في علاجه بحسن اختياره لما يكون لديه من وسائل التطبيب . وقد يكون
الطبيب عالماً بكل ما يعرفه العلم من علاج ثم يسيء اختيار نوع العلاج ووقته
فيصيبه الخطأ في كل حالة . وقد حرص أطباء العرب على ذكر ذلك في مؤلفاتهم .
يدل على ذلك كثرة ما قالوا عن الفصد فقد ذكروا فائدته وضرره ووقت القيام
به وطريقته . والفصد وإن لم يكن ينال منا من العناية ما كان يناله من القدماء
إلا أن الإرشادات المتعلقة به تدل على فهم جيد لوسائل العلاج وشروط النجاح
فيه . ومثل هذه الإرشادات تذكر بوضوح تام عند تناولهم مواضع الاستفراغ
والكي والشق والبطن وغيرها من العلاجات المعروفة حينئذ .

وفي قانون ابن سينا فصل صغير في (أي العلاجات تبتدىء . فمثلاً إذا
اجتمع الوزم والقرحة عالجنا الورم أولاً . وإذا اجتمعت السدة والحمى عالجنا

السدة أولاً . ولا نبالي بالحمى . لأن الحمى يستحيل أن تزول وسببها باق .
أما إذا اجتمع المرض والعرض فإننا نبدأ بعلاج المرض إلا أن يغلبه العرض
فحينئذ نقصد قصد العرض ولا نلتفت إلى المرض . كما نسقى المخدرات في
القوانج الشديد الوجع إذا صعب . وأن كان يضر نفس القولنج . (وهو كلام
حسن جداً يحسن أن يتدبره أطباء كل عصر .

وكان حتماً أن يعنى الأطباء العرب بالعقاقير إذ كان جل اعتمادهم عليها .
وعنوا بكتاب ديوسفوريدس عناية كبيرة ولكنهم زادوا عليه كثيراً . فكان
العشابون العرب يجوبون البلاد يدرسون خصائص نباتاتها ، وعظم بذلك
عليهم بالعقاقير والأفربازين . وظل كتاب ابن البيطار يدرس في أوروبا
قروناً وكانت آخر طبعاته في منتصف القرن الثامن عشر .

ولا نستطيع أن نغفل ما كتبه الزهراوى عن الجراحة . وهو ما لم يعن به
أطباء المشرق العناية الكافية . وكتاب الزهراوى كتاب فاد في الطب إلى حين
عصره . فهو يذكّر آلات جراحية من عمله هو . ويرسمها . ويحدد طريقة
استعمالها . وهو يشرح عمليات الشق والبط وتفتيت الحصا وعلاج المثانة بالشق
ويشرح ذلك كله شرح الممارس العالم مما يفسد الجراحات وما يتوقف عليه .
نجاحها .

إذا تركنا جانباً كل هذه التفاصيل وفي رأي أنها على أهيتها لا تحدد أثر
الطب العربى في الغرب . إذا تركناها جانباً فإننا نجد أن الغربيين أفادوا من
الطب العربى أموراً أهمها .

١ - الكتب الجامعة التى تتناول جميع العلوم الطبية . وأهمها من غير
شك كتاب القانون . وقد أجمعت الأمم العربية واللاتينية قديماً على الإعجاب
بتأليفه . ولا يزال يتعلم الناس في الباكستان الطب كما جاء فيه . وقد ظل
الأطباء يدرسونه في جامعات أوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر .
والأطباء المعاصرون يجدون صعوبة في دراسته وتتبع منطقته إذ هو يقوم على
تصورات بعيدة كل البعد عن تصوراتنا . والطبيب الذى يريد أن يستسيغ

قراءة كتاب القانون يجب عليه أن يعد نفسه إعداداً خاصاً . وأن يتفهم معنى
الأخلاق والقوى والأمزجة . وعليه فوق ذلك أن يميز بين المشاهدات والخبرة
وبين النظام العقلي الذي تفسر به هذه الخبرة .

وكتاب القانون عسير غامض على من لا يروض نفسه على طريقة التفكير
الطبي في العصور القديمة وهو يمتاز بالوضوح والتنسيق وحسن التأليف
عند من يروضون أنفسهم رياضة خاصة على ذلك .

وهو منظم جداً . بل لعل فيه إسرافاً في التنظيم والتنسيق . ولا يشك
لقارىء أن مؤلفه فيلسوف ممتاز فهو يستقصى تقسيم الأمراض أو الأعراض
أو العلاج . وقد يجره هذا الاستقصاء إلى ذكر أمور لا وجود لها في الواقع
أو إلى شرح أمور نادرة جداً . حين يستدعي التقسيم المنطقي ذكر هذه الأمور .
والفيلسوف يزعمه أن يغفل الأشياء التي يقتضي المنطق وجودها وقد لا يزعمج
الطبيب في شيء أن يغفلها تماماً . ولا شك أن ابن سينا كان يرى أن الفلسفة
أعم من الطب . وأن واقع الخبرة الطبية يجب ألا يغير من القضايا الفلسفية
الكبرى التي هي ثابتة ببراهين لا تقبل النقض ومن هنا كانت ثقة الأطباء
في ذلك العصر في الكليات وحملهم كل ظاهرة على الخضوع لهذه الكليات
يكن التأويل عسيراً ملتوياً . وهذه سمات العلم في القرون الوسطى .
سأب القانون خير تطبيق لهذا التفكير على العلوم الطبية . وهو غاية ما يمكن
أن يبلغه كتاب في الطب يقوم على هذه الأسس . وليس عجيباً أن يرضى
عنه أهل ذلك العصر رضاء تاماً .

ولا نستطيع هنا أن نذكر كل ما في القانون من أمور جديرة بالذكر مثل
وله في السرسام الحاد . وهو قول ممتع . وله في اللقوة والتفريق بين
اللقوة الناشئة عن مرض الدماغ واللقوة التي يصاب فيها عصب الوجه وحده
وقوله في ذات الرئة وذات الجنب قول واضح دقيق . وله شروح جيدة
في أمراض الكبد والكلى وحصى المثانة وغيرها . وبعض هذه الفضول

رائع في ذاته واكنى أعتقد أن فضل كتاب القانون على الطب، وفضله في انتشار الطب العربي في الغرب أنه ممتاز في تنسيقه وتبويبه ووضوح قضاياه. وأطباء القرون الوسطى وجدوا فيه تفسيراً لكل شيء وشرحاً لكل معضلة تعرض لهم.

٢ — أفاد الغربيون من الطب العربي، فضلاً عن هذه الكتب الجامعة، مادة علمية غزيرة جداً تتعلق بالطب الاكلينيكي. وهم مدينون في ذلك لكتاب الحاوي وأمثاله وهذا باب من أبواب الطب لم يعن به اليونانيون أتقنه العرب. والفضل في ذلك يرجع إلى الطبيب الموهوب الرازي. فهو الذي ابتدع علم التشخيص المقارن واستقصاء الدلالات والتمييز بين الأمراض المتشابهة. وهو الذي قدر أهمية التدوين في ذلك كله.

٣ — أخذ الغربيون عن الكتب العربية علمهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة. وكان كتاب ابن البيطار مرجعاً لهم حتى أواسط القرن الثامن عشر.

٤ — وأخذوا عن العرب خبرتهم في الجراحة حيث كان كتاب الزهراوى مرجعاً عند كل من مارس الجراحة في أوروبا حينذاك. وله فضل كبير في تحديد التفاصيل الدقيقة التي لا بد منها لنجاح الجراحات... وهو أول من وصف وضع الولادة في ما سمي بعد ذلك وضع Walcher. وله آلات يستأصل بها أورام الأنف وهي كالسنارة. وله آلات أخرى لاستخراج حصاة المثانة بالشق أو التفتيت.

٥ — وأخذ الغربيون عن العرب نظام بیمارستانات. وكان العلاج فيها حسناً إلى حد كبير حتى قيل أن بعض الأصحاء كانوا يدعون المرضى ليقيموا فيها. وقد عني الباباوات وملوك الغرب بإقامة المستشفيات على نظام بیمارستانات العربية.

والواقع أن الطب العربي كان ناجحاً جداً في القرون الوسطى. وكانت الأمم اللاتينية تجهل الطب جهلاً يكاد يكون تاماً. وكان حتماً أن يأخذوه عن العرب فأخذوا ينقلون الطب العربي كله علماً وعملاً إلى بلادهم. وعرفوا

منه القدر الذى سمح به تقدمهم الفكرى حينذاك . وكان حتماً أن يسيروا بهذا العلم الجديد سيراً حثيثاً حتى يتأصل فيهم وينمو عندهم نمواً ذاتياً . ولكن العلم التجريبي والتفكير الحديث بدأ عندهم بعد ذلك بقليل . وبذلك كتب الفصل الأخير فى طب القرون الوسطى وعفى عليه الزمن .



نحوت هذا النحو فى بيان أثر الطب العربى فى الأمم الغربية إرضاء لما جرى عليه الباحثون فى هذا الأمر . وكلهم سار على هذا المنهج من ذكر تفاصيل العلوم وتقويمها حسابياً كأنهم يحسبون ما تلقاه العرب عن غيرهم . وما تركوه لغيرهم ويقدرّون بذلك دينهم على الغربيين . وأصبح من المسلمات التاريخية أن العرب نقلوا العلم اليونانى إلى الغرب . وأنهم أبقوا شعلة هذه العلوم قائمة بعد أن كاد يطفئها الإهمال والجهل حتى تلقفها الغربيون فدبت فيها الحياة القوية التى شهدت عصور النهضة .

قد تكون هذه الطريقة المثلى لدرس أثر العرب على الغربيين فى أنواع العلوم المختلفة ولكنى أعتقد أنها ليست خير السبل إلى معرفة أثر الطب العربى على الطب اللاتينى . ويرجع ذلك إلى طبيعة العلوم الطبية والطريقة التى تنتقل بها من بلد إلى آخر . والطب له تطور تاريخى عام عالمى . وهو قسمان قسم الخبرة البحتة التى تتفق فيها جميع الأمم . وقسم تفسير هذه الخبرة وتنظيمها . وهو أمر يختلف إلى حد ما باختلاف روح التفكير المعاصر فى الأمم المختلفة ويتوقف إلى حد ما على المستوى العام للثقافة واستعداد أهل بلدها لقبول التفكير الطبى الخاص الذى يستقبلونه . ثم إن انتقال العلم من بلد إلى آخر لا يمكن أن يتم بمجرد النقل . وإنما هو انتقال حيوى يحدث حين يبلغ الطب فى أمة مبلغاً عالياً . عند ذلك تسارع الأمم الأخرى فى الاستفادة من هذا العلم الراقى تفهمه وتحذيه وتمارسه على قدر ما تؤهله لها كفايتها . وليس للتفاصيل شأن كبير فى هذا الانتقال إلا من حيث ما يكون فيها من دلائل الرقى العام للطب . والأطباء

لا يقيسون رقي الطب بما يكون من فيه إضافات جديدة وابتكار. وإن كان ذلك يدخل في حساب التقدم الطبي. إنما تقيس الرقي الطبي بحسن تفهم طبيعة الأمراض وإدراك طبيعة الحالات التي تعرض لنا. وحسن التقدير والتدبير. ومقياس هذا الرقي هو النجاح في العلاج. وهو في آخر الأمر الغرض الأسمى للعلوم الطبية كلها.

أشرت من قبل إلى أن التاريخ العام للطب يمكن تقسيمه إلى ثلاثة عهود. فهناك أولاً عهد الخبرة البهيمية. بدأ هذا العهد في المجتمعات البدائية كلها. فكان كل إنسان يعرف من خبرته الشخصية ما يضره وما ينفعه وما يصلح به حاله إذا فسد. ثم امتدت الخبرة فأصبحت جماعية. إلى حد عرض المرضى في الأسواق حتى ينصحهم كل من سبق له خبرة بمثل مرضهم. ثم كثرت الخبرة وجمعت وقورنت فاستخلص الناس منها ما اطرده نجاحه. وعرفوا الحالات المتشابهة. وبلغ هذا العلم أوجه عند قدماء المصريين. والإنسان يدهش حقاً حين يرى كيف استطاع أولئك الأطباء أن يجمعوا كل هذه الخبرة وأن يدرسوها درساً علمياً عجيباً جعلهم يستخلصون منها قواعد عامة صحيحة في مجموعها. على قلة وسائل الجمع والمقارنة عندهم. وغاية هذا العلم ما نراه في علاج الإصابات في بردى أدريس مميث.

ولم يكن للطب أن يتقدم أكثر من هذا بهذه الوسيلة. وهناك ما يدل على أن المصريين القدماء بدعوا يفكرون في أسباب الأمراض ما يكون منها من داخل الجسم وما يصيبه من خارجه ولكنه كان تفكيراً بسيطاً.

وكان طبيعياً أن يسعى المفكرون إلى تنظيم الخبرة البهيمية والبحث عن أصول عامة ترجع إليها الظواهر المختلفة. هذا ما فعله اليونان، وكانوا على ذلك قادرين. فعلوا ذلك بكل فروع العلم، وكانت الكليات من عملهم ولكن الخبرة كانت من غير شك مجموعة من خبرتهم وخبرة المصريين وغيرهم. وعلى ذلك تكون خبرة اليونان مثل خبرة المصريين من قبلهم وخبرة

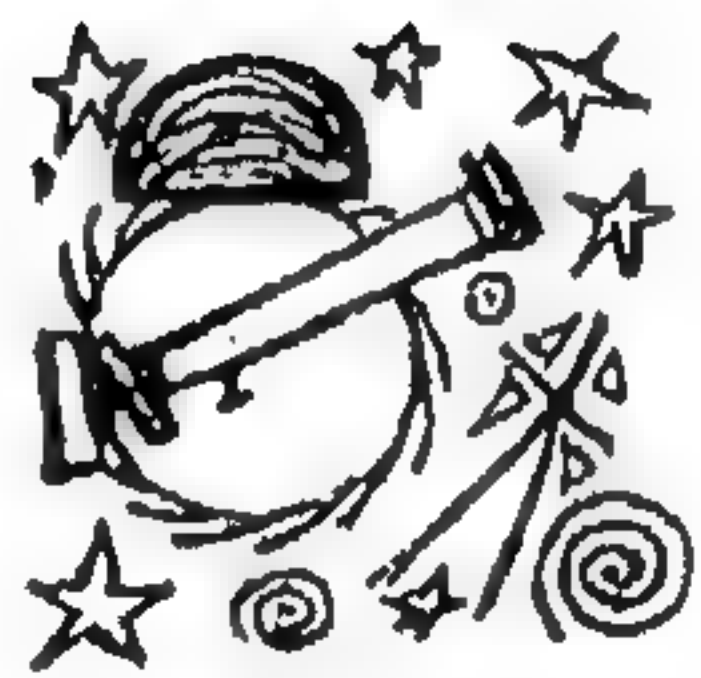
العرب من بعدهم أمراً عاماً تستوى فيه كل الأمم . أما التنسيق الفكري فكان من عمل اليونان وحدهم . وهو فضل كبير جداً ولم يكن الطب ليتقدم ويرقى عن الخبرة البحتة إلا بهذا التقسيم والتنظيم العقلي . ولكننا يجب ألا ننسى أن الطب قد بلغ غاية ما يستطيع بهذه الوسيلة لم يتقدم ولم يكتب له الرقي بعد ذلك حتى تخلص من أثر هذا التفكير .

وأرجو ألا يظن أحد أني أريد بذلك أن أغض من قدر اليونان أو أن أرفع من قدر الطب العربي فهذا لا يليق بأي بحث علمي . ولكنني أريد أن أقول أن العهد الثاني من تطور العلوم الطبية وهو عهد الخبرة المنظمة فلسفياً كان عهداً بدأه أبقراط وفرع عليه جالينوس ومارسه الرازي وبلغ غايته ابن سينا من جهة التأليف والتنسيق . في هذا الطور من أطوار التفكير الطبي اليوناني الأصول والكمليات وهي على أهميتها ليست كل الطب . أما الخبرة فكانت يونانية في اليونان عربية عند العرب وبلغوا فيها الغاية . وكان يصحح أن تكون هناك خبرة لاتينية خاصة لو امتد العهد بعلمهم بعض القرون .

بهذا القصور . تفقد التفصيلات . أكثر أهميتها في مثل هذا البحث . وإن بقي لها قدرها من حيث هي حقائق تاريخية . إلا أن الاقتصار عليها يذهب بالحقائق الكبرى لتاريخ الطب العام وتطوره .

هذه النظرة العامة تجعل الطب العربي قمة الطب الوسيط اعتمد على الطب القديم وبلغ به أرقى ما يمكن أن يسمح به العصر . وانتقل بحكم هذا الرقي إلى البلاد الغربية بحملته علماً وعملاً ...

الفصل
الخامس



في الجغرافيا

اعداد : دكتور محمد محمود الصياد

فهرس الفصل الخامس

| الموضوع | الصفحة |
|--|------------|
| أثر العرب والمسلمين فى النهضة الأوروبية فى الجغرافيا | ٣٠٩ |
| الإسلام يقوى الاهتمام بالجغرافية | ٣١٠ |
| العرب يحافظون على التراث القديم | ٣١١ |
| العرب والجغرافية القديمة | ٣١٢ |
| الكشوف الجغرافية | ٣١٦ |
| الملاحة البحرية | ٣١٨ |
| الأجهزة العلمية | ٣٢٠ |

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

أثر العرب والمسلمين في النهضة الأوروبية في الجغرافيا

كانت الجغرافية في مقدمة العلوم التي أولاها العرب والمسلمون شيئا كثيرا من اهتمامهم فكثرت مصنفاتهم وكتبهم فيها ، ولا تزال هذه المصنفات وأن بتعدد بها العهد تمثل مرحلة بارزة في تاريخ الفكر الجغرافي وتطوره ، وبخاصة إذا نظرنا إليها على ضوء الأحوال العالمية التي كانت سائدة في الوقت الذي وضعت فيه .

وليس من هدف هذا البحث أن يؤرخ للجغرافية العربية ولا أن يكشف عن الأعمال الجلية التي قام بها الجغرافيون العرب والمسلمون ، فاثروا التراث الإنساني بما تركوه من كفايات تدل على بحث دقيق وأمانة علمية فائقة ، وما اخترعوه من أجهزة وما وضعوه من خرائط ساعدت المستكشفين فيما بعد على أن يطوفوا بالعالم وأن يرتادوا المجهول من أراضيه .

الجغرافية ضرورة للعرب :

وكانت عناية العرب بالجغرافية وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير ، فقد كانت نشاطهم الأول في وسط يحتم عليهم أن يلموا ما وسعهم الجهد بالمعلومات الجغرافية المختلفة ، إذ لم يكن في استطاعتهم أن يقوموا برحلاتهم السلمية والحربية في صحاريهم الواسعة الأرجاء إلا إذا عرفوا الشيء الكثير عن النجوم والكواكب يهتدون بها ويتخذون منها أدلة ، وما كان لهم أن يتنقلوا بإبلهم وأغنامهم وهي أئمن ما يمتلكون إلا إذا عرفوا موارد الماء ومنابت العشب ، وعرفوا الوحشى من حيوان البادية وأين يعيش ليتقوا خطره على أنعامهم .

وتد اشتملت أشعار العرب على كثير من الحقائق الجغرافية الخاصة بوصف
بيئتهم الطبيعية حتى أصبح الشعر العربي القديم مصدراً هاماً من مصادر
الكفايات الجغرافية الأولى فهو غنى بالأعلام الجغرافية من أودية وآبار ،
وجبال وتلال ، ومعالم ورسوم . ونظرة سريعة في المعلقة السبع أو العشر
توضح مدى احتفال العرب بالمظاهر الجغرافية لبلادهم ، وقد انتقلت هذه
المعلومات الجغرافية من جيل إلى جيل على ألسنة الرواة فقد كانت رواية الشعر
من أهم ما عني به العرب على مر العصور ، ولذلك لم يكن غريباً أن نجد
الجغرافية بين الفنون التي يشتغل بها اللغويون فقد كان الأصمعي (القرن
الثامن الميلادي) وهو من نعرف من علماء اللغة من العارفين بجغرافية بلاد
العرب معرفة المدة الخبير ، وظلت هذه الصلة بين الجغرافية واللغة قائمة
حتى عصر متأخر ، نجدها في « تاج العروس » للزبيدي وهو من معاجم اللغة .

الإسلام يقوى الاهتمام بالجغرافية Enchances the interest in Geography

وظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، ولم يمض على ظهوره قرنان
حتى كانت الدولة العربية قد اتسعت فشملت مساحات فسيحة في قارتي آسيا
وأفريقية ، وأدى هذا التوسع إلى زيادة أهمية المعلومات عن أطراف العالم
الإسلامي ، وأصبح من الضروري الوقوف على أحوال البلاد التي فتحها الله
للمسلمين ، ومعرفة الطرق التي تربط بين أجزاء هذه الدولة الفسيحة والمسافات
بين الأماكن بعضها وبعض ، فقد كانت السياسة والإدارة والتجارة وما إليها
مما يتطلب وصفاً دقيقاً للأمكنة والبقاع . وتفصيلاً وافياً لأحوال شتى الأقطار
وما تنتجها أراضيها من غلات . ومن قبل كان الحج وهو ركن من أركان
الإسلام يتطلب معرفة بطرق القوافل إلى مكة والمدينة ، وكان هو نفسه عاملاً
له أهميته في زيادة التعارف بين المسلمين وتبادل المعلومات ، فقد أصبحت
مكة بعد انتشار الإسلام ملتقى آلاف من الحجاج يفدون إليها من كل الجهات
وهم من أجناس مختلفة ولكل منهم بيئته الطبيعية والاجتماعية ، ومن ثم كان

الحج للدارسين أشبه بالمؤتمرات في عصرنا الحديث يرحلون إليها ويشتركون فيها ، وكانت الكتب التي وضعت عن المزارات الإسلامية أرفى كثيراً بالعناية من الكتب التي صُنفت عن المزارات المسيحية ، وكان أصحاب تلك الكتب من الرحالة الذين تعددت نواحي ثقافتهم ، وذات ملاحظاتهم توبة الدرجة تدعو إلى الإعجاب .

العرب يحافظون على التراث القديم Arabs present the Ancient heritage

وأدى اتساع الدولة الإسلامية إلى أن يرث العرب التراث الثقافي للحضارتين اليونانية والرومانية ومع أن الحضارتين قامتتا على أساس وثني فإن العرب فرقوا بين الدين والعلم ، فالدين لله والعلم للإنسانية جمعاء ، ومن ثم أقبلوا على علوم اليونان والرومان يأخذون منها ما تتسع له حضارتهم الجديدة وما لا يتنافى مع أصول دينهم الحنيف .

وكانت روح البحث العلمي عندما ظهر الإسلام قد انعدمت أو كادت ، إذ فشل علماء الإغريق والآخذون بفلسفتهم في الظفر برضا علماء المسيحية في صورتها الأولى ، ولكن العرب عندما تامت لهم دولة عادوا إلى بعث النظريات الإغريقية القديمة ، وربطوا بذلك بين العلم القديم والعلم الحديث ، واختلفوا عن الإغريق والرومان معاً ، فقد كان الأول أصحاب حضارة وثقافة ، وذات الآخرون قوم حروب وفتوح ، أما العرب فقد قاموا بالأمرين معاً ؛ أسسوا امبراطورية واسعة منظمة تتركز على أسس وقوانين راسخة ، وبنوا في الوقت نفسه حضارة عالمية لم تكف بالحدود المحلية بل أخذت عن الحضارات التي سبقتها في مصر واليونان وفارس والهند ، وحينما تم لهم فتح سوريا اتصلوا بالنساطرة « وكانوا قد أصبحوا سدنة العلوم القديمة والقوامين عليها ، فأكرموا مثواهم ونقلوا من علومهم ومعارفهم .

وكانت رغبة العرب في المعرفة جاعحة لا يعدها سوى رغبتهم في نشر الإسلام ، فلما استقر الأمر لدينهم وانتهى زمن الفتح والتوسع أخذوا

يتصرفون إلى الثقافة ينهلون من كل منابعها المتاحة لهم ، وكان للحلفاء العباسيين
إسهام مشكور مذكور في تشجيع البحوث العلمية ، وراحوا ينقلون إلى العربية
أمهات الكتب المعروفة في اللغات الأخرى ، وكانوا متسامحين إلى أبعد الحدود
فاستخدموا المترجمين من كل البلاد دون نظر إلى جنسياتهم أو عقائدهم ،
وبلغت هذه النهضة العلمية أوجهاً في عصر المأمون الذي أخذ يجمع الكتب
من كل جهات العالم مهما كان ثمنها ، ويقال أنه كان يدفع للمترجمين عدل
كتبهم ذهباً . وكثيراً ما عجب أباطرة بيزنطة من أن يصبر العرب على أن
يحصوا بمقتضى المعاهدات التي يعقدونها معهم على شيء من مخطوطات اليونان.
وبفضل الترجمات التي وضعها العرب حفظت مخطوطات مفقودة ،
وأصبحت الترجمة بهذا الوضع لا تقل أهمية عن التأليف . وقد شاعت
المصادفات أن تكون علوم اليونان مزدهرة في سورية حينما فتحتها العرب ،
ومن ثم شرح المترجمون شرحاً وافياً ما غمض من النصوص اليونانية فسهلوا
على علماء الغرب فيما بعد فهمها والتعمق فيها ولما كان المترجمون على حظ
من الثقافة وافر فقد ظهرت شخصياتهم العلمية فيما نقلوه فلم يكن العرب
مجرد نقلة للتراث اليوناني بل إنهم أضفوا عليه معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل.
وهكذا فإن أول فضل للعرب على الحضارة الغربية إنما يتمثل في صيانتهم
لأسس هذه الحضارة ولولم يُعَنَّ العرب بنقل علوم اليونان لانقطعت الصلة
بين ماضي أوروبا وحاضرها ولما استطاعت أن تشهد عصر النهضة الذي قام
على أساس إحياء الثقافة التي كانت لأوروبا في عصرها القديم .

العرب والجغرافية القديمة :

وقد بلغت الدراسات الجغرافية القديمة ذروتها حينما وضع جغرافي
مصري هو كلاوديوس بطليموس السكندري كتابيه المعروفين بالمجسطي وجغرافيا
وليس من المبالغة أن نقول أن قصة الكشف القديم انتهت بظهورهما ،
وعاشت أوروبا طوال العصور الوسطى يخيم عليها الجهل حتى غدت اللغة

اليونانية - هي لغة العلم والحضارة القديمة مجهولة تقريباً في معظم جهات أوربا . ولكن العرب حافظوا على هذا التراث الإغريقي وكان من بين الكتب التي اهتموا بها كتابا كلاوديوس بطليموس السكندري Claudius Ptolemaeus الذي عرفوه باسم بطليموس القلوذي وركزوا اهتمامهم على كتابه « الجامع » في الفلك . وقد قام بترجمته الحجاج بن يوسف بن مطر (١٧٠ - ٢٢٠ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٥ م) تحت عنوان المحسّطى بفتح الميم أو كسرهما وبعدها جيم مكسورة ومعناها « الكتاب الأعظم » ثم أصلح من ترجمته ثابت بن قرة الحراني (٢١٩ - ٢٨٨ هـ = ٨٣٤ - ٩٠١ م) وضاع الأصل اليوناني للكتاب وبقيت الترجمة العربية ، فلم تعرف أوربا الكتاب إلا في القرن الثاني عشر الميلادي حينما نقله إلى اللاتينية من العربية جيرارد القرموني Gerardo de Cremona في سنة ١١٧٥ م . ومع أن هذه الترجمة كانت إحدى آيات فخار القرموني فإنها لا تمثل إلا جانباً من عمله العظيم الذي يتصل بجميع العلوم وجميع المؤلفين الإغريق تقريباً الذين عرفتهم النصوص العربية (١) .

أما كتاب بطليموس الآخر « المدخل إلى الجغرافيا » والذي عرفه العرب باسم « جغرافيا » فقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة وأشهر ترجماته الترجمة التي عملها ثابت بن قرة ثم ترجمة محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٦ هـ = ٨٥٠ م) الذي استفاد منه في وضع كتابه « صورة الأرض » الذي يقول عنه نالينو أنه لا يوجد شعب أوربي واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن مقارنته بهذا الكتاب (٢) الذي يعتبر أقدم أثر في الجغرافية العربية . ولكن الخوارزمي لم يشتهر في أوربا كجغرافي وإنما قام صيته العريض على مؤلفاته

(١) الدوميل : « العلم عند العرب » . الترجمة العربية بقلم محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار دار القلم ١٩٦٢ - ص ٤٥٨

Mieli, A. : La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale, Leiden, 1939.

Nallino, C.A. : « Al-Huwârizmi e il suo rifacimento della geografia » (٢) di Tolomeo », Roma, 1894, P 53

في الرياضيات حتى أن سارطون يعتبره « واحداً من أكبر رياضي جميع العصور على الإطلاق إذا أخذنا في الاعتبار اختلاف الظروف » (١) .

اتصال أوروبا بالعلم العربي :

وترجع الأهمية العالمية للعلم العربي إلى أنه نقل كنوز العلم القديمة من المغرب والمشرق إلى الشعوب المسيحية في غرب أوروبا بعد إخضاع هذه العلوم لتسمية وانضاج هامين كثيراً أو قليلاً . (٢)

وقد اتصلت أوروبا بالعلم العربي في مناطق ثلاث : في سورية حيث دارت رحى الحروب الصليبية وفي صقلية والأندلس حيث قامت للعرب دور أوربية . ففي أواخر القرن الخامس الهجري أو الحادي عشر الميلادي بدأ الصراع بين الغرب والشرق ، وحاول الغرب أن يلبس هذا الصراع مسح المدين ليخفي من ورائها أغراضه الدنيوية وأهدافه الاستعمارية ، وهكذا كانت الحروب الصليبية التي استمرت بين المدة والجزر زهاء قرنين من الزمان ، وكانت جموع الفرنجة الغازية تنتظر أن تلقى في البلاد العربية أمة همجية بعيدة عن الحضارة ، فهاها أن ترى أمة لا تقبل في حضارتها عن الدولة البيزنطية التي كانت تنظر إليها على أنها المثل الأعلى للتقدم الحضاري ، وفتح الغرب عينيه على هذا العالم العربي الإسلامي المتحضر المتقدم في مختلف فروع العلوم ، فأصبحت الحروب الصليبية ميداناً للكسب الحضاري ، وبدأت محاولات الغرب المنظمة للاقتباس من هذا المنهل العذب الحديد الذي وجدوا أنفسهم فجأة على ضفافه .

وكان العرب قد فتحوا صقلية في القرن التاسع الميلادي فلما زال عنها النفوذ العربي بغزو النورمان بقيت الحضارة العربية ، إذ وقع الحكام الجدد

(١) Sarton, G : « Intro-duction to the History of Science », Baltimore, (١) 1946, vol. I, P. 563.

(٢) الدومنييل : المصدر السابق ص ٤٢٣ .

في أسرها عن طيب خاطر . وهياً وجود الثقافة الإسلامية في صقلية ورعاية ملوك النورمان للعلم وأهله ، نوعاً من التدعيم الدولي لرقى المعرفة ، وأدى وجود اللغتين العربية واللاتينية جنباً إلى جنب ، وقيام صلات ودية بين المسلمين والمسيحيين إلى ذيوع المعرفة الجغرافية وغيرها من ألوان المعرفة بديار الإسلام على نطاق واسع ، وكانت جهود الإدريسي في بلاط الملك « روجار » مثالا لهذا التعاون العلمى العالمى المثمر .

وكان هناك مركز آخر لالتقاء الحضارتين العربية والغربية ، هو أسبانيا العربية التي كانت أهم مراكز هذا الالتقاء وأبعدها من حيث النتائج والآثار ، فلقد كان الغرب يعرف عنها أكثر مما يعرف عن الشرق العربى لقربها منه ، وكانت تثير بحضارتها وعلومها وفنونها اهتمام الأمم الأوروبية ، وكانت بجامعاتها المزدهرة مقصد طلاب العلم من كل مكان .

وفي الوقت نفسه الذى كانت تضطرم فيه معارك الحرب الصليبية في الشرق أى خلال القرن الثانى عشر ، كانت مدارس الترجمة الأندلسية وبخاصة مدرسة طليطلة تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم الإسلامية إلى اللغة اللاتينية التي كانت هى لغة العلم في سائر أنحاء أوروبا والتي ظلت لغة التخاطب عند الأغلبية الساحقة من أهالى اسبانيا (١) . وإن كانت العربية هى لغة العلم والإدارة ومنذ ذلك الحين تبدأ مساهمة الحضارة العربية في تكوين حضارة أوروبا ، وقد امتدت هذه المساهمة نحو ثلاثة قرون وكان لها أثرها الواضح العميق .

ومع أن مدرسة طليطلة لم تبلغ عظمة مدرسة بغداد في نقل العلوم وترجمتها فقد كان لها دورها البارز في إذاعة العلم العربى في البيئات العلمية الأوروبية . وكانت المؤثر الأكثر قوة في المعرفة الغربية في العصر الوسيط .

وهكذا فإن التيار الكبير للثقافة الإنسانية الذى نشأ في مصر وبابل وآشور وفينيقيا والذى كان يتجه نحو اليونان ، عاد من جديد تحت شكل موحد

(١) الدومبيل المصدر السابق ص ٤٥٣ .

للحضارة اليونانية ، التي تبناها العرب ، وأضافوا إليها من المصادر الهندية التي نقلتها فارس ، وضخموها بجهودهم المبتكرة ، ثم وجهوها عبر إفريقية إلى أسبانيا ، ومنها انتشر التيار العظيم من مراكز العلم العربي إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وسائر أنحاء أوروبا الغربية والجنوبية . وكان العرب قد أضافوا إلى التقدم الإنساني أهم اسهام عرفه العصر الوسيط .

أثر الجغرافية العربية في النهضة الأوروبية :

ولسنا هنا في مجال استعراض جهود المسلمين في الجغرافية وما أضافوه إليها في ميادينها المختلفة وبخاصة الجغرافية الوصفية والفلكية فذلك أمر قد ألفت فيه عشرات من الكتب في مختلف اللغات (١) . وإنما هدفنا هو أن نبين كيف كانت كتابات العرب والمسلمين أساساً من الأسس التي امت عليها النهضة الأوروبية في العصر الحديث ، وكيف كانت أبحاثهم وآراؤهم نبراساً اهتدى به علماء الغرب ، فنقلوا عنهم وساروا على سفنهم ، فلقبوا بـ «العلماء العرب والمسلمين» أفذاذ أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ، ومشاهد الرحلات ، وتمحيص الروايات والمقارنة بينها لتبين السليم من الزائف غير الصحيح .

الكشوف الجغرافية :

لقد كانت الكشوف الجغرافية وارتداد المجهول من أرجاء الأرض أهم ما تمخضت عنه النهضة الأوروبية وما كانت هذه الكشوف ل تتم لولا ما وقف

(١) نشير هنا بصفة خاصة إلى T. I «Geographie d'Aboulfeda» Reinaud M. :

Introduction générale à la géographie des Orientaux Paris, 1848.

(ب) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي تأليف الدكتور محمد يوسف

وعبد الحليم النجار - دار القلم - القاهرة - ١٩٦٢ .

Nafis Ahmed : «Muslim contribution to Geography», Calcutta, 1947.

ترجمة فتحى عثمان بعنوان «جهود المسلمين في الجغرافيا» القاهرة ١٩٥٧

Gonzalez Palencia, A. : «Historia de la Literatura Arabigo-Española», Madrid, 1940.

ترجمة حسين مؤنس بعنوان «تاريخ الفكر الاندلسي» القاهرة ١٩٥٥ .

عليه الغرب من كتابات العرب ومصنفاتهم ، ولولا ما وصل إليهم من الأجهزة والأدوات التي سهلت عليهم الانتقال بسفنهم عبر المحيطات .

لقد أسهم العرب في حركة الكشف الجغرافي في مساهمة فعالة ، فهم قد عرفوا أوربا جميعاً فيما عدا الأطراف الشمالية منها التي لم يكتشفها الأوروبيون أنفسهم إلا في عصر متأخر . وكانت معرفتهم بالنصف الجنوي والشرقي من آسيا معرفة دقيقة . وقد عرفوا افريقية الشمالية حتى حدود المنطقة الاستوائية وأوغلوا أبعد من ذلك في ساحلها الشرقي حتى وصلوا إلى قرب مدار الجدى . ووصف العرب في دقة وتفصيل العالم الممتد من كوريا حتى سواحل بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) واهتموا بكل الجوانب الجغرافية لهذه المنطقة الواسعة فيتحدث المسعودي مثلاً عن الرياح الموسمية في المحيط الهندي ومواعيد هبوبها وأثرها في الملاحة ، ويستنتج البيروني أن سهول شمالى الهند كانت قاع بحر ردمته الرواسب ، ويفرق بين الخليج والمصب الخليجي ، فيذكر أن الأول ذراع من البحر يتوغل في اليابس ، وأن الآخر جزء من نهر غمرته المياه ، ثم هو يفسر حركة المد والجزر ويربط بينها وبين أوجه القمر ، ولم يفت الجغرافيين المسلمين أن يتحدثوا عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد التي عرفوها ، وثروتها المعدنية ، وإنتاجها الزراعي ، وطرقها ومساكنها ، كما لم يفتهم أن يتحدثوا عن السكان ، وحياتهم الاجتماعية وأنماطها ، ومراكز الاستقرار البشري وعلاقتها بما حولها من الأرض ، وقد أثبت البحث العلمي الحديث أهمية المعلومات التي جمعوها عن بلاد نائية مثل أرجيل الملايو وداخل افريقية ، وكانت هذه المعلومات مما أفاد منه الرحالة والرواد الأوروبيون في عصر النهضة .

ومن الثابت أن أوربا لم تعرف داخل افريقية إلا عن طريق الكتابات العربية ، فقد وقفت الظروف الطبيعية لسطح القارة حائلاً أمام توغل الأوروبيين فيها ، فاقصر علمهم على سواحلها ، في حين كان الجزء الأكبر من النصف الشمالي للقارة معروفاً للعرب ، وظلت كتاباتهم هي المرجع الوحيد عن جغرافية

هذه المناطق حتى القرن التاسع عشر ، ويكفي هنا أن نشير إلى واحد من الجغرافيين العرب هو الحسن بن محمد الوزان الزياني الذي عاش في أوروبا فترة طويلة من حياته باسم ليون الأفريقي Leo Africanus . (١) وقد وضع كتاباً باسم «وصف إفريقية» عالجه فيه بالدراسة المفصلة جغرافية النصف الشمالي من القارة ثم قام هو نفسه بترجمة كتابه إلى اللغة الإيطالية أثناء إقامته بالفايكان في خدمة البابا ليو العاشر . (٢)

الملاحة البحرية :

وقد استمر الرحالة الأوروبيون يعتمدون إلى حد كبير على المصادر الإسلامية في ارتياد ما كان مجهولاً لديهم من أرجاء الأرض ، ويظهر هذا بشكل واضح عند ماركوبولو الذي تكلم عن المعلومات التي استقاها من رسوم المسلمين البحرية في سيلان ، والذي استخدم كثيراً من الأعلام الجغرافية في صيغها الإسلامية العربية والفارسية .

وكان على البحارة الأوروبيين أن يمضوا أجيالاً متعاقبة قبل أن تكون معرفتهم بالمحيط الهندي شبيهة بمعلومات المسلمين أو قريبة منه ، وكانت معلومات المسلمين عن هذا المحيط هي الأساس الذي قام عليه تجوالهم فيه . وكان البرتغاليون قد قاموا منذ عهد الأمير هنري الملاح بعدة محاولات للوصول إلى الهند فساروا على ساحل إفريقية الغربي دون أن يبعدوا عنه كثيراً وقد تمكن أحدهم وهو Bartholmee في سنة ١٤٨٧ أن يدور حول رأس الرجاء الصالح التي أطلق عليها Cabtormentosو أي رأس الزوابع بسبب العواصف الشديدة التي صادفها حولها ، ولاحظ دياز أن ساحل القارة ينحرف في اتجاه

(١) راجع كراثشكوفسكى : «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» الترجمة العربية بقلم صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة (١٩٦٢) ص ٤٥١-٤٥٤ .

(٢) يرى ماسينيون أن ليو وضع كتابه بالإيطالية مباشرة وأنه ليس له أصل عربي (ص ٢٣) وأن الكتاب وإن يكن مؤلفه عربياً إلا أنه كتبه للأوروبيين (ص ٤٣-٤٥)

Massignou : L. : « Le Maroc... », Alger, 1906.

الشمال الشرقي فعاد أدراجه إلى لشبونة . وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ بدأ فاسكو دي جاما Vasco de Gama رحلته قاصداً الهند، وسلك السبيل الذي سلكه دياز من قبل ، ولكنه واصل رحلته مع الساحل الشرقي للقارة حتى بلغ مالينوى في مملكة كامبيا (كينيا الحالية) وفيها علم من الملاحين العرب أن الهند تبعد بنحو ٦٠٠ فرسخ ، وقضى دي جاما في مالينوى عدة أسابيع يفكر في الوسيلة التي يقطع بها عرض المحيط الواسع الذي يجهل عنه كل شيء ؛ وكان من الممكن أن تنتهي رحلته عند هذا الحد كما انتهت رحلة دياز من قبل ، لولا صداقة عقدها مع ملك مالينوى كان من نتائجها أن بعث إليه الملك بربان عربي خبير بالمحيط والملاحة فيه هو « شهاب الدين أحمد بن ماجد » الذي تولى إرشاد دي جاما في مياه المحيط حتى وصل ساحل الهند في ١٤ من مايو سنة ١٤٩٨ بعد ٢٢ يوماً من مغادرته ماليندى دون مشقة أو عناء (١) .

وقد دهش الملاح البرتغالي غاية الدهشة من سعة معلومات مرشده في رصد النجوم . وكان البرتغاليون حتى ذلك العهد يعتمدون على الشمس وحدها في معرفة خطوط العرض مما كان يجعل ملاحظتهم بالليل في عرض المحيط محفوفة بالخطر .

ويذكر دي باروش مؤرخ رحلة دي جاما دون أن يذكر اسم ابن ماجد أن دي جاما أطلع الربان العربي على اسطرلاب خشبي كبير قطره نحو ٦٠ سم كان يأخذ به أرصاده وعلى بوصلة ملاحية ، ولم يدهش الربان العربي لما رأى ، بل الذي أخذته الدهشة هو الأثرال البرتغالي حينما أظلمه ابن ماجد على اسطرلاب عربي من المعدن وعلى آلات مربعة وأخرى مثابة من الخشب كان يأخذ بها أرصاده وعلى خارطات ملاحية عربية ممتارة موضح عليها خطوط الطول والعرض . (٢) .

(١) راجع G. Ferrand (1922) : « Pilote arabe de Gama Au XV siecle » .

Ananl de geog. Tem 31, PP. 289-307

(٢) راجع أنور عبد المليم : ابن ماجد الملاح « القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٦-٦٣ » .

ويختلف الكتاب حول اسم الربان العربي المسلم الذى أرشد دى جاما إلى الهند وإكنهم يجمعون على أن مرشداً عربياً كائناً ما كان اسمه هو صاحب الفضل فى أن يتم دى جاما رحلته ، وأن يكتشف الطريق إلى الهند ، ومهما يكن من أمر فقد كان شهاب الدين أحمد بن ماجد من أقدم من ألف فى علوم البحار فقد كتب فيها ثلاثين كتاباً أهمها كتاب « الفوائد » الذى نشره المستشرق الفرنسى جبرائيل فيران (١٩٢١ - ١٩٢٣) وقد ضم الكتاب معظم المعلومات النظرية والعملية التى تهتم الملاحين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وبحر الصين ، وقد جمع فيه خبراته الواسعة التى اكتسبها عن هذه البحار وأعماقها ، وشطوط المرجان فيها ، وجزرها ، وموانئها ، والرياح التى تهب عليها ، إلى غير ذلك من الأمور التى تهتم الملاحين . ويعتبر كتاب الفوائد أهم ما كتب فى أى لغة من اللغات فى العصور الوسطى عن الجغرافية الفلكية والملاحية بل أنه ليرد فيه لأول مرة اسم علم جديد هو علم البحر الذى تطورى فيما بعد إلى علم الاقيونوغرافيا Oceanography وهو يدل على التقدم الكبير الذى بلغه العرب فى فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر . حتى أن خوادى باروس Joao de Barros يذكر فى كتابه الكبير عن آسيا Da Asia 1553 أن جميع ما كتب عن هذه المنطقة فى كتبنا الجغرافية مستمدة من المعلومات الجغرافية العربية والفارسية (١) .

الأجهزة العلمية :

وما كان للعرب أن يقوموا بتلك الأعمال الضخمة التى حفظت لنا الكتب قليلاً منها لولا وجود الأجهزة الدقيقة التى اخترعوها أو نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا أو حسنوا فيها . ويأتى فى مقدمة الآلات الإبرة المغناطيسية أو البوصلة التى اختلف حول مخترعها فقال بعضهم بأنها من مخترعات الصين وأرجعها بعضهم الآخر إلى ايونان وقال جوستاف لوبون فى كتابه عن الحضارة العربية

(١) عن أنور عبد العليم : المصدر السابق ص ١٥٠ .

بأنها اختراع عربي أصيل وهو قول ان أعجزته أدلة الحزم القاطع لم تعوزه أدلة الترجيح . (١) ومن بين الأجهزة التي أخذوها عن الإغريق الاصطرلاب واللبنة وهي صفيحة مربعة مدرجة لقياس البعد بين شيئين ثم الحلقة الاعتدالية وهي حلقة مدرجة مثبتة على زوايا قائمة فوق سطح دائرة المعدل لقراءة الميل عند الزوال (٢) . وقد أدخل العرب كثيراً من التحسينات على هذه الأدوات وأضافوا إليها أجهزة أخرى من ابتكارهم مثل المزولة الشمسية ، وذات السميت والارتفاع ، وهي حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السميت وارتفاعه ، والحلقة الكبرى والحلقة الصغرى وغيرها من الآلات . وقد كان لصفحة الزرقالي أبعد الأثر في أوروبا فيما يختص بتحسين الاصطرلاب واستعمالاته وظلت معروفة لعدة قرون عند الفلكيين والملاحين .

وقد صنع الخوقندي (ت ٣٨٦ هـ - ٩٩٢ م) الذي عاش في بلاط فخر الدولة البويهى جهازاً عرف باسم « سداس الفخرى » يستخدم في معرفة ارتفاعات الأمكنة وكان هذا أساس الجهاز الحديث المعروف باسم جهاز السدس أو « صنديق سكستان » . وكان في مرصد شرف الدولة في بغداد (حوالى ألف ميلادية) كثير من مهرة صناع الأجهزة العلمية الدقيقة اشتهر منهم الكوهي وانصاغاني .

ولم يكن غريباً بعد هذا أن يكون العرب أعرف الناس بالنجوم ومطالعها ومغاربها واستخدام مجموعاتها في التعرف على الاتجاهات في عرض البحار ولا تزال الأسماء العربية التي وضعوها هي المستعملة في كتب الملاحة الغربية مع شيء من التحريف بسيط كما يتضح من الأمثلة الآتية :

(١) العقاد ، عباس « أثر العرب في الحضارة الأوربية » القاهرة الطبعة الخامسة ص ٥٠

(٢) نفيس احمد : المصدر السابق ص ١٧٧ .

| المرادف الأفرنجي | اسم النجم العربي |
|------------------|------------------|
| Achernar | آخر النهر |
| Aldebaran | الدبران |
| Alkaid | القائد |
| Altair | الطائر |
| Betelguese | إبط الحوزاء |
| Centaurus | قنطورس |
| Markab | المرقب |
| Mirfak | المرفق |
| Regal | الرجل |
| Famalhut | فم الحوت |

ويطون بنا الحديث إذا نحن استرسلنا في ذكر الأسماء والمصطلحات التي ابتكرها العرب ثم تابعهم في استعمالها الأوربيون .

شكل الأرض وأبعادها :

وكانت أوربا في العصور الوسطى لا تجمع على رأى بشأن كروية الأرض بل لقد اعتبر القديس أوغسطين كروية الأرض من المسائل التي لا يمكن التسليم بها . (١) وكان الفكر الأوربي وقد سيطرت عليه جهالة العصور الوسطى غير مستعد لقبول هذه الفكرة في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يجمعون على هذه الحقيقة فيكتب ابن خرداذبة المتوفى سنة ٨٨٥ م « أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالحبة في جوف البيضة » (٢) ويقول ابن رسته (ت ٩٠٣ م) « أن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً

(١) Sarton : Lntroduction to the History of Science Vol. II P. 46

(٢) ابن خرداذبة : «المسالك والممالك» ليدن- ١٣٠٩ هـ ص ٤

كاستدارة الكرة أجوف دوراً ، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك « (١) ويقول المسعودي (ت ٩٥٦م) وهو يتحدث عن جزر الأوقانوس أن الشمس « إذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين وذلك نصف دائرة الأرض » . ولم يلق العرب الكلام على عواهنه بل أقاموا البراهين على ما ذهبوا إليه فيقول ابن رسته « والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية قبل غيبتها عن المغربية ، ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو فإنه يرى وقت الحدث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض مثل (كسوف) القمر فإنه إذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً - أقول وجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المساحة بين البلدين (٢) .

ولو لم يشع العرب نظرية كروية الأرض التي قال عنها الاغريق الوثنيون من قبل لما خطر ببال رحالة مثل كريستوف كولمبس أن الاتجاه نحو الغرب يمكن أن يؤدي به إلى الهند ولما كان في استطاعته أن يكشف عن الدنيا الجديدة. فالعرب لهم فضل كبير في الكشف عن نصف الكرة الغربي لما أشاعوا من نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين ، ولا نريد أن نغالي فنقول ما قال به البعض بأن العرب قد اكتشفوا أمريكا بالفعل قبل أن يكتشفها كولمبس بعدة قرون ، فقصة الفتية المغربيين الذين تحدث عنهم المسعودي في مروج الذهب فذكر أنهم خاطروا وركبوا بحر الظلمات « ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا » . ثم وصف الأديسي رحلتهم في كتابه « نزهة المشتاق

(١) ابن رسته : « الأعلام النفيسة » ليدن - ١٨٩١ م ص ٨ .

(٢) ابن رسته : المصدر السابق ص ١٣ .

في اختراق الآفاق» ، هي كلها من باب القصص الذي لا يقوم لدينا الدليل
القاطع على صحته ، ولعل بعض العرب قد فكر فعلا في ارتياد بحر الظلمات
فلم يصلوا إلى غاية :

وكان الأغريق يقولون بأن الأرض ثابتة في مركز العالم وقد تابعهم
في ذلك الجغرافيون العرب الأوائل ، ولكن الشك أخذ يخامر فيما بعد
بعض الجغرافيين من أمثال أبي سعيد السنجاري وقطب الدين الشيرازي
وأبي الفرج الشامي ، فقالوا بإمكان حدوث حركة الأرض حول الشمس ،
وقد أعجب البيروني بهذا الرأي ولكنه تردد في الأخذ به ، وبذلك سبق
التفكير العربي الإسلامي التفكير الأوروبي بعدة قرون ، وفتح الطريق أمام
إصلاح كوبرنيكوس في سنة ١٥٤٣ وأنه من دواعي العجب أن يتأخر
عمل كوبرنيكوس إلى منتصف القرن السادس عشر رغم هذا الإرهاص
العلمي العربي المباشر .

وقد عني العربي فيما عنوا به من دراسة الأرض بقياس أبعادها ، وكانت
قد تجمعت لديهم آراء الهنود والأغريق وتقديراتهم المختلفة لمحيط الكرة الأرضية ،
ووجدوا أمام تباين الآراء أن يقوموا هم أنفسهم بقياس محيط الأرض بقياس
طول درجة واحدة على خط الزوال ثم ضرب الناتج في ٣٦٠ وهي نفس
الفكرة التي اتبعها اراتوستين Eratosthenes (القرن الثاني ق . م .)
في أسوان وخرج منها بتقدير طول الدرجة بمقدار $\frac{2}{3}$ ٦٦ ميل . وقد تمت
هذه المحاولة العربية لقياس محيط الأرض في سهل سنجار بشمال العراق
على عهد المامون وتحت إشراف أولاد موسى بن شاكر ، واختلفت طريقتهم
عن طريقة اراتوستين إذ أجروا تجربتهم عن طريق القياس المباشر للمسافة
على الأرض بين نقطتين في حين اعتمد اراتوستين على قياس ميل زاوية
الشمس في منطقتين مختلفتين ، وقد دلت التجربة العربية على أن طول الدرجة
عند خط عرض ٣٥ حيث أجريت التجربة هو ٥٦,٦٢٥ ميلا وهو طول

لا يختلف عن أحدث الدراسات التي تثبت أن طول الدرجة في نفس المكان هو ٥٦,٧٢٥ ميلا مما يدل على مدى دقة التجربة العربية في ذلك العهد البعيد.

الخرائط :

وقد أدرك العرب بفطرتهم السليمة أهمية الخريطة كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية وكان محمد بن موسى الخوارزمي من أسبق الكتاب العرب عناية بهذه الناحية فقد أضاف مجموعة من الخرائط إلى كتابه « صورة الأرض » الذي يقول عنه المستشرق الإيطالي نالينو أنه لا تستطيع أمة عربية في فجر نهضتها أن تنتج مثله ، ووضع البلخي أول أطلس عربي ألحقه بكتابه « صور الأقاليم » الذي لم يصل إلينا نصه الأصلي . وكان من ثمرات الجهود التي بذلت في عصر المأمون عمل نوع من الخرائط يسميها المسعودي « الصورة المأمونية » ويذكر أن الأرض قد صورت فيها على طريقة بطليموس المصري (١) وقد اجتمع لوضعها عدد من علماء العصر وصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه ، وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك فجاءت أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما . ومع أن العرب لم يتقدموا في فن عمل الخرائط تقدمهم في وضع المؤلفات الجغرافية فقد كانوا على أي حال أصحاب الفضل في الحفاظ على التراث الخارطي القديم ، وقد ارتبط علم الخرائط العرب منذ القديم باسم بطليموس فحفظ العرب تراث هذا الجغرافي المصري العظيم حتى نهاية العصور الوسطى ، وعنوا به أكثر مما عنيت أوروبا الوسيطة رغم أنها تدين هي أيضاً بالتراث . وكانت خارطة الأدريسي (في نحو سنة ١١٥٤ م) هي الأثر الوحيد الهام في الكارتوجرافيا الأوربية قبل القرن الرابع عشر الذي روعي فيه الأسلوب البطليموسي .

ولكن مهما يكن من أمر فقد كانت الخرائط العربية أفضل كثيراً من

(١) المسعودي : « التلخيص والاشراف » ليدن ١٨٩٣ ص ٣٣-٤٤ .

خرائط أوروبا المسيحية في العصور الوسطى حيث كانت الأساطير ذات الطابع الديني تمثل الملامح الرئيسية في خرائط العالم الأوروبية Mappae Mundi دون الاهتمام بمطابقتها للأفكار التي أثبتتها العلم ، ويظهر هذا واضحاً في خرائط بزالتير Psalter (نحو ١٢٠٠ م) وهيتيفورد Heterford (١٢٨٠ م) ومارينو سانوتو Marino Sanuto (١٣٢١ م) وايست Este (١٤٥٩ م) وهي كلها خرائط تبعد عن الواقع كثيراً .

ومع القيود التي كانت تعوق رسامي الخرائط في أوروبا فإنهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا الخطوات الواسعة التي خطاها جيرانهم المسلمون في ميدان المعرفة الجغرافية . وقد ظهر أثر النظريات العربية في رسم الخرائط واضحاً في الخارطة التي زود بها مارينو سانوتو كتابه « الأرض المقدسة » Opus Terrae Sanctae وقد وضع المؤلف خريطته لتوضيح فكرته التي ترمي إلى محاصرة العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً بقصد استناره بحرب صليبية جديدة (١) ويرى كراتشكوفيسكي أن الخريطة ليست سوى تكرار لجميع الخطوط العريضة المميزة لخارطة العالم في أطلس الإسلام مع اختلاف بسيط هو أن الأخيرة مركزها مكة أما الأخرى فكان مركزها بيت المقدس بطبيعة الحال . (٢)

ولعل أكبر خطوة خطتها الكارتوجرافية الأوروبية قد تمثلت في ظهور الخرائط الملاحية Portolani ويبدو في هذه الخرائط أثر الكتابات الجغرافية العربية واضحاً ، كما يبدو أن الخرائط نمتسها منثرة إلى حد كبير بالرسوم البحرية العربية التي سبقتها وكانت تستعمل في الملاحة العربية في المحيط الهندي على نطاق واسع حتى لقد أدهش الربان العربي أحمد بن ماجد رفيقه البرتغالي

(١) نفيس احمد : المصدر السابق .

Yule Cordire : « The Book of Ser Marco Pol. Vol. T. P. 133

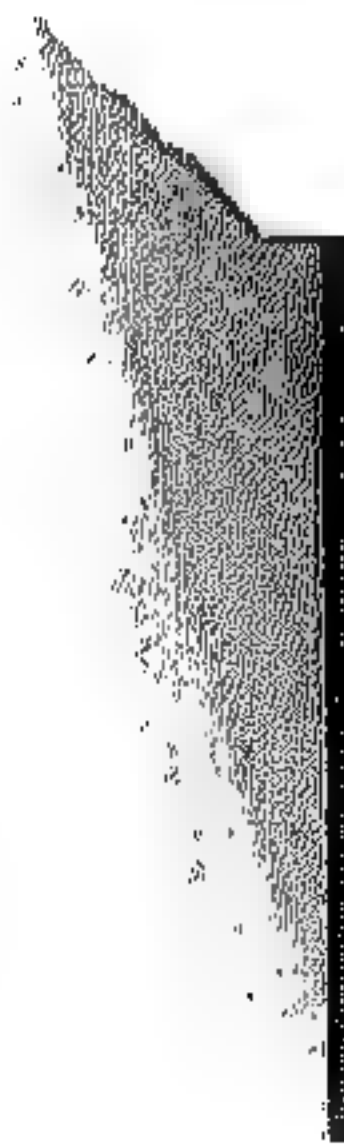
(٢) كراتشكوفيسكي : المصدر السابق ص ٢٦ .

فاسكودى بجاما بما أطلعه عليه من رسوم عربية للملاحة في المحيط الهندي ،
وحتى يذكر السير توماس رو Thomas Roe في سنة ١٦١٥ أنه قابل
في جزيرة مدغشقر المعلم إبراهيم الذي أصلح له لوحة رسمه (١) ويذكر
كبل في كتابه عن الجغرافية في العصور الوسطى وهو يعلق على خريطة ايبست
للعالم (نحو ١٤٥٠ م) أنها لا تدين بشيء إلى بطليموس بينما يظهر فيها الأثر
العربي بقوة ووضوح (٢) .

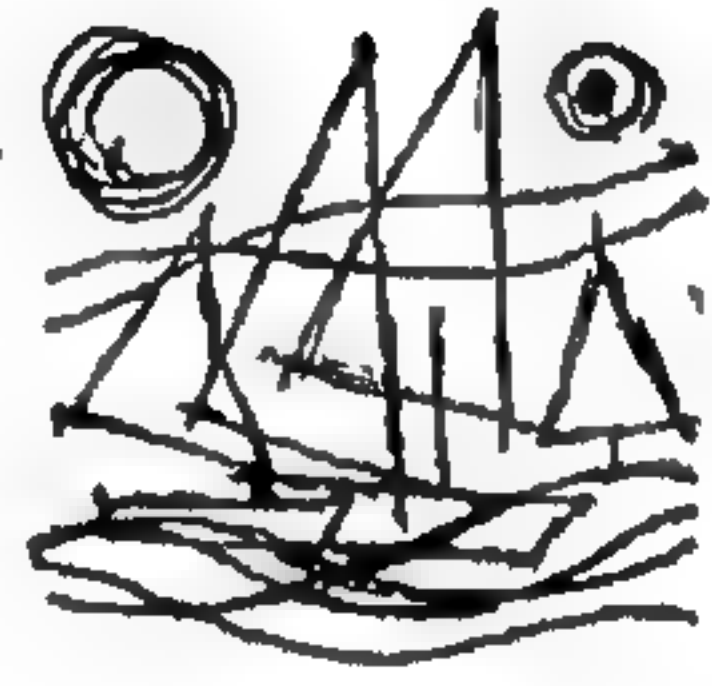
ونخلاصة القول أن الجغرافية الحديثة لم تنشأ نشأة مفاجئة وإنما تعود بجذورها
إلى العصور القديمة ، وكان العرب والمسلمون في العصور الوسطى هم حلقة
الوصل بين القديم والحديث فحافظوا على أروع ما في التراث القديم وأضافوا
إليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضارى ما تجمع لديهم من المعرفة
الجغرافية عن طريق الرحلات الواسعة التي سجلوا مشاهداتهم فيها بدقة
ووضوح ، وعن طريق الأجهزة العلمية التي ابتكروها أو حسنوا فيها ،
وعن طريق التفكير الحر الذى لم تقيده أغلال كتلك التي فرضت على التفكير
المسيحي طوال العصور الوسطى ، واستمرت جهودهم في تطوير الفكر
الجغرافى دون انقطاع حتى كان عصر النهضة والكشوف الجغرافية .

Ferrand, G. : « Introduction de l'Astronomie Arabe ». P. 236 (١)

Kimble : « Geography in the middle Ages. P. 197 (٢)



الفصل
السادس



في المعارف الملاحية

إعداد : دكتور حسين فوزي

المعارف الملاحية العربية في القرون الوسطى وأثرها في عصر النهضة

دعاني الربان الفرنسي لأخرج على سفينته في واحدة من رحلاته الطويلة
للصيد بخليج غسغونيا (بسكاي) . وكان الفصل شتاء قارساً ، والسفينة
« جويلان » تزينها في مطلع الفجر عقود الحديد تدلت من صواريخها وبطافوراتها .

دخلت على « الرئيس » بواييه في قمرة لأشكره ، وتقدمت بهديتي ،
قنينة من الروم الممتق . تلقاها وانحفاها بسرعة في خزانة حديدية ، وقال
وهو يشكرني : « إننا لا نلدوق الكحوليات القوية في عرض البحر أبداً .
ونحن إذ نرتاد الخانات على الأرض ، فللاجتمع بالربابنة الآخرين ، وتبادل
الرأى في شئون مهنتنا ، وبذلك نستل أسرار بعضنا البعض ، التماساً للتفوق
في مبارياتنا الدائمة ، وسعيّاً في سبيل الرزق » .

لا أسوق هذه الواقعة عفواً ، وإنما لتصوير جانب من طباع رجال البحر ،
وكل حريص ، حتى في عصرنا ، وفي صميم بلاد الحضارة ، على الاحتفاظ
بأسرار حرفته أو مهنته .

وموضوعي هو المعارف الملاحية العربية في القرون الوسطى ، وأثرها
في عصر النهضة (الرينسانس) فإذا كان العرب ، أو الشعوب التي وحدها
الإسلام في امبراطورية واسعة الأرجاء إبان القرون الوسطى ، قد أفادوا
بطريقة مباشرة بعض نواحي العلم الأوربي ، أو الفلسفة ، أو الطب ،
أو ما يكون ، مما هو ثابت لدينا فيما ترجم إلى اللاتينية من الكتب العربية ،

ومن مدارس غربية بعينها قامت على أساس بعض تلك العلوم والمعارف فليس من اليسير أبداً تقرير ما كان للملاحة العربية من أثر على هذا الغرب الأوربي ، إلا أنه يتضح بما لا يقبل الشك أن أوربا نقلت عن العرب بعض فنون قيادة السفن ، أو أن ملاحيها استرشدوا بربابنة من العرب ، أو المعارف الملاحية العربية قبل أن يسلكوا طرق الملاحة في البحار الشرقية ، أو استعملوا بعض أو كل الآلات والخرائط الملاحية التي كانت لدى رجال البحر المسلمين .

فمن خصائص هؤلاء ، عرباً أو عجماً ، بيضاً أو سمراً ، حتى وإن أسرفوا في قصصهم وحكايات مغامراتهم البحرية ، حرصهم على إخفاء دروبهم ومسالكهم إلى الموانئ البعيدة التي يحملون منها السلع . فلا يتوقع وقد اختصت مراكبهم منذ أقدم العصور — حتى قبل الإسلام — بتجارة نافقة بين آسيا وأوربا عن طريق الشرق الأوسط بجزراً وبراً ، أن يدل نواتيتهم ونواخلتهم بأسرار ملاحتهم إلى زبائنهم الغربيين .

ومن الثابت مثلاً أن خوان الثاني ملك البرتغال ، استدعى عام ١٤٨٧ المدعو بدرو دي كوفيلهان ، وزميله ألفونسو دي بايفا (Pedso de Covilhão & Alfonso de Paiva) ، وعهد إليهما بمهمة مزدوجة: البحث عن مملكة الملك « القس يوحنا » (Prester John) ، وهي دولة مسيحية في مكان ما من الأرض (الصين ، أو الهند ، أو ... الحبشة) « ومعرفة المكان الذي توجد فيه الدار صيني (القرفة) ، وغيرها من الأفاويه التي تستوردها البندقية عن طريق بلاد المسلمين (Moors) » .

والهدف الواضح من هذه المهمة كان : أولاً ، محاولة الاتصال بتلك المملكة النصرانية ، حتى تعمل الدول الأوربية المسيحية على مقاومة التوسع الإسلامي ، وثانياً : التغلب التجاري على البنادقة وذلك بمحاولة استيراد الأعطار والطيب والأفاوية بطريق مباشر إلى البرتغال ، ويبدو أن فشل محاولات سابقة مرجعه جهل الرسل باللغة العربية ، التي كان يتقنها كوفيلهان كاهلها .

وفي الوقت الذي اتجه فيه رسولا ملك البرتغال إلى الشرق ، كان بارتولوميو دياز (Bartolomeu Diaz de Novaes) يتم اكتشاف الطريق البحري من البرتغال حتى الطرف الجنوبي من القارة الأفريقية ، ويستدير حوله متجاوزاً رأس الأعاصير (الرجاء الصالح ، ١٤٨٧ - ١٤٨٨ م) .

سافر الرسولان من برشلونة إلى نابلي فجزيرة رودس فالاسكندرية فالقاهرة حيث ركبا في قافلة حتى الطور فسواكن ثم عدن . ومنها اتجه كوفلهان إلى الهند ، وبايضا إلى إثيوبيا . ولا يعرف ما حدث لهذا الأخير والغالب أنه مات في إثيوبيا . أما كوفلهان فقد وصل إلى قليقوط على الشاطئ الغربي (مليبار) للهند . وعاد منها بطريق جوا ثم هرمز (على الشاطئ الشرقي للخليج الفارسي) ، ومن هناك عبر إلى الشاطئ الأفريقي ، وتقصى أحواله جنوباً حتى سفالة الزنج (خط عرض ٢٠ جنوباً) . وعاد إلى القاهرة حيث قابل رسولين لملك البرتغال نقلا إليه أمر الملك بالبحث عن مملكة « القس يوحنا » ، فارسل مع أحدهما تفاصيل رحلته (١) ثم سافر إلى جدة (ويزعم أنه زار مكة والمدينة ، مما يؤكد أن نجاحه عائد لا إلى معرفته العربية فحسب ، بل إلى إدعائه الاسلام) وانتهى إلى زيلع ومنها نفذ إلى الحبشة حيث استقبله ماركها استقبالا حسناً ، واقطعه أرضاً ، وتزوج سيدة حبشية ، ولم يسمح له بمغادرة البلاد . وبعد ثلاثين عاماً وصات سفارة البرتغال إلى الحبشة ومعها المدعو الفاريز (١٥٢٠ م) فكان كوفلهان يحكم متعرفته باللغات والعادات الحبشية خير معين لسفارة بلاده .

ثم هذا مثل آخر من وسائل التعمية ، وابعاد المزاحمين والطامعين عن مصادر الثروة ، لا بين العرب والأوربيين ، بل بين الأوربيين أنفسهم ، ينقله من وصف رحلة انجليزية بدأت من بليموث عام ١٥٩١ ، أي بعد مضي

Francisco ALVAREZ: Verdadera infurmaçan das terras Preste Joam, (١) 1540 (English translation by Lord Stanley of Alderley: Portuguese Embassy to Abyssinia, 1881).

نحو قرن على اقتحام البرتغاليين لبحر الهند . رأسها جيمس لانكستر ، متجها إلى جزر الهند الشرقية ، وسجلها ريتشارد هاكليوت نقلا عن مساعد لانكستر أثناء تلك الرحلة .

كانت سفن لانكستر الثلاث راسية في مياه جزيرة زنجبار ، وقد أسرت فلوكة للمسلمين « كان عليها رجل دين لهم يدعونه في لسانهم « الشريف » ، وقد عاملناه أحسن معاملة ، مما أفاء علينا رضاء الملك ، فلرجال الدين عنده مقام كبير . وقدم لنا ميرة تكفينا شهرين . وعلمنا من هؤلاء المسلمين Moors بما يشيعه البرتغال بينهم عن الانجليز . فكان أهل زنجبار يتعجبون أننا قوم قساة القلوب ، ومن أكلة لحوم البشر ، والبرتغاليون يحذرونهم من الاقتراب منا ، إذا طلبوا لأنفسهم السلامة . وواضح أن البرتغاليين يفعلون هذا ليحولوا بيننا وبين الاطلاع على شئون البلاد وتجارتها » (١)

فنحن وارثي الحضارة العربية ، القوامين عليها ، لا نرضى لأنفسنا أن يغرر بنا الحماس حتى نضيف إليها جمائل ليست بحاجة إليها . وقد حرص المستشرقون على بحث موضوع المبادلات الحضارية بين الشرق والغرب وكان منهم العلماء المنصفون الذين وضعوا أمامنا كل ما توصلوا إليه من حقائق في أبواب العلوم والفلسفة والأدب والفن .. الخ . تؤيدها الوقائع والنصوص مخطوطة ومطبوعة ، والاحصاءات والبيانات .

وكل ما نملكه لموضوعنا هو ذكر وقائع ثابتة ؛ مع الافتراض دائماً أن تبادل المعارف بين الشرق والغرب بوجه عام كان له قطعاً أثر فيما انتهى إليه عصر النهضة «الرينسانس» من رغبة في الكشف عن العالم أو كما يقول بوركهارت « وعندما تخلص العقل الإيطالي من الأغلال الكثيرة التي عوقت

(١) C.F. REY: The Romance of the Portuguese in Abyssinia, Richard HAK-

LUYT: Voyages et Documents; selected by Janet HMPDEN. The World's Classics, Oxford University Press, London 1958 (p. 405, from Lancaster's Voyage to the East Indies).

التقدم في بقية أوربا ، وحينما بلغ الفرد درجة عالية من النمو ، وقد نشأ وترى على تعاليم القدماء ، اتجه إلى الكشف عن الكون لقد فتحت الحروب الصليبية للعقل الأوربي آفاقاً شاسعة ، وأيقظت في الناس رغبات قوية للسفر والمغامرة ... وحتى في الحملات الصليبية ، كانت اهتمامات الإيطاليين أوسع من غيرهم من الأوربيين لأنهم كانوا يملكون بالفعل قوة بحرية ، وكانوا على صلة تجارية بالشرق ... فبعد أن درجوا على الإقامة في موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط ، غدا أمراً طبيعياً أن يندفع كل مقدم من بينهم في عمار حركة المسلمين الدولية فرأوا كأن نصفاً جديداً من الدنيا قد تكشف لبصائرهم «(١) فقاموا بالمغامرات البحرية العظيمة التي أضافت شطراً كبيراً من المعرفة بالكوكب الذي نعيش عليه ، بحاره وشطآنه وقاراته وجزائره .



قبل أن ينتهي أجل القرن الخامس عشر ، وعلى التحقيق في سنة ١٤٩٨ ، استدار فاسكو دا جاما حول الطرف الجنوبي لأفريقيا ، واجتاز رأس الأمانة الطبية (الرجاء الصالح) ، وتابع الشاطئ الشرقي للقارة حتى بلغ مالندي إلى الشمال من سفالة الزنج .

وحسنت هذه الاستدارة الخلاف القديم بين بطليموس القلوذي وإيراتوسطين كان القلوذي يعتقد أن القارة الأفريقية تمتد طرفها الجنوبي إلى الشرق حتى يبلغ الأرخبيل الأندونيسي ، إنه كان يظن بحر الهند شبيهاً ببحر الروم . أما إيراتوسطين فهو القائل بأن البحر الغربي (الأطلانطي) يتصل بالبحر الشرقي (الهندي) حول الطرف الجنوبي من أفريقية . ويبدو أن حديث هيرودوت عن الرحلة المصرية التي وجهها الفرعون نخاو حول إفريقية من الشرق إلى الغرب (٢) ، اعتبرها الجغرافيون القدماء حديث خرافة .

(١) Jacob BURCZHARDT: The Civilisation of the Renaissance; Phaidon Press, London 1945; p. 171.

(٢) The History of HERODOTUS; translated by G. Rawlinson, Everyman's Library, 2 vols.; London: J.M. Dent. p. 302-303 in Vol. 1. (Book IV, Chap. 42).

وقد ظل الجغرافيون العرب يترددون بين الرأيين ، وكان رينو في بحثه القيم « مقدمة عامة للجغرافيا عند الشرقيين » (١) يحسن الظن دائماً بكل جغرافي عربي ينكر فكرة بطليموس ، ويتبع فكرة ايراتوسطين ، وهذا ما دعاه إلى اعتبار أبي الفداء جغرافياً أدق من الأدريسى .

خرج فاسكودا بجاما من لشبونه سنة ١٤٩٧ مدعماً بالخرائط والآلات الملاحية المعروفة في زمانه من « كوادرنات » (ربع دائرة) ، واسطرلاب وابرة مغناطيسية ، وبما تجمع له من شتى المعارف البحرية عن طريق ما ترجم من المصنفات الجغرافية العربية ، وما اجتمع لمدرسة الأمير هنري الملاح من معلومات ومخطوطات وبوتورلانات ، ونسخة من المحسطى لبطليموس ، نقلاً عن الترجمة العربية ، وربما كتاب « الطواف بالبحر الأرتيري » (٢) والخريطة التي صنعها الجغرافي الألماني مارتن بهائم (Martin BEHAIM) وكان فاسكودا على علم بما قيل عن ملاح يوناني اسمه هبالوس ، عرف كيف ينتفع باتجاهات الرياح الموسمية — ومن عرفها إن لم يكن من ملاحى بحر الهند ، عرباً أو عجماء ؟ — فانتفع بالجنوب الغربى منها ليجتاز المحيط الهندى إلى الشرق ملججاً ، كما استخدم الشمال الشرقى منها ليعود إلى الشاطئ الأفريقى . وفى ماليندى لحأ الملاح البرتغالى فاسكودا إلى ملك الناحية يسأله أن يعيره مرشداً بحرياً يتوجه معه إلى الهند . وبعد لآى وتردد ، ربما قطعه فاسكو بتهديد ملك ماليندى ، استجاب هذا الأخير إلى طلبه بنذب ملاح عربى . وقد جاء فى مذكرات الرحلة ، وفيما كتب عنها فى قريب من زمانها ، إن اسم هذا المرشد هو المعلم قانا ، أو قانقا ، وأنه مسلم من جوجرات بالهند (حسب رواية نخوان دى باروس مؤرخ الرحلة) . وتقول المذكرات : نخرجنا من ماليندى يوم الثلاثاء ٢٤ ابريل ، ومعنا المرشد الذى أرسله ملك تلك

(١) Joseph-Toussaint REINAUD : Géographie d'Aboulféda ; T.I. «Introduction à la Géographie des Orientaux». Paris, 1848.

(٢) The periplus of the Erythraean Sea : Translation and Notes by W. Schoff : New York, 1912.

الناحية ووجهتها شرقاً إلى قليقوت التي حدثنا ذلك الملك عنها . ويذكر
دى باروس بان فاسكو اطلع المعلم فانا على أسطرلاب خشبي كبير ، قطره
نحو ذراع ، وعلى بوصلة ، وكوادرنات ، فلم يبد المعلم دهشة لما رأى ،
بل كانت الدهشة من نصيب الأميرال البرتغالي ، حين أطلعه المعلم المسلم
على أسطرلاب من المعدن ، وعلى آلات مربعة ، وأخرى مثلثة ، من الخشب ،
لرصد الشمس والنجوم ، كما أطلعه على خرائط ملاحية رسمت عليها خطوط
الاطوال والعروض (١).

وصل داجاما إلى قليقوت فارسل واحداً من رجاله ، مع المعلم قانا لمقابلة
أولى الأمر الهنود ، وقضى المعلم ليلته عند واحد من معارفه ، يدعى أباسعيد ،
بضاحية من ضواحي قليقوت اسمها « مايوقاط » .

وتقول مذكرات الرحلة : « وسفن تلك الناحية — أى الشطر الغربي
من بحر الهند — كبيرة ذات أسطح (كويرتات) ، ولكنها مجردة تماماً
من المسامير ، ألواحها مربوطة بحبال من ليف ، ولدى ربابنتها بوصلات
يوجهون السفن بواسطتها ، وآلات للرصد والملاحة ، وخرائط بحرية .
واستولى فاسكو في واحدة من تلك السفن على كتب عربية للملاحة ، أرسلها
إلى مانويل ملك البرتغال .

كانت رحلة فاسكو داجاما استهلالاً لرحلات الاستكشاف التي انتهت
بالبرتغاليين إلى أرخبيل أندونيسيا ، وإلى جزائر الأفاويه (ملوكة ، ملوك
عند ابن بطوطة ، سنة ١٥١١ م) ، ومن الناحية الأخرى إلى البرازيل
(سنة ١٥٠٠ م) ، فالنزول بجرينلنده ، ونيوفوندلنده (١٥٠٠ - ١٥٠١ م)
ولإقامة علاقات تجارية مع الصين (١٥١٦ م) . أى كانت مطالع السؤدد
لهم في البحر الشرقي ، وفي العالم الجديد ، وقد أقاموا رباطات هامة يحصنونها
في مراكز استراتيجية على طول بحر الهند ، ومداخل البحر الأحمر وبحر
فارس .

João de BARROS : Asia ; ed. 1866, by A. & G. Grillo.

وبين أيدينا نص عربي من القرن السادس عشر (١٥٧٧ م) يظهر منه
منه كيف أدرك كاتبه تمام الإدراك ما حل بالعالم الشرقي ، حين تمكن الأميرال
البرتغالي من اقتحام البحر العربي ، والوصول رأساً إلى الهند .

قال هذا الكاتب ، واسمه قطب الدين النهروالي في كتابه : « البرق
اليماني في الفتح العثماني » :

« وقع في أول القرن العاشر الهجري ومن الحوادث الفوادح النوادر
دخول الفرقتال اللعين ، من طايفة الفرنج ، إلى ديار الهند . وكانت طايفة
منهم يركبون من زقاق سبته (مضيق جبل طارق) في البحر ، ويلججون
في الظلمات (الأطلانطي) ويمرون خلف جبال القمر ، وهي مادة أصل
بحر النيل ، ويصلون إلى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق
أحد جانبيه جبل ، والجانب الآخر بحر الظلمات ، في مكان كثير الأمواج
لا تستقر به سفائهم وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة
وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند ،
إلى أنخلص منهم غراب (أي سفينة) إلى الهند . فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة
هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد
صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له الملندي (الميراني - أميرال) ، وعاشره
في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك
المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج » .

« فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا
في بحر الهند وبنوا في كوة (جوا) في موضع من ساحل الدكن ، هو تحت
الفرنج الآن ، ثم أخذوا هرموز ، وتقوا هناك ، وصارت الأمداد تترادف
عليهم من الفرقتال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ،
ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ، وعم أذاهم
على المسافرين : فأرسل السلطان مظفر شاه ، سلطان كجرات يومئذ ،

إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى (السلطان الشهيد ، آخر سلاطين دولة المماليك البرجية) يستعين به على الأفرنج » (١) .

والأميرال البرتغالى الفونسودى البوكوبركه (Alfonso de ALBUQUERQUE) اقتحم بأسطوله بحر فارس واستولى على جزيرة هرموز كما اقتحم بحر القلزم (البحر الأحمر) وبين يديه خريطة بحرية من عمل ربان عربى يقول البوكوبركه فى تعليقاته « وقع فى اسارنا عند جزيرة سوقطرة نوقى مسلم ومعه « دليل ملاحى » يصف جميع موانى مملكة هرموز ، وهو من عمل ربان اسمه عمر » .

هذه بقدر علمى هى الوقائع الوحيدة فيما يختص بالملاحة العملية التى نستدل منها على أن الحضارة العربية مدت للغرب يداً مساعدة . ويكفى أن نذكر ما كان لهذا من أثر على العالم الشرقى كله ، لنجد أننا لم نبعد عن الصواب كثيراً عندما زعمنا بأن تبادل الخبرات والمعارف فى باب الملاحة العملية لم يكن أمراً سهلاً ، ولا مرغوباً فيه من الجانب العربى . وقد علق قطب الدين النهروالى على صنيع أحمد بن ماجد للغرب بما فيه الكفاية . فقد نعت « الفرقتال » بالملاحين ، ووصم الربان العربى بأقسى ما يوصم به شيخ مسلم ، حين ادعى عليه بأنه عاشر « الفرقتال اللعين » فى السكر ، ودله على الطريق إلى الهند فى حالة سكره ، فكانت النتيجة وبالا على المسلمين وغير المسلمين ، عندما انتهى البرتغاليون إلى إنشاء مستعمراتهم على طول بحر الهند حتى ملقا ، بل حتى مداخل بحر الصين فى أقصى الشرق ، ومداخل البحر الأحمر فى أقصى الغرب ، وتحكموا فى بحر عمان والخليج الفارسى .

أدرك صاحب « البرق اليمانى » ، وهو يكتب هذا ، أن اعتداء قد دهم العالم الشرقى ، ولا أظنه تصور أن صفحة كبرى من صفحات التاريخ كانت

(١) Gabriel FERRAND : Le Pilote arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques des Araves au Ve siècle. Annales de Géographie, XXXIe année, No. 172, 15 juillet, 1922, p. 289-307.

[تطوى ، وهى صفحة الملاحة العربية الرائدة فى القرون الوسطى ، تطويها دولة فى أقصى الغرب الأوروبى ، وتنتهى بها إلى السيطرة على داخل ومداخل المحيط الهندى والبحر الأحمر .

إلا أن حكاية السكر هذه بحاجة إلى التأمل ، وقد تلقى الشاك على صدق الرواية فيما يختص بالتعرف على شخصية مرشد الأمير الابر تغالى فاسكو داجاما .

نعم إن ابن ماجد يقول فى موضع من كتبه أنه نظم بعض أشعار فى البحر ، إبان « عصر الشيبية » . وحديث البحر عند الشاعر المسلم لا يثبت أو ينفى إقباله على معاقره بنت الحان ، وهى ، ولحم الخنزير ، من المحرمات فى الإسلام ، ونحن حيال رجل قدر الباحثون عمره عندما قاد سفينة فاسكو بقرابة ستين عاماً . ويزعم النهر والى أن هذا الرجل هو بعينه الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى ، الملقب بشهاب الدنيا أيضاً ، وأسد البحر ، وليث الليوث ، ورابع ثلاثة من المعاملة المشهورين فى البحر : محمد بن شاذان ، وسهل ابن ابان ، وليث بن كهلان . وهو القائل فى واحد من كتبه : « وينبغى أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة ، فانك فى السفينة ضيف من أضياف البارى عز وجل ، فلا تغفل عن ذكره » . وذكرى ذلك الشيخ الجليل ما برحت عاطرة عند ملاهى جنوبى البحر الأحمر وخليج عدن ، والبحر العربى ، والخليج الفارسى ، من العرب الحضارمة والعمانيين ، ومن أهل الصومال المسلمين . يقرعون سورة الفاتحة على اسمه كلما اقلعوا . ذكراه حية فى مؤلفاته الملاحية ، صاغها فى منظومات وأراجيز يفتحها ويختمها بذكر الله ، ويؤكد فيها مسئولية الربان حيال السفار saelor والنواتية ، وينصح النواخذة بقوله : « الحذر كل الحذر من صاحب السكان ، لا تغفل عنه ، فإنه أكبر أعوانك فلم تدر كذا عند النكبة من غريمك من أهل السكان . وما صنعت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لى خمسون سنة ما تركت (فيها) صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه ، أو من يقوم مقامى » .

وسواء نظرنا إلى قصة النهر والى من الناحية الخلقية أو العقلانية أو الفنية البحرية ، فإن من الصعب تصديقها . وسواء عاقر ابن ماجد الخمر بصحبة فاسكو ، أو لم يعاقر ، فمن المقطوع به عند كافة أهل البحر فى كل زمان ، أن المعلم العربى والأميرال البرتغالى لا يمكن أن يكونا قد قضيا أوقاتهم فى قمرة الربان سكرأ ، وإلا لما وصلا إلى الهند ، بل الأغلب أن كانوا استقروا هم ورجال السفينة فى قرار مكين ، قرار « جون دورى » كما يقول رجال البحر الانجليز .

فإن خامرنا الشك فى حكاية السكر تلك ، فلسنا متاكدين تماماً من أن ابن ماجد هو المعلم قانا .

إنما المهم فى حديث النهر والى أنه يصور مفرق الطرق بين حضارة طالعة ، وحضارة هابطة ، والمعلم شهاب الدين بن ماجد هذا ، قد اجتمعت له علوم الأولين والآخرين فى ركوب البحر . وهو من أسرة عريقة من النواخذة ، ظل اسمه معروفاً على شواطئ بحر الهند حتى القرن الماضى ، بل حتى النصف الأول من هذا القرن ، كما تحققت بنفسى من بعض نواخذه تلك النواحي . ولقد جرى لي حديث سنة ١٩٣٤ مع وزير من وزراء حكومة المجلدب (ذبية المهل) أثناء زيارتى لمالى عاصمة ارخبيل الألبى جزيرة ، فى حكم السلطان اسكندر .

ترك المعلم أحمد وثائق هامة للملاحة فى البحار الشرقية ، أهمها كتاب « الفوايد فى أصول البحر والقواعد » . مؤلف فى محض ، يعنى بالمصطلحات البحرية والفاكية ، والقواعد التى ترشد الملاح فى عرض المحيط ، وعند الاقتراب من الجزر أو التروش Shoals والأعاصير ، أو عند الخطف من الموانى أو دخولها ، كتاب شبيه بما نراه فى كتب الملاحة الحديثة المعروفة باسم the shalloug وان كتب نظماً .

ولابن ماجد كتب ملاحية أخرى تبلغ نحو ثلاثين ، أهمها ما ذكرنا ،

يتلوه كتاب « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » ، ثم أرجوزات
ترشد إلى أمكنة بعينها، من رأس حافوني إلى باب المندب Bab el Mendeb
(المندم) مثلاً ، أو إلى مداخل الخليج الفارسي .

Juan de Baros ونخوان دى باروس الذى أرخ لرحلة فاسكويقول
عن جزر البحرين : « كل ما جاء فى كتاب الجغرافيا الكبير عن هذه المنطقة
مستمد من المعارف الجغرافية العربية والفارسية » .

والفونسو دى ألبوكويركه ، فى تقريره عام ١٥١٢ لملك البرتغال ،
أرفق خريطة بحرية كبيرة لربان captum من جأوة موضح عليها « رأس
الأمنية الطيبة » ، والبرتغال والبحر الأحمر ، وبحر فارس وجزائر ملوكة
Matacca (ملوك) فالممرات الملاحية إلى الصين .

وإذا زعمنا بان الصليبيين هم الذين نقلوا البوصلة من العرب ، فليس
ثمة ما يؤكد أو ينفي هذا القول ، لا سيما وان ربانة جنوا والبندقية لم ينتظروا
نقلهم لحملات الصليبيين إلى الأراضى المقدسة ليعرفوا أن ملاحى العرب
يستخدمون « بيت الإبرة » Joseph-Toussaint :

إنما المؤكد هو أن الصينيين كانوا أول من استعمل البوصلة فى الملاحة .
ولقد حدثنا رينو Reynaud فى النصف الأول من القرن الماضى خلال
بحثه القيم الذى لم تبلى جدته على وجه العموم : Introduction à la Géographie
des Orientaux, Paris 1848. مقدمة عامة للجغرافيا عند الشرقيين « (١) » ،
استعملت فى الشرق والغرب معاً حوالى ختام القرن الثانى عشر والثالث عشر ،
ولكننا لا نعرف فى أى عصر على وجه التحقيق اكتشفت خاصية قطعة من
الحديد لامست بالحلك حجر المغناطيس ، فى أن طرفاً منها يتجه إلى الشمال ،
وأقل من ذلك الاستدلال على البلد الذى اكتشفت فيه هذه الخاصية . ويزعم
الصينيون أنهم اكتشفوها لقرون عدة قبل الميلاد ، ويسمونها « العجلة
(= العربية) التى تبين اتجاه الجنوب » . ورينو لا يرى مجالاً للريب فى أنهم

كشفوا عن هذه الخاصة ، إنما هو يشك في استخدامهم لها في فن عويس كفن الملاحة ، وإلا كان الملاحون العرب والفرس عرفوا بأمرها ، وأشاروا إليها في كتاباتهم .

ويقول رينو إن أول ذكر لاستعمال منظم للبوصلة جاء في مؤلف صيني من القرن الثاني عشر الميلادي . وينبغي تجنب المغالاة في أثر هذا الاكتشاف على تقدم فن الملاحة عند الصينيين أو العرب والفرس ، « فهذا الفن الذي نما نمواً عظيماً في أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، والذي يعرف الآن اصطلاحاً بالهيدروجرافيا ، أرسيت قواعده الثابتة خلال القرن الثامن عشر ، مع تقدم علوم الهندسة والفلك » (١) . فالبوصلة لا توضح سوى الاتجاه فحسب ؛ إما أن يعرف الملاح موضعه وسط البحر فدليله هو حركة الأفلاك : وقد استخدم الأسطرلاب لهذا الغرض ، وكان آلة لا يمكن الاعتماد على دقتها فوق سفينة يتقاذفها العباب .

وقد عثر جابريل فران في كتاب « وصف كمبودجيا » (سنة ١٢٩٧م) ، أشار إليه هيرث « HIRTH » في مؤلفه عن « تاريخ الصين » ، على بعض بيانات عن ميناء كانتون في ختام القرن الحادي عشر ، منها فقرة تشير إلى طريقة لمعرفة الاتجاه : « إذا اكْتَفَهَرَّ وجه السماء بالنهار استعان النواخذة بالأبرة » (٢)

كما وفق فران إلى اكتشاف مخطوط عربي بالمكتبة الأهلية ببافيس عنوانه عنوانه كتاب « كنز البحار في معرفة البحار » ألفه المدعو بيلق القبحاقي تاريخ المخطوط ١٢٨٢م (جاء فيه أن ربابنة بحر سوريا يتلمسون طريقهم في الليالي الحالكة « بإبرة معلقة في حلقة من خشب السنط ، تطفو فوق الماء فتشير

REINAUD : Op. cit.

(١)

G. FERRAND : Introduction à l'astronomie nautique arabe (Bibliothèque des géographes arabes, publiée sous la direction de G. Ferrand, I) Paris, 1928. (٢)

إلى الشمال ، ويقول بيلق بأنه عاين ذلك بنفسه خلال رحلة بحرية من طرابلس
إلى الإسكندرية عام ٢٤٢ م . (١)

ويصف المقریزی في الخطط (٢) (١٤١٠-١٤٣٠ م) . الإبرة بأنها قطعة
رقيقة من المعدن مطروقة على شكل سمكة . تطفو فوق الماء ، فعندما تستقر السمكة
يشير فيها إلى الجنوب .

وكل هذا لا يفيد شيئاً فيما نحن بسبيله ، فهو لا ينفي ولا يؤكد انتقال
البوصلة من العرب إلى الأوروبيين أو العكس ، والصينيون في الحالين هم أول
من لاحظوا خاصية الحديد الممغنط .

يبدو إذن أن عملنا بعد كل ما ذكرنا عن فاسكو والمعلم قانا (أو ابن ماجد) ؟
والبوكويركه ، والمعلم عمر ، لن يتعدى الاستنتاج على أساس من الاستقراء ،
قد ينأى بالباحث عن موضوعية العلم ، فيؤدي به تحمسه للحضارة العربية
على إرجاع كل تقدم ملاحى في الغرب إلى أبناء تلك الحضارة ، وهذا ما نرفض
أن نستدرج إليه .

واجمالاً للقول ، نحدد الأسس التي يبنى عليها الاستقراء عن
موضوعنا والبحث عن أثر الملاحة العربية على أوربا في عصر الرينسانس : .
الأساس الأول : التجارة والملاحة مظهران من مظاهر العمران والحضارة
ومقوماتهما .

الأساس الثانى : ألا تفصل بين الملاحة والتجارة ، فالملاحة والتجارة
من وسائل الاتصال بين الأمم . إنما تتخذ الملاحة أهمية خاصة في دراسة
الحضارات لما يقتضيه القيام بها من وعى الكثير من الظواهر الطبيعية ، كالرياح
ومطالع النجوم ، ودراسة خصائص البحر من مدن وجزر وتيارات ،

G. FERRAND : Op. cit.

(١)

MAKRIZI : Topographie

(٢) المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار

éd. Wiet, in Mémoires de l'Institut français d'Archéologie orientale ;
5 tomes, Le Caire, 1911-1928.

ومعرفة تامة بالفصول وأثرها في البحار . الملاحه فن من أدق الفنون مؤسس على غير قليل من العلم والمعرفة والخبرة . والاقيانوس هو الممتد الشاسع من الماء يشبه بعضه بعضاً ، ويتغير سطحه بتحريك الرياح ، وتبديل ألوانه تبعاً لما يعيش في باطنه من أحياء ، وما بقاعه من تضاريس ، وما ينعكس على صفحته من أضواء السماء ، وأشكال السحب وألوانها . والأنسان في قول أحد الخلفاء الراشدين إذا ركب البحر « دودٌ على عود » يكنى أن ينكسر به العود ليلقى نفسه في وسط لم يخلق للحياة فيه خلقة السمك ودواب البحر . وقد يكتفى الإنسان في بداوته وفطرته بالملاحه محتضناً الشاطئ ليتعرف طريقه ، ولا يستكمل الإنسان الاستفادة من ركوب البحر إلا أن يستقل عن البرور ، ويستسلم للبحر الواسع العريض ، حيث يطمئن إلى عمق الماء ، وسلامته من التروش والأقاصير currents and undercurrents ، وحيث يتسع له مجال المناورات بواسطة الشراع والسكان rudder ، وهو في مأمن من ربح كوس تلقى به إلى البر فتحطم سفينته تحطماً .

الأساس الثالث : حضارة اليوم ، بنت مصر ويونان وروما والمسيحية وعصر النهضة ، تدين للحضارة العربية بفضل نقل علوم العالم القديم وفلسفته (من فارس والهند واليونان) إلى أوربا . ولم يكن مجرد نقل أصم ، بل مدعماً بالشروح مزوداً بتفكير أصيل .

ولهذا يصعب إنكار ما للعرب من أثر في تقدم المعارف الجغرافية ، عن آسيا وإفريقية : فقبل أن توجه الإمبراطورية الإسلامية عنايتها إلى العلوم اليونانية والفارسية والهندية ، كانت معرفة البلدان لازمة من لوازم الفتح والتوسع . وقد وجد الغزاة المسلمون سبيل التوسع ممهداً بفضل طلائع التجار والملاحين من العرب والفرس الذين تجشموا الصعاب في البحر والبر ، وأنشئوا مراكز للتجارة على شواطئ البحر الشرقي الكبير قبل ظهور الإسلام ، وتجمعت المعارف الجغرافية حول مغامرات أولئك الرجال . فلما بدأ تكوين الإمبراطورية الإسلامية ، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبريد ،

وتعرف طرق الملاحة ؛ وكان هذا أو ذاك أساساً من الأسس الهامة للجغرافيا العربية ، اعتمد عليه أمثال ابن خردادذه وابن قدامة . وعندما كان الجيهاى يعنى بجمع المعلومات عن البلاد الأجنبية ، لم تكن عنايته خالصة لوجه العلم ، بل كان يتم عمل أولئك الرحالين فى إعداد سبيل الفتوحات وتمهيد مسارحها . فالجغرافيا العربية ، كما قال فيفيان دى سان مارتان ، شبيهة بالجغرافيا الرومانية فى أن أصحابها عرفوا الأرض عن طريق الفتح (١) ، بل أيضاً عن طريق الرحلات التجارية ، فهى جغرافيا وصفية عملية ، قبل أن يعنى المأمون بترجمة كتب بطليموس القلوذى ومارينوس الصورى ، Abbassides ، أو بقياس الدرجة الفلكية فى وادى سنجار Zenith .

ولا يعنى هذا بالضرورة أن عصر « الرئيسانس » قد نقل عن الحضارة العربية معارفه الملاحية . ولكن أمامنا كثيراً من الدلالات على اتصال الشرقيين الأتقي والأدنى ، والشمال الإفريقى ، بالغرب الأوروبى . وهذا الاتصال واضح كل الوضوح فى مواضع أو حقبات أربع : أولها الصلات التى قامت بين دولة العباسيين وبين العرب ، وثانيهما دولة الأمويين فى الأندلس ، وثالثهما فتح العرب لجزيرة صقلية ، ثم إجلأؤهم عنها ، مع إبقاء دولة النورماندين على نظم الجزيرة من حيث الإدارة ، واتساع صدرهم لسكانها العرب ، وعناية ملوكهم بالعلوم العربية ، واستقبال حملة هذه العلوم من العرب أحسن استقبال ، حتى أن بلاط أسرة الأنجفين فى بلرمو يوصف باختلاط ثقافى الشرق والغرب وتقاليدهما ، وبخاصة فى حكم روجر الثانى Roger ، والامبراطور فردريك الثانى furlough sind آل هوهنشتاوفن . Hohenstauffen ورابعهما : محاولة الصليبيين السيطرة على الشرق الأدنى بحجة حماية الأماكن المقدسة . كان هذا قطعاً اتصالاً حضارياً إيجابياً .

أما الصلات التجارية بين الغرب والشرق فإن ابن خردادذه فى كتابه « المسالك والممالك » يحدثنا عن « مسلك التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون

(١) Vivien de SAINT-MARTIN: Histoire de la Géographie. Paris 1873.

بالعربية والفارسية والرومية Greek والافرنجية والأندلسية والصقلية ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والحواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف . ويركبون من فرنجة Atlantic Ocean في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً . ثم يركبون البحر introduction السويس الشرقي من القلزم إلى الحجاز وجددة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني ، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي ، حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي ، فرمما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم ، وربما ساروا بها إلى ملك فرنجة ، فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي ، فيخرجون بانطاكية ، ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الحابية ، ثم يركبون في الفزات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الأبلّة ، ومن الأبلّة إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل ببعضه ببعض . (١)

ونوجه النظر إلى هذه الحملة الأخيرة « كل ذلك متصل ببعضه ببعض » .

وخير ما يلخص ما نحن بصدد من الصلات بين الشرق والغرب هو الحديث عن الجغرافي العربي الكبير ، الشريف الإدريسي ، ونقدم له بما جاء عنه في كتاب المؤلف من أهل القرن الرابع عشر ، وهو الصفدي (توفي عام ١٣٦٣ م) قال :

« رجار ملك من الفرنج ، صاحب صقلية ... ويقال فيه أجمار ... » -

(١) Liber viarum et regnorum, auctore Abu'l Kasim 'Obaidallah ibn Khordad-
hbeh.... quem cum versione gallica edidit, indicibus et glossario instruxit
M. De Goeje. Leyde, 1889.

(كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة ، نشر وترجمة دي خوي . ليدن ١٨٨٩)

كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية ، وهو الذى استقدم الشريف الإدريسي ، صاحب كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) من العدو إليه ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم : فلما وصل إليه أكرم نزله ، وبالع فى تعظيمه . فطلب منه شيئاً من المعدن ليدع منه ما يريد ، فحمل إليه من الفضة الحجر وزن أربعمئة ألف درهم ، فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضاً على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص : فاعجب بها رجاء ... وسأله المقام عنده ، وقال له أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين ، عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك . فاجابه إلى ذلك ، ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك - وكان يحىء إليه ركباً بغلة ، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى ، فيجلسان معاً - فقال له : أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ، فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكاء ، وجهزهم رجاء إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته . فكان إذا حضر أحد منهم بشكل ، أثبته الشريف الإدريسي ، حتى تكامل له ما أراد ، وجعله مصنفاً ، وهو كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الإدريسي . (١)

ويعلق المستشرق الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى على هذه الفقرة قائلاً : « وروجرو قد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر ، كان على معرفة جيدة بالاثنتين . وتكليفه عالماً عربياً بالذات وضع وصف للعالم المعروف آنذاك ، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية فى ذلك العهد ، وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق . وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقى ، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف » .

I.I. KRACHKOVSKI: Istoria Arabskoi Geograficheskoi Literatury. (١)

نقلا عن « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » تأليف 1957، Moskva-Leningrad، اغناطيوس

يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٣

ويعجد الشريف الأدريسى راغيه patron الملك النورماندى بطريقة
الآداب الشرقية التى تنسب الفضل كل الفضل ، حتى العمل العلمى نفسه ،
إلى ولى النعم ، قال :

« فمن بعض معارفه السنية (أى روجر) ونزعاته الشريفة العلوية ،
إنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته ، وأطاعه البلاد
الزومية ، ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيات
بلاده حقيقة ، ويقتلها يقيناً ونخبة ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ،
وفى أى إقليم هى ، وما يخصها من البعائر والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة
غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون ،
وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى
عليه ، ويرجع إليه ، ويعد منه ، يطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن
من علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد
الحيهاني ، وكتاب أبى القاسم عبيد الله بن خرداذبه ، وكتاب أحمد بن عمر
العندري ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب جناح
ابن خاقان الكيماكى ، وكتاب موسى بن قاسم الفردى ، وكتاب أحمد
ابن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب
قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس الأقلوذى ، وكتاب ارسىوس (أوروذىوس
= هرشيش) الأنطاكى .

« فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً ، بل وجده فيها مغفلاً ،
فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه ، فلم يجد
عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة . فلما رأهم على مثل هذه الحال ،
بعث إلى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسأهم عنها
جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح فى جمعه نقلهم ، أثبت وأبقاه ،
وما اختلفوا فيه ، ألغاه وأزجاه ، وأقام فى ذلك نحواً من خمس عشرة سنة ،
لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن ، والكشف عنه ، والبحث

عن حقيقته ، إلى أن تم له فيه ما يريده . ثم أراد أن يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم في ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها ، فاحضر إليه لوح الرسم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد ، شيئاً فشيئاً ، مع نظره في الكتب المتقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها ، وأمعن النظر في جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها ، فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة دائرة مفصلة عظيمة الحرم ضخمة الجسم ، في وزن أربعمئة رطل بالرومي . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها . وسيفها وريفها ، وخليجانها ، وبحارها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة ، على نص ما يخرج إليهم ممثلاً في لوح الرسم ، ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم له فيه . وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها ، وأجناس بنائها ، وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها ، والصناعات التي تنفق بها ، والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هي من الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينهم وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق . وكان ذلك في العشر الأول من يناير ، الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمسمئة فامتثل فيه للأمر ، وارتسم الرسم » . ونحن نعرف ما صنع الأمير البرتغالي هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) بمدرسته الملاحية في ساجريس بإقليم الجرف في الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد جمع لها وفيها الملاحين والجغرافيين أعداداً لاقتحام الأطلانطي ، واكتشاف الشاطئ الأفريقي . ومن قبله جمع الفونسو

العاشر الملقب « بالحكيم » (١٢٢١ - م ١٢٨٤) ملك قشتالة ولاون ،
فريقاً من العلماء العرب فأصدروا « التريج الآلفونسي » (١٢٥٠ م)
أى الجداول الفلكية الخاصة بمنازل الشمس والقمر والكواكب والنجوم ،
وقد نسخت منها صور لمساعدة الملاحين الأسبان .

وعندما طرد اليهود من مدينة قشتالة Andalusia عام ١٤٩٢ م ، حملوا
معهم علوم العرب الملاحية ، وجداولهم الفلكية ، ومن بينها « المرشدات
الملاحية » ، والبورتولانات ، وكانت مدرسة قشتالة من المدارس الرائدة
في هذه العلوم .

أما عن أثر الحروب الصليبية في تأثر الغرب الأوربي بالشرق العربي ،
فإن الأستاذ أرنت باركر موقفاً سلبياً ، ونقداً مباشراً وجهه إلى الأستاذ
هانس بروتس (١) مؤلف « التاريخ الثقافى للحملات الصليبية » فهذا الأخير
يعزو نمو أوربا فيما بين عامى ١١٠٠ ، ١٣٠٠ م ، إلى الحملات الصليبية
وحدها ، وهو النمو الذى مهد لقيام عصر النهضة وعصر الاكتشافات الجغرافية
وعصر الإصلاح الدينى . والسير إرنست باركر يعتبر هذه الحملات عنصراً
واحداً ضمن عناصر عدة شاركت في هذا النمو . وبينما اعترف بروتس ضمناً
بأن اسبانيا وصقلية مصادر هامة لما كان للحضارة العربية من أثر في القرون
الوسطى ، فإنه أكد على أن لقاء الغرب والشرق على أرض فلسطين كان الأهم
والأعظم أثراً . وفي هذا يقول إرنست باركر : « وهنا يتضح لنا الخطأ
(الحجة المضللة Fallacy) في التركيز على سبب واحد » ، وبخاصة
عندما تشير إلى أن السبب الآخر (وهو امتزاج العناصر الشرقية والغربية
في إسبانيا وصقلية) كان الأقوى والأكثر نفاذاً . وقصارى القوى لا يمكن
التخلص ، ونحن نقرأ مؤلف بروتس ، من الإحساس بأنه هون كثيراً من ثقافة
الغرب اللاتينى ، وجنح إلى المغالاة وهو يحاى ثقافة الشرق العربى كما كانت
حوالى عام ١١٠٠ م ، ليفسح المجال لأثر الحملات الصليبية فيما نقلته من الشرق

Hans PRUTZ : Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883. Book V (١)
(3rd. Vol.), pp. 498-500.

إلى الغرب وهو أكبر مما تقبله شواهدنا وبَيِّنَاتنا « (١).

وسواء رضى القارىء بما يذهب إليه السير إرنست باركر أستاذ العلوم السياسية بجامعة كمبردج^١، أو انحاز إلى آراء العلامة الألماني بروتس ، فلا خلاف على ما كان للحضارة العربية من أثر في الغرب الأوروبي ، سواء رجحت كفة الحروب الصليبية ، أو كفة اتصال الثقافة العربية بالغرب في إسبانيا وصقلية.

لقد حققت الجغرافيا العربية منذ عصر المأمون ، بدءاً بترجمة كتب بطليموس ، سواء في هذا الجغرافيا الوصفية ، أو الجغرافيا الفلكية الرياضية ، حققت لعصر النهضة الأوروبية في فلورنسا وجمهوريات البنادقة والامالفيين والجنوفيين ، ثم في ممالك قشتالة والبرتغال ، حينما اتجهت هذه الممالك إلى الأسفار للكشف عن أرجاء العالم ، أقول حققت ذخراً علمياً هاماً أعان روادهم العظام على اقتحام البحار . وسواء نظرنا إلى رحلات البرتغاليين إلى الشرق أو كولبوس إلى الغرب ، فقد كانت الوسيلة واحدة ، وهى السفينة والخارطة والآلات والعلوم الملاحية ، وكان الهدف واحداً : التوصل إلى الهند والصين . وأنه ليدعو إلى الابتسام حقاً حينما نطالع كيف كان الملاح الجنوفى الباسل (كولبوس) يتبين في كل ما يسمعه من رطانة سكان جزر أميرىكا الوسطى أسماء مواضع وأشخاص تؤكد لديه بانه إنما بلغ أطراف شرق آسيا ، ولم يكتشف أرضاً جديدة ، بل عالماً جديداً .

وليسمح لى القارىء بأن أختتم هذا الفصل بكلام علامة مستشرق كبير ، كان تلميذ سلفستر دى ساسى الأثير ، ألا وهو جوزيف توسان رينو الذى ترجم ونشر جغرافية الأمير عماد الدين أبى الفداء الأيوبي ، الملقب بالملك المؤيد ، وقد مهد لهذا المؤلف في مجلد خاص ، ببحثه المشهور : « مقدمة عامة لجغرافيا الشرقيين » . قال رينو في ختام بحثه هذا :

The LEGACY of ISLAM; edit. Thomas Arnold & Alfred Guillaume; (١)

Oxford U.P. 1931. «The Crusades», by Ernest Barker; pp. 50-52.

« كى يكون حكمنا على أعمال العرب سليما ، يجب أن نصعد فى التاريخ إلى ما قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، والقارة الأميركية ، لأننا حينذاك سوف نتبين المكانة العظيمة لتلك الأعمال ، ونصيبها من المكتشفات التى تمت فيما بعد . لقد تناول العرب مشعل العلوم ، وذبالته وشبكة الانطفاء ، ورعوا شعلتها المقدسة ، فكانوا بذلك أدلاء ومرشدين لرجال البحر الأوروبيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر » .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٦٧

حسين فوزى



في التاريخ

إعداد : الدكتور جمال الدين الشبال

فهرس الفصل السابع

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| معاير انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا | ٣٥٩ |
| اسبانيا | ٣٦٤ |
| صقلية وإيطاليا | ٣٧٩ |
| الشرق الأدنى إبان الحروب الصليبية | ٣٨٨ |
| بعد الحروب الصليبية | ٣٩٨ |

Table with multiple columns and rows, containing text and numbers. The table is oriented vertically on the right side of the page.

Table with multiple columns and rows, containing text and numbers. The table is oriented vertically on the right side of the page.

معابر انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا

ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي ، ثم خرج العرب من صحرائهم يحملون رسالة الدين الجديد ، يطرقون بها أبواب الامبراطوريتين المجاورتين : الفارسية شرقاً ، والبيزنطية غرباً ، وقضوا على الأولى نهائياً وورثوا ملكها ، وصارت جزءاً من الدولة الإسلامية الجديدة ، واقتطعوا من الثانية أهم أجزائها المطلة على البحر الأبيض المتوسط في الشام ومصر وشمال إفريقيا ، ثم عبروا المضيق إلى أوروبا فاستولوا على اسبانيا ، وتقدموا شمالاً إلى أن وقفت جيوشهم عند جبال البرنات Pirineos .

وخلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة رسخت أقدامهم في هذه البلاد المطلة على البحر ، وأدركوا ماله من أهمية في الدفاع عن ممتلكاتهم وفي محاولة بسط نفوذهم على ما بقي من شواطئه جنوبي أوروبا ، فبنوا دور الصناعة وأنشؤا الأساطيل واستعانوا بها في الاستيلاء على الجزر المتناثرة في البحر يتخذونها قواعد للهجوم على السواحل الجنوبية لأوروبا ، فضموا جزيرتي صقلية وكريت ، وتوالت غاراتهم العدائية على جزيرتي سردينيا وقبرص ، وعلى شواطئ إيطاليا الجنوبية ، بحيث خضعت بعض مدنها كمدينة باري Bari لحكم المسلمين ، بينما خضعت مدن أخرى مثل أمالفي Amalfy لنفوذهم .

وإلى الشرق ، وفي نفس هذه الحقبة من الزمن كانت حشود الدولة الإسلامية قد امتدت إلى حدود الصين . (١)

(١) Kremers : Geography and Commerce in «The Legacy of Islam» 1949, P. 79-80.

ففي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان العالم العربي الإسلامي — رغم انقسامه سياسياً — قد بلغ أقصى مدى اتساعه شرقاً وغرباً ، كما كان قد صنع له حضارة إسلامية واحدة ، وأقام حكومة أو حكومات ذوات طابع إسلامي موحد .

ولم يكد يبدأ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى بدأ الغرب الأوربي المسيحي يضيق بالعرب وبالإسلام ، ويعلم عن رغبته في عدم السماح الدين آخر غير المسيحية بالبقاء في أوربا .

وبدأ الصراع أول ما بدأ في غرب البحر الأبيض المتوسط ، وتقهقر المسلمون في شبه جزيرة أيبيريا أمام تقدم القوى المسيحية ، وسقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة في سنة ١٠٨٥ م كما استولت مملكة أراجوان على سرقة في سنة ١١١٨ م .

وخلال النصف الأول من القرن الحادي عشر سقط جنوب إيطاليا في أيدي النورمان ، وفي النصف الثاني ، (في المدة من ١٠٦٠ إلى ١٠٩٠) استولوا على جزيرة صقلية ، كما استطاع البيرنطيون — بتحريض من البابا بندكت الثامن — أن يحتلوا جزيرة سردينيا .

هذه ظواهر واضحة تثبت ما ذكرناه سابقاً من أن الغرب الأوربي المسيحي كان قد بدأ يطالب ويعمل على استرداد أراضيه وممتلكاته من أيدي العرب المسلمين .

وفي هذا الوقت تردد في الغرب المسيحي صوت آخر أعنف قوة يدعو أهل أوربا لاقتحام قلب العالم الإسلامي ذاته ، ومحاولة الاستيلاء على الأرض المقدسة مهد المسيحية هناك ، واستجابت شعوب غرب أوربا لهذا النداء ، وحشودهم تحمل الصليب ونجحت الحملة الصليبية الأولى — لعوامل كثيرة ترجع في معظمها لضعف العالم الإسلامي وتفككه أكثر مما ترجع إلى قوة الصليبيين — في الاستيلاء على سواحل الشام وبيت المقدس وإقامة أربع إمارات لاتينية هناك .

ورغم متاخمة حدود العالمين الإسلامى والمسيحى - لمدة قرون أربعة أو تزيد - شرقاً عند جبال طوروس فى آسيا الصغرى ، ووسطاً على شواطئ جنوب إيطاليا - وغرباً عند جبال البرانس ، فإن معرفة كل فريق بالآخر كانت ضئيلة غاية الضآلة ، وخاصة ما اتصل من هذه المعرفة بتاريخ شعوب الفريقين وحكوماتهم ونظمهم .

فالمؤرخون المسلمون رغم إسهابهم فى وصف المعارك التى دارت بينهم وبين الصليبيين ، إلا أنهم لم يحاولوا التعرف على شئون هؤلاء الفرنج داخل إماراتهم أو داخل دولهم الأصلية فى أوروبا ، أو التعرف على تاريخ هذه الشعوب ودولهم القديمة التى حكمت أوروبا ، وذلك باستثناء كتاب واحد أشار المؤرخ المصرى ابن ميسر إلى عنوانه فقط ، وهو « سيرة نصارى أوروبا الذين أتوا فى هذه الأيام إلى البلاد الإسلامية » (١) لمؤلفه الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم الحلبي (عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ١٢ م) ولكن هذا الكتاب ضاع للأسف الشديد فيما ضاع من تراثنا ولا نعرف شيئاً عن محتوياته .

وكذلك كان الحال فى أوروبا عندما فتح المسلمون الأندلس وسيطروا عليها وعندما ملكوا صقلية وهاجموا شواطئ جنوب إيطاليا ، وجاوروا شعوب أوروبا هنا وهناك لم يعن المؤرخون الأوروبيون فى العصور الوسطى بالتعرف على تاريخ المسلمين وبلادهم ودولهم ، وإنما بدأت هذه العناية عندما ضعف شأن المسلمين وبدأت حركة الاسترداد فى إسبانيا ، وعندما استعادت صقلية واستولى عليها النورمان .

وحدث نفس الشيء فى المشرق فإننا نلاحظ أن معرفة الأوروبيين بتاريخ الإسلام والمسلمين كانت حتى بدء الحملة الصليبية الأولى ضئيلة فى كمها ، مشوهة فى كيفها .

(١) ابن ميسر : اخبار مصر ص ٧٠ .

وقد يبدو هذا غريباً إذا عرفنا أن المسيحيين كانوا على اتصال دائم بالمسلمين منذ بزوغ فجر الإسلام سواء أكان هؤلاء المسيحيون حجاجاً أم تجاراً أم جنوداً .

فالحجاج من جميع أنحاء أوروبا كانوا يجوسون خلال البلاد العربية سعياً وراء زيارة بيت المقدس وكنيسة القيامة بها ، ومن الثابت أن الحجاج المسيحيين كانوا يتنقلون في حرية كما كانوا يقابلون بالترحاب وهم في طريقهم لزيارة الأرض المقدسة .

والتقارير والمذكرات التي كتبها نفر من هؤلاء الحجاج ولو أنها لا تحوى إلا القليل من عقائد الإسلام وتاريخ العرب وأخلاقهم وعاداتهم ، فإنها تتضمن روايات منصفة عن الأساليب التي كانوا يعاملون بها في البلاد الإسلامية ، وخير شاهد على هذا ما قاله واحد من هؤلاء الحجاج وهو برنارد الحكيم Bernard the wise في مذكراته :

« كان السلام يسود بين المسيحيين والوثنيين (١) (يقصد المسلمين) بحيث انى لو خرجت في سفرة ونفق جملى أوحمارى الذى يحمل متاعى ، واضطرت أن أترك كل شىء بلا حارس وذهبت إلى المدينة المجاورة للحصول على دابة أخرى ، فإننى كنت — عندما أعود — أجد كل ممتلكاتى كما هى لم يمسهأ بشر » .

هذا الالتحام الحديدي بين شعوب أوروبا والشعب العربى الإسلامى فى حركة الاسترداد الإسبانية أو فى بلاط النورمان بعد استعادتهم لجزيرة صقلية أو فى ميادين القتال الصليبية على سواحل الشام وعلى نهر النيل دفع الطرفين إلى محاولة جديدة لتعرف كل طرف على أحوال خصمه وعقائده ونظمه

(١) يستعمل الكتاب هنا كلمة Pagans وقد نقل هذا النص D.G. Munro «The Western Attitude towards Islam during the period of Crusades». In Speculum, 1931, VI. p. 329-44.

وتاريخه ، وكان فريق المسلمين هو الأرجح كفة في ميادين الفكر والحضارة ، لأن الشعوب الأوروبية كانت لا تزال في هذا الوقت تحاول محاولتها الأولى للخروج من العصور التي أسمتها هي نفسها بالعصور المظلمة ، لهذا نجد أن الشعوب الأوروبية تتسابق منذ ذلك الوقت للأخذ عن علوم العرب وترجمتها ودراستها والإفادة منها فكانت هذه الحركة إيلدانا ببدء عصر النهضة في أوروبا وما تلاه وترتب عليه من تقدم علمي .

من هذا كله يتبين أن الفكر العربي الإسلامي اتجه إلى الغرب المسيحي والعقل الأوروبي معابر ثلاثة :

— أسبانيا :

— جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا :

— الشرق الأدنى إبان الحرب الصليبية :

وكان الأثر في هذه المعابر الثلاثة شاملا لكل العلوم ، ولكننا سنقتصر كلامنا هنا على أثر الدراسات التاريخية العربية في أوروبا في كل معبر من هذه المعابر ، تاركين العلوم الأخرى للسادة الزملاء الذين سيوفونها حقها من البحث في فصول هذا الكتاب الأخرى .

اسبانيا

قصة الفتح العربى للأندلس وانتشاره فى شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أن اصطدم بجيوش شارل مارتل فى بلاط الشهداء أو (تور - بواتية) قصة معروفة لا تحتاج إلى تكرار هنا ، وقصة النهضة العلمية التى أقام عمدها العرب فى الأندلس منذ تم فتحهم لها إلى أن انتهى حكمهم فى آخر معادهم غرناطة قصة معروفة كذلك لا تحتاج إلى تبيان هنا .

ولمّا الذى نريد أن نوضحه هو عملية الخلط التى تمت بين العنصرين العربى والاسبانى ، وأثرها فى النواحي الثقافية بوجه عام ، وفى الدراسات التاريخية بوجه خاص :

تعايش العرب مع الإسبان منذ اللحظة الأولى فى مختلف المدن والبقاع وفى مختلف نواحي الحياة ، وقد اختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين عن طريق المصاهرة والزواج ، فإن معظم القادة والجنود من الفاتحين لم يصحبوا معهم زوجاتهم ، فلما انتهى الفتح واستقرت بهم الحياة أقبلوا على الزواج من الإسبانيات وأول من فعل هذا عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج من إيلة (وتسمى بالاسبانية أغلونا Egilona) أرملة للمريق آخر ملوك القوط ، وقد أسلمت بعد زواجها وتكنت بأمر عاصم وأقامت مع زوجها فى اشبيلية . (١)

وقد اعتنق عدد من الإسبان الدين الإسلامى فعرفوا بالمسلمة ، كما نبت جيل من أولاد المسلمين الذين تزوجوا من إسبانيات ، وهؤلاء كونوا طبقة

(١) ابن عذارى البيان المغرب ٣٠-١ .

أخرى عرفت بالمولدين ، وكانوا على عهد بنى أمية الأكثرية الغالبة من السكان ، بل لقد كانت الدماء الأسبانية تجرى في عروق بعض خلفاء بنى أمية بالأندلس من ناحية أمهاتهم أو جداتهم ، وفي مقدمة هؤلاء الخليفة الكبير عن الرحمن الناصر فقد كانت جدته الأميرة انيجا Iniga ابنة فرتون غرسييس Fertun Garces ملك برشلونة (١) ، وقد يفسر هذا ما ذكره المؤرخون في وصفه من أنه كان أبيض أزرق العينين .

وقد كان هؤلاء المولدون يستعملون إلى جانب اللغة العربية لغة أخرى هي اللغة الرومانسية وهي اللاتينية الحديثة - وكان من الطبيعي أن تتداخل اللغتان وتؤثر كل منهما في الأخرى ، ومن مظاهر هذا التداخل ظهور فن الموشحات فيما بعد .

وبقي نفر آخرون من الإسبان على دينهم فلم يسلموا ، وسمى هؤلاء بالمستعربين لأنهم عاشروا العرب واختلطوا بهم وتأثروا بهم في سلوكهم وعاداتهم وملابسهم ونواحي حياتهم المختلفة ، حقيقة لقد كفل لهم العرب حريتهم الدينية وأبقوا على كنائسهم وأديرتهم ، فكانوا يمارسون طقوس دينهم في حرية تامة كما كانوا يقيمون عادة في أحياء خاصة بهم ، وكانوا في معظمهم ينتشرون في المدن الكبرى وخاصة في قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وكان لهم رئيس يعرف بالقومس ، وقاض خاص بهم يفصل في خصوماتهم تبعاً للقانون القوطي .

ورغم هذا كله فقد اختلطوا بالمسلمين اختلاطاً كاملاً ، وكان تأثيرهم باللغة العربية والثقافة العربية قوياً واضحاً ، حتى أتى وقت أهملوا فيه اللغة اللاتينية وشغفوا حباً باللغة العربية ، فمهرروا فيها ، بل ونظموا الشعر بها ، مما دفع عالماً من علمائهم وهو البرو Alvaro القرطبي إلى أن يجار بالشكوى من هذه الظاهرة .

(١) لطفى عبد البديع « الإسلام في أسبانيا » ص ٢٤-٢٥ .

والأدب ، وقد استعان هذا الملك العالم لتحقيق هذه النهضة بعدد كبير من العلماء من مسلمين ومستعربين ويهود ، وأشرف على الجميع بنفسه ، ووضع لهم الخطط التي يسرون بمقتضاها وكثيراً ما كان يستعمل قلمه لتصحيح بعض الأعمال العلمية أو تعديلها .

وبهذا الأسلوب استطاعت هذه المدرسة أن تصب كل تلك الأصول العربية واللاتينية في قالب قشتالي ، وأن تخرج لنا إنتاجاً تاريخياً وأدبياً خالداً على مر العصور .

وهناك شواهد كثيرة تشير إلى تأثير الدراسات التاريخية الإسبانية بمثلتها العربية قبل إنشاء مدرسة الترجمة بطليطلة ، وهناك أمثلة أخرى تدل على أن هذا التأثير استمر متصلاً إلى القرن السابع عشر ، أي إلى الوقت الذي قامت فيه إسبانيا بالتخلص من العرب أساساً ، ومن العربية لغة وفكراً وثقافة ، وسنحاول فيما يلي أن نتبع هذه المؤثرات العربية في الدراسات التاريخية الإسبانية .

بدأت هذه المؤثرات مبكرة أي عقب الفتح العربي لإسبانيا بوقت قصير في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ففي هذا القرن ظهرت بعض المصنفات التاريخية من تأليف نفر من المستعربين الأندلسيين ، تتضمن بعض الروايات التاريخية التي سمعوها ونقلوها عن المؤرخين العرب ، وفي مقدمة هذه المصنفات .

١ - الحولية البيزنطية العربية لسنة ٧٤١م La Cronica Bizantina-Arabe de 741 وهي تاريخ عام يتضمن أخباراً عن بعض ملوك القوط في إسبانيا وأباطرة بيزنطة كما تتناول تاريخ العرب في المشرق وأخبار فتوحهم في إسبانيا ، ولم يخف مؤلف هذه الحولية ما كان يشعر به من إعجاب وتقدير للنبي محمد عليه السلام ، مما جعل بعض المؤرخين المحدثين يرجحون أنه لم يكن

ولم يقتصر دور المستعمرين على قرض الشعر العربي وترجمة الكتب الدينية بل كانوا الوسيلة لنشر الثقافة العربية الإسلامية في شمال أسبانيا المسيحية فقد كانوا دائبي الهجرة إلى المناطق المسيحية ، إلى مملكتي قشتالة وأراجون :

عاشت إذن هذه العناصر والأجناس المختلفة من عرب ومسالمة ومولدين ومستعربين ويهود جنباً إلى جنب في الفردوس الأندلسي ، يأخذ كل فريق عن الآخر وتؤثر كل جماعة في الجماعة الأخرى وتتأثر بها ، وإنما كان التفوق دائماً للغالب ولخصارته وثقافته ولغته .

وفي القرن الحادي عشر بدا عصر الإفاقة المسيحية وبدأ المسيحيون يعماون على استعادة الأرض الأسبانية من أيدي المسلمين ، وفي سنة ١٠٨٥ استولوا على مدينة طليطلة ، ومع هذا لم تفقد صبغتها العربية ، بل ظلت مركزاً ثقافياً يجتمع في جنباته علماء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وفي بلاط ملوكها المسيحيين بدت حركة إحياء علمية ، وبدأت هذه النهضة في عهد الفونسو السادس واستمرت في عهد الفونسو السابع إذ قام أسقف المدينة Raimunde بحماية هؤلاء العلماء ورعايتهم والحدب عليهم وتشجيعهم على الاستمرار في جهودهم العلمية القائمة حينذاك على الترجمة عن العربية ، فترجموا الكثير من الكتب العربية إلى اللغة القشتالية أولاً ، ثم إلى اللغة اللاتينية بعد ذلك ، وبعضها مما ترجمه العرب قبلا عن اليونانية والبعض الآخر مما ألفوه هم وضمّنوه إضافات جديدة إلى الفكر الإنساني ، وهذه وتلك كانت شيئاً جديداً بالنسبة لأوروبا المسيحية مما خلق من طليطلة مركزاً ثقافياً كبيراً يجتذب إليه العلماء والأدباء والدارسين من مختلف أنحاء أوروبا .

ولما ولي العرش الأسباني الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم El Sabio في القرن الثالث عشر دفع هذه المدرسة دفعة جديدة وقوية إلى الأمام ، واتسمت النهضة في عهده بسمة جديدة تتضح في استخدام اللغة القشتالية (الإسبانية) مكان اللغة اللاتينية وفي تدوين المصنفات التاريخية وخاصة في التاريخ

إسبانياً . وواضح من نصوص هذه الحولية أن كاتبها قد اعتمد على بعض المصادر البيزنطية والعربية (١) .

٢ - الحولية المستعربة لسنة ٧٥٤ أو تاريخ مجهول المؤلف لمدينة قرطبة:

La Cronica Mozarabe de 754 Anonime de Cordoba.

وهي تاريخ عام يبدأ ببداية الخليفة وينتهي إلى حوادث سنة ٧٥٤ م ويشتمل على تاريخ عام للروم والعرب ثم يخصص قسماً لتاريخ إسبانيا ، ويبدو أن المؤلف كان مستعرباً ، وكان من رجال الدين الإسبان ، فهو دائب العناية بالتاريخ للحياة الدينية والكنيسة في الإندلس وبخاصة في مدينتي سرقسطة وطليطلة ، ويلاحظ كذلك أن المؤلف كان من أنصار حزب الملك فيطشة witiza فهو يخصصه بكثير من المديح والتأييد ويشير إلى المعارك التي قامت بينه وبين الفريق المعادي له وهو فريق الدريق Rodrigo .

وتختلف هذه الحولية عن سابقتها بروحها الوطني الإسباني فقد نخلت من المديح للرسول عليه السلام ، كما أنها نظرت إلى الفتح العربي على أنه كارثة وطنية داهمة :

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في الروح في الحوليتين ، فإن بينهما تشابهاً كبيراً واضحاً في المضمون مما يرجح أن المؤلفين أخذوا مادتهما من مصادر عربية وبيزنطية واحدة مع قدر مختلف من التصرف في النقل (٢) .

٣ - حولية البلدة La Cronica Albeldense

وإذا كانت الحوليتان السابقتان قد كتبتا في الأندلس ، فإن هذه الحولية تعتبر أول حولية كتبت في الشمال الإسباني المسيحي ، وسميت بهذا الاسم

(١) Sanchez Albornoz : Fuentes del Siglo VIII, p. 32-33 & Sanchez Alonso : Historia de la Historiografía Española I. p. 92.

(٢) Sanchez Alonso, Op. cit. p. 102-104 & Sanchez Albornoz : Op. cit. p. 22.

نسبة إلى المكان الذي عمر عليها فيه ، وهو دير البلدة Albelda بالقرب من مدينة لوجرونيو Legroño في وادي الأبرو بالشمال .

وتشتمل هذه الحولية على تاريخ مختصر للملك القوط في إسبانيا وتاريخ للممالك المسيحية التي قامت في الشمال ، وتاريخ مختصر للعرب في إسبانيا والمشرق منذ عصر أبيهم إبراهيم الخليل ، ويصل الكتاب بأحداثه إلى السنوات العشر الأولى من حكم الملك الفرنسو الثالث (١) الملقب بالعظيم (٨٧٦ م) .

٤ - الحولية المتنبئة La Cronica Profetica

ذكر مؤلف هذه الحولية أنها كتبت في ١١ أبريل سنة ٨٨٣ م ، وقد سميت بهذا الاسم بتأثير النبوة التي ترددت في إسبانيا وقتذاك بأن الحكم العربي سينتهي بعد قيامه في إسبانيا بمائة وسبعين سنة أي في سنة ٨٨٣ م ، وهي السنة التي وضع المؤلف فيها هذا الكتاب متأثراً بزهو الانتصارات التي أحرزها ملك ليون الفونسو الثالث^١ (العظيم) (وقتذاك) .

ووضح من الكتاب أن المؤلف كان مستعرباً من رجال الدين ، ويرجح البعض أنه Dulcidio صديق الملك الفرنسو الثالث وسفيره لدى أمير الأندلس العربي . إذ يبدو من كلام المؤلف أنه اعتمد على مصادر عربية اطلع عليها في أثناء إقامته بالأندلس وفي مدينة طليطلة بوجه خاص ، وأنه انتقل بعد ذلك إلى بلاط الفرنسو الثالث وهناك ألف كتابه .

والكتاب يتضمن - إلى جانب الأحداث التاريخية - تاريخاً لأنسب العرب وأعمالهم في إسبانيا (٢) .

٥ - الحولية القوطية La Cronica Gothorum

وتقفز بنا هذه الحولية قفزة زمنية كبيرة ، فقد كتبت في أوائل القرن

Comez Moreno: Las Primeras Cronicas de la Reconquista (Bol. Hist., (١)
1932, pp. 562-599).
p. 103-108.

Sanchez Alonso: Op. cit. p. 106, nota 20 & Sanchez Albornoz: Op. cit. (٢)

الحادى عشر الميلادى ومؤلفها مستعرب من طليطلة ، وقد بدأها بتقديم وصف عام لإسبانيا أتبعه بتاريخ مختصر للرومان والقوط وللفتح العربى لإسبانيا ، وفى هذه الحولية - ولأول مرة فى المراجع التاريخية الإسبانية - نجد ذكراً لقصة ابنة يوليان مع الملك غيطشة وهى القصة التى روتها المؤلفات التاريخية العربية الأولى فى الأندلس .

ويعتقد كل من المؤرخين الإسبانين المحدثين منندث بيدال ، وسانشيث البرنث أن التأثير العربى فى هذه الحولية واضح تمام الوضوح ، مما يؤكد أن كاتبها قد اعتمد على بعض المصادر العربية وبصفة خاصة على النص العربى لتاريخ الرازى لأن الترجمة البرتغالية لهذا التاريخ لم تكن قد تمت قبل هذا الوقت (١) .

ونرى لازماً علينا أن نقف هنا وقفة طويلة فقد لاحظنا أن الحوليات الثلاث الأولى قد اعتمدت على مراجع تاريخية عربية ، وبخاصة فى الأجزاء الخاصة بتاريخ الأندلس بعد الفتح العربى ، ولكننا لم نستطع تحديد أسماء المؤرخين أو المراجع التى تأثرت بها ، أما فى هذه الحولية الرابعة فقد قررنا أنها اعتمدت على مؤرخ بعينه ، هو أحمد بن محمد الرازى .

فمن الواجب إذن أن نقف هنا - كما أسلفت - وقفة طويلة نتعرف فيها على نشوء المدرسة التاريخية العربية فى الأندلس وتطورها إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ونتعرف فيها كذلك على أحمد بن محمد الرازى وجهوده ومؤلفاته التاريخية . وسنرى خلال هذه الرحلة الطويلة عبر قرون أربعة طويلة غاية الطرافة من اختلاط الثقافات والدراسات التاريخية المختلفة وتأثير بعضها فى البعض الآخر .

وإذا كان من المتعارف بين المؤرخين أن أول مؤرخ لمصر الإسلامية هو عبيد الرحمن بن عبد الحكيم ، فإن المتعارف بينهم كذلك أن أول مؤرخ

(١) Menendez Pidal: Floresta de Leyendas, Madrid 1925, I, p. 28.

للأندلس الإسلامية هو عبد الملك بن حبيب (١٧٩ - ٩٩٦ - ٢٣٨ - ٨٥٣ - ٨٥٤) ، وكان كما تذكر المراجع نحويّاً عروضيّاً شاعراً حافظاً للأخبار والأنساب متصرفاً في فنون العلم ، وقد رحل إلى المشرق وتردد على مجالس العلم في مدنه المختلفة ، وقد أصاب في الأندلس - بعد عودته - شهرة - واسعة حتى لقبه الناس : « بعالم الأندلس » واستقر في مدينة قرطبة ، وفي مسجدّها الجامع كان يعقد حلقات دروسه :

ولعبد الملك بن حبيب مؤلفات كثيرة في علوم مختلفة كالطب والفلك والأنساب والفقه ، ولم يبق منها إلا كتابه في التاريخ - وهو ما يعيننا هنا ، وتوجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة البودلية باوكسفورد (١) ، وعنوانه كما هو مثبت على هذه المخطوطة .

« كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها من ابتداء خلق السماوات وخلق البحار والجبال والجنة والنار ، وخلق آدم وحواء ، وما كان من شأنهما مع إبليس ، وعدة الأنبياء نبياً نبياً إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وعدة الكتب المنزلة ، وعدة الخلفاء إلى حين استفتاح الأندلس ، وما وجد فيها من الذهب والفضة والجواهر والياقوت والزمرد والأمتعة ، وما أخرج منها ، وعدة ملوكها ومن وليها ، وذكر شيء من الحداث وما يعلم منها في بعض البلدان ، وكم عمر الدنيا وما مضى منها وما بقي إلى أن تقوم الساعة . تأليف الفقيه عبد الملك بن حبيب - رضى الله عنه - وفيه ذكر القضاة - قضاة قرطبة - لابن حارث . »

فابن حبيب جعل تاريخ العالم مقدمة لتاريخ الأندلس ، ومع ما لهذا الكتاب من أهمية باعتباره أقدم مؤلف لمؤرخ أندلس عن تاريخ الأندلس فإن قيمته التاريخية ضئيلة ، لأنه يخلط الحقائق التاريخية بالروايات الأسطورية عن فتح العرب للأندلس وما كان بها من كنوز ، غير أن السمة الهامة التي نجح

أن نشير إليها هنا أن ابن حبيب قد نقل الكثير من أخبار الفتح عن شيوخه المصريين كما اعتمد كذلك على ما كان يتناقله الأندلسيون على أيامه من روايات في شأن افتتاح الأندلس (١) .

وتنتقل زعامة المدرسة التاريخية العربية بالأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع إلى مؤرخنا الذي أردنا التعرف عليه ، أحمد ابن محمد الرازي ، وهو ينتمي إلى أسرة أنجبت ثلاثة من المؤرخين كان هو أحدهم وأشهرهم أما الأول فهو أبوه محمد بن موسى الرازي وهو مشرق الأصل من مدينة الري ، وقد وفد على الأندلس في سنة ٢٤١ (٨٦٤) واستقر في مدينة قرطبة ، واشتغل أول الأمر بتجارة الحلى والعقاقير ثم تفرغ للعلم ، وله مؤلفات في تاريخ الأندلس أهمها كتاب « الرايات » وقد بقيت منه قطع متناثرة في المراجع التاريخية الأخرى ، وفيه ذكر دخول موسى ابن نصير ، وكم راية دخلت معه من قریش والعرب ، وعدتها عنده نيف وعشرون راية .

ثم خلفه ابنه أحمد بن محمد (٢٧٤ - ٨٨٨ - ٣٤٤ - ٩٥٥) ، وكان أديباً وشاعراً وخطيباً ، ولكنه لقب بالتاريخي ، لكثرة اشتغاله بالتاريخ والتأليف فيه ، وقد أشارت المراجع التي ترجمت له إلى أهم مؤلفاته التاريخية وهي :

- أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم .
- كتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة .
- (وقد اعتمد ابن الأبار كثيراً على هذا الكتاب) .
- كتاب في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها .
- كبار الموالى الأندلسيين .

(١) انظر المقرئ ، نفح الطيب ، ج أ ، ص ٣٧ .
(انخل جثالث بالنيثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ص ١٩٣ - ١٩٦ لطفى عبد البديع ، الاسلام في أسبانيا ، ص ٦٦-٦٧) .

وقد ضاعت هذه المؤلفات جميعاً ولم يبق منها إلا قطعة في صفة الأندلس، نقلها أول الأمر عن العربية إلى اللغة البرتغالية بأمر الملك البرتغالي ديونيس (١٢٧٩ - ١٣٢٥) قس يسمى « نجيل بيريز Jil Perez » وكان يساعده في الترجمة جماعة من المغاربة يدعى أحدهم المعلم محمد Maese Mohamed ويروي الدكتور حسين مؤنس عن دوزي وجايا نجوس أن القسم الثاني من هذا الكتاب في ترجمته البرتغالية - وعنوانه تاريخ اسبانيا منذ وصول أشبان بن يافت إليها إلى دون رودريجو (الملك النريق) - إنما هو وضع نجيل بيريز نفسه ، أما القسم الثالث - ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى عصر الحكم المستنصر فهو ترجمة مختصرة لكتاب الرازي ، وقد نقلت هذه الترجمة البرتغالية إلى اللغة الأسبانية تحت عنوان Cronica del Moro Rasis أي تاريخ المسلمين للرازي وناقلها إلى اللغة الأسبانية مجهول الاسم ، وقد نشر جالينجوس قسما من هذه الترجمة في سنة ١٨٤٠ وأكمل نشرها فيما بعد رامون منندث بيدال في « فهرس المدونات في المكتبة الملكية بمدريد :

« Cataloge de Cronicas de la Real Biblioteca »

وإذا كنا قد ذكرنا أن مؤلف الحولية القوطية قد تأثر بمؤلفات الرازي التاريخية فمن الواضح أنه اعتمد على النص العربي لهذه المؤلفات لأنه كتب حوليته في أوائل القرن الحادي عشر ، وهاتان الترجمتان البرتغالية والأسبانية يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر ، فإذا كان لهما من أثر في المؤلفات التاريخية الأسبانية فانما جاء هذا الأثر متأخراً وفي الكتب التي وضعت بعد هذا القرن .

وثالث المؤرخين من آل الرازي هو عيسى بن أحمد ، وهو حفيد الأول وابن الثاني ، ومن مؤلفاته كتاب في تاريخ الأندلس وثنان عن حجاب الأندلس ، وكلاهما مفقود ، ولهذا لا يعنينا أمره في شيء هنا .

٦ - الحولية السيلوسية، Cronica Silense

مؤلفها مستعرب إسباني من مدينة طليطلة عاش في القرن الثاني عشر

الميلادى ، وكان راهباً من رهبان دير سيلوس Silles وإلى هذا الدير نسب التاريخ ولقد ضمن المؤلف كتابه كثيراً من الروايات والأساطير التى كانت متداولة فى الأندلس على عصره مما يدل على أنه سمعها أو قرأها فى أصولها العربية ، وقد عنى بابرار مآثر الملك الفونسو السادس وبصفة خاصة استيلاؤه على طليطلة فى سنة ١٠٨٥ ، ولكنه لم يذكر شيئاً عن بطولة السيد المحارب El Cid Campeador وهو من معاصريه ، ويعتقد المؤرخون الإسبان المحدثون أن مؤلف هذه الحولية قد اعتمد اعتماداً كبيراً على كثير من المؤلفات التاريخية العربية ، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد عناوينها .

٧ - حولية الطليطلى Cronica Toledana

أو - De Rebus Hispaniae : Historia Gothica, Arabum, مؤلف هذه الموسوعة التاريخية هو روديجو خيمينيث دى رادا Rodrigo Jimrigo de Rada (١١٧٠ - ١٢٤٧) أسقف مدينة طليطلة وكان هذا الرجل يتقن لغات كثيرة من بينها اللغة العربية وساعده هذا على الإفادة من المصادر العربية وكتابة القسم الإسلامى من كتابه على وجه أحسن بكثير مما فعل سابقوه من المؤرخين الأسبان وقد بدأ هذا القسم بالكلام عن سيرة الرسول عليه السلام وانتهى فيه عند أحداث سنة ١٢٤٣ ، ومما يلفت النظر ويؤكد رجوعه إلى المصادر العربية أنه استعمل فى هذا القسم التاريخ الهجرى لا الميلادى وكان أكثر اعتماده على تاريخ أحمد بن محمد الرازى (١) .

٨ - التاريخ الأول العام لأسبانيا

Primera Cronica General de España

هذه هى الحولية التاريخية الكبرى التى أشرف على كتابتها باللغة القشتالية ملك اسبانيا ألفونسو العاشر (العالم) فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد

عن المراجع العربية التى استقى منها هذا المؤلف راجع .

(١) Sanchez. Albornoz : La Cronica del Moro Rasis Anales de la Universidad de Madrid, 1934, III, p. 250.

استعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين والمستعربين واليهود ، واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية والبيزنطية (١) واللاتينية وعلى جميع الحوليات الاسبانية السابقة ولا سيما حولية الطليطلى السالفة الذكر .

والدارس لهذه الموسوعة يلاحظ أن التشابه يكاد يكون تاماً بينها وبين بعض المصادر التاريخية العربية مثل كتاب « البيان الواضح في العلم الفادح » للمؤرخ البلسنى ابن عبد الله محمد بن خلف الصدي المعروف بابن علقمة المتوفى سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وكتاب « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري (١٢ م) ، والمقارنة تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن هذه الموسوعة الاسبانية التي ألفت في القرن الثالث عشر قد نقلت أخباراً وروايات كثيرة من هاتين الكتابين (٢) وبصفة خاصة الأخبار المتصلة بالسيد القبيطور .

وأحداث بلنسه في ذلك الوقت (٤٧٨ - ٤٩٥ / ١٠٨٥ - ١١٠٢) (٣) وقد كان الناس إلى عهد قريب يحسبون أن السيد شخصية أسطورية إذ لم يكن قد عثر حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي على شيء يتصل

(١) Bubler (Cesar) Fuentes Arabes & Bizantines en la Primera Cronica General; Voz Romanica XII, p. 195.

(٢) كتاب البيان الواضح لابن علقمة مفقود للأسف ، ولكن نقل عنه عدد من المؤرخين اللاحقين أمثال ، ابن الكردبوس وابن عذارى وابن الأبار وابن الخطيب ، أما كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس فلا زال مخطوطاً ، وقد نشر القسم الخاص بالاندلس منه الدكتور مختار العبادي في العدد الأخير من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد الثالث عشر ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦) ، هذا ويمكن الرجوع إلى حولية الفونس العاشر لمقارنة الأجزاء المنقولة من الكتب العربية سألقة الذكر ، انظر ،

Primera Cronica General de España (ed. R. Menendez Pidal. T. II, p. 560 — Madrid, 1906.

Perez Bustamente: Compendio de ist. de España, (٣) انظر p. 194-195.

هذا وقد ظهرت بعد حولية الفونسو العالم حوليات أخرى من نوعها وإن اختلفت عنها إيجازاً واطناً ولعل أهمها الحولية الثانية التي كتبت في القرن الرابع عشر (١٣٤٤ م) Segunda Cronica General (1344).

بحياته وحرية في المراجع التاريخية العربية التي طبعت أو درست حتى ذلك التاريخ ، ثم عكف المستشرق دوزي على دراسة كثير من المخطوطات الأندلسية العربية وعثر على بعض النصوص المتصلة بسيرة السيد والأحداث التي جرت في بلنسية وشرق اسبانيا في آخر القرن الخامس الهجري (١٠ م) وهي نصوص وردت في كتاب الذخيرة لابن بسام وكتاب الاكتفاء في تاريخ الخلفاء لابن الكردبوس ، وكتاب الحملة السيرة لابن الأبار ونشر دوزي هذه النصوص وكتب بحثه القيم :

« Le Cid d'après des Nouveaux Documents »

وعند ذلك بدأ المؤرخون يعيدون النظر في سيرة السيد ويقارنون بين ماورد في هذه النصوص وما جاء في الموسوعة أو المدونة الكبرى لتاريخ اسبانيا ، واتضح لهم أن هذه المدونة قد نقلت عن المراجع العربية ،

وجاء بعد دوزي المؤرخ الاسباني مننث بيدال فأكد هذه الحقيقة وأتى بعده المستشرق الفرنسي لينى بروفنسال فعثر في كتاب البيان المغرب لابن عذارى على نصوص طويلة جديدة تتصل بحياة السيد وحروبه منقولة عن مؤرخ بلنسى عاصر هذه الأحداث وهو محمد بن خلف بن علقمة (١). (٤٢٨ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ / ٥٠٩ - ١١٦) ، وكتب تاريخاً لمدينته بلنسية ،

(١) : انظر عن ترجمة ابن علقمة (الضبي - بغية الملتبس ، مدريد ١٨٨٧ ، رقم ٥١٤) ، و (حاجي خليفة كشف الظنون) . وعن الموضوع كله راجع أيضا ، (ابن عذارى ، البيان المغرب الجزء الرابع ، نشر لينى بروفنسال) و (حسين مؤنس ، السيد القمبيطرون وعلاقاته بالمسلمين المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الـ ١٧ مايو ١٩٥٠ ، ص ٣٧ - ٨٧) .

Dozy : Le Cid d'après des Nouveaux Textes, dans Recherches sur l'Histoire de l'Espagne pendant le Moyen-Age, 1881 (Ramon Menendez Pidal: La España del Cid. Madrid, 1948).

وبروفنسال : استيلاء السيد على بلنسية في المصادر الاسلامية والأصل العربي للمدونة العاجية لتاريخ اسبانيا وقد نشر هذا الفصل أصلا باللغة الاسبانية في مجلة الاندلس ، ثم ترجمه الدكتور عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي في كتابه (الإسلام في المغرب والاندلس) .

وفصل فيه الحديث عن حروب السيد التي انتهت باستيلائه على المدينة وهو الكتاب المعنون « بالبيان الواضح في الملم الفادح » وبمطابقة هذه النصوص بنصوص مدونة التاريخ الاسباني العام تبين بما لا يدع مجالا للشك أن مؤلفي المدونة قد نقلوا سيرة السيد عن تاريخ ابن علقمة نقلاً يكاد يكون حرفياً وليس هناك مثل أوضح أو أقوى من هذا المثل لبيان تأثير الدراسات التاريخية العربية في المؤلفات التاريخية الإسبانية .

ولم تقتصر موسوعة ألفونسو العاشر على الأحداث التاريخية بل ضمت بين دفتيها كذلك عدداً من الملاحم الشعرية المتصلة بتاريخ اسبانيا ، ومن أهمها ملحمة أبناء لارا السبعة Los Infantes de Lara التي ألفت في القرن الحادي عشر ، وملحمة السيد القنبيطور التي ألفت في القرن الثاني عشر . هذه الملاحم كتبت أصلاً في نصوص شعرية باللغة اللاتينية العامية (الرومانسية) ثم أحالها ألفونسو في موسوعته إلى نثر قشتالي ، وخضعت بعد ذلك بكثير من التهذيب حتى القرن الخامس عشر .

وأحداث هذه الملاحم تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ العرب في اسبانيا ، ففي ملحمة أبناء لارا نجد أن البطل اسمه مدرع - وهو اسم عربي - ولد لأب مسيحي وأم مسلمة وتزعم القصة أنها كانت أختاً للمنصور بن أبي عامر ، في الملحمة يرثي لارا أبناء السبعة الذين قتلهم المنصور .

أما ملحمة السيد El Cid فإنه واضح من اسمها ومن أحداثها وألفاظها أنها كتبت على نمط السير العربية ، ولا يبدو هذا غريباً إذا عرفنا أن مؤلف هذه الملحمة رجل مستعرب من مدينة سالم Medinaceli في شمال اسبانيا . وشبيه بهاتين الملحمتين ملحمة زائدة المسلمة La Mora Zaida التي زعمت الأسطورة أنها كانت ابنة للمعتمد بن عباد ملك اشبيلية فأهداها لألفونسو السادس الذي تزوجها وأنجب منها ابنه سانشو ، وقد درس لينى بروفنال هذه هذه القصة وأثبت - معتمداً على نص أورده ابن عذاري في البيان المغرب ، أن زائدة كانت في الحقيقة في كنف المعتمد أي زوجه لابنه المأمون ،

وأنها لم تهد إليه ، بل وقعت في الأسر ، وحملت إلى قشتالة حيث تنصرت
وتزوجها ألفونسو السادس (١) .

٩ — التاريخ العام General Estoria O Estoria Universal

وهذا الكتاب ينسب كذلك إلى ألفونسو العالم ، ويتضمن تاريخاً عاماً
للعالم منذ بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء والشعوب القديمة ، ويلاحظ أنه استمد
معلوماته عن تاريخ الإغريق والرومان والهنود ، والمصريين القدماء عن
التورخين العرب ، بل لقد نص صراحة على أن ما ذكره عن مصر منقول
عن كتاب المسالك « والممالك » . للجغرافي العربي أبي عبيد البكري (٢)

(١) انظر Levi-Provencal : Islam d'Occident p. 139-153.

و (ليني بروفنسال ، زائدة المسلمة زوجة ألفونسو السادس ووالدها الأمير دون سانشوه)
مقال ظهر في مجلة Hespérís ج ١٨ ، ١٩٣٤ ص ٨-١ و ص ١٠٠-٢٠١ ، والترجمة
العربية لهذا المقال في كتاب الإسلام في المغرب والاندلس «ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم
ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٦ . ص ١٥١-١٦٤) و (لطفى عبد البديع ، الإسلام
في أسبانيا ، ص ١٤٦) .

(2) Alfonso el Sabio : General Estoria (ed. : Solatinde p. XI & Me-
nendez Pelayo : Origenes de la Novela, I. p. 72-73.

صقلية وإيطاليا

فتح الأغالبة جزيرة صقلية في أوائل القرن الثالث الهجرى ، وظلت تابعة لهم طوال عهد حكمهم في افريقية (تونس) ، ثم دانت بالولاء للفاطمين بعد أن قضوا على دولة الأغالبة في السنوات الأخيرة من القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، وقد انتشر العرب في الجزيرة خلال هذين العهدين ، وانتشر معهم الدين الإسلامى والثقافة العربية ، وبنيت المساجد الكثيرة في مدن الجزيرة المختلفة .

وقد عاصرت حركة الاسترداد المسيحى في صقلية مثيلتها في اسبانيا ، ففي أواخر القرن الخامس الهجرى (١١) م نجح النورمان في الاستيلاء على الجزيرة ، ولكنهم اتبعوا سياسة مخالفة ، فلم يقضوا على العرب ، وإنما قربوهم إليهم ، وعينوا منهم الكثيرين في الوظائف الحكومية ، واحتضنوا الثقافة العربية ، واسبغوا الهبات والعطايا على علماء العرب .

ونخير مثال على هذا ما فعله الملك روجر الثانى حين استدعى إلى بلاطه العالم الجغرافى العربى الكبير الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد الأدريسى (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ - ١١٦٤ - ١١٦٥ م) ، وكلفه عمل كرة أرضية وخريطة للعالم فعملها وألف كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » لوصف هذه الخريطة ، ويقول الصنفدى إن الأدريسى عندما وصل إلى بلرم أكرم الملك نزاله ، وبالع في تعظيمه ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك ، وكان يحىء إليه راكباً بغلة ، فإذا صار عنده تنحى عن مجلسه ، فيأتى ،

فيجلسان معاً (١) .

وقد كان معظم هؤلاء الملوك النورمان يتقنون اللغة العربية ، ويقرءون الكتب العلمية المختلفة بهذه اللغة ، وإن كان غليوم الثاني قد أسهم في الحروب الصليبية إسهاماً إيجابياً حين أرسل أسطولاً لمهاجمة الاسكندرية في سنة ١١٦٩ على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فإن هذه الحملة منيت بالفشل الذريع ، ولم يلبث آل هنتشتاوفن أن جنحوا إلى السلم وبدعوا عهداً من العلاقات الودية بينهم وبين سلاطين مصر من الأيوبيين والمماليك ، وكانت هذه العلاقات أقوى ما تكون في عهدى الامبراطورين فردريك الثاني ومنفرد .

وقد تبدو علاقات الصداقة والود التي بدأت بين الامبراطور فردريك الثاني ومعاصره السلطان المسلم الملك الكامل محمد الأيوبي غريبة في عصر اشتد فيه العداء بين ملوك أوروبا المسيحيين وملوك الشرق المسلمين وكثرت فيه الحروب الصليبية . غير أن شخصيتي الملكين والظروف السياسية التي كانت تحيط بكل منهما كان لها الأثر القوي في إقامة هذه العلاقات وتوثيقها .

كان الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني بشخصيتهما وثقافتهما وعقليتهما يسبقان العصر الذي عاشا فيه ، فقد كان العصر عصر ترمت

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات (النص المنقول في المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨) هذا ولتعريف بالشريف الادريسي وكتابه وحياته وجهوده انظر ، الفصل التيم الذي كتبه عنه (حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ص ١٦٥ وما بعدها) و « امارى » المكتبة الصقلية ، وتاريخ المسلمين في صقلية باللغة الايطالية ، وعن صقلية في عصر النورمان راجع : (الرحلة لابن جبير) وكذلك :

E.A. Freeman : History of Sicily, London 1891, 1894.

F. Chalandon : La domination Normande en Italie et Sicile, 1009-1094, Paris 1907.

C.H. Haskins : The Normans in European History. Boston, New York, 1915.

و (احسان عباس : العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩) .

و (احمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، الجزائر ١٣٦٥ هـ)

وتعصب ديني وحروب متصلة أما هما فقد كانت تغلب عليهما شخصية الحاكم المثقف الإداري الذي يعنى بالاصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وإنشاء المدارس والمعاهد أكثر من عنايته بالحروب .

وكان كل منهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل بالسياسة والطرق السلمية (١) والحقيقة أن الكامل كان — كما وصفه كانتورفنز — صورة شرقية من الامبراطور ، إن لم يكن أقرب إلى الصحة أن نقول أن الامبراطور كان صورة قريية من السلطان الملك الكامل .

He was an oriental edition of Emperor, unless indeed it is more correct to call the Emperor an occidental edition of the Sultan (2).

وليس المجال هنا مجال تتبع هذه العلاقات السلمية في صورها المختلفة ، ولكن يمكن أن نشير إلى الحملة الصليبية العجيبة — وهي الحملة المعروفة بالسادسة التي خرج بها فردريك الثاني وقوامها ٦٠٠ جندي ولم ترق فيها قطرة واحدة من الدماء ، وإنما انتهت بمعاهدة سلمية بينه وبين الملك الكامل سمح له فيها باسترداد بيت المقدس وبالسماح للمسيحيين بالحج في أمن وسلام ، وقد توطد خلال زيارة الامبراطور للأرض المقدسة علاقات الصداقة بينه وبين الملك الكامل وكثيرين من كبار رجال دولته وعلمائها .

وقد خالف العرب وراعيهم — بعد أن سلموا الجزيرة للنورمان — تراثاً ضخماً من الحضارة العربية التي ظلوا يقيمون صرحها قرابة ثلاثة قرون ، كما تركوا في الجزيرة دون شك — في خزانات الكتب وبين أيدي من بقي من العرب بالجزيرة وفي جنوب إيطاليا — عدداً كبيراً من المؤلفات العربية في مختلف ألوان العلوم والآداب ، وهذا لا نعجب إذا وجدنا بلاط فردريك

(١) انظر (جمال الدين الشيال) : جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ص ٨٧ ، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد) :

Kantorowicz: Frederick the Second; p. 186.

Op. cit. p. 185.

(٢)

الثاني وابنه منفرد من بعده ، بالعديد من العلماء الذين يعملون على نقل التراث الفكري العربي والإفادة منه .

وهكذا صارت صقلية في عهد النورمان ، هي المعبر الثاني الذي انتقلت عن طريقه الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا .

والحقيقة أننا لم نجد شواهد مباشرة تدل على جهود بذلت في البلاط النوروماندی لترجمة المؤلفات التاريخية العربية ، ولكننا نستطيع أن نقول استنتاجاً - وإلى أن يوافق الباحثون للكشف عن الشواهد المادية التي ننشدها - أن علم التاريخ العربي نال في صقلية وإيطاليا ما نالته العلوم العربية الأخرى من دراسة واهتمام ، ويؤيد ذلك أن العلماء العرب كانوا في جملتهم وتبعاً لتقاليد عصرهم موسوعيين ولم يركزوا إلى التخصص ، والجغرافي الشريف الأدريسى كان ولا شك واسع المعرفة بالتاريخ ، وكتابه نزهة المشتاق يتضمن الكثير من الحقائق التاريخية ، و مترجمو أرسطو وابن رشد ما كانوا ليستطيعوا فهم النصوص وترجمتها دون الإلمام بتاريخ كل من الفيلسوفين وعصرهما وما ساد العصرين من حركات فكرية ، والمناقشات التي دارت بين فردريك من ناحية والأمير فخر الدين والقاضي شمس الدين من ناحية أخرى تناولت الكثير من الموضوعات التاريخية والنظريات المتصلة بعلم السياحة وفن الحكم ، وابن واصل سفير بيزنس إلى منفرد واحد من كبار المؤرخين العرب ، وعندما وصل إلى إيطاليا كان قد فرغ من تأليف كتابين من كتبه التاريخية وهما :

« التاريخ الصالحى » و « ونظم الدرر في الحوادث والسير » وأوشك أن يفرغ من كتابه التاريخي الضخم « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » وهو أكبر موسوعة عربية ألقت في تاريخ دولة بني أيوب وظهور دولة المماليك ، ولا شك أن شهرته كمؤرخ كانت قد سبقته إلى بلاط منفرد ، ولا يستبعد أن يكون الحوار الذي دار بين ابن واصل والعلماء في حضرة منفرد قد شمل علم التاريخ فيما شمل من علوم أخرى كالمنطق وعلم البصريات ،

وهذه المجموعة الكبيرة من المخطوطات العربية التي كد فرديك في جمعها وضمها إلى جامعة نابلى . هل من المعقول أن تخلو من المؤلفات التاريخية ! .

وعلى يد من تعلم فرديك ومنفرد اللغة العربية ، وهندسة أقليدس والمشاكل الفلسفية والدينية التي أرسل فرديك يستقى فيها ابن سبعين .

وهل يمكن أن يتعمق في هذه المسائل الفلسفية — دون أن يلم معه المحيطون به بالخليفة — التاريخية للدين الإسلامى والجدل القائم بين الديانتين المسيحية والإسلام وهذه الحالات من تجار جنوة والبندقية وبيزا وفلورنسا الذين كانوا يترددون على موانئ مصر والشام ويقيمون في الفنادق الخاصة بهم في هذه الموانئ مدداً تطول أو تقصر ألم يحملوا معهم شيئاً من الأفكار العربية وعدداً من المؤلفات التاريخية العربية .

والعلماء الأربيون الذين تعلموا في طليطلة وشاركوا في حركة الترجمة بها أو الإيطاليون الذين ترددوا على إسبانيا ألم يقرءوا شيئاً من الكتب التاريخية العربية في أصولها أو ترجمتها

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا دانتى اليجيرى الفلورنسى الأصل قد أثبت البحث العلمى أخيراً أنه تأثر تأثيراً واضحاً بكتاب « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى وما كتبه الفيلسوف الصوفى الأندلسى ابن عربى عن المعراج . والفضل في هذا الكشف يرجع إلى المستشرق الأسباني أمين بلاثيوس فقد استطاع نتيجة لبحوثه العلمية في التراث العربى الأسباني أن يثبت أن كتاب « تاريخ العرب Historia Arabum » الذى ألفه الأسقف رودريجو خمينث دى رادا الطليطلى Rodrigo Jiménez de Rada يحتوى على سيرة للنبي محمد عليه السلام ، وفيها ترجمة لقصة المعراج منقولة عن كتاب من كتب علم الحديث العربية .

وعن تاريخ العرب هذا نقلت القصة إلى تاريخ لاحق وهو المدونة العامة في تاريخ اسبانيا Cronica General — التى تكلمنا عنها سابقاً — والتى أمر

بأنها ألفها الملك ألفونسو العاشر الحكيم في المدة من ١٢٦٠ - إلى ١٢٦٨ .
وفي أواخر القرن الثالث عشر وضع القديس بطرس باسكال .
مؤلفاً آخر في التاريخ في أثناء أسره في غرناطة بين سنتي ١٢٩٧
أو ١٣٠٠ أسماه ، Impunacion de la Seta de Mohamad وكان
هذا الرجل قريباً لولى عهد مملكة أراجون ، وقد زار روما ، وكان موضع
إعجاب البابا نيكولاس الرابع ، وفي طريق عودته ألقى بعض المحاضرات
في جامعة باريس (١) . وفي كتابه يقتبس القديس بطرس من القرآن ومن الحديث
ومن كتاب يسميه Miragi الذي هو بلا شك المعراج ، ويعطى في وصفه
صورة قريبة الشبه لما قدمه دانتى في مؤلفه الكوميديا ، فالواضح من هذه
النصوص والمؤلفات أن قصة المعراج كانت مع نهاية القرن الثالث عشر -
قد أصبحت متداولة في الأوساط العلمية في أسبانيا ، ومن المحتمل جداً أن تكون
قد انتقلت منها إلى بلاد غرب أوروبا ومن بينها إيطاليا
ولم يقنع اسن بلاتينوس بهذا الحل القائم على الفروض ، بل دعمه بشاهد
قوى آخر ، فقد أثبت أن دانتى درس على عالم فلورنسى موسوعى اسمه
برونيتو لانيى Prunetto Latini كان يشغل منصباً كبيراً من مناصب
الحكومة ، وقد تمتع دانتى حين كان شاعراً ناشئاً برعاية أستاذه وكان يعمل
دائماً بنصائحه ، والحدير بالملاحظة أن برونيتى كان مشغولاً بالثقافة العربية ،
واستزاد منها في أثناء سفارته لدى بلاط ألفونسو العاشر الحكيم في الوقت
الذى كان نشاط حركة الترجمة قد بلغ أوجه في هذا البلاط ، وفي الوقت
الذى كانت المدونة العامة للتاريخ الاسبانى تؤلف بالاستعانة بكثير من المراجع
التاريخية العربية .

وقد كتب برونيتى [قصيدتيه المعروفتين Tesore & Tesoretto
(أى الكثر والكثر الصغير) بعد عودته من اسبانيا وهما يعكسان في وضوح

(١) Aziz S. Atiya : Crusade, Commerce and Culture. Bloomington 1962, p. 259.

أثر الثقافة العربية ، فهل يستبعد بعد ذلك ما قاله اسن بلاثيوس من أن الأستاذ نقل إلى التلميذ بعض ما قبسه من الثقافة العربية وأنه دفعه إلى العناية بهذه الثقافة .

إن التشابه الواضح بين الحطة والمنهج والأفكار التي قدمها دانتى في الكوميديا وقصة المعراج كما كتبها محي الدين بن عربي تؤيد هذه الفروض جميعاً (١) .

وما سيرة محمد وما قصة المعراج وما تاريخ العرب في اسبانيا إلا نوع من التاريخ ، وقد ناقش المؤرخ المصرى القدير الدكتور حسن عثمان - الذى أوقف ربع قرن من حياته - لدراسة دانتى وترجمة الكوميديا - موضوع تأثير الكوميديا بالتراث التاريخي والفكر الإسلامى مناشئة عالمة مركزة في المقدمة القيمة التي قدم بها للترجمة العربية لحجيم دانتى ، فأكده ما سبق أن قلناه ، وأضاف إليه كثيراً من رصيد معلوماته الضخم عن تاريخ إيطاليا وأوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة ، فقال : « ولقد انتقل هذا التراث الإسلامى عن عالم ما بعد الحياة ودنيا المغامرات والعجائب إلى أوروبا عن عدة طرق - عن طريق الحروب الصليبية التي أذكت الحركة التجارية والثقافية بين الشرق والغرب ، وعن طريق الحضارة العربية في الأندلس الذى كان كعبة العلوم والفنون في أوروبا ، وكذلك عن طريق أثر العرب في صقلية وجنوبي إيطاليا ، وظلت صقلية في عهد النورمان وفي عهد الجرمان - وعلى الأخص زمن الامبراطور فردريك - مركزاً للعلم والمعرفة ، ودرس بعض الرهبان المسيحيين اللغة والثقافة العربية ، وعرف العالم الأوربي آراء المسلمين في عالم ما بعد الحياة منذ القرن التاسع الميلادى » .

(١) يؤيد هذا رأى ويؤكدده المستشرق الأمريكى المعاصر جوستاف جرونباوم فيقول في كتابه Medieval Islam ص ٤٣٥ من الترجمة العربية لعبد العزيز توفيق جاويد التي سماها (حضارة الاسلام ، القاهرة ١٩٥٦) ، ولا يكاد انسان يشك في فضل أصحاب الرؤى الحالمين من المسلمين على دانتى بعد أن ترجمت آراؤهم وذاعت إلى حد ما .

انتشرت هذه المعرفة في اسبانيا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا ، ودرست أقوال المسلمين في هذا الصدد ، وعلى الأخص آراء ابن رشد وابن سينا ، وترجم القرآن الكريم لأول مرة ترجمة ملخصة إلى اللغة اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، وعرفت صور من الإسراء والمعراج الإسلامى بلغات مختلفة في أوروبا منذ القرن الثالث عشر .

وظلت هذه الصورة تتوارث في كتابات العلماء ورجال الدين والأدباء في أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر ، ومثال ذلك كتابات رودريجو اكزيمينيز أسقف طليطلة ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، والرحلة الخيالية التي كتبها راييموندو لوليو القطلوني في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عن البعث والعقاب والثواب ونعيم الفردوس في الإسلام ، والتاريخ الإسباني العام الذي أمر بكتابته ألفونسو الحكيم ملك قشتالة ، وما كتبه ريكولادو دابنينو الراهب الدومنيكاني الفلورنسي عن العرب في مطلع القرن الرابع عشر ، وقصيدة فانزويودولى بالإيطالية عن معراج النبي محمد عليه الصلاة والسلام بعد منتصف القرن الرابع عشر ، وكذلك ما دونه الأب روبرنو كاراتسولو عن ذلك بالإيطالية في أواخر القرن الخامس عشر .

ثم أشار حسن عثمان بعد ذلك إلى البحث الذي كتبه اسين بلاثيوس ونظريته في تائر داتى بالتراث التاريخي والفكري الأندلسي بما لا يخرج عما ذكرناه آنفاً ، ولكنه أضاف جديداً بإشارته إلى عالم إيطالى آخر عالج هذا الموضوع بعد العالم الأسباني اسين بلاثيوس وأيده في نظريته ، ومن المفيد أن نأتى هنا بما قاله حسن عثمان في هذا الصدد فقيه براهين جديدة ، قال :

« وفي سنة ١٩٤٩ أصدر انريكو تشيولى المستشرق الإيطالى وسفير بلاده في طهران مؤلفاً بعنوان : « كتاب المعراج ومسألة المصادر العربية - الإسبانية للكوميديا الالهية » ، ونشر تشيولى في كتابه الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة لإحدى صور المعراج الإسلامى .

وتتلخص قصة هذه الترجمة في أن ألفونسو العاشر ملك قشتالة أمر بترجمة هذه الصورة من صور المعراج الإسلامى عن العربية إلى القشتالية ، وقام بالترجمة إبراهيم الحكيم الطبيب اليهودى سنة ١٩٦٤ ، ثم طلب ألفونسو إلى بونا فنتورا داسبينا الإيطالى ترجمتها من القشتالية إلى اللاتينية والفرنسية القديمة في نفس السنة لإذاعتها فيما وراء الحدود الأسبانية ، وكان ذلك متمشياً مع سياسة الملك ألفونسو فى تشجيع العلوم والفنون .

وبذلك أيد تشيرونلى فكرة بلاثيوس فى احتمال نقل برونيو لاتىنى لدانتى بعض المعلومات عن الإسراء والمعراج . ويستطرد حسن عثمان بعد ذلك فيدلى برأيه مؤيداً نظرية بلاثيوس وتشيرونلى فيقول :

« كانت الفرصة إذاً سانحة أمام دانتى لكى يلم بعلم ما بعد الحياة عند المسلمين بطريق غير مباشر مما كان معروفاً لدى علماء الغرب فى العصر الذى عاش فيه ، ومن المحتمل أنه اطلع على الترجمة اللاتينية والفرنسية للمعراج الإسلامى المشار إليه ، ولايبعد أنه استمع إلى بعض الرهبان الذين كانوا على علم برأى الإسلام وعلماء المسلمين عن عالم الآخر » .

وإن كان حسن عثمان يؤيد دانتى بالقرآن وآراء المفسرين وآراء بعض المتصوفة كابن عربى ، فإنه ينكر تأثيره برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى فيقول : « والصلة ضعيفة بين دانتى وأبى العلاء المعرى فى « رسالة الغفران » لاختلاف الطريقة والمضمون العام فى كل منهما (١) .

(١) دانتى البهيمى : الكوميديا الإلهية - الجعيم - ترجمة حسن عثمان القاهرة ١٩٥٥ ،

الشرق الأدنى إبان الحروب الصليبية

رصدنا في الفصلين السابقين بعض المؤثرات التي تركها التراث التاريخي العربي في الفكر الأوربي عبر المراكز الأوربيين : إسبانيا ، وصقلية ، وإيطاليا ولكننا نلاحظ أنه على الرغم من نشاط حركة الترجمة في هذين المراكز فإن الإفادة من هذه العلوم كانت مقصورة على أوساط معينة من المثقفين ورجال الدين ، ولم يستتب نقل هذه العلوم انتشار اللغة العربية أو معرفة جماهيرية الناس للإسلام وللتاريخ العربي الإسلامي ، ولهذا فإن الشعوب الأوربية لم تكمل تستمع إلى نداء البابا اربان الثاني في مجمع كليرمونت (١٠٩٥) حتى آمنوا بكل ما قال ، وحتى أسرع الكثيرون منهم إلى حمل السلاح والصليب ، وبذلك بدأت الحروب الصليبية التي تعتبر بحق حلقة هامة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب .

وعلى الرغم من كثرة المعارك التي سادت عصر الحروب الصليبية فإن العلاقات العدائية لم تكن وحدها هي المسيطرة على الطرفين المتقاتلين ، بل قامت بينهما علاقات ود وصداقة كثيرة ، فإن حملة الصليب الوافدين من الغرب الأوربي كانوا أقلية في الإمارات التي أنشئوها في سواحل الشام وفلسطين فكان من الضروري أن يعتمدوا على السكان الأصليين لهذه البلاد في الأعمال الزراعية وفي بناء الكنائس والحصون والقلاع وفي معظم شؤون الحياة الأخرى . وقد قامت علاقات الود وأقيمت مباريات الصيد في كثير من الأحيان بين أمراء الصليبيين وجيرانهم من الأمراء المسلمين ، كما كانت التجارة عاملاً آخر من العوامل للتقارب بين الفريقين ، وخاصة في فترات الهدنة والسلام وبعيداً عن ميادين الحرب والقتال .

وكان عدد النساء الفرنجيات اللاتي يصحبن المقاتلين من الصليبيين قليلا .
فكثر زواج هؤلاء من المواطنات في بلاد الساحل وفلسطين من المسيحيات
والأرمنيات بل ومن نفر قليل من الأسيرات اللاتي تنصرن وعمدن ، وفعل
المسلمون ما فعله الصليبيون ، بل لقد كان الأمر بالنسبة لهم أيسر وأسهل
لانعدام العائق الديني . ، فتزوجوا من الأسيرات (١) من أجناس أوربا
المختلفة .

وعقدت أحلاف واتفاقات كثيرة بين بعض الأمراء المسيحيين والمسلمين
وخاصة عندما كان يجد الأمير من هذا الفريق أو ذاك نفسه في حاجة إلى معين
يقف إلى جانبه ضد عدو من قومه .

ولهذا لم تكد الحرب الصليبية الأولى تنتهي حتى كانت السحب التي تفصل
بين الفريقين قد انتشعت ، وبدأ كل فريق يفهم الآخر على حقيقته ، وامت
شيئا فشيئا الصورة القديمة التي كانت في مخيلة الصليبيين عن المسلمين ، فلم
يعدوا يرونهم جنوداً جبناء أو قساة غلاظ القلوب أو كفرة عباد أوثان ،
بل شهدوا من شجاعتهم في القتال ومن روعهم في الصلاة ومن سماحتهم
في معاملة أهل الأديان الأخرى ما أطلق ألسنتهم والاعجاب والتقدير ، وخير
شاهد على هذا ما رواه أرنولد لوبك في حواريته Arnold of Lubeck's
Chronicle على لسان الأمير الصليبي بوركارد Burchard .

وكان هذا الأمير قد أرسل في سفارة عن فردريك برابوسا إلى صلاح الدين ،
ثم عاد يروي لأخوانه وصفاً حقيقياً ومنصفاً لمعتقدات المسلمين ، فاشاد
بسماحتهم ، وذكر أن الحرية الدينية مكفولة لديهم ، وأن لكل فرد الحق

(١) هناك صور مشرفة وطريفة لهذا الزواج في قصتي «الصعيدى وزوجته الافرنجية»
«ومريم الزنارية» من قصص ألف ليلة وليلة ، والشواهد كثيرة على علاقات الود والصداقة
ومباريات المبارزة والصلات التجارية ... الخ نجدها منتشرة في المراجع التاريخية وكتب التراجم
والرحلات وبصفة خاصة «النوادر السلطانية» ، والمحاسن اليوسفية «لابن شداد» ، «الفتح القسسى»
للعماد الصفهاني ، وكتاب الاعتبار «لاسامة بن منقذ» و«الرحلة» لابن جبير .. الخ .

قى أن يؤمن بالدين الذى يعتنقه ، واعترف الأسير أن معظم المسلمين
 لا يتزوجون إلا زوجة واحدة، وروى الكثير عن ورع المسلمين وأنهم يؤمنون
 بالله واحد هو خالق كل شيء ، وما محمد عندهم إلا رسول الله ونبيه (١) .
 وبعد الحملة الصليبية الثالثة ارتفعت مكانة صلاح الدين فى الغرب ، وأصبح
 موضع إعجابهم وتبجيلهم لما أظهره من نبيل وكرم وسماحة عند استعادته لبيت
 المقدس تختلف كل الاختلاف عما أظهره الصليبيون من عنف وقسوة
 ووحشية عند استيلائهم على هذه المدينة فى سنة ١٠٩٩ .
 وعاد من الجند الصليبيين إلى أوروبا من عاد ، وأطال الإقامة منهم فى الشرق
 من أطال ، واستقر ألوف منهم وألوف فى الإمارات اللاتينية التى أنشئوها
 بسواحل الشام واتخذوها موطناً ومقر ملك ودار إقامة .
 وحمل العائدون معهم إلى مواطنهم فى أوروبا صوراً عن معارك القتال
 وعن العالم العربى الإسلامى بلاده وأهله وعاداته وأخلاقه ومعتقداته وتاريخه ،
 أما من أطالوا الإقامة فكانوا يتراسلون مع زوجاتهم وأهليهم وأصدقائهم
 ويضمنون رسائلهم صوراً أخرى من مشاهداتهم وتجاربهم .
 أما الذين استوطنوا الإمارات اللاتينية فى سواحل الشام فقد كان لزاماً
 عليهم أن ينشئوا حكومات تدير هذه الإمارات ، وقد أنشئوها على نمط
 جديد فيه قبس من النظم التى عرفوها فى أوطانهم وقبس من النظم التى وجدوها
 فى الشرق ، وخاصة أن الإمارات التى اقتطعوها لم تخلص لهم وحدها —
 بل بقى فيها وفى مدنها عدد من المواطنين الأصليين — مسلمين ومسيحيين
 ممن آثروا البقاء فى ديارهم ، ومن هؤلاء فقهاء وعلماء ومؤرخون بقيت لهم
 بعض مساجدهم وكنائسهم وأديرتهم يقيمون فيها شعائر دينهم ، وخزائن
 كتبهم يفرغون فيها إلى قراءاتهم ودراساتهم .
 وكان من الطبيعى أن يحاول كل فريق التعرف على الفريق الآخر :
 حاضره وماضيه ، وقد أسهب المؤرخون العرب فى وصف المعارك الحربية

الصليبية وما اكتنفها من أحداث وما اتصل بها من معاهدات ومهادنات ، ولكنهم لم يحاولوا التعمق إلى قلب الإمارات اللاتينية ليدرسوا نظم الحكم في هذه الإمارات ، أو أحوال المجتمع الفرنجي الحديث العهد بالبلاد ، ولم يحاولوا كذلك — بعد المسافة — أن يتعرفوا على هذه الشعوب الغربية التي اقتحمت عليهم أوطانهم ، وعلى دولها ونظمها ومجتمعاتها وتاريخها .

والمحاولات التي بذلها المؤرخون العرب في هذين الميدانين من ميادين البحث التاريخي قليلة ، ففي الميدان الأول لدينا إشارة إلى كتاب واحد هام وطريف ألفه مؤرخ حلي بعد وصول الحملة الصليبية الأولى ، والكتاب فقد للأسف الشديد ولكن عنوانه يدل على أنه كان يتضمن معلومات قيمة جداً عن الفرنج الوافدين من أوروبا ، وقد أشار إلى هذا الكتاب ومؤلفه ابن ميسر أحد مؤرخي مصر في القرن الثالث عشر ، فقد قال في حوادث سنة ٥٢٠ هـ « وفيها قدم إلى مصر الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم مصنف « سيرة الأفرنج الخارجين إلى بلاد الإسلام في هذه السنين برسالة من حلب (١) .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا الكتاب الشذرات القليلة التي ضمنها أسامة ابن منقذ كتابه « الاعتبار » والتي تحدث فيها عن بعض عادات الفرنج وأخلاقهم ونظمهم وعلاقات الصداقة التي قامت بينه وبين نفر من أمراء الصليبيين .

أما الميدان الثاني وهو ما عرفه المؤرخون العرب عن دول أوروبا وشعوبها وملوكها وتاريخها فإن حصيلتهم فيها قليلة وتوجد متناثرة في بعض المؤلفات التي صنفها مؤرخو العصر الصليبي كابن شداد وأبي شامة ، وقد أورد بعضهم معلومات تفصيلية قيمة عن ملوك أوروبا كما فعل محمد بن علي بن نظيف حين أورد في كتابه « التاريخ المنصوري » صوراً لبعض الخطابات المرسلة

(١). ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٧٠ .

من الامبراطور فردريك الثانى إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ يروى فيها طرفاً من الأحداث السياسية فى دولته ، وكما فعل جمال الدين بن واصل حين قدم فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » بعض المعلومات عن لويس التاسع ملك فرنسا ، وعن الإمبراطور منفرد بن فردريك الثانى وعن مدينة برلينا الإيطالية التى نزل فيها حين أرسل سفيراً عن الظاهر بيبرس إلى منفرد ، كما قدم لنا فى كتابه هذا معلومات نادرة وقيمة عن أسرة هوهنشتا وفن وعن الحالة الإسلامية التى كانت تعيش فى مدينة لوجارة بجنوب إيطاليا .

ونستطيع أن نضيف إلى هذين المؤرخين مؤرخاً ثالثاً هو القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » فقد أورد فى الجزء الخامس من كتابه قوائم بأسماء وألقاب ملوك أوروبا الذين يتراسل معهم سلاطين مصر .

وكذلك كان الحال عند الفريق الآخر من المؤرخين الأوربيين فقد وصلتنا عنهم حصيلة غنية من الكتابات والمؤلفات التاريخية عنوا فيها بوصف حروبهم ومواقعهم فى الشرق ، واتخذوا فى كتابتهم أساليب مختلفة ، فمنهم من ضمن أوصافه رسائل كان يرسلها إلى أهله وأسرته وأصدقائه ، ومنهم من كتب مذكراته الشخصية ، ومنهم من ألف كتباً للتاريخ لحملة من الحملات أو الملك من الملوك أو الحقبة من حقبة هذا العصر الصليبي .

ومن أوائل هذه الكتب وأوثقها كتاب « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (١) » *Gesta Francorum et Aliorm Hierosolimitanorum* ومؤلفه مجهول من محاربى الحملة الصليبية الأولى ، وقد اعتمد على هذا الكتاب كثيرون من مؤرخى الحروب الصليبية الأوربيين الذين أتوا بعده .

أوكبير هؤلاء المؤرخين دون منازع هو وليم الصورى « William of Tyre » (١١٣٠ - ١١٨٤) وهو أشدهم صلة بموضوعنا لأنه ولد فى بيت المقدس

(١) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب للدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨ .

وعاش معظم حياته في المشرق ، ولأنه تعلم اللغة العربية وقرأ المؤلفات التاريخية العربية وتأثر بها وأفاد منها عند وضع مؤلفه .

ولد ولیم فی بیت المقدس حوالي سنة ١١٣٠ من أبوين ينتميان إلى أسرة فرنسية اشترك رجالها في الحملة الصليبية الأولى ، وتلقى علومه الأولى في فلسطين ودرس اللغتين العربية واليونانية ، ثم أرسله ذروه إلى باريس حيث أتم دراسته ، وعاد إلى بيت المقدس حوالي سنة ١١٦٢ ، فاتصل منذ ذلك الوقت بخدمة الملك عموري الأول ، ولم يلبث أن عهد إليه بالاشراف على تربية أولاده وبخاصة ولي عهده بالدوين . ثم أرسله في سنة ١١٦٨ سفيراً عنه إلى إمبراطور بيزنطة ، ولا مجال هنا للإسهاب في ترجمة حياة ولیم وذكر الوظائف الدينية والسياسية الكبرى التي شغلها والتي كان لها الفضل الأكبر في تكوين شخصيته ونضوجه الفكري ، ولكن يعيننا هنا أن نشير إلى مؤلفاته التاريخية .

كان عموري الأول (املويك) ملك بيت المقدس رجلاً طموحاً ، وقد انتهز فرصة ضعف الخلافة الفاطمية والصراع الذي قام بين الوزيرين شاور وضرغام ، فاتجه بآماله نحو مصر يريد أن يضمها إلى ملكه في فلسطين ، وتسابقت جيوشه مع جيوش نور الدين محمود بن زنكي نحو مصر ثلاث مرات ، ولكنه منى في الأخيرة بالفشل ، واستقر الأمر في مصر إلى أسد الدين شيركو ، وابن أخيه يوسف صلاح الدين ، وانتهت صهوة الموت وقضى على الدولة الفاطمية ، وقامت على ضفاف النيل دولة بني أيوب .

وسط هذا الصراع وهذا النصر المتارجح بين عموري وقوى نور الدين سرت نشوة الطموح في نفس عموري فأراد أن يؤرخ لنفسه ولدولته ولجهود الصليبيين وأراد في نفس الوقت أن يتعرف على تاريخ هؤلاء المسلمين الذين يحيطون به ، أنها الرغبة في التعرف على الماضي والرغبة في الخلود بين صفحات التاريخ .

ووجد عمورى فى صديقه القس المثقف ولیم ضالته فكلفه بكتابة هذا التاريخ ،
وبدأ ولیم العمل سنة ١١٦٧ ولم ينته منه إلا فى سنة ١١٨٤ وقد عهد إليه
خلال هذه السنوات الأربعة عشرة بمهام سياسية ودينية كثيرة ، فارسل سفيراً
إلى إمبراطور بيزنطة لمفاوضته فى أمر القيام بحملة بيزنطية صليبية مشتركة
على مصر ، ورقى أسقفاً للمدينة صور وعين مستشاراً للملكة بعد وفاة عمورى
وثولية الطفل بلدوين العرش وسافر إلى روما على رأس وفد دينى استجابة
لطلب البابا ، كل هذه المهام أتاحت له فرصة للأطلاع على كثير من أسرار
الدولة ووثائقها والاتصال بالعديد من رجالات الحكم والحرب فى دولته
وغيرها من الدول ، وقد أفاد من كل هذه الوثائق والمراجع والاتصالات
فائدة كبرى عند وضع مؤلفاته التاريخية .

والمعروف أن ولیم قام أصلاً بتأليف كتب تاريخية ثلاثة ، كان الأول منها
كتاب « أعمال الملك عمورى Gesta-Amalrici Regis » وكان الكتاب الثانى
هو أعمال ملكة بيت المقدس Gesta Hiersolymitanorum « وكان الكتاب
الثالث هو « أعمال الأمراء الشرقيين Gesta Orientalium Principum »

وقد اعتمد ولیم اعتماداً كبيراً فى الكتاب الأول على المعلومات التى جمعها
من روايات القواد الذين بقوا من رجال الحملة الصليبية الأولى ومن القواد
الذين شاركوا فى حملات عمورى الثلاث على مصر ، وقد تضمن هذا الكتاب
وصفاً رائعاً للقصر والبلاط الفاطميين كما رآهما قواد الصليبيين وسفراء
عمورى لدى الخليفة الفاطمى العاضد ، وهو وصف لا نجد له شبيهاً
فى المراجع العربية ، كما أورد تفاصيل كثيرة عن موقع بابليون « الفسطاط »
وتاريخها وعن دلتا النيل وفروعه ، وعن تجارة الهند المارة عبر بحر القلزم
إلى السويس .

وبدأ ولیم إذن بالتاريخ لعمورى والإشادة بجهوده وأمجاده ، ثم بدأ له
أن يعود إلى وراء قليلاً ليؤرخ لملكة بيت المقدس منذ بدايتها ، فأقبل

وليم على وضع كتابه الثاني الذي سماه « أعمال مملكة بيت المقدس » وفيه اعتمد على ما صنفه المؤرخون الصليبيون الذين سبقوه ، مثل « أعمال الفرنجة » المجهول المؤلف ، ومؤلفات ريموند الأجيلي وولتر المستشار ، وفولشير الشارترى ولكنه يمتاز عليهم بالحاسة التاريخية فهو لا يأخذ أقوالهم كأنها حقائق ثابتة ، بل يناقش ويحال ويقارن ، ويحاول قدر استطاعته الوصول إلى الحقيقة التاريخية .

ورأى عمورى أن الصورة التاريخية لا تكتمل إلا إذا تعرف على تاريخ الإمارات والدول الإسلامية المحيطة بمملكته ، ولهذا طلب من وليم أن يضع كتابا جديدا في تاريخ الحكام المسلمين وانجازاتهم منذ عهد الرسول عليه السلام ، وهنا كان لابد لوليم أن يرجع إلى المصادر التاريخية العربية ، وقد ساعده على إنجاز مهمته معرفته باللغة العربية ، وقد وضع عمورى بين يدي وليم مجموعة كبيرة من المراجع والمؤلفات التاريخية العربية ، بعضها مما بقى في مملكة بيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها ، وبعضها - فيما يقال - كان من مجموعة كتب الفارس العربى أسامة بن منقذ التى صادرها الملك بولدوين الثالث بعد أن غرقت السفينة التى كانت تحملها من مصر على شاطئ مدينة عكا (١) .

وقد صرح وليم نفسه في كتابه أنه استعان بالمراجع العربية وأفاد منها ولكنه لم يشر إلا إلى اسم مؤرخ عربى واحد هو سعيد بن البطريق المشهور ، باوتيهخوس أو أونيشيوس (٢٦٣ - ٣٢٨) صاحب كتاب « التاريخ المجموع

(١) خرجت السفينة من مصر في طريقها الى الشام تحمل نفرا من أسرة أسامة بن منقذ وأتباعه وأربعة آلاف مجلد عربى فاخر - هى مكتبته الخاصة - وقدرا من ذخائر ، ولكن السفينة غرقت قرب شاطئ عكا فاستولى الملك بلدوين الثالث على ما بها ، واستمان أسامة بما فقد ، ولكنه تألم الألم كله لفقد الكتب وعبر عن حسرتة في كتابه (الاعتبار ، ص ٣٤-٥) : بقوله «فان ذهابها حزا في نفسى ما عاشت»

على التحقيقات والتصديق في معرفة التواريخ من عهد آدم إلى سنى الهجرة (١).
يقول ولیم فی مقدمة كتابه « تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء
البحار » « كما أننا قد ألفنا كتاباً آخر في التاريخ بناء على رغبة الملك
الذي أمدنا بالوثائق العربية اللازمة ، وكان مصدرنا الرئيسي في هذا المصنف
كتاب بطريق الاسكندرية المبجل سعيد بن البطريق ، وكتابنا هذا يبدأ
من عهد النبي محمد ويمتد خلال خمسمائة وسبعين سنة حتى عامنا الحاضر
وهو ١١٨٤ بعد ميلاد المسيح .

ولم يكن غريباً أن يكون معظم اعتماد وليم — وهو أسقف مسيحي —
على مؤلف عربي مسيحي مثله ، بل لعل هذا كان هو الأمر الطبيعي ، فسعيد
ابن البطريق مصري من القسطنطينية وقد عين في سنة ٣٢١ بطريقاً على الاسكندرية
وفيه ألف كتابه وبها مات ، ولعل رجال الدين من مسيحيي الشرق هم الذين
قدموا هذا الكتاب لوليم وزكوه لديه ، وقد ذيل على هذا المؤرخ مؤرخ آخر
هو يحيى بن سعيد ، وضمن الدليل الحوادث التاريخية في العالم الإسلامي
من سنة ٣٢٨ وهي سنة وفاة ابن البطريق إلى سنة ٤٢٥ هـ .

وإن كان ولیم قد صرح باعتماده على كتاب سعيد بن البطريق فإنه قد رجع
— دون شك — إلى كثير من المراجع التاريخية العربية الأخرى وخاصة عندما
تولى أسقفية صور فقد كانت هذه المدينة لا تزال تضم — وهي تحت حكم
الصلبيين — عدداً من المساجد التي يتردد عليها المسلمون وعلماءهم ولا يستبعد
أن يكون ولیم قد اتصل بهؤلاء العلماء للحصول على مزيد من المعلومات
وهو يؤلف كتابه في تاريخ الأمراء المسلمين . ولكن هذا الكتاب فقد للأسف

(١) قام على طبع هذا الكتاب لأول مرة مع ترجمة لاتينية يوحنا سلداني وادوار يوكوك
في أكسفورد ١٦٥٨-٥٩ ثم طبع النص العربي ومعه ذيل يحيى بن سعيد بمطبعة الآباء
اليسوعيين في بيروت ١٩٠٦-٩ انظر ،
(سركيس : معجم المطبوعات العربية .

وراجع ترجمة سعيد بن البطريق في (ابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ، ج ٢ ص ٨٦) .

الشديد ، ولم يصلنا منه إلا شذرات قليلة ضمنها وليم مؤلفه الذى وصلنا
والذى جمع فيه الكتابين الأول والثانى فى « أعمال بيت المقدس » وأعمال
الملك عمورى « والذى أعطاه عنوانه الأخير المعروف « تاريخ الأعمال
التي تمت فى بلاد ما وراء البحر .

فوليم الصورى (١) يعتبر من أوائل المؤرخين الصليبيين الذين تأثروا
بالدراسات التاريخية العربية ومن أوائل من عرفوا المجتمع الأوروبى بالإسلام
ودولته وشعوبه وحكامه وتاريخه . *

فى مجال التاريخ الذى نحن بصدد الكلام عليه وحده نجد المسعودى
العربى يعرض فى كتابه « مروج الذهب » عرض خبير ماهر تاريخ واثنوغرافية
غرب آسيا وشمال افريقية وشرق أوربا ، ونجد ابن خلكان الدمشقى (١٢١١-
١٢٨٢) يصنف معجماً فى التراجم التاريخية بجديراً بان يقرن إلى « تراجم
فلوطوخ ، ثم نجد شيخ مؤرخى العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسى
(١٣٢٢ - ١٤٠٦) قد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت من سعة
الإحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة ما جعلها مصداقاً لما قال الأستاذ فلنت
Flint فى حق ذلك العالم التونسى الكبير من أنه « واضع علم التاريخ... الخ (٢)

(١) عن ترجمة وليم الصورى ومؤلفاته التاريخية راجع
السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٩٩-١٥٢ .
نظير حسان سعادوى ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ .
وعمر كمال توفيق ، وليم الصورى المؤرخ ، بحث معد للنشر بمجلة كلية الآداب بجامعة
الاسكندرية .

J.L. La Monte : Some Problems in Crusading Historiography.
Specuim, XV. 1940.

William of Tyre : A History of Deeds done beyond the Sea.
Trans. E.A. Beacock ; A.C. Krey, New-York, 1943.

علم التاريخ ، ترجم عبد الحميد العبادى ، للقاهرة ١٩٣٧ ، ص ٤٧-٥٠ .

بعد الحروب الصليبية

انتهت مرحلة من مراحل النضال الصليبي الحربى بطرد آخر جنود الصليبيين من عكا فى سنة ١٢٩١ م ، ونخبا الحماس الدينى الذى دفع الصليبيين الأوائل إلى اقتحام هذه المخاطرة ، وضعف شأن البابوية بعد صراعها الطويل مع الامبراطورية ، وانفصمت عرى الوحدة الأوروبية دينياً وسياسياً إلى حد كبير . ومع هذا راح نفر من المتحمسين يفكرون فى أسباب هذه الهزيمة ، وظهرت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مشروعات كثيرة لإعادة الكرة ومحاولة إقحام ديار الإسلام . ولم تكن الحوافز التى حفزت أصحاب هذه المشروعات الجديدة دينية فى معظمها كما كانت أول الأمر ، بل ظهرت إلى جوانبها عوامل اقتصادية وأطماع سياسية . ومستلاحق هذه الحوافز والعوامل وتتداخل ويختلط بعضها ببعض الآخر بحيث يصعب الفصل بين حافز وحافز وعامل وعامل ، بل نرى أنها - رغم اختلاف أهدافها - ستعمل معاً وفى وقت واحد لتحقيق هدف مشترك ، وهو اقتحام ديار الإسلام على أهلها . فبينما كان هذا هدف رجال الدين والرهبان بمشروعاتهم الخيالية لتكوين جيش أوربى موحد يعيد الكرة ، أو لتبشير المسلمين بالمسيحية تمهيداً لإزالة الفوارق الدينية ، كان رجال المال والاقتصاد يعملون دائبين للاستعانة بالنهضة العلمية ويمهدون لحركة الكشف الجغرافية ، وكان الملوك يرسلون السفارات المختلفة للحصول على امتيازات لتجارهم فى الموانئ الإسلامية .

وأدرك هؤلاء جميعاً ضرورة تعلم اللغة العربية ، فالمبشر لا يستطيع أن يصل إلى نفوس المسلمين وعقولهم إلا إذا خاطبهم بلغتهم التى يفهمونها ،

وكذلك السفير والتاجر لا يستطيعان النجاح في مهنتهما إلا إذا ألما بلغة القوم الذين يتعاملان معهم ، والمكتشف والملاح كان لابد لهما من التعرف عما وصل إليه العرب من نتائج في علوم الجغرافية والفلك والملاحة .

ولهذا أنشئت المدارس لتعليم اللغة العربية ، وصنفت المعاجم العربية الأوربية لمعاونة المترجمين ، واخترعت إبان ذلك الطباعة فاستخدمت خير استخدام لطبع الإنجيل باللغات المختلفة ومن بينها العربية ، ولطبع القرآن وترجماته باللغات الأوربية المختلفة .

وكان من نتائج هذه الجهود ، أن ظهرت في غرب أوروبا مؤلفات عديدة في مختلف هذه الميادين العلمية ومثال ذلك المعجم العربي القشتالي . *Vocabulista arabigo en letra castellana* (Granada 1505) الذى كتبه المستعرب الإسباني الغرناطى بدرو الكالا Pedro Alcala . ثم ظهر في روما بعد ذلك بقليل سنة ١٥١٤ أول كتاب طبع بالحروف العربية : *Septum Horae Canonicae* بأمر من البابا جوليوس الثانى كى يستعلمه ويفيد منه نصارى الشرق . هذا إلى جانب كتاب وصف أفريقيا *Descrittione dell'Africa* الذى كتبه بالإيطالية ليون الإفريقى (القرن ١٦ م) ، وهو مسلم أصلاً واسمه

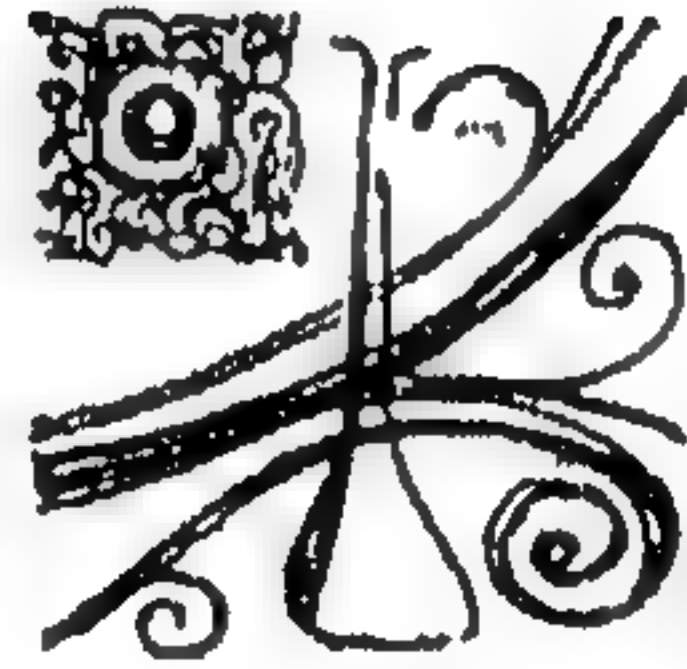
(١) ينبغى الإشارة هنا الى مدرسة الخرائط التى قامت في جزيرة ميورقة بعد أن استولى عليها ملك أراجون خايمى الأول من يد المسلمين سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠م) ويرجع الفضل في إقامة هذه المدرسة الى ابراهيم كرسك A. Cresques الذى كان يعمل منجماً أو فلكياً في بلاط عمك أراجون . والجدير بالذكر أن علماء هذه المدرسة قد اعتمدوا فيما رسموه من خرائط للعالم على جهود العرب السابقة . راجع (خوان برنيت : هل هناك أصل عربى لأسباني لفن الخرائط الملاحية ؟ تعريب أحمد مختار العبادى ، العدد الأول من مجلة معهد مدريد للدراسات الإسلامية سنة ١٩٥٣) هذا ومن المعروف أن الرحالة البرتغالى المشهور فاسكودى جاما الذى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م ، قد استفاد من خرائط هذه المدرسة ، ومن المراجع الجغرافية العربية التى ترجمت في أسبانيا وفوق هذا فقد كان دليله الذى قاده من شرق أفريقيا وأوصله آمناً الى الهند هو الملاح العربى المشهور ابن ماجد . راجع (أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح القاهرة ١٩٦٧) .

الحسن الوزان ثم فر إلى روما وتنصر وألف كتابه المذكور الذي قدم فيه
للغرب أول معلومات صحيحة عن أفريقيا وعن المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم
أما في فرنسا ، فقد حمل لواء هذه الدراسات المستعرب جيوم بوستل G. Postel
الذي جمع كثيراً من المخطوطات العربية ، وكتب سنة ١٥٣٩ م كتاباً عن
جمهورية الترك De la république de Turks (١) . وقد باع بوستل مجموعة
المخطوطات العربية التي جمعها إلى مكتبة هيدلبرج (٢) بالمانيا ، فكانت النواة
التي نبئت منها الدراسات العربية في ألمانيا وقد شجعت الكنيسة الكلفنية
التي ازدهرت في هيدلبرج سنة ١٥٦٠ م المستشرقين على ترجمة هذه الوثائق
العربية إلى اللغة اللاتينية .

وهكذا نجد أن حركة الاستشراق في غربي أوروبا قد أخذت تنحو ناحية
العناية بدراسة علم التاريخ كأساس للتعلم في الدراسات العربية بصفة عامة .
ومن ثم أخذ المستشرقون يهتمون بمعرفة تاريخ العرب والإسلام على حقيقته
بالرجوع إلى ما كتبه العرب أنفسهم ، وبتحقيق النصوص التاريخية الأصلية
وترجمتها وطبعها إلى أن انتهى بهم الأمر بعد ذلك إلى التأليف في تاريخ
العرب والإسلام اعتماداً على هذه المراجع الأصلية ، وبهذا تدخل حركة
الاستشراق في مرحلة جديدة حديثة .

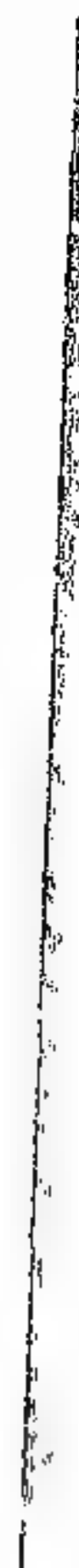
(١) ترجم هذا الكتاب حديثاً لأهميته إلى عدة لغات ، كالانجليزية والفرنسية والإسبانية
(٢) كان من بين هذه المخطوطات التي باعها بوستل المخطوط التاريخي المعروف باسم
«تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام إلى القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية للمؤرخ القبطي
المصري المكين جرجس بن العميد (٦٠٢-٦٧٢ هـ ١٢٠٣-١٢٧٣ م) وقد طبع هذا الكتاب
لأول مرة مع ترجمة لاتينية بعناية أريينيوس في لندن سنة ١٦٢٥ ثم ترجمة إلى اللغة الفرنسية
وطبع في باريس سنة ١٦٥٧ وإلى اللغة الانجليزية وطبع في لندن سنة ١٧٢٦ . وقد ذيل
على هذا التاريخ مؤرخ قبطي آخر هو المفضل بن أبي الفضائل (ت ٦٧٢ هـ) وسمى كتابه :
«النج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد .
نشره مع ترجمة فرنسية بلوشيه E. Blochet (باريس ١٩١٢)

الفصل
الثامن



في العمارة والتحف الفنية

إعداد : دكتور أحمد فكرى



فهرس الفصل الثامن

| الموضوع | الصفحة |
|--------------------------------|--------|
| مقدمة | ٤٠٥ |
| العمارة | ٤١١ |
| العقود المنقوشة | ٤١٢ |
| العقد الثلاثي الفتحاح | ٤١٣ |
| العقود المفصصة | ٤١٥ |
| العقود المدببة | ٤١٧ |
| العقود الصماء والعقود المنفرجة | ٤١٨ |
| القبوات والقباب | ٤١٨ |
| الأبراج | ٤٢٣ |
| الشرفات | ٤٢٤ |
| الكوابل أو المساند | ٤٢٥ |
| الزخارف المعمارية | ٤٢٦ |
| (ا) تعدد الألوان | ٤٢٦ |
| (ب) الزخارف المنحوتة الغائرة | ٤٢٨ |
| (ج) الزخارف المنحوتة المسطحة | ٤٣٠ |
| الخط الكوفي | ٤٣١ |
| مجموعة آثار البوى | ٤٣٢ |
| التحف الفنية | ٤٣٧ |
| الزخارف الإسلامية | ٤٣٨ |
| الحزف والزجاج | ٤٤٠ |

| الموضوع | الصفحة |
|----------------------|--------|
| الرنوك | ٤٤٢ |
| النسيج والسجاد | ٤٤٣ |
| التجليد | ٤٤٥ |
| التصوير | ٤٤٦ |
| بيان بالمراجع الهامة | ٤٤٨ |

مقدمة

تبع الفتوح العربية وانتشار الإسلام انتشاراً واسعاً نهضة عمرانية كبرى لم يحدث من قبل نظير لها ، إذ انبثقت في فترة وجيزة من الزمن مدن جديدة ، ونمت نمواً عظيماً مدن أخرى كانت قائمة قبل الإسلام . وقد أنشئت في العصر الأموي وحده أكثر من خمس وعشرين مدينة جديدة من بينها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط ، وذلك بالإضافة إلى منشآت شيدت للنزهة والصيد والراحة والاستجمام ، أمثل قصير عمرة والمشتى وقصرى الحيرة الشرقى والغربى وقصر هشام وقصر الطوبة . واختطت في العصر العباسى مدن عديدة أخرى ، منها هاشمية الكوفة والمعمورة وبغداد وسامراء في العراق ، والعسكر وتونس والقطائع في مصر ، والعباسية ورقاده وسوسة ووهران وفاس في بلاد المغرب . واتسعت أرجاء مكة والمدينة ودمشق وحلب وقرطبة ومئات غيرها من المدن في بلاد المشرق والمغرب والأندلس .

ونشطت حركة البناء والعمارة في هذه المدن جميعاً ، وبنيت حولها الأسوار والحصون ، وأقيمت بها المساجد والدور والقصور والأسواق والحمامات والأربطة وخزانات المياه والبيمارستانات والمدارس . وازدهرت في عصر واحد عواصم الإسلام ، العربية الثلاث ، بغداد والقاهرة وقرطبة ازدهاراً تضاهل بجواره ازدهار العواصم الأوروبية والآسيوية التي كانت قائمة في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

وصاحب النشاط المعماري نشاط الحرف والصناعات ، وتبعته نهضة فنية كبرى ، وأقبل رجال الفن على إنتاج التحف الثمينة من الخشب والعاج

والخزف والزجاج والمعادن والجلود والمنسوجات الكتانية والحريرية والصوفية .
أضافت العمارة الإسلامية العربية إلى التراث الفني العالمي نظاماً لم تكن
معروفة من قبل منها أنظمة المساجد والأضرحة والمدارس . وأدخلت على نظم
المساكن والقصور والحمامات والحصون والأسوار أنظمة جديدة جعلت
لها في العصور الإسلامية طابعاً مميزاً . وابتكرت العمارة الإسلامية عناصر
كثيرة ، منها أشكال العقود ، التي كانت تقتصر في العصور القديمة على العقد
الروماني النصف دائري ، فأصبحت في العصور الإسلامية متعددة المظاهر
والتركيب ، فيها العقد المنفرخ والعقد المدبب والعقد المطول ومشتقاتها ،
وفيهما العقد المنفرج والعقد المنبسط والعقد المنبسط ومشتقاتها ، وفيها العقد الثلاثي
الفتحات والخماسي والمفصص ومشتقاتها . وابتكرت العمارة العربية أشكالاً
جديدة من التيجان تختلف عما كان مالوفاً في العمارات القديمة ، سواء من حيث
الشكل أو من حيث الزخرفة . وكانت القباب معروفة في العصور الساسانية
ولكنها اتخذت في البلاد العربية الإسلامية مظاهر جديدة مستمدة ، من فكرة
تجزئة الكتلة إلى خطوط هندسية ، وتنوعت أشكالها وأحجامها ، كما تنوعت
مقرنصاتها تنوعاً كبيراً ، وتجزأت عناصرها إلى حد أن أصبحت دلائل
تحلي بها السقف والنوافذ والبوابات . وابتكرت في العصور الإسلامية الصنم
المعشقة وظهرت أشكال المحاريب واتخذت عنصراً من عناصر الزخرفة ،
وانتشرت البوابات البارزة ذات الإطارات المستطيلة ، وانتصبت المآذن
والمنازل وتنوعت أحجامها ، من مكعبات واسطوانات ومضلعات ،
وتعددت طوابقها ، وارتقت أعنتها وامتشقت قوائمها في كل مكان .
وازدهرت الزخارف المعمارية واتخذت لها خصائص امتازت بها ،
سواء من حيث تصميمها وإخراجها الفني ، أو من حيث موضوعاتها
وأساليبها . ومن طرق الإخراج الفني كان النقش على الحصن إما بطريقة
الحفر المباشر أو بطريقة الصب الآلية ، وكان النحت في الحجارة أو الخشب ،
إما بطراز سلس ، قليل البروز ، وإما بطراز النحت الغائر المفرغة أرضيته .

وكان استخدام الفيسقاء والقراميد والحجارة المختلفة الألوان . وأما من حيث الموضوعات فقد كانت مصادر الإيحاء تشمل أشكال النباتات والأغصان والأوراق ، والأزهار والثمار ، كما شملت أشكال الحيوان والطيور والإنسان . واستخدم العرب الأشكال الهندسية بغزارة وتنوع لم يسبق لهما مثيل ، وخلقوا من الكتابة العربية خطوطاً زخرفية رائعة المظهر والتكوين . وجعل العرب والمسلمون من المجموعات الزخرفية حقولاً انطلق فيها خيالهم إلى اللانهاية والتكرار والتجدد والتناوب والتشابه ، وابتكروا المضلعات النجمية وأشكال التوريق وأشكال التوشيح العربي ، الذي أطلق عليه الأوروبيون صفة (الأرابيسك) .

وكذلك الفنون ، كانت لها خصائص تمتاز بدقة الرسم ورقة الصناعة وخصب الخيال . ففي الأخشاب والعاج ، مثلاً ، كان النحت المشطوف والنحت الغائر والنحت المحرم والإطارات المجمع والمشربيات ، وظهرت فيها مجموعات إنشائية كاملة رائعة ، خالدة في التاريخ ، مثل منبر مسجد القيروان ، ومثل المجموعات المتخلفة من القصور الفاطمية ، ومثل الصناديق العاجية الأندلسية . وفي الفخار والخزف ، ظهرت شبابيك القليل المحلاة بالزخارف المحرمة المفرغة المتنوعة ، وظهر الخزف ذو البريق المعدني ، وظهرت أوان رقيقة الصناعة ، بديعة الزخارف والألوان . ومن الزجاج صنعت أوان أخرى مختلفة الأشكال ، شفافة ، براقه الألوان ، منها الأكواب والكؤوس والأباريق والقناني ، ومنها مشكاوات المساجد ذات الشهرة العالمية . وفي المعادن استخدمت الفضة والنحاس في صناعة أوان على هيئة الطيور والحيوان ، رشيقة الأبدان ، ثمينة عالية ، منقوشة عليها الزخارف المختلفة . وظهرت مهارة الصانع في تكفيت التحف البرونزية بالنحاس والفضة والذهب . وظهرت مراكز شهيرة بصناعة المنسوجات ، تعرف بدور الطراز ، أنتجت أنواعاً فاخرة منه ، امتاز بعضها بالدقة ، وبعضها بتموج الألوان ، والبعض الآخر بزركشته بخيوط الذهب والفضة . أما شهرة السجاد

فقد ذاعت في دول أوروبا ، وكانت جدران قاعات الإستقبال في قصور ملوكها وأمرائها تزدان بالأنواع الفاخرة منه .

وبالإضافة إلى هذه الخصائص والابتكارات الفنية ، فقد انطبعت آثار العمارة والزخرفة والتحف الإسلامية في حقولها المترامية الأطراف ، وفي عصورها المتعاقبة ، بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفني ، مظهرًا وجوهًا ، فكرا وخيالًا .



للعلاقات الفنية بين العرب والإسلام من جهة ، وبلاد أوروبا من جهة أخرى تاريخ حافل . نشأت هذه العلاقات مما كانت تتبادله أمة العالم ، منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، في معاملاتها التجارية ، من منتجات فنية منها التحف الخشبية والعاجية والمعدنية ، ومنها الأواني الخزفية والزجاجية ، ومنها المخطوطات المصورة ، ومنها أنواع الأقمشة والسجاد . وازدادت رابطة العلاقات توثقًا مما كان يشاهده من عمائر العرب والمسلمين أفواج الحجاج في طريقهم إلى بيت المقدس من جهة ، وإلى شنت ياقب في شمالي غربي إسبانيا من جهة أخرى ، ثم مما كان يلمسه الصليبيون في حربيهم وإقامتهم ومروورهم ببلاد الشام ومصر . ونشأت علاقات أخرى أساسها الرحلات وتبادل السفارات والرسائل والهدايا بين الأمم الإسلامية والمسيحية ، ومن ذلك السفارة المشهورة بين الرشيد وشارلمان ، وسفارة الملك أردون الثالث ، ملك جليقية ونبرة ، إلى الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر . وتسربت هذه الصلات من جهة أخرى إلى إيطاليا من اتصال أهلها بالعرب في صقلية ، ومن انتقال المسلمين علماء وعمالًا إلى أنحاء مختلفة فيها .

ثم إن كثيرًا من المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الأندلس منذ فتح العرب لها ، في أواخر القرن الأول الهجري (أوائل القرن الثامن الميلادي) . بدعوا يهاجرون إلى المناطق المسيحية في شمالي إسبانيا ، وخاصة إلى قشتالة ، في القرن

الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وازدادت أفواج المهاجرين فيما بين سنتي ٤٨٣ ، ٥٤١ هجرية (١٠٩٠ و ١١٤٦ ميلادية) ، هرباً من تعسف المرابطين والموحدين ، وكان هؤلاء المسيحيون يسمون بالمستعمرين . وقد حمل المستعمرون هؤلاء معهم إلى تلك المناطق طرق البناء وأسرار الصناعات الفنية التي كانت متبعة في الأندلس .

وكذلك ظل كثير من العمال ورجال الفن المسلمين يعملون في الأندلس بعد الغزو المسيحي لها ، وتحدثنا المصادر التاريخية عن جماعات كبيرة منهم ظلوا يعملون في طليطلة بعد سقوطها في سنة ٥٨١ هجرية (١٠٨٥ م) ، وفي قرطبة بعد سقوطها في سنة ٦٣٣ هـ . (١٢٣٦ م) ، وفي إشبيلية ، بعد سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) . بل إن التقاليد الفنية الإسلامية ظلت متبعة ، في الحرف مثلاً ، في غرناطة بعد سقوطها في سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . وكان هؤلاء المسلمون يسمون « المدجنون » ، وانتشرت الفنون الإسلامية في البلاد المسيحية على أيديهم .



في مدينة واست Wast-en-Boulonnais في شمال فرنسا بوابة نقلت زخرفة عقودها نقلاً عن بوابة الفتوح بالقاهرة . وكان مرجع ذلك أنه ساهم في بناء هذه الكنيسة أحد رجال الحاشية في السفارة التي أوفدها الملك الصليبي (مري) إلى القاهرة في سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) لمقابلة الخليفة الفاطمي العاضد ووزيره شاور ، فانطبعت صورة هذه البوابة في مخيلة ذلك الرجل وعبر عن إعجابه بها في بناء كنيسته .

وكذلك الحال في بوابتي كنيسة (باريه له مونيال) Paray-Le-Monial وشارليو Charlieu في أواسط فرنسا ، فإن الناظر إليهما يهتأ إليه أنه أمام بوابات في المدن المغربية . ومن الأمثلة المتناثرة التي تدل على مدى تأثير الأوربيين بالفنون الإسلامية ، تلك القطعة من العملة التي سكها (أوبا)

ملك مرسية والمحفوظة بالمتحف البريطاني ، والمكتوب على وجه من وجهيها
إسم ذلك الملك باللغة اللاتينية ، وعلى الوجه الآخر كتابة عربية وتاريخ
هجرى .

غير أن هذه التأثيرات كانت فردية ، وكانت نتيجة الصدفة ، ولا شك
في أنه كانت تقع كثيراً أمثلة من هذه الصدوف ، وأنه كانت لها نتائج متناظرة ،
والشواهد على ذلك عديدة . غير أننا سوف لا نشير إليها ، إذ أن الذى يعنينا
فى هذا البحث هو فحسب التأثيرات العامة التى انتقلت عن تيارات معروفة
محددة ، والتى تستمد اقتباساتها من عناصر شائعة فى الفنون الإسلامية ، مميزة
لها ، كما أن الأمثلة التى سنوردها من هذه الفنون ستقتصر على تلك التى ثبتت
الصلة التاريخية بينها وبين مصادرها الإسلامية العربية .



العمارة

تأثرت العمارة الأوروبية في العصور الوسطى تأثراً بالغاً بالتقاليد المعمارية الإسلامية العربية . وكانت أولى المناطق التي ظهرت فيها قوة هذا التأثير هي شمال إسبانيا ، منذ أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، في مقاطعات ليون وقشتالة وجليقية من جهة ، وفي بلاد قطلونيا من جهة أخرى . أقيمت في ذلك العصر وفي تلك المناطق جملة من الكنائس ، أقامها المستعربون ، مثل كنائس (سان ميغل ده اسكالادا) San Miguel de Escalada و (سنتياجو ده بنيالبا) Santiago de Peñalba و مثل كنائس (سان ميان ده لا كوجيا) San Millán de la Cogolla و (سان ثيريان ده ماثوتي) San Cebrián de Mazote و (سان باوديل ده برلانجا) San Baudel de Berlanga . وأقيمت كنائس أخرى على نمط كنائس المستعمرين مثل كنائس (ريبول) Ripoll و (وكوتشا) Uxá و (سان ميغل ده فلوجيا) San Miguel de Flugia و مثل (ليريدا) Lérida و (ونخرون) Gerona و (أفييدوا) Oviedo و (واستيليا) Estella ، وأخيراً أقيمت في أطراف قشتالة (شنت ياقب) (Santiago de Compostela) وهي التي كانت كعبة الحجاج من فرنسا وإسبانيا وغيرهما من البلاد المسيحية . وكان طريق الحج هذا مكتظاً بالكنائس والأديرة المستعربة في أراغون Aragon ونبرة Navarra وقشتالة Castilla وليون (León) .

وبالرغم من أن المستعربين قد حاولوا التخلص في عمارتهم من التقاليد الإسلامية العربية ، إلا أنهم لم يستطيعوا إتمام أعمالهم بدونها ، إذ كانت هذه

التقاليد من القوة بحيث فرضت عناصرها على عناصر العمارة المسيحية ، وكان من أهم مظاهرها تلك العناصر المعمارية والزخرفية التي كانت العمارة الإسلامية قد ابتكرتها وطبقتها في عمائرها ، ونشرتها شرقاً وغرباً ، مثل النوافذ المزدوجة والعقود المنفوخة والعقود الثلاثية الفتحات والعقود المفصصة ، أو المقصوصة ، والعقود الضياء ، ومثل الشرفات أو الكوابيل ، ومثل القباب والقبيبات المضلعة ، والقنوات الوترية ، ومثل الزخارف المتعددة الألوان والمنحوتات المشطوفة والمنحوتات الغائرة ، وغير ذلك من العناصر والأشكال.

العقود المنفوخة :

وكانت أول هذه العناصر ظهوراً وأكثرها انتشاراً العقود المنفوخة . وقد ظهر العقد المنفوخ ، أول ما ظهر معمارياً فيما نعرف ، في المسجد الأموي بدمشق في سنة ٨٧ هجرية (٧٠٦ م) واستخدم بعد ذلك بصفة عامة في بيت صلاة المسجد الجامع بالقيروان في سنة ١٠٥ (٧٢٣ م) ، واقتنع رجال العمارة العربية بمناعة بنيانه ورشاقة مظهره ، فتبنوه ، وعمموا استخدامه بحيث أصبح عنصراً مميزاً للعمارة الإسلامية ، وخاصة في بلاد المغرب والأندلس ، فلم يكن غريباً أن يتبناه كذلك المستعربون ، وأن يكثروا من استخدامه ، ونجد أمثلة عديدة منه في بناء كنائسهم وأديرتهم مثل كنائس (بوباسترو) Bobastro (وسان ميغل ده اسكالادا) و (سان ثريان ده ماثوتى) ، (وبنيلبا) ، و (سان خوان ده لابنيا) San Juan de la Peña ومن هذه الكنائس انتقل العقد المنفوخ إلى كنائس فرنسا ، مثل (سانت اندريه ده كوبزاك) Saint-André de Cubzac و (سويك) Souillac و (سان ميشيل ده بوي) Saint-Michel du Puy ونلقاه كذلك في كنائس أخرى في جنوب إيطاليا ، مثل (سانتا مريا ان شلاس) Santa Maria in Cellis وفي (فيرونا) Verona و (سنيولي) Sugnoli واقتبس البناء الأوروبيون عنصراً زخرفياً متصلاً بالعقد المنفوخ وهو

إحاطة هذا العقد بإطار مستطيل يوضح حدوده ومعالمه . وهو عنصر ابتكرته العمارة الإسلامية وانتشر استعماله فيها في بلاد المشرق والمغرب . نجد نظائر له في كنائس المستعربين ، وخاصة في (اشتوريا) Astauria مثل كنيسة (سنتيا جوده بنياليا) Santiago de Peñalla ، كما نجد نظائر له في عدة من الكنائس الفرنسية ، مثل دير (كلوني) Cloney وكنيسة (شارليوه) Charlieu وكنيسة (باريه له مونيال) Paray-Le-Monial .

والغريب في هذا العقد المنفوخ أن منظره الزخرفي اجتذب خطاطي الكتب المسيحية المقدسة ، فنجدته متخذاً حلية في مخطوطات عديدة من « تعليقات الأبوكاليبس » التي ألفها في القرن العاشر الميلادي (Béatus) (بياتوس) ، والتي كانت واسعة الانتشار في أوروبا اللاتينية في العصور الوسطى . ونجد في صفحات من هذه المخطوطات ، رسوم مباهة ، فتحت بواباتها ، أو حليت واجهاتها ، بعقود منفوخة . ومن ذلك المخطوطة المحفوظة في كاتدرائية (خيرون) Gérone في إسبانيا ، والمخطوطة المحفوظة في المكتبة الأهلية في باريس .

العقد الثلاثي الفتحاح :

وكذلك العقد الثلاثي الفتحاح ، انتشر استعماله انتشاراً واسعاً لا في الكنائس الإسبانية فحسب ، بل في الكنائس الفرنسية والإيطالية ، ولا في العصر الرومانسكي وحده ، أي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، بل في العصر القوطي كذلك ، أي في القرون الثلاثة التالية ، وقد كان العقد الثلاثي الفتحاح معروفاً « قبل الإسلام » وخاصة في العمارة الهندية . غير أن استخدامه في الهند كان ذا طابع خاص وفي منطقة محدودة . أما في العمارة الإسلامية العربية فقد كان مصدره فكرة هندسية بحتة ، قائمة على القسمة الحسابية ، كما يتضح من رسم باق على جدار في أطلال مدينة الزهراء . وعلى هذه الصورة الهندسية ابتكر هذا العقد في العمارة الإسلامية ، وانتشر في بلاد

المغرب والأندلس ، وتسرب إلى أوروبا اللاتينية في مثل كاتدرائية (شنت
ياقب) وكنيسة (سانتا كروزا ده كاستيادا) Santa Cruza de Castenáda
و (سان پرى ده كاسيريس) San Pere de Casserres وكاتدرائية شلمنقة
Salamanca ودير (سان بابلو دل كامبو) San Pablo del Campo
في برشلونة .

إلا أن انتشار هذا العقد في فرنسا كان أعم وأوسع . وعدد الكنائس
التي تبقت فيها عقود ثلاثية الفتحات كبير جداً ، مما يدل على أن شكل هذا
العقد اتخذ بعد اقتباسه من العمارة العربية ، عنصراً معمارياً وزخرفياً
من عناصر العمارة المسيحية الفرنسية . ومما يؤكد ذلك أنه استخدم في مناطق
منها مطابقاً لشكله ووضعته في عمارة قرطبة والأندلس ، واستخدم في مناطق
أخرى ، على بعض الاختلاف والتطور . وذلك معناه أن اقتباسه كان أول الأمر
اقتباساً مباشراً عن آثار الأندلس ، فلما أصبح عنصراً فرنسياً محلياً تطور
شكله ، وأصبح الاقتباس غير مباشر ، ففقد في هذا الاقتباس الأخير صفته
الهندسية البحتة التي كانت تنبع من مصدره الإسلامي المباشر .

ونلقى من العقد الثلاثي الفتحات ، الهندسي انصفة أمثلة في كنائس
(سان فيدال) Saint-Vidal و (شانتوج) Chanteuges و (شامالير)
Chamalières و (بيير ايناك) Pierre d'Aynac و (له مناستيه)
Le Monastier و (بريود) Brioude و (كوها) Culhat و (فين)
Saint-Pierre de Vienne و (فالنس) Valence و (سولينياك) Solignac
وعشرات غيرها في أواسط فرنسا وجنوبيها وغربيها . ونشاهد في هذه
الآثار العقد الثلاثي الفتحات مستخدماً مثل ما استخدم في العمارة الإسلامية ، —
إما مغلقاً أصم ، كما يشاهد فوق محراب مسجد قرطبة وفي داخل تجويفه ،
وإما مفتوحاً مفرغاً ، كما يشاهد كذلك في قرطبة ، في مقصورة المحراب ،
وفي مئات من الآثار الإسلامية العربية .

ونلقى أمثلة من العقد الثلاثي الفتحات المتطور في كاتدرائية (كاهور)

Cahors وفي (ماريني) Marigny و (بيرينياك) Perignac و (ساجون) Sagonny و (دنزي) Donzy و (مارينياك) Marignac . وقد اشتقت هذه العقود من زخارف الصناديق الأندلسية العاجية ، التي سئى فيما بعد رواجها فى العالم المسيحى ، أو من زخارف بعض المخطوطات . وفى هذه الزخارف ، زخارف المخطوطات والصناديق ، روى أن تقتصر الفتححات السفلى ، فى العقود الثلاثية الفتححات ، على أرباع دوائر فتتسع بذلك فتحة العقد الثلاثى بحيث تلائم الأشكال المرسومة داخلها ، وهى عادة أشكال زعوس آدمية .

العقود المفصصة :

ولقيت العقود المفصصة ، أو المقصوصة ، مثل الترحيب الذى لقيه العقود المنفوخة والعقود الثلاثية الفتححات ، وهى عقود قصت حوافها الداخلية على هيئة سلسلة من أنصاف دوائر ، أو على هيئة عقد من أنصاف فصوص . ولعل هذا العقد المفصص قد اشتق من شكل حافة المحارة ، غير أنه اتخذ فى العبارة الإسلامية المظهر الهندسى البحت ، وأصبح فيها ابتكاراً ، ظهر أول ما ظهر ، فيما تبقى من الآثار ، فى قصر المشتى ، فى أوائل القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، وفى نفس الوقت فى قصر الحلابات وحران وقصر الطوبة ، واتضح معالمة الهندسية كاملة فى بناء قبة المسجد الجامع بالقيروان ، فى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وفى قصر العاشق بالعراق ثم فى الرقة حوالى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) .

واحتفظ العقد المفصص بمظهره الهندسى فى تطوره بعد ذلك وانتشاره فى عمارة المغرب والأندلس ، وخاصة فى مسجد قرطبة الجامع ، فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، إذ تعددت أشكاله ، واتخذ فى داخل هذا المسجد وخارجه مظهراً بديعاً جذاباً . ثم تشابكت العقود المفصصة فى القرون التالية ، وازداد عدد الفصوص ، وتصاغرت ، وتداخلت

فيها زهيرات ووزيدات ، وصبح شكلها زخرفياً فحسب ، حليت به المآذن والمحاريب :

ومن المغرب والأندلس اشتقت العمارة المسيحية في العصور الوسطى ، في إسبانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا أشكال العقود المفصصة ، وظهرت فيها بمظهرين : المظهر الأول ، هندسي بحت ، أى أن العقد يتكون من سلسلة من أنصاف دوائر ، والمظهر الثاني ، نباتي ، أى أن العقد يتكون من التفاف غصن في أنصاف دوائر تنتهى كل منها بزهرة أو وريدة . ومن بين الآثار التى يشاهد فيها المظهر الأول للعقد المفصص ، كنائس (شاسبوزاك) Chaspuzac و (كرواس) Cruas و (شانتول) Chantemerle و (لاندو) Landos و (تورنوس) Tournus و (مواساك) Moissac و (إسوار) Issoire وكاتدرائية (كليرمونت) Notre-Dame-du-Port à Clermont-Ferrand ودير (كلوني) Ctuny . في هذه الآثار ، وفي مئات غيرها ما زالت قائمة ، نشاهد البوابات أو النوافذ أو فتحات الشرفات الداخلية أو الأبراج أو القباب أو المذابح ، قد حليت مسطحاتها بهذا العقد الجميل . ونشاهد مثلاً رائعاً لتطور الاقتباس على بوابة كنيسة (بلانزاك) Blanzac إذ قصت حافة العقد الداخلية من خمسة فصوص يتكون كل فص منها من عقد ثلاثى الفتحات . وتعددت الأشكال في العمارة المسيحية تعدداً لا حصر له في العصور التالية ، سواء من حيث حدود رسم الفصوص وتنسيقها في العقد الواحد ، أو من حيث اختلاف أوضاعها :

كان هذا مصير المظهر الأول الهندسى للعقد المفصص : أما المظهر الثانى ، النباتى الشكل ، فقد انتشر كذلك انتشاراً واسعاً في العمارة الأوربية نشاهده في (باساك) Bassac و (شارتر) Chartres و (بيلوم) Billom وبورج (بوتجس) (Boutges) و (ريو) Rioux و (فيلمارتان) Villemertin و (ليبورن) Libourne وعشرات غيرها من الآثار . ونلقى للعقد المفصص مزدهراً على واجهة كنيسة (بيتية باليه) Petit Palais ، تفصل فيه

بين الفصوص زهيرات بديعة تتدلى من أطراف أنصاف الدوائر ، وتتخذ هذه العقود المفصصة مظهراً فريداً جعل من هذه الواجهة أجمل واجهات الكنائس الرومانسيكية في مقاطعة الجيروندي (Gironde) ، غربي فرنسا . واحتفظت جميع هذه العقود بطابعها العربي الذي يتضح من رقة الحواف ودقة الرسم الهندسي . ونلقى منها كذلك مثلاً رائعاً منتشراً على واجهة كنيسة (شاريتيه) Charité-sur-Loire في فرنسا ، ومثلاً شبيهاً به في دير (طراخونه) Tarragona في إسبانيا ، كما نلقى أمثلة عديدة في انجلازة تتوج نوافذ الكنائس مثل كنيسة (كلاي) Clay في نورفولك (Norfolk) وهي من القرن الرابع عشر .

العقود المدببة :

وانتقل العقد المدبب كذلك من العمارة الإسلامية العربية إلى العمارة المسيحية ، وتطور في هذه العمارة تطوراً عظيماً . بحيث أصبح عنصراً مميزاً للعمارة القوطية . وكان هذا العقد المدبب قد نشأ في العراق ، وأقدم مثل معروف منه يوجد في قصر الأخيضر (من حوالي سنة ١٦١ هـ - ٧٧٨ م) ، ثم عم استعماله بعد ذلك . نلقاه في الجوسقي الحاقاني بسامراء من عهد المعتصم في سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) ، وفي المسجد الجامع بالقيروان من عهد زيادة الله ابن الأغلب في السنة نفسها ، وفي مقياس النيل بالروضة بمصر في سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) وفي مسجد ابن طولون في سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩ م) وانتشر في أثناء ذلك انتشاراً واسعاً في العمارة الإسلامية ، في بلاد المشرق والمغرب على السواء . ثم ظهر في العمارة المسيحية الرومانسيكية ، وأخذ يتطور فيها ، فزاد ديبه بحيث أصبح ستينياً ، وفطن البناء الأوربيون إلى ميزات هذا العقد التي أتاحت الفرص لزيادة ارتفاعه زيادة كبيرة مع الاحتفاظ بمناعته ، وأتاحت الفرص كذلك لتوسيع فتحته اتساعاً كبيراً ، فاستخدموه بكثرة منذ نهاية القرن الثاني عشر ، وحوروا في أشكال رعموسه وحوافه تحويراً أصبح مظهرها معه غريباً عن مظهر مصدره العربي القديم .

العقود الصماء والعقود المنفرجة :

استخدمت العقود الصماء في زخرفة الأبواب والواجهات والمحاريب في العمارة الإسلامية وظهرت في أشكال متشابهة في المسجد الجامع بقرطبة في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) وعلى واجهة مسجد طليطلة في سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) ، وانتشر استعمالها في العمارة الإسلامية ، وبصفة خاصة في مآذن الأندلس والمغرب ، ثم أصبحت عنصراً محبباً في عمارة المدجنين . ونجد أمثلة من هذه العقود الصماء انتقلت إلى إنجلترا ، وظهرت على شاكلة عقود طليطلة ، في كاتدرائية (درهام) Durham التي بنيت في سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦ هـ) وفي كاتدرائية (نورويش) Norwich التي بنيت في سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) وكذلك انتقل إلى العمارة الإنجليزية العقد المنفرج ، وهو المعروف فيها بالعقد التيودوري Tudor Arch وقد عم استعماله في القرن السادس عشر . والعقد المنفرج عقد يتكون من كتفين مستقيمين يجتمعان عند رأسه في زاوية منفرجة ، وله طرفان رأسيان مستقيمان كذلك يربطهما بالكتفين إنحناء مقوس . وقد ظهر هذا العقد أول ما ظهر في العمارة الإسلامية في قصر العاشق بالعراق في سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) . ثم عم استعماله في عمارة القاهرة منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، في مساجد الحيوشي والأقمر والأزهر . ولا تختلف أمثلة العقد التيودوري في إنجلترا ، مظهرأ وعنصرأ ، عن أمثلة العقود المنفرجة في القاهرة ، وإن كانت أعمدتها هنالك رفيعة وأكثر طولاً ، وهذا أمر طبيعي أملاه التطور في غضون خمسة قرون .

القبوات والقباب :

اتخذت العقود العربية أهمية كبرى بين عناصر العمارة والزخرفة الأوربية ، واتخذت القباب العربية أهمية أعظم شأنأ وأبقى أثراً . وقد كان المتبع في العمارة السابقة للإسلام والمعاصرة له عند بناء القباب على مساحات مربعة أن تستخدم المقرنصات المعقودة أو المثلثة المقوسة Squinches, pedentatifs

لتحويل المربع إلى مثنى تستقر قاعدة القبة المستديرة عليه ، كما كان المتبع أن تعطى الكتلة الكروية ، وهى القبة نفسها ، الأهمية الرئيسية فى البناء . ولعل العمارة الإسلامية قد سارت أول الأمر على هذا النهج ، إلا أن آثارها قد اندثرت ونخيت عنا أشكالها . والثابت تاريخياً أن أقدم قبة عربية قائمة على تخطيط مربع وعلى مقرنصات معقودة هى قبة المحراب فى المسجد الجامع بالقىروان التى بنيت فى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) . غير أن بناء القىروان استوحى فى بنائه فكرة جديدة لم تعرف من قبل ، أساسها تجزئة الكتلة . وبالرغم من أن بناء القىروان قد احتفظ بالمبدأين المعروفين قديماً ، وهما ، أولاً — تحويل القاعدة المربعة إلى قاعدة مثنى بواسطة مقرنصات معقودة ، وثانياً — إعطاء الأهمية الرئيسية للقبة نفسها حجماً ومظهراً ، أى للغطاء الكروى ، إلا أنه يلاحظ أن هذا البناء لم يحفظ لقبته مظهر الكتلة الواحدة المنسجمة السطح ، بل جزأها إلى ضلوع ، وكذلك فعل بطابقتها الأول وبرقيبتها ، إذ جعل منها عناصر متصلة من عقود وأعمدة ، وجعل من تصميم بناء القبة هيكلًا مكوناً من ضلوع وأوتار ، حشى ما بينها حشواً ، فأصبح كأنه غلاف أساسية شبكية .

وتطورت الفكرة الهندسية فى مسجد الزيتونة بتونس فى قبة المحراب ، فى سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، ثم فى قبة البهو فى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) ، فأصبحت التجزئة أكثر وضوحاً ، وتحولت الكتلة الصماء تحولاً صريحاً إلى هيكل تبرز ضلوعه وأوتاره ، وتمتلئ فراغاته بحشوات بنائية وزخرفية . وتابعت القبة تطورها وانتقلت الفكرة الهندسية إلى مرحلة حاسمة فى بناء قباب المسجد الجامع بقرطبة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، فلم يعد للمبدأين المعروفين منذ القدم ، واللذين أشرنا إليهما فيما سبق ، أهمية فى بناء القبة . إذ قد استغنى البناء فى قرطبة عن تحويل المربع إلى مثنى ، وبالتالي اختفت المقرنصات ، أو على الأصح أصبحت حشواً وزخرفاً . وكذلك تضاءلت أهمية الغطاء الكروى ، القبة نفسها ، وأصبحت هى الأخرى حشواً وزخرفاً ،

أما الذى أحدثه ذلك البناء ، فهو أنه استخدم الأوتار أو (الكمرات) المعقودة فمدّها بين الأضلاع المتقابلة من أضلاع المربع ، وجعل من تلاقى هذه الأوتار وتقاطعها ، هيكلًا مناسبًا للأطراف ، مختلف الأشكال ، وملاً انقراغت فيما بين ضلوع هذا الهيكل العظمى حشواً مقعراً ، فاصبح البناء أقرب مظهرًا وتكويناً إلى القبوة الوترية . منه إلى القبة المضلعة .

أهمية التصميم الهندسى فى قباب قرطبة لا تقتصر إذن على زيادة التجزئة وتشعب الخطوط ، وإلغاء وظيفة المقرنصات ، وانكماش الطابق الكروى ، وطغيان مظاهر الحشو الزخرفى ، بل تتعدى كل ذلك بكثير ، إذ أنه أصبح من الممكن تطبيق التصميم الحديد ، القائم على الأوتار أو (الكمرات) تطبيق التصميم الحديدية ، القائم على الأوتار أو (الكمرات) المتشابكة ، فى بناء السقف على هيئة قبوات وترية متقاطعة ، سواءً على مسطحات مربعة أو مستطيلة أو مستديرة .

كان هذا التطور فى بناء قباب قرطبة خطوة تقديمية عظيمة فى التصميم المعمارى . وكانت أكبر مشكلة قابلها البناء الأوربيون فى القرن العاشر الميلادى هى مشكلة السقف ، إذ كانت السقف الخشبية معرضة للاخلال ، وخاصة للحريق ، وكانت السقف المبنية على هيئة أنصاف أسطوانات دائرية أو مدببة ، ثقيلة البناء ، تتطلب جدراناً سميكة ، ولا تسمح بفتحات واسعة للإضاءة الداخلية ، وذلك بالإضافة إلى أنه لم يكن فى الاستطاعة معمارياً حينذاك رفعها على مساحات عريضة .

وبدأت آثار هذا التطور تظهر فى الكنائس المستعربة والإسبانية ، فى بناء قباب وترية ، مثل ما حدث فى (سان ميغيل ده اسمكالاديا) San Miguel de Escalada وهى من أقدم القباب المقتبسة عن قباب قرطبة ، ومثل ما حدث فى كاتدرائيتى صمورة Zamora وشلنقة Salamnaca وفى كنيسة (الماثان) Almazán و (توريس دل ريو) Torres del Rio وكذلك اقتبست القباب العربية فى بناء بعض القباب الفرنسية فى أواخر

القرن الحادى عشر الميلادى ، مثل ما يشاهد فى قبة مصلى مستشفى (سان بليز)
Hopital Saint-Blaise وفى قبة كنيسة (سان كرواده اولرون)
Saint-Croix de Oloron التى تتقارب أوجه الشبه بينهما وبين إحدى
قباب مسجد الباب المردوم فى طليطلة ، حتى ليخيل إلى الناظر إلى القبتين
كأن بانيهما رجل واحد . أما مصلى (مستشفى سان بليز) فإنه يحمل مظاهر
أخرى للاقتباس من العمارة العربية ، مثل العقود الثلاثية الفتحات والمفصصة ،
كما رأينا ، ومثل الكواويل العربية ، كما سنرى ، وذلك يؤكد اشتقاق طريقة
الأوتار القرطبية فى بناء القبة الفرنسية .

وانتقل التأثير من القباب إلى القبوات ، واستخدمت أول ما استخدمت
فى العمارة الأوربية فى كاتدرائية (درهام) Durham فى أواخر القرن
الحادى عشر ، فى سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦ هـ) ، أى بعد بناء قرطبة بمائة وثلاثين
سنة . ومما يؤكد انتقال هذا العنصر المعمارى من الأندلس العربى ، أن بهانه
الكاتدرائية ، كما رأينا ، مظاهر أخرى لعناصر معمارية مشتقة من الأندلس
وخاصة العقود المتشابكة الصماء ، وهى تظهر فى (درهام) بصورة مشابهة
تماماً لمظهرها على واجهة مسجد الباب المردوم فى طليطلة ، ذلك المسجد الذى حول
فيما بعد إلى كنيسة باسم (سان كريستو ده لالوث) San Cristo de la Luz
وظهرت القبوات الوترية حوالى ذلك التاريخ فى مبان إسبانية ، مثل
كنائس (اوفيدو) Oviedo و (خاكا) Jaca و (سانتا
كروث ده لا سيروس) Santa Cruz de la Seros و (سانتيا جوده بنيالبا
و (سان ميان ده لاكوجيا) و (سان ثريان ده ماثوتيه) و (سان باوديل
ده برلانجا) وهى التى سبق أن أشرنا إلى تأثيرها بمظاهر عربية أخرى . وكذلك
ظهرت القبوات الوترية فى الوقت نفسه فى مبان فرنسية ، مثل كنائس (سان
برتران ده كومانج) Saint-Bertrand-de-Comminges و (كودمرى
Cormery و (سان مارتن فى تور) Saint-Martin-de-Tours و (اوبرياك)
Aubriac و (بايوه) Bayeux و (لوش) Loches وفى برج

(مواساك) Moissac ومصلى (سان أوتروب في سانت) Saint-Surope

de Saintes وفي سقف ذراع الكنيسة في (تورنيه) Tournai .

لاشك إذن في أن العمارة الأوربية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر اقتبست فكرة القبوات الوترية من الأندلس وهى التى كانت بدورها تطورا لفكرة تجزئة الكتلة القبوية المتبعة في القيروان وتونس منذ القرن التاسع الميلادى . وكان هذا الاقتباس الأوربى مصدراً لنشأة العمارة القوطية ، تلك العمارة التى كان لها شأن عظيم في بلاد أوربا بأسرها ، من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، والتى أنتجت مجموعات عديدة متناثرة في بلدانها من الكنائس والكاتدرائيات الخالدة ، والتى تستمد كيانها المعمارى من فكرة الأوتار ، تلك الفكرة التى أتاحت بناء قبوات مرتفعة شاهقة الارتفاع على مساحات عريضة واسعة ، والتى أتاحت الفرصة لترك فراغات مفتوحة للنوافذ . ينغمر منها الضوء في داخل المباني . صحيح أنه اتبع استخدام الأوتار و (الكمرات) المشدودة في البناء ابتكار البناء القوطيين في فرنسا لعنصر معمارى آخر وهو الدعامات المعقودة ، أو الدعامات المنعزلة Flying butteresses والتى أتاحت تخفيف سمك الجدران ، أو على الأصح تجزئتها إلى خطوط وأوتار رأسية ، ترتقى إلى حيث تنبت أوتار القبوات ، فتساندها وتتصل بها .

وتما يؤكد الصلة بين القبوات الوترية القوطية والقباب الوترية المغربية الأندلسية ، أن العمارة القوطية استخدمت عنصراً مكماً للأوتار ، وهو الأعمدة المندجة في أركان الدعامات ، وهو عنصر استخدم قبل ذلك بقرون أربعة في العمارة الإسلامية ويبدو على مظهر رائع في قباب القيروان وقرطبة .

ولاشك كذلك في أنه كان للمدجنين ، الذين سبق أن أشرنا إليهم ، فضل في التوفيق بين العمارة الإسلامية وبين العمارة المسيحية ، وفي الجمع بين الأساليب العربية والرومانسكية والقوطية في أسلوب واحد اتخذته البلاد الإسبانية

طرازاً وطنياً ، وكان له بدوره تأثير كبير على تطور العمارة القوطية في بلاد أوروبا الغربية . وما زالت أعمال هؤلاء المدجنين تشد بمصادرهما العربية ، سواء في العمارة أو في الزخرفة كما يتضح من آثارهم في سرقسطة ووادي الحجارة وطليلة وإشبيلية .

الأبراج :

وبالمثل انتشرت عناصر معمارية وزخرفية في أوروبا عن طريق عمارة المدجنين ولعل أوضح مثل لذلك أبراج الكنائس في طليطلة التي تبدو كأنها صور مطابقة لماذن المغرب والأندلس ، تمتد مثلها على مسطحاتها العقود الصماء المفصصة المتشابكة ، صفوفاً وطوابق يعلو البعض بعضها ، تتخللها نوافذ مزدوجة مختلفة الأشكال ، والأنظمة في كل طابق عن بقية الطوابق ، وأمثلة هذه الأبراج ما تراه تشاهد حتى اليوم في سرقطة في منطقة أراغون Aragon (، وخاصة في (ترويل) Teruel . بل إن بعض الأبراج التي بنيت قبل عهد المدجنين تبدو تماماً كأنها ماذن أندلسية مثل برج كنيسة (سان كوجا دل فالس Sancugat del Valles) التي بنيت في سنة ١٠٦٣ م (٤٥٥ هـ) ، ومثل كنيسة (توريس دل ريو) Torres del Rio التي تشهد كذلك قبواتها الوترية وكوابيلها بالاقتراس العربي .

كان لماذن الأندلسية ، وخاصة لمئذنة المسجد الجامع بقرطبة التي اختفت الآن معالمها ، ومئذنة مسجد إشبيلية المشهورة ، أثر بليغ على أبراج الكنائس الإسبانية سواء من حيث أشكالها المربعة القاعدة ، الشاهقة في الارتفاع ، أو من حيث امتداد الزخارف عليها ، من عقود مفصصة صماء متشابكة ، ونوافذ مزدوجة . وكذلك أثرت أشكال المآذن في أشكال الأبراج الإيطالية مثل ما يشاهد في إحدى كنائس (فيرونا) Torre del Comune, Verona وفي كنيسة (دوومو في سوليتو) Duomo, Soletto وهما من القرن الرابع عشر . وامتد هذا الأثر حتى أواخر عصر النهضة ، ويشهد على ذلك

برج (ليشى) Duomo, Lecce فى إيطاليا ، وبرج (سانت مارى لوباو) Saint-Mary Le-Bow فى لندن ، وهو الذى أقيم فى أواخر القرن السابع عشر .

الشرفات :

ذكر أحد علماء الآثار الإنجليز أن شرفات جدران مسجد ابن طولون بالقاهرة ، التى بنى فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩ م) قد أوحى ، أو على الأقل ، تعتبر نموذجاً لما اتبع فيما بعد فى تنسيق الشرفات المنقورة القوطية ، وأيد هذا العالم رأيه بأمثلة تشاهد فى كنيسة (كرومر) Cromer فى (نورفولك) Norfolk بإنجلترا ، وهى فى القرن الخامس عشر . وقد يبدو هذا المثل مغريباً إلا أن الموضوع لم يبحث بعد البحث الدقيق لتتبع الحلقة التاريخية المحتملة بين المسجد الولوى بالقاهرة والعمائر القوطية فى فرنسا وإنجلترا .

وإذا كانت هذه الحلقة مفقودة ، فإن هنالك حلقة ثابتة أكيدة عن نوع آخر من الشرفات ، وهى الشرفات البارزة ، بين العمارتين العربية والأوربية استخدمت هذه الشرفات لأول مرة على بوابة قصر الحيرة الشرقى فى بلاد الشام ، فى سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) ، وتشاهد بعد ذلك فى بوابة النصر بالقاهرة ، من سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، ثم استخدمت بكثرة فى الحصون الشامية فى العصر الأيوئى . ومنها وعن طريق الحروب الصليبية ، اقتبست فى العمارة الحربية فى أوروبا فى العصور الوسطى . ونجد أمثلة عديدة منها ابتداء من أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، أى بعد ظهورها فى العمارة الإسلامية العربية بأكثر من أربعة قرون ونصف ، وبعد ظهورها بسنوات فى عمارة الأيوبيين بالشام ، وذلك مثلاً فى فرنسا فى قصر (جايار) Chateau Gaillard وفى (شاتيون) Chatillon وفى إنجلترا ، فى (نورويتش) Norwich وفى (ونشستر) Winchester

ولم تلبث الشرفات البارزة فوق البوابات أن انتشر استعمالها فى القصور

والحصون الفرنسية والإنجليزية ، في القرنين التاليين ، الثالث عشر والرابع عشر
ونشاهد مظهراً أنيقاً لها في بوابة حصن (فيلنوف أفينيون) Villeneuve-les
Avignon في فرنسا .

وفي سياق الحديث عن العمارة الحربية ، يجدر بنا أن نذكر أن هذه
العمارة اشتقت في بلاد أوروبا الغربية من العمارة الإسلامية عنصراً ابتكر في بناء
مدينة بغداد المدورة ، في سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، وهو المدخل المزور
أو المنحرف يسرة حتى لا يكشف الفناء الداخلي للمدينة عند اجتياز العدو
لمدخلها ، وحتى تتعرض الجوانب اليمنى للمقتحمين البوابة للسهم المصوبة
عليهم من شرفات الحصن المقابل لها . وقد ظهرت هذه الحيلة الحربية في بناء
قلعتي القاهرة وحلب في أواخر القرن الثاني عشر ، ثم أدخلها الفرنسيون
والإنجليز على عمارة حصونهم كما يشاهد في مثل (بوماريس) Beanmaris
في إنجلترا ، وفي مثل (كاركاسون) Carcassonne في فرنسا .

الكوابيل أو المساند (Modillons ácopeux)

ابتكر بناء مسجد قرطبة في سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، وفيما ابتكر من
العناصر المعمارية عنصر الكوابيل أو المساند التي استخدمها لكي تتكىء
عليها أطراف عقود المنفوخة ، وعم استخدمها في داخل بيت الصلاة ،
وخارج أسوار المسجد وحول الصحن تحت الشرفات البارزة . وتنوعت
أشكالها في الإضافات التي أدخلت على المسجد في سنوات ٢١٨ و ٢٣٤ و
٢٤١ و ٣٤٠ و ٣٥١ هجرية (٨٣٣ و ٨٤٨ و ٨٥٥ و ٩٥١ و ٩٦١
ميلادية) . ومن قرطبة انتشر استخدام هذه الكوابيل في العمارة الأندلسية
لترتكز عليها الشرفات البارزة خارج مستوى الجدران .

وكان لهذا العنصر المعماري فوائد عملية ومظهر جميل اجتذب أنظار
البناء الأوروبيين ، فاستخدمه المستعربون في كنائسهم مثل (سان ميغيل
ده اسكالادا) و (سانتياجو ده بنيالبا) و (سان ميلان ده لاكوجيا) ،

التي سبق أن أشرنا إليها بالنسبة لعناصر معمارية عربية أخرى ، ومثل
 (سان ميغيل ده ثيلانوا) San Miguel de Celanova
 وكانت فرنسا الموطن الثاني لهجرة هذا العنصر وانتقاله بأشكاله العربية
 التقليدية . نجده في منطقة (الأوفرنى) Auvergne في مثل كنائس (كليرمونت
 فراند) ، (Clermont-Ferrand) و (سان نكتير) Saint-Nectaire
 و (إيسوار) Issoire و (سان ايزيدور) Saint-Isidore-de-Léon
 و (شورياه) Chauriat و (بريود) Brioude و (ريو) Rioux و (بيرا)
 Thiers و (إنزا) Ennezat و (كوها) Culhat و (موزاك) Mozac
 و (روايا) Royat . ونلقى في معظم هذه الكنائس تأثيرات إسلامية
 أخرى ، مثل العقود المنفوخة والعقود المفصصة وتناوب المواد والألوان .
 ونجد عنصر الكوابيل كذلك في كنائس عديدة من مقاطعتي (بوتو) Poitou
 و (بيري) Le Berry وفي منطقة نهر (اللوار) Loire وحتى
 في شمال فرنسا في (نورمانديا) (Normandie) . وتربو قائمة الآثار الباقية
 حتى اليوم في هذه المناطق ، والتي تشاهد فيها نماذج من الكوابيل بصورتها
 المعمارية العربية الأصيلة ، على المئات عدداً ، مما يؤكد شيوعها في العمارة
 المسيحية الفرنسية في العصور الوسطى .

الزخارف المعمارية :

امتاز الفن الإسلامي والعربي فيما امتاز به بالعناية بالزخارف المعمارية .
 واتخذت هذه الزخارف خصائص انفردت بها بين الفنون سواء من حيث
 تصميمها وإخراجها الفني أو من حيث موضوعاتها وأساليبها . وسنقتصر
 على ذكر (طريقتين) من طرق الإخراج التي كان لها عظيم الأثر في الفن
 الأوربي .

(أ) تعدد الألوان :

استخدمت المواد المختلفة الألوان في زخرفة المباني الإسلامية منذ أوائل

القرن الثاني الهجري في عمارة قصر الحير الشرقي ، مثلاً . واستخدمت في بناء عقود بيت الصلاة في مسجد قرطبة الجامع سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . وعند بناء باب لهذا المسجد ، في سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) حليت واجهته بقطع من الآجر متناوبة في أشكال زخرفية هندسية مع قطع من الحجارة البيضاء . واستخدمت الحجارة السوداء بالتناوب مع الحجارة البيضاء في بناء قبة مسجد الزيتونة في تونس في سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) . وانتشر بعد ذلك استخدام المواد المختلفة الألوان في زخرفة الأبواب والقباب والواجهات والمآذن والأرضيات انتشاراً واسعاً في العمارة المغربية والأندلسية . وإذا كان الفن البيزنطي سبق له أن اتبع هذا الأسلوب الزخرفي في سالونيكاً في منتصف القرن الخامس الميلادي ، فإنه توقف بعد ذلك عن استخدامه ، ولم يظهر من جديد في آثاره إلا في أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر ، في مثل (تكفور سراي) Tekfour Serail ، أي بعد ثلاثة قرون من انتشار استخدامه في العمارة الإسلامية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد امتازت الزخارف الإسلامية المتعددة الألوان دون نظيراتها البيزنطية بتنسيق أشكالها في رسوم هندسية ، من مثلثات ومربعات ومعينات ودوائر ومضلعات نجمية ، تارة منفردة وتارة متداخلة .

واقترنت بعض المناطق الأوروبية أسلوب الزخرفة البيزنطي ، ولكن اقتباس مناطق أخرى من العمارة المسيحية الأوروبية للأسلوب العربي كان أعم وأبقى . إذ أصبح هذا الأسلوب عنصراً من أهم العناصر الزخرفية في القرن الثاني عشر الميلادي في العمارة اللومباردية في إيطاليا وفي العمارة الرومانسكية في فرنسا وإسبانيا ، واستمر التعلق بهذا العنصر الزخرفي في القرون التالية . وتكفي الإشارة إلى آثار مازالت قائمة في مدن (ميلانو) و (لوك) و (فلورنسه) و (فيرون) و (بولونيا) و (بيزا) و (جنوا) و (سبينا) في شمال إيطاليا ولعل أوضحها تعبيراً عن التأثيرات الإسلامية واجهة كاتدرائية (بستوى) Pistoie ، حيث تتناوب الحجارة الحمراء والبيضاء على عقودها وعلى

وجدرانها ، وحيث ترسم قطع الرخام المختلفة الألوان أشكالاً هندسية .
ونجد كذلك مثلاً لهذا الأسلوب في كنيسة القديس بطرس في (نورثامبتن)
في إنجلترا (Northampton) .

وتكفي الإشارة في فرنسا إلى منطقتين من مناطقها ، هما منطقتا
(الأوفرنى) Auvergne و (الفيليه) Velay ، وحيث ينتشر
استخدام تناوب المواد المتعددة الألوان في العقود والنوافذ والأبواب
والواجهات ومذابح الكنائس ، مثل تلك التي تشاهد في كنائس (ريوتارد)
Riotard و (بولينياك) Polignac و (مناستيه) Monastier
و (سان ساتورنان) Saint-Saturnin و (ريوم) Riom
و (كليرمونت) وكثير غيرها . ومن هاتين المنطقتين اقتبست مناطق أخرى
قريبة منها وبعيدة ، لهذا المظهر الزخرفي فنشاهد نماذج منه مثلاً ، في كنائس
(فيين) Vienne و (فالنس) Valence و (تورنوس) Tournus
و (فيزليه) Vezelay . وتجمع أشكال الزخارف المختلفة الألوان
في مجموعة الكنائس البديعة في مدينة البوي Le Puy بصورة لا تترك
مجالاً للشك ، كما سنرى ، في اقتباسها من العمارة الإسلامية في المغرب
والأندلس .

(ب) الزخارف المنحوتة الغائرة :

ازدهرت المباني العربية الإسلامية منذ القرن الأول الهجري (السابع
الميلادي) بالزخارف المنقوشة على الجص أو الحجارة أو الخشب . وحذق
رجال الفن صنعة النحت على الحجارة والرخام ، وكانوا يميلون إلى أسلوب
النحت الغائر . وهو الأسلوب الذي تبدو فيه الزخارف المنحوتة مخرومة
كأن قاعها مفرغ بحيث تظهر العناصر الزخرفية ناصعة واضحة المعالم منبسطة
على أرضية غائرة قائمة .

وقد امتاز الفن الإسلامي بهذا الأسلوب المخروم من النحت ، وبلغ

النحاتون المسلمون في إجادته جداً بعيداً من الرقة والإتقان ، وسموا بمكانته بين أساليب النقش الأخرى . ونلقى أسئلة رائعة منه في قصور الأمويين ببادية الشام ، من مستهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، وفي محراب مسجد القيروان ، وفي قبة مسجد الزيتونة بتونس ، من أوائل القرن الثالث الهجري ومنتصفه ، وفي مسجد قرطبة الجامع وفي مدينة الزهراء من منتصف القرن الرابع الهجري . ويرى المتجول في أطلال هذه المدينة مجموعات لا حصر لعددتها من الحجارة والرخام المنقوشة نقشاً رائعاً على هذا الأسلوب . وسنرى فيما بعد أن هذا الأسلوب الفني كان متبعاً في البلاد الإسلامية العربية في نحت الأخشاب والمتحف العاجية كذلك ، وبلغ فيها مبلغاً كبيراً من دقة الصناعة ورقة الحساسية الفنية ووفرة التعبيرات الزخرفية .

وكذلك حاز هذا الأسلوب إعجاب رجال الفن في بيزنطة وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا في القرون الوسطى ، فاقتبسوا أصوله المتبعة في الفن الإسلامي وأدخلوها على فنونهم ، واتبعوها في كثير من زخارفهم المعمارية المنحوتة . والأمثلة الإسبانية على ذلك وفيرة يكفي أن أذكر منها المجموعة البديعة من المنحوتات التي تمتد على جانبي بوابة كاتدرائية (ليريدا) Lerida والمجموعة الأخرى التي تشاهد في كنيسة (سانتو دومنجو ديهيلوس) Santo Domingo de Silos ، والتي قيل عنها إنها تبدو كأنها صنعت بأيدي عربية . وأما في الفن البيزنطي فنجد أمثلة من المنحوتات المحرمة البديعة في إحدى الكنائس في أثينا (Petite Metropole) ، وفي كنيسة القديسين سرجيوس وباكوس Saints Serge et Bacchus ، وفي بعض التيجان والمنحوتات في أياصوفيا ، وفي بازيليكية (بارنزو) Parenzo ، وفي مصلى (سان فيتال) في رافنا San Vitale da Ravenna ، وجميعها من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي . ولعل أبداع مثل لاقتباس الفن البيزنطي لأسلوب النحت المحرم يشاهد في لوحة من القرن الحادي عشر الميلادي (الرابع الهجري) محفوظة بمتحف أثينا ، وقد نحت عليها رسم أسدين متقابلين على جانبي

شجرة الحياة ، وأحيطت اللوحة بزخارف نباتية على الطراز العربي ، وكان النحات البيزنطي أراد أن يسجل شهادة منه بمصدر اقتباسه الإسلامي ، فأحاط رسومه بإطارين تمتد عليهما زخارف تقليداً للخط الكوفي .
وأما في فرنسا فقد اتبع الأسلوب نفسه ، لا في العصر الرومانسكي فحسب ، بل كذلك في العصر القوطي ، وتعددت النماذج التي تنطق بالاقتباس الإسلامي في مثل دير (مواساك) Moissac وكاتدرائية (تولوز) Toulouse وكنيسة (بريود) Briode و (رويان) Royat وكاتدرائيات (رامس) و (اميانس) و (البوي) Reims, Amiens, Le Puy

(ج) الزخارف المنحوتة المسطحة :

ابتكر رجال الفن الإسلامي نوعاً آخر من النحت يعرف بأسلوب النحت السلس ، وهو الذي تنحت الزخارف فيه مسطحة ، مقطوعة الحواف قطعاً مستقيماً لا انحناء ولا تقوير فيه ، بحيث تمتد على أرضية مسطحة أيضاً ، وبحيث تظهر كأنها مستقلة منبسطة على الأرضية ، وكأنها ألصقت بها ولم تنحت معها في قطعة واحدة من الخشب أو الحجارة . ونجد أمثلة عديدة من هذا النحو من النحت في الفنون الإسلامية ، سواء في الزخرفة المعمارية أو في صناعة التحف الخشبية ، وسواء في المشرق أو المغرب الإسلامي .

انتشرت هذه الطريقة العربية في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا في العصور الوسطى ، واقتبست في الفن البيزنطي . ويشهد على ذلك عرش كاتدرائية (مونريال) Monreale وأبواب كنائس عديدة في إيطاليا وفرنسا ، منها (سانتا ماريا) بالقرب من (كارسولي) Santa Maria-in-Cellis, Carsoli وسان (بيتر) في (ألبا) San Pietro, Alba-Fucensis و (المارتونا) في صقلية La Martona و (البوي) Le Puy و (الفوت شلهاك) La Voûte-Chilhac و (بليل) Blesle و (شاماليير) Chamalières-sur-Loire . وعلى بعض هذه الأبواب نجد كذلك .

تأييداً لهذا الاشتقاق الفنى ، زخارف تقليداً للخط الكوفى .

الخط الكوفى :

كان للموضوعات الزخرفية العربية تأثيرات عميقة فى الفنون الأوربية التى اقتبست اقتباسات واسعة المجال من الأساليب العربية فى التوريق ، وهى الزخرفة النباتية . وفى الأشكال الهندسية ، وفى التوشيح العربى . المعروف فى هذه الفنون باسم (الأرابيسك) arabesque . وسنشير إلى هذه الاقتباسات فى القسم الخاص بالفنون ، لأنها أقرب إليها .

واحتل الخط الكوفى مكانة ممتازة بين الموضوعات الزخرفية العربية وقد بهر مظهره البديع وجماله الفنى أنظار العرب والمسلمين ، وشاركهم الأوربيون فى ذلك مشاركة لا تقتصر على إمتاع النظر ، بل فى متابعة تطوره ، واقتباس ما يوحى به هذا التطور من روح فنية تركز على التناسق فى التكرار ، والاتزان فى التماثل .

« كانت الفكرة الزخرفية هى وحدها التى أوحى إلى الفنان الأوربى منذ القرن العاشر الميلادى ، فكرة الاقتباس من الحروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة فى الكنائس ، وعلى عقود بواباتها ، أو بالتصوير على صفحات الإنجيل ولوحات القديسين .

والأمثلة على ذلك عديدة ، نجدها فى اليونان على لوحة رخامية من إحدى الآثار البيزنطية فى أثينا ، وهى التى سبق أن أشرنا إليها ، ونجد هذا العنصر الزخرفى منتشرأ فى التحف والآثار البيزنطية التى تنتمى إلى منتصف القرن الحادى عشر ، والتى صنعت أو أقيمت فى مناطق (طيبة) و (أثينا) و (كالاماتا) Calamata . وفى هذه البلدة الأخيرة كنيسة وهبت للقديس (خرمبوس) وبها زخارف كوفية تم عن صورة من أبدع الابتكارات المسيحية لهذه الزخارف ، إذ نسقت أطراف الألف واللام من اسم الله ، بحيث يتكون منها شكل الصليب الإغريقى ، هو الصليب المتساوى الأضلاع .

ومن أمثلة الاقتباس البديعة في إيطاليا باب مقبرة مدينة (كانوسا) Canossa تزيينه دائرة زخرفية من الخط الكوفي المورق .

أما في إسبانيا فقد تعددت الأشكال وتنوعت ، ولعل أكثرها جرأة ما يشاهد في إفريز في مذبح من كنيسة (أوفييدو) Oviedo وقد حاول النحات أن ينقل عليه (البسملة) كاملة ، ولكنه خلط بين حروفها خلطاً لم يفقدها جمالها الفني ، وإن كان قد أفقد الحملة معناها السامي . ومع هذا فقد نجحت محاولة الفنان في أن يجعل من الزخرفة الكوفية إطاراً رائعاً الصور الدينية التي سجلها تحته ومن حوله .

وأما في فرنسا فنجد الكتابة الكوفية مسجلة في كنائس عديدة من بينها دير (مواساك) وكاتدرائية (بور دو) Bordeaux وكنيسة القديس بطرس في (رد) Saint-Pierre de Reddes ، وخاصة في كاتدرائية (البوي) التي سنشير إليها بعد قليل .

ولم يقتصر التعلق بالزخرفة الكوفية على رجال النحت والعمارة بل تعداهم كما سنرى في القسم الخاص بالفنون ، إلى غيرهم من رجال الفن .
مجموعة آثار البوي (Le Puy) .

لعل من أكثر الآثار الأوربية عجباً وتعبيراً عن التأثيرات الإسلامية ، في العمارة والزخرفة المعمارية ، تملك المجموعة من الكنائس التي بنيت في مدينة (البوي) في وسط فرنسا ، في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي . السادس الهجري .

بنيت في هذه المدينة كاتدرائية عظيمة الشأن ، وهبت للعدراء ، وألحق بها دير ، وبنى على قمة جبل المدينة مصلى ، وهب للقديس ميخائيل ، وبنى في طرف آخر من المدينة مصلى ثان ، وهب للقديس (كلير) Saint-Claire وقد تجمعت في هذه المباني الأربعة جملة من العناصر الإسلامية لم يجتمع مثلها في أي أثر من الآثار . نلقى فيها أمثلة عديدة من العقود

المنفوخة والعقود الثلاثية الفتحاح والعقود المفصصة ، مرسومة ومنسقة بالدقة الهندسية ، لا تختلف مظهراً وكياناً عن نظائرها في العمارة الأندلسية . ونلقى في آثارها وعلى واجهات مبانيها وعقود ديرها تناوب الألوان منظماً بالشكل الذي يبدو عليه تماماً في قبة مسجد الزيتونة بتونس وفي عقود مسجد قرطبة . وانتشرت في تلك الآثار مجموعة من التيجان الحجرية المنحوتة بالنحت الغائر على غرار منحوتات مدينة الزهراء .

وفوق هذا فقد اتخذت هذه التيجان شكلاً فريداً كان قد ابتكره رجال الفن المسلمون وظهر أول ما ظهر في مسجد قرطبة . يمتاز هذا الشكل بأن نصفه الأدنى أسطواني ونصفه الأعلى مكعب ، بحيث تمتد الزخارف عليه متصلة متناسقة كأنها على شريط ممدود ، وانتشر شكل التيجان هذا من قرطبة إلى عمارة المغرب والأندلس ، ومن الأندلس انتقل إلى قطلونيا ، وإليها استدعى بناء مسلمون لبناء دير (سانتو دومينجو ده سيلوس) Santo Domingode Silos ونحتوا تيجان أعمدته على شكل تيجان قرطبة . وحذا بناء كنائس أخرى خذو بناء هذا الدير ، وشكلوا تيجان أعمدتهم بالمثل ، ومن هذه الكنائس (سان بيري ده رودا) San Pere de Roda و (ريبول) Ripoll و (فالبونا) Valpona و (ليوسا) Llussa و (سان كوجات دل فايس) San Cugat del Valles وكاتدرائية (ليريدا) Lerida ودير (بيريلدا) Perelda . ثم نجده منتشراً في آثار (البوي) في الكاتدرائية وفي الدير ، وقد تخلف منه ستة وثلاثون تاجاً عتيقاً ، من عصر بناء الكاتدرائية ، وبجمله من تيجان مقلدة وأحدث عهداً .

وانتشرت من (البوي) أشكال التيجان العربية ، فنلقى نظائرها في كنائس أخرى مثل (بيروم جرانده) Payrusse-Grande و (اسودان) Issoudun و (سان مارتان ده بريف) Saint-Martin de Brives و (سان جيلوم ده ديزير) Saint-Guillaume-de-Desert و (سان جاك ده بيزيه) Saint-Jacques de Béziers وفي دير (مواساك) Moissac وفي

كاتدرائية (سان سرنان في تولوز) Saint-Sernin de Toulouse وفي كنيسة
(سان جوليان في بريود) Saint-Julien de Brioude وفي مصلى
Royat (روايا) ، وفي كثير غيرها من الآثار الرومانسيكية في أواسط فرنسا .
ونجد في كاتدرائية (البوى) مجموعة من القباب صنمت مقرنصات
على نظام شبيه بتصميمها في قبة المحراب بمسجد القيروان وهى التى بنيت قبلها
بثلاثة قرون ، ترتكز كل قبة من قباب هذه الكاتدرائية على ثمانية عقود
متصلة من أنصاف دوائر ، قائمة على أعمدة صغيرة ملتصقة بالحدار ، بالشكل
المبتكر في القيروان . غير أن هذه الأعمدة قد زاد عددها في (البوى) فأصبحت
قوائم المقرنصات ستة عشر عموداً في كل قبة ، اثنان متجاوران في ملتقى
العقود ، بدلا من عمود واحد في القيروان ، كما أنه وضعت ثمانية أعمدة
أخرى في أركان المربع ، اثنان متجاوران في كل ركن منه ، وذلك على هيئة
شبيهة بما يشاهد في قباب مقصورة المحراب في مسجد قرطبة .

وهكذا تظهر كاتدرائية (البوى) (بمجموعة قبابها وتصميم مقرنصاتها
كأنها بناء إسلامي عربي المظهر والتكوين . وهى تنفرد في ذلك بين جميع المباني
المسيحية في العالم الأوربي . ولا يقتصر الأمر على ذلك فإن قباب (البوى)
ومقرنصات العربية كان لها أثر في المناطق القريبة منها . وقد تخلف من العصر
الرومانسكى كنستان بالقرب منها أقيمت فيهما قباب على مقرنصات قائمة
على أعمدة مزدوجة ، اقتباساً من قباب (البوى) ، وهما (سان مارتان
دينى في ليون) (Saint-Martin d'Ainy, Lyon) و (تورنوس)
Saint-Philibert de Tournus

ونجد فوق هذا كله خاتم العروبة والإسلام مطبوعاً على إحدى بوابات
كاتدرائية (البوى) . نحتت على مصراعى هذا الباب الحشبي صور من تاريخ
حياة العذراء ، وسجلت على كل لوحة منها كتابة لاتينية تفسر الصور المنحوتة .
وأعد لكل مصراع إطار يدور حوله تنحصر بداخله هذه اللوحات المصورة ،
أ. وزين هذان الإطاران بحلية زخرفية مقتبسة من الخط الكوفى ، ولكن هذه

الحلية لا تقتصر على العنصر الزخرفي ، مثلما اقتبس في الفن المسيحي عامة ،
والذي كانت الحلية فيه تتكون من رسوم مقتبسة من حرفي الألف واللام ،
نخلقها ارتقاء الخيال ، ولم تنتظم في ألفاظ . أما في (البوي) فإن إطار باب
العدراء يسجل جملة عربية مقروعة واضحة المعنى ، وهي « الملك لله » .
تجري هذه الجملة حول الإطار . وتتكرر بانتظام حول كل مصراع من مصراعي
الباب ، ولم يقع في تكرارها هذا غير خطأين طفيفين ، أحدهما اضطر إليه
النحات في ركن من أركان الإطار ، ضاق المكان فيه بلفظ عن الجملة فحذفه ،
والخطأ الأخير كان سهواً غير مقصود في ركن آخر من الأركان ، إذ تكررت
لفظة « الملك » مرتين . أما فيما عدا ذلك فإن الألفاظ تكررت في صحة وصواب
وعن ثقة واطمئنان . بل إن فيها أكثر من ذلك ، فيها أن النحات حوّر في
أطراف الحروف ومحاجرها وأهدابها ورعوسها ، ونوع في صياغتها ، فهو تارة
يصوغ محجر الميم ، مثلاً ، منشياً بوريقة من ثلاث شحمات ، وتارة ينهيه
بوريقة من خمس شحمات ، مما يدل على اتساع مداركه بالفن العربي وخطه .
هذه أول مرة ، فيما يعرف من تحف العصور الوسطى الأوربية وآثارها ،
كتبت فيها جملة عربية بالخط الكوفي كاملة مقروعة مفهومة ، فهي أنموذج
فريد في نوعه ، وهو اقتباس وحيد في تكوينه وإخراجه .

آثار مدينة (البوي) تشهد للرجل الذي أشرف على بنائها وزخرفتها
بنبوغ رائع وخيال نخب وسعة مدارك بفنون بلاده وفنون الإسلام .
فقد استطاع هذا الفنان أن يوفق بين هذه الفنون توفيقاً يثير الإعجاب ويجعل
من هذه الآثار تحفاً فريدة في التاريخ .

اعترف أحد علماء الآثار المستشرقين بأنه « من الواضح أن العمارة
في العالم الأوربي مدنية للعرب والإسلام بدين كبير مركب غزير المادة » ،
ولعل فما أوردناه ما يوضح هذا الاعتراف ويؤكدده . بالرغم من أننا نحاشينا
ذكر الأمثلة المنفردة الاستثنائية . واقتصر عرضنا على العناصر التي كانت

شائعة في العمارة الإسلامية العربية ، والتي كان لها تأثير واضح على العمارة الأوروبية ، وتأثير مباشر يؤكدته اتصال الحلقات التاريخية . وإذا علمنا أن فكرة شد الأوتار السيمنتية المسلحة ، في العمارة العالمية المعاصرة ، قد اقتبست من القبوات الوترية في العمارة القوطية ، فليس من المغالاة أن نطالب بالاعتراف ببعض الفضل في ذلك ، للبائين العرب الأوائل الذين ابتكروا القباب الوترية في القيروان وقرطبة .

التحف الفنية :

اقتنع علماء الآثار المستشرقون بعبقريّة المعمارين المسلمين والعرب ، وأشادوا بابتكاراتهم ، واعترفوا بآثارها في النهضة الأوروبية . وكذلك اعترفوا بعبقريّة الفنان المسلم العربي في الصناعات الفنيّة والزخرفيّة ، سواء أكانت تلك الصناعات من ابتكاراته ، أم أنها كانت معروفة في الحضارات القديمة ، فحلق العمال المسلمون صناعتها وأحيوها بعد ذبولها . وعرفوا الغرب الأوروبي أساليبها بعد اندراسها . وأول ما يلاحظ في تلك الفنون الإسلامية إتقان الصناع لها اتقاناً يؤكد موهبتهم الفنيّة ، ونخصب خيالهم الزخرفي ، ودقة أعمالهم ، ورقتها . وقد أخرج هؤلاء الصناع منذ القرن الأول الهجري مجموعات ضخمة من التحف الخزفية والفخارية والزجاجية والخشبية والعاجية والمعدنية ، مختلفة الأنواع والألوان والأشكال ، فيها الأباريق والصحون والزمزميات والمشكاوات والأبواب والمقاصير والمنابر والصناديق ، والمقلمات والمسارج والمباخر وغير ذلك كثير ، وانتجوا الأقمشة الثمينة والسجاد الفاخر ، وكانت جميعها مزوّقة محلاة بأنواع من الزخارف المطبوعة بالطابع الإسلامي والمنبثقة من الخيال العربي .

وانتشرت التحف الإسلامية العربيّة في أسواق أوروبا في العصور الوسطى ولقيت فيها رواجاً كبيراً ، وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء ، بل ورجال الدين ، فأثارت الغيرة عند الصناع الأوروبيين ، وحفزتهم على محاولة محاكاتها ، سواء من حيث أساليب الصناعة ، أو طرز الزخرفة . والذي لا شك فيه أن وفرة استيراد أوروبا للتحف الإسلامية ، من مختلف المواد ، ومنذ بداية الحروب الصليبيّة قد فتح الطريق أمام تطور الفنون والصناعات

الأوربية ، تطورا كان من نتيجته نموها نمواً باهراً ، بحيث أصبح إنتاج التحف الفنية ضرورة من مقتضيات عصر النهضة الأوربية .

الزخارف الإسلامية :

كانت المحاكاة أول حلقة من حلقات هذا التطور ، ثم أخذ رجال الفن الأوربي يستكشفون أساليب جديدة في الصناعة ، ويصوغون الزخارف بروح جديدة ، ويلبسونها صبغة أوربية ، ولكنها ظلت تشف عن مصادرها الإسلامية العربية .

ولعل أبرز مثل لذلك هو نابغة عصر النهضة (ليوناردو دافنشي) Leonardo de Vinci ، فقد أقبل على دراسة الزخرفة الإسلامية إقبالا يبرهن على مدى الأهمية التي كانت تلك الزخرفة مكتسبة لها في ذلك العصر . وفي كراسات نماذج عديدة من زخرفة التوشيح العربي ، أو الأرابيسك ، Arabesque . ومثل آخر ، الفنان الإيطالي (فرنسيسكو بلليجرينو) Francesco Pelligrino الذي ألف كتاباً في أوائل القرن السادس عشر يوازن فيه بالرسم بين الزخارف الإيطالية والزخارف العربية ، ويبرز فيه الأهمية التي كانت تحظى بها هذه الزخارف في الأوساط الفنية . وانتشرت بعد ذلك مراجع النماذج الزخرفية بفضل الطباعة ، وأخذ رجال الفن في أوربا يستلهمون الزخارف منها ، حتى استطاع المصور (هولباين) Holbein أن يبتكر أسلوباً زخرفياً مشبعاً بالروح العربية الأصيلة . وهكذا ظهرت في القرن السابع عشر في إنجلترا وأوربا لفظة الأرابيسك ، وهي التي تعبر عن نوع خاص من الزخارف التقليدية ، قوامها الفروع النباتية المنقوشة القليلة البروز ، مستمدة اسمها من مصادرها الأصيلة ، ومحتفظة به حتى وقتنا هذا .

ومصدر هذه الزخارف هو أسلوب التوشيح العربي ، وهو ابتكار إسلامي ظهر أول ما ظهر في الزخرفة الفاطمية ، وفي مسجد الأزهر ، في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وهو أسلوب تتلخص مبادئه

في تنسيق الأشكال النباتية داخل مصلعات هندسية مجردة ، تتعاقب فيها السيقان والأغصان ، وتمتلئ الفراغات ، وتكرر التوجعات الخطية ، تكراراً تختلط فيه البداية والنهاية ، ويتحقق فيه التماثل والحركة التوقيعية .

وقد تكون أسلوب التوشيح العربي من الجمع بين الزخرفة الهندسية وزخرفة التوريق ، وهما كذلك أسلوبان عربيان . أما الزخرفة الهندسية المجردة فقد شاعت شيوعاً كبيراً في الفنون الإسلامية منذ نشأتها حتى أصبحت من العناصر المميزة للزخارف الإسلامية ، وقد تنوعت الأشكال تنوعاً شمل جميع التشكيلات والتركيبات الهندسية ، من دوائر وحلقات ومقوسات ومثلثات ومصلعات ومعينات ، مبسطة ، ومتداخلة مركبة . وقد لقيت هذه الزخارف الهندسية الإسلامية إعجاباً في الفنون الأوروبية ، وقلدها رجال الفن هنالك بكثرة ، حتى في بيزنطة ، التي كانت تعرف من قبل أنواعاً محدودة من التشكيلات الهندسية ، ومن أمثلة اقتباسات الفن البيزنطي للزخرفة الإسلامية الهندسية تلك اللوحة الرخامية المشهورة باسم « الفسقية المقدسة » .

وأما زخرفة التوريق ، فقد أشرنا إلى اقتباسها في الزخارف المعمارية . وليس أدل على انتشار استخدامها في الفنون الأوروبية من أنها ما زالت تسمى في إسبانيا باسم « التوريق » . وقوام هذه الزخرفة هو الأغصان النباتية والأوراق والأزهار والثمار ، تنسق في نظم هندسية بحيث تملأ الفراغات ، وتكرر وتتعاقب وتتبادل ، وتمتد إلى ما لا نهاية .

وثمة عناصر زخرفية كان من المعتقد إلى وقت قريب أنها انتقلت إلى الفن الأوربي من الفنون الشرقية القديمة ، غير أنه ظهر أن الاقتباس الأوربي قد تم عن طريق التحف الفنية المصنوعة في الأندلس ، والتي كانت مزينة بزخارف تصور الحيوانات والأزهار ، المماثلة أو المتقابلة ، أي المتواجهة ، كما تصور شجرة الحياة وصراع الحيوانات .

والخط الكوفي نوع آخر من الزخارف العربية التي سبق أن أشرنا إلى اقتباساتها في العمارة . غير أن التعلق بالزخرفة الكوفية لم يقتصر على رجال

المنحت والعمارة في أوربا ، بل تعداهم إلى غيرهم من رجال الفن ، فاتخذها المصورون في إيطاليا عنصراً مكماً لزيحارفهم ، واستوحوه في زخرفة أهداب ملابس المسيح والعذراء في صورهم المقدسة . ولم يجد أحد المصورين ستاراً يسدله خاف سرير الإمبراطور قسطنطين ، ويكون جديراً بعظمته وسمو مركزه ، إلا أن يطرزه بكتابة كوفية . وكان هؤلاء المصورون الإيطاليون طائفة عدة ، أقدمهم بنا عهداً (دوتشيو) Duccio و (جيوتو) Giotto من القرن الثالث عشر ، و (فرا انجليكو) Fra Angelico من القرن الرابع عشر ، و (غرلنداو) Ghirlandajo و (فرا ليبولي) Fra Lippo Lippi من القرن الخامس عشر و (رفاييلو) Raphael من عصر النهضة ، وأعمالهم المحلاة بالكتابات الكوفية محفوظة في كنائس (بيزا) و (الفاتيكان) و (أسيز) و (بادوا) و (سينا) ، كما تزدان بها متاحف (فلورنس) و (برلين) و (اللوفر) و (بوسطن) .

ولعل أغرب ما حدث من تأثيرات الخط الكوفي ، أنه كان حافزاً لتطور الحروف اللاتينية ، فاتخذت حلية زخرفية ، وصورت على غرار الحروف الكوفية ، ورسمت بأسلوب التكرار والامتداد والتشبيك والتعقيد . ثم اختلطت بعد ذلك الكتابة اللاتينية ، في العصر القوطي ، بالكتابة الكوفية وأصبح الناس يظنون أنها كتابة واحدة ، وظل التمييز بينهما ، في أوربا ، سراً دفيناً طوال خمسمائة سنة .

الحزف والزجاج .

كان للحزف في الفنون الإسلامية مكانة ممتازة ، وكذلك اشتهرت تلك الفنون بصناعة الزجاج ، وكانت منتجاتهما تثير الإعجاب في أوربا ، وخاصة الحزف ذا البريق المعدني الذي امتازت به صناعة الحزف العربي . وقد استمرت صناعة هذا النوع من الحزف قائمة في إسبانيا بعد العصور الإسلامية ، واشتهرت مدينة بلنسية Valencia بهذه الصناعة ، شهرة جعلت كبار

الأمراء في إيطاليا وفرنسا يوصون مصانع هذه المدينة بصنع أوان خاصة بهم تحمل أسماءهم وشعاراتهم ، ومن ذلك صحن مطلي بالبريق المعدني الأصفر والأزرق صنع لأمير من أسرة (أجلى) Degli Agli من فلورنسا ، وهو محفوظ حالياً بمتحف فكتوريا وألبرت في لندن . ومن إسبانيا اقتبس الإيطاليون أسلوب الخزف المعدني البراق ، ونشأت في مدينة (جوبيو) Gubbio مصانع نهضت بهذه الصناعة نهوضاً كبيراً ، واشتهرت منتجاتها بالبريق المعدني الذهبي والأحمر .

وكذلك قلد الخزافون الإيطاليون صناعة الخزف الإسلامي المعروف بطريقة الرسم بالحفر Graffito . وكانت هذه بداية لاشتقاقات أخرى من أساليب صناعة الخزف عند المسلمين ، عاونت معاونة كبيرة على ازدهار هذه الصناعة في عصر النهضة الأوربي . فنشأت ، مثلاً الصناعة المعروفة باسم (البارليو) Albarello ، وربما اشتق هذا الاسم من الكلمة العربية « البرنية » . وهي التي كانت تطلق على الأنية المخصصة لحفظ الأدوية . وازدهرت صناعة هذه الأواني في مدينة إيطالية كذلك هي (فاينزا) Faenza في منتصف القرن الخامس عشر .

أما المتحف الزجاجية فقد كانت تستجلب من مصر ودمشق لقصور الملوك والأمراء في أوروبا ، بل كانت تصنع أحياناً خصيصاً لهم . وبدأ رجال الفن الإيطالي منذ القرن الثالث عشر ، وخاصة في مدينة البندقية ، التي كانت وما زالت مشهورة بصناعة الزجاج ، يتأثرون بالأساليب المصرية والشامية . وسرعان ما أتقن هؤلاء الصناع صناعة الزجاج المطلي بالمينا ، فلم تعد تلك الصناعة وقفاً على المصانع الإسلامية . ومن البندقية انتشرت طريقة الصناعة الفنية هذه إلى مراكز أوربية أخرى ، فأخذت تنتج الأواني الزجاجية التي يظهر أثر الفن الإسلامي عليها واضحاً .

المعادن :

أحرز الصناع المسلمون تقدماً ملحوظاً في صناعة المعادن ، وبلغت مهارتهم

ودقتهم فيها مبلغاً فائقاً ، وانتجوا منها مختلف التحف من أوان وصينيّات وصحون وأباريق وزهريات وشمعدانات وغيرها ، وأتقنوا صناعتها من البرونز ، وتكفيتها بالذهب والفضة والنحاس ، وشكلوها على هيئة الطيور والحيوانات ، ونقشوا مسطحاتها بزخارف رائعة الجمال ، هندسية ونباتية وحيوانية وآدمية وخطية .

وكانت أولى الاقتباسات الأوربية من هذه الصناعات المعدنية أشكال الأباريق البرونزية أو النحاسية ، واستخدموها لسكب الماء والخمر في القداس والكنائس ، وهي المعروفة في أوروبا باسم (أكوامانيل) Aquamanil .

وكانت التحف الإسلامية المعدنية تلبى رواجاً كبيراً في بلاطات الملوك والأمراء الأوروبيين ، وكان من نتائج انتشارها أن ظهرت بمدينة البندقية مصانع للتحف النحاسية في القرن الخامس عشر ، اتخذ صناعتها من التحف الإسلامية نماذج استوحوا منها أساليب صناعتهم وأشكالها ، وقد تخلفت تحف عديدة من إنتاج هذه المصانع ، من بينها صينية مشهورة من النحاس المكفت بالفضة ، نقش عليها رسوم متشابكة على الأسلوب العربي ، وازدان وسطها بحلقة تحيط بشعار أسرة (أوشي ده كاني) Ochi di Cane من مدينة (فيرونا) .

واتبع الفن الأوربي أسلوباً مماثلاً لأسلوب التكفيت الإسلامي ، واستبدلوا الأسلاك الفضية والذهبية التي كانت تستخدم فيه ، لدائن زجاجية من المينا الملونة . فأصبح فن الزخرفة بالمينا المعروف في أوروبا بصفة Cloisonné أو Champlévé إخراجاً مقتبساً من فن التكفيت الإسلامي المعروف بصفة Inlay الرنوك ؛

وكثيراً ما كان ملوك المسلمين وأمراؤهم يتخذون شعارات ، أو شارات ، وهي المعروفة بالرنوك . وكانوا يرسمونها على أملاكهم وأوانيهم وأثاثهم . وشكل هذه الرنوك على هيئة مناطق دائرية أو بيضاوية أو مفصصة ،

تنحصر داخلها صورة زهرة أو طائر أو حيوان أو كأس أو سيف ، أو غير ذلك من العلامات والأدوات التي ترمز إلى شخصية الملك ، أو يستدل منها على وظيفة الأمير . وكانت هذه الرنوك تلون عادة بألوان زاهية براقية . وعن المسلمين أخذ أمراء أوروبا ونبلاؤها عادة الرنوك وأصبح لكل أسرة نبيلة شارة خاصة بها ، بل إن صورة النسر ذي الرأسين التي كانت شعاراً للأمراء في العصر السلجوقي ، أصبحت في القرن الرابع عشر الميلادي شعاراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وشاع استعمال الرنوك في أوروبا منذ التاريخ وأصبح لكل أسرة شعاراً يتوارثه أبناؤها ، وكثيراً ما كانت هذه الشعارات تلون كذلك بألوان زاهية براقية .

النسيج والسجاد :

ذاعت في أوروبا في العصور الوسطى شهرة المنسوجات الإسلامية ودور الطراز التي كانت منتشرة في البلاد الإسلامية العربية ، والتي كانت تنتج من المنسوجات أنواعاً فاخرة متموجة الألوان ، أو منقوشاً بخيوط الذهب والفضة .

وأخذت مصانع النسيج في أوروبا تعمل على تقليد المنسوجات الحريرية الفاخرة ، وكان هذا التقليد نتيجة مصادر ثلاثة ، أولها مصدر مباشر ، نتيجة استيراد الملوك والأمراء للأقمشة الفاخرة من بلاد المشرق الإسلامي ، وثانيها ، ناشئ عن استمرار المراكز الصناعية الإسلامية في إنتاجها فترة طويلة من الزمن ، وفقاً للتقاليد الإسلامية ، بعد خضوعها للحكم المسيحي ، في الأندلس ، وخاصة في صقلية التي كان تأثيرها كبيراً على المدن الإيطالية ومصانع النسيج فيها ، وثالثها مصدر غير مباشر ، استتبع تأثير المصانع البيزنطية بالأساليب الإسلامية . وإنتاجها أقمشة ، تحمل الطابع العربي ، راجت رواجاً كبيراً في أوروبا .

ومن الأمثلة البارزة على التأثيرات العربية في مجال النسيج تلك العباءة

التي نسجت في صقلية للملك راجر Roger II في سنة ٥٢٨ هجرية (١١٣٤م) ،
أى بعد انقطاع الحكم الإسلامى فى الجزيرة . وقد نسجت هذه العبادة
خصيصاً لكى يرتديها الملك فى حفل تتويجه ، وهى محفوظة حالياً فى متحف
فيينا ، عاصمة النمسا ، وزخارفها مشتقة من الزخارف العربية ، فضلاً عن أنه
نسجت عليها كتابة باللغة العربية ، سجل فيها تاريخها الهجرى وعبارات التبرجيل
والدعاء للملك وفقاً للتقاليد الإسلامية .

وقد قلد الإيطاليون النسيج الحريرى الذى كانت تنتجه المصانع العربية
فى صقلية وأصبحت لهذه الصناعة مراكز هامة فى إيطاليا ، منذ القرن الثالث
عشر الميلادى . وكانت هذه المراكز تحرص على أن تستمد موضوعاتها
الزخرفية وأساليبها الصناعية من المنسوجات العربية . ومن أمثلة ذلك قطعة
فاخرة من الديباج الموشى بخيوط الذهب ، محفوظة بمتحف فيكتوريا
فى لندن ، وهى من صناعة إيطاليا فى القرن الرابع عشر ، وتشاهد عليها
زخارف حيوانية وتوريقية وخطية ، تقليداً مباشراً للزخارف العربية والخط
الكوفى .

وبلغت صناعة الأقمشة الحريرية الأوربية المحلاة بزخارف شبه إسلامية
حداً كبيراً من إتقان التقليد بحيث كان يتعذر التفرقة حينئذ بين الأقمشة
المستوردة من البلاد الإسلامية وتلك التى تصنع فى إيطاليا . وكانت معظم
هذه الأقمشة محلاة بزخارف موشاة بخيوط ذهبية ، وكانت براعم الأزهار
وفقاً للأسلوب العربى تتناثر على مسطحاتها القرمزية . ومن الأمثلة المتخلفة
من هذه المنتجات الإيطالية نخل بديع مصنوع فى إيطاليا فى أواخر القرن
الخامس عشر أو أوائل القرن السادس عشر ، ومحفوظ كذلك فى متحف
فيكتوريا وألبرت فى لندن . وقد ظلت شهرة هذه المنسوجات الثمينة قائمة
سنوات طويلة حتى إن مصنعاً للنسيج فى إنجلترا رغب فى إحياء ذكرها
فى القرن التاسع عشر وأخرج قطعاً من القطيفة الموشاة بالذهب ، والمحلاة
بزخارف مختلفة الألوان ، تحمل الطابعين الإيطالى والعربى معاً .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن كثيراً من الأسماء المتخذة في اللغات الأوروبية للتمييز بين أنواع الأقمشة فيها مشتق من أسماء بعض المدن الإسلامية التي كانت مشهورة لصناعة النسيج ، أو من أسماء بعض الأقمشة العربية الفاخرة . ومثال ذلك (فستيان) Fustian فهو مشتق من الفسطاط و (الدامسكس) Damascus فهو مشتق من دمشق و (الموسلين) Mussolin فهو مشتق من الموصل و (البلداكينو) Baldacchino فهو مشتق من بغداد و (الجرانادين) Grenadines فهو مشتق من غرناطة و (الديميتي) Dimiti فهو مشتق من دمياط ، و (التابس) Tabis فهو مشتق من العنابية في بغداد .

وكذلك تأثرت صناعة السجاد الأوربي من صناعة السجاد الإسلامية . وكانت قطع السجاد التركي والفارسي تملأ القصور الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكان السجاد الإسلامي معروفاً من قبل ذلك بمدة طويلة في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا ، يدل على ذلك أن صورته تظهر في لوحات كبار المصورين من تلك البلاد في عصر النهضة .

وكان الصناع الأوروبيون يقلدون كذلك نسيج السجاد الفارسي ، وما زالوا يقلدونه حتى اليوم ، بل إنهم أتقنوا هذا التقليد بفضل الطرق الميكانيكية لإنتاج السجاد ، وأصبحت المصانع الألمانية ، مثلاً ، تنتج السجاد على نطاق واسع تقليداً مطابقاً لمظاهره الأصلية ، ألواناً وزخرفة .

التجليد :

وامتدت التأثيرات العربية إلى فن تجليد الكتب . والمعروف أنه يرجع إلى العرب الفضل ، في إدخال صناعة الورق إلى أوروبا ، وكان لهم كذلك فضل في توجيه العناية إلى التجليد وإلى زخرفة جلود الكتب . ومن المؤكد أن الأوروبيين أخذوا عنهم كذلك طريقة تزويد جلد الكتاب بلسان ، لحماية الأطراف الخارجية للمخطوطات .

وكذلك اشتق الأوروبيون من العرب طريقة تذهيب المجلدات . بإذابة صفائح ذهبية في الفراغات الناتجة عن ضغط الرخارف وكبسها . وكانت هذه الطريقة قد ابتكرت في قرطبة ، التي كانت ، وما ظلت ، مشهورة بصناعة الجلود ، حتى إن صانع الأحذية تسمى باللغة الفرنسية Cordonnier اشتقاقاً من قرطبة . وانتقلت طريقة التذهيب إلى أوروبا ، وشاع استخدامها منذ القرن الخامس عشر . وكذلك كان بالبندقية مركز هام للتجليد ، وكان القائمون بالعمل فيه صناعاتاً مسلمين ، وإليهم يرجع الفضل في إحياء طرق التجليد الإسلامية واستمرارها في أوروبا ، وبلغوا شأواً كبيراً في العصور الحديثة .

التصوير :

لم يكن لفن التصوير الإسلامي تأثير كبير على فن التصوير الأوروبي ، ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن بعض كبار المصورين ، مثل (رمبرانت Rembrandt) قد نقل بعض الصور الشرقية في لوحاته عن مصورات إسلامية ، وأن (هولبين) و (ليوناردو) اللذين سبقتا الإشارة إليهما ، قد درسهما في صورهما سجاداً إسلامياً . غير أن الأثر الإسلامي الواضح في التصوير الأوروبي كان في تشكيل الموضوعات الزخرفية ، نقلاً عن مصادرها العربية ، وبخاصة في مدارس التصوير في (سيينا Sienna) و (بيزا Piza) والبندقية . وكذلك ظهرت في بعض صور المصورين الأوروبيين في عصر النهضة وفي العصور التالية ، مناظر من الطبيعة العربية أو صور أشخاص بملابس عربية ، معجمة رعوسهم ، وذلك ، مثلاً ، في الصور التي تعبر عن مناظر مسيحية مقدسة . وكذلك ظهرت في ملابس بعض الأشخاص المصورة زخارف إسلامية هندسية أو توريقية أو خطية ، أو رسوم لحيوانات غير مألوفة في بلاد الغرب ، مقتبسة من الصور الإسلامية .

كان أثر العرب والمسلمين في تطور العمارة والفنون الأوروبية كبيراً كما رأينا . شمل نواحي كثيرة ، وامتد قروناً طويلة . وإذا كان هذا الأثر واضحاً المعالم

في إسبانيا ، نتيجة لاستمرار المدجنين في إظهار مهارتهم الفنية وفقاً للتقاليد
الأندلسية ، وفي إيطاليا ، نتيجة لتأثرها من انطباع جزيرة صقلية بالطابع
العربي ، فقد رأينا أن هذا الأثر امتد إلى معظم بلاد أوروبا الغربية ، بل إنه
امتد كذلك إلى مراكز الفن البيزنطي في شرق أوروبا . هذا من حيث الحدود
الجغرافية ، أما من حيث الحدود الزمنية ، فقد رأينا أن هذا الأثر ظهر
منذ القرن العاشر الميلادي وما زالت مظاهره في بعض المجالات تشهد في
الآزمنة الحديثة والمعاصرة . ومن أمثلة ذلك أن أفاريز المذبح في كاتدرائية
(وستمنسترابي) Westminster Abbey قد حليت بقطع من القراميد
محلقة مزوقة بزخارف عربية صنعها فنان إيطالي في سنة ١٨٢٦ ، وأن فناناً
« انكليزياً » رسم في سنة ١٨٨٤ رسوماً زخرفية إسلامية ، نسجت على قطعة
من القטיפ . وما زالت روائع العمارة والفنون الإسلامية العربية المنتشرة
في أنحاء العالم الشرقي والغربي تجتذب أنظار الأوروبيين والأمريكان ومحور
إعجابها .

الدكتور أحمد فكري
أستاذ الآثار الإسلامية . جامعة بغداد .

بيان بالمراجع الهامة

(أ) المراجع العربية

- ١ - أحمد فكرى ، « ما شاء الله » ، مقال فى مجلة الكاتب المصرى ، مجلد (١) ، عدد ٤ ، القاهرة ، يناير ١٩٤٦ ، صفحات ٥٦٩ إلى ٥٧٦ .
- ٢ - زكى محمد حسن ، « أثر الفن الإسلامى فى فنون الغرب » مقال فى مجلة الرسالة العدد ٩٣ ، القاهرة ١٩٣٥ ، صفحات ٦١٥ إلى ٦١٨ .
- ٣ - محمد عبد العزيز مرزوق ، « الفن الإسلامى ، تاريخه وخصائصه » ، الفصل الخاص بأثر الفن الإسلامى فى أوربا ، صفحات ١٩٩ إلى ٢١٢ . بغداد ، ١٩٦٥ .
- ٤ - حسن الهوارى ، « أثر الفن الإسلامى فى الحضارة العالمية » ، مقال فى مجلة الهندسة ، الجزء ١٤ ، القاهرة سنة ١٩٣٤ ، صفحات ٧٨ إلى ٩٠ .

(ب) المراجع الأفرنجية :

- 1) Anton Casaseca (Francisco) ; Las Influencias Hispano-árabes en el arte occidental de los siglos XI y XII. Boletin del Seminario de Estudios de Arts y Arqueologia, fasciculas VIII-IX, pp. 221-257. Valladolid, 1935.
- 2) Arnold (Thomas) and Guilaume (Alfred) ; The Legacy of Islam, Oxford, 1931.

الترجمة العربية تحت عنوان « تراث الإسلام » « جزءان ، لجنة الجامعيين
لنشر العلم ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

ينظر فى الجزء الأول ، فصل « اسبانيا والبرتغال » ، صفحات ١ إلى ٧٩ ، تأليف Ernest Barker وترجمة حسن مؤنس .

وينظر في الجزء الثاني ، ترجمة زكي محمد حسن ، الصفحات من ١ إلى ١٦٠ ، ، فصل « الفنون الفرعية » ، تأليف A.H. Christie ، وفصل « التصوير » تأليف (Thomas Arnold) ، وفصل « العمارة » ، تأليف (Martin S. Briggs)

3) Baltrusaitis (Jurgis) ; Le Moyen Age Fantastique, antiquités et exotismes dans l'art gothique, Colin, Paris, 1955.

4) Bertaux (Emile) ; Les Arts de l'Orient Musulman dans l'Italie Méridionale. Mélanges d'Archéologie et d'Histoire. Ecole Française de Rome, T. XV, 1895. P. 419-453. Paris-Rome.

5) Devonshire (Mrs. R.L.) ; Quelques Influences Islamiques sur les Arts de l'Europe — La Semaine Egyptienne. Le Caire, 1929.

6) ; Quelques Influences Islamiques sur les Arts de l'Europe. Schindler, Le Caire, 1935.

7) Goméz-Moreno (Manuel) ; Ars Hispaniae, Vols. III, IV, Madrid, 1949-51.

ترجم الجزء الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان (الفن الإسلامي في إسبانيا) وتولى الترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ، دار الكاتب العربي سنة ١٩٦٨ .

8) Dimand (M.S.) ; A Handbook of Muhammadan Art. 3rd Edition, New-York, 1948.

الترجمة العربية تحت عنوان « الفنون الإسلامية » ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة أحمد فكري ، دار المعارف بمصر : ١٩٥٨ (الطبعة الثانية) .

9) Fikry (Ahmad) ; L'art Roman du Puy et les Influences Islamiques. Leroux. Paris. 1934.

10) Kubnel (Ernst) ; Oriente y Occidente en el arte medieval, Archivo Español de Arte, XV, pp. 92-96. Madrid, 1942.

- 11) Lambert (Elie) ; L'Art Hispano-Mauresque et l'Art Roman, Hesperis XVII, pp. 39-43. Rabat, 1933.
- 12) ; Les Origines de la Croisée d'Ogives. Paris, 1935.
- 13) Mâle (Emile) ; Art et Artistes du Moyen-Age, Colin, Paris, 1927.
- 14) Marçais (George) ; L'Architecture Musulmane d'Occident, Paris, 1954.
- 15) Terrasse (Henri) ; Islam d'Espagne, Une rencontre de l'Orient et de l'Occident. Paris, Plon, 1958.
- 16) Tores-Balbás (Leopoldo) ; Origen árabe de la Palabra

الفصل
التاسع
في الموسيقى



إعداد : الدكتور محمود أحمد الحفنى



أثر العرب والأسلام فى النهضة الأوربية « الموسيقى »

الموسيقى العربية تمتد جذورها إلى آلاف السنين التى سبقت الميلاد، وكان الاعتقاد السائد عند الكثيرين من الباحثين أن الموسيقى العربية إغريقية الأصل أو فارسية ، وذلك بأنهم كانوا يبدعون تاريخهم لها من العصر الجاهلى حيث كانت الحضارات الإغريقية والفارسية فى عنفوانها . غير أن تقدم علم الآثار فى العصور الحديثة وما كشف عنه فى الحفريات قد أنار الطريق أمام التاريخ الموسيقى وغير الأفكار بالنسبة لمعرفة التدرج الحضارى فى العالم تغييراً جذرياً . إذ اتضح أن الموسيقى العربية لا ترجع بدايتها إلى ذلك العصر المسمى بالعصر الجاهلى ، بل ترجع إلى أبعد من ذلك بكثير . فهناك فى مجال الوطن العربى وفيما يزيد على ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد حين يرفع ستار التاريخ العام عن وجه الزمن نجد على ضفاف النيل شعباً يتمتع بمدينة موسيقية ناضجة وآلاتها التى جاوزت دور النشوء وبدأت تامة كاملة سواء فى ذلك الآلات الإيقاعية أم آلات النفخ أم الآلات الوترية .

وبينما الشعب المصرى يرسل أغنياته على شاطئ نيله السعيد ، نجد على ضفاف ايرافدين وفيما حولهما مدنات موسيقية عالية فياضة هى مدنات بابل وآشور التى شملت فيما شملت شعوب الكنعانيين والفنيقيين والحيتيين .

وتلاقت تلك المدنات الوارفة وامتدت ظلها حتى شملت غرب آسيا وشمال افريقية . وظلت هذه الشعوب على اتصال وثيق دائم بعضها ببعض مما جعل التاريخ يسجل لها حضارة موسيقية موحدة الطابع وإن تنوعت

في صورها وتعددت في لهجاتها ، حتى لنجد أنه أصبح مما يجري عليه العرف أن يكون في بلاط ملك مصر منذ ابتداء الدولة الحديثة حيث الأسرة الثامنة عشرة فرقتان موسيقيتان إحداهما من أبناء مصر والأخرى من أبناء آسيا . كما نرى في عهد تلك الدولة أيضاً المغنية المصرية تنتنون تعمل على نشر الحضارة المصرية في سوريا عن طريق الغناء . وفي ذلك الحين نرى التجاوب وثيقاً في نواحي الموسيقى المختلفة حيث يقع المزج والتبادل والتقارب الفني بين شعوب هذه البلاد .

ثم تمتد الأضواء وتتسع الرقعة فتطالعنا من الشرق مدنية فارسية ، ونستقبل من الغرب مدنية اغريقية . وما هو إلا أن تتفاعل موسيقات جميع هذه المدنيات وتترابط بحكم الحوار والغزو وتبادل العلماء والفنانين والحواري والقيان . وتؤثر كل منها في الأخرى تبعاً لما يحيط بها من ظروف وما يتحكم فيها من أحوال . وتنتقل الأغاني والآلات الموسيقية بينها حتى تشكل من تنوعها واختلاف ألوانها وحدة فنية ، ويسجل التاريخ هذه الحقيقة فيقول هيرودوت المؤرخ الاغريقي إنه يسمع من أغاني مصر أغنيات صارت فيما بعد أغاني شعبية في بلاد اليونان .

وهكذا تمتد هذه المدنيات الشرقية القديمة لتشكل الجذور الأصلية لدوحة الموسيقى العربية التي أخذت تنمو وتزدهر مع تعاقب المدنيات العربية الزاهرة التي ظلت طوال العصور الوسطى المنبع الأني يفيض بأضواء هذا الفن والهاماته في الشرق والغرب . فقد تجاوبت أصدااء تلك المدنيات العربية فيما بين مكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة ، حين دخلت الموسيقى العربية في عصرها الزاهر وخطت خطوات سريعة نحو الكمال حتى صارت جزءاً من ثقافة الشعب مرتكزة على أساس صحيح من العلم والفن مما استكملت به جميع مقومات شخصيتها . وأصبح لزاماً على المشتغل بالموسيقى أن يلم بالكثير من العلوم والفنون ليكون أهلاً لاحتراف هذه الصناعة ، إذ لا بد له من اكتمال ثقافته في نواحيها المختلفة حتى يكون مرآة

صديقة لعصره وصورة مترجمة لزمانه : يجيد العزف بالآلات وعلى معرفة أكيدة بفنون الشعر والأدب والرواية والقصص وأدب السلوك والمؤانسة ، ليتم الاستمتاع في مجالس الغناء بجميع هذه النواحي مجتمعة .

ولم يكن افتتان العرب في الموسيقى مقصوراً على ضبط فنون الغناء والعزف والتعرف إلى أصول الموسيقى وقواعدها واستكمال الآلات الموسيقية وتطوير صناعتها فحسب ، بل افتنوا كذلك في ألوان التأليف الموسيقي وتطوروا بأساليب الشعر والغناء .

وأرسلت أوروبا إلى حواضر البلاد العربية بالبعوث تنهل من معاهدها وجامعاتها علوم العرب وفنونهم ، وكانت الموسيقى في الصدارة من تلك العلوم والفنون التي وفدت تلك البعث لدراستها وترجمة كتبها فنقلت الكثير من كتب العرب في الموسيقى كمؤلفات الكندي وثابت بن قرة وزكريا الرازي والفارابي واخوان الصفا وابن سينا وصفي الدين عبد المؤمن الأرموي وابن باجة وغيرهم

وقد ذكر المؤرخون أن هذه البعثات قد بلغ عدد أفرادها في عام ٢١٣ هـ سبعمائة طالب وطالبة من مختلف مقاطعات إسبانيا وألمانيا وفرنسا . وهذا التاريخ يقع في أوائل حكم عبد الرحمن الأوسط . ومما يسترعى النظر من الناحية الموسيقية أنه كان قد مضى على زرياب (وهو أبو الحسن علي بن نافع) في قرطبة سبعة أعوام . وما من شك في أن كثيرين من أفراد هذه البعث الكبيرة قد التحقوا بالمدرسة التي أنشأها زرياب للموسيقى في بلاط عبد الرحمن والتي كانت تدرس بها أصول الموسيقى والغناء والعزف بمختلف الآلات وفنون الشعر والرقص .

وتتابعت هذه البعث من أوروبا إلى هذه المدرسة وغيرها من المدارس واتسع أمام أفرادها المجال لتعلم هذه الفنون واستيعابها في دراسة وافية . ثم عادوا إلى بلادهم ينقلون إليها من علوم الموسيقى الغربية وفنونها وآلاتها

ما يعد من اللبئات الأولى لبناء النهضة الفنية في أوروبا وبما يعتبر بمثابة الشعلة التي أضاءت للفن الأوربي طريقه في عصر النهضة ، تلك الشعلة التي قدر لها أن تعلق وتردهر على توالي الحقب والأيام .



وظل اتصال أوروبا بالمدينيات العربية وثيقاً نتيجة لعوامل أخرى سياسية وثقافية وبخاصة بعد أن تتابعت الفتوحات الإسلامية وتلاحقت حتى استقرت أقدام العرب فوق جهات أوربية متعددة في شرقها وغربها وجنوبها . وانتظمت قوافل التجارة بين العرب وبين مختلف البلدان الأوربية على نحو ما ذكره الرحالة والمؤرخون من العرب في مصنفاتهم . وكذلك كان للحروب الصليبية التي امتدت قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م) أثرها في تدعيم هذه الصلات . كل هذه العوامل وثقت الصلة بين العرب وسائر البلاد الأوربية ، وبهرت المدينة الإسلامية شبان أوروبا ومثقفوها حتى لرى قسيساً من أهالي قرطبة يشكو في القرن التاسع من أن الشبان المسيحيين يهتمون باللغة العربية ويغفلون اللاتينية التي كانت وقتئذ لغة الثقافة في أوروبا ويرددون الأغاني العربية في نواديهم ومجتمعاتهم .

ومن ثم عرفت أوروبا لأول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين وهم يعرضون أغانيهم ورتصاتهم الشعبية مرددين فيها ملاحم البطولة وما نقلوه عن عرب الأندلس وغيرهم من قصص ألف ليلة وليلة وأمثالها . وعرفت أوروبا ألواناً جديدة من الغناء الشعبي عرفت باسم أغاني الطروبادور حيث بدأت جماعات الطروبادور هذه في القرن الحادى عشر تظهر في جنوب فرنسا في ألمانيا ، وبعدها جماعات الميناسنجر . وكلها تغنى بأوزان جديدة من الشعر استملوها من ألوان الموشحات والأزجال والأغاني الأندلسية ، وكان في طليعة أغراضها الغزل والتغنى بجمال الطبيعة والمدح والحماسة مما يعد من الأمس الأصلية في ألوان الشعر العربي لاسيما الغنائى منه .

وقد قامت طائفة كبيرة من المستشرقين والباحثين بتقصي الحقائق التاريخية
 لذكر منهم بصفة خاصة « ريبيرا Ribera » و « هارتمان Harimann »
 و « لانحمان Lachmann » و « بروفنسال Provençal » و « كلوت Clot »
 و « بالنشا Palencia » و « دوزي Dozy » و « ابكر Ecker »
 و « غومس Gomez » « نيكل و نكل Nukl » وأخيراً « فارمر Farmer »
 و « هونكا Hunke » ولكل من هؤلاء وغيرهم بحوث صادقة أوردوا فيها
 كثير آ من فنون الموسيقى والشعر الغنائي في كل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا
 والأراضي الولاية والبرتغال وأسبانيا في مقارنة وموازنة بين تلك الفنون
 ومثيلاتها من التراث العربي مستشهدين في ذلك على أنها كانت انعكاساً
 لما احتوته الأندلس والحضارات العربية من هذه الألوان المتكرة .

وقد أثبت هؤلاء الباحثون أن بعض قوالب القصائد المسماة La balalde
 والأغاني العاطفية La chanson courtoise وغيرها من قصائد شعر الطروبادور
 تتألف من أنماط وأجزاء تشبه إلى حد كبير ما في ترتيبها أنماط الموشحات
 وأجزاءها حيث تتعدد فيها الأوزان والقوافي . كما قرروا أيضاً أن نظم شعراء
 الطروبادور والمينامسجر كان يعتمد في الأهم على الموسيقى والغناء الشعبي
 كالشأن في الموشحات وبعض ألوان الأغنيات العربية .

بل إن بعض هؤلاء المستشرقين ليقرر أن لفظ « طروبادور » ما هو
 إلا تركيب من الكلمتين العربيتين : « دور طرب » قدمت فيه الصفة على
 الموصوف .

وتقول الباحثة الألمانية دكتورة سيجريد هونكا في كتابها « شمس الله
 على الغرب في فضل العرب على أوربا » .

« إن موسيقى الغناء القديم لا تعرف الإيقاع المستقل بل تعتمد على مجرد
 الأوزان التي تنحصر في مقاطع طويلة وقصيرة ، وأن أقدم موسيقى كنسية
 على وحدات من النغمات متصلة لا يدخلها التوزيع الموسيقي وذلك على نمط

تقسم الحمل الكلامية عن طريق التنقيط والفواصل وما إليها » . ثم تقول أيضاً : « أما البناء الإيقاعي فهو شرقي أصيل . والإيقاع يساعد على خلق الموسيقى محدودة الزمن (Mensural notation) ويؤدي مباشرة إلى نظام المازورة . وقد يكون هذا أهم تراث موسيقى قدمه العرب لأوروبا أعنى الموسيقى محدودة الزمن التي أدت مباشرة إلى إيجاد المازورة » إلى أن تقول : « أما نظريات الموسيقى في المؤلفات الإسبانية العربية فلم تظهر إلا في المصنفات اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وتدين أوروبا للعرب في أكثر آلاتها الموسيقية ، فقد انتشرت منذ القرن التاسع في ممالك أوروبا ولاسيما في البلاد الغربية والجنوبية منها آلات الموسيقى العربية . وكثير من هذه الآلات انتقل إليها بأسماء تم عن اشتقاقها من أصلها العربي ، كالعود ، ومعناه الحشب ، فقد انتقلت التسمية العربية بلفظها إلى جميع اللغات الأوروبية . وحسبنا أن نسجل هنا أسماء في اللغات الآتية :
الإسبانية Laud — السويدية Luito — البرتغالية Alau — الإنجليزية Lute
الفرنسية Luth — الإيطالية Luito — الألمانية Laute الدانماركية Lüt
الروسية Ljutnja — البولونية Lutnia — الفنلندية Luuto
الصربية Lutnja المحرية Laut — الرومانية Leuta وهكذا ...

وما كاد العود ينتقل من الأندلس إلى فرنسا حتى أصبح في القرن الثاني عشر من آلاتها الشائعة ، كما لاقى رواجاً كبيراً في ألمانيا ثم في إيطاليا ثم في بقية البلاد الأوروبية .

وكما هو معروف في علم الآلات ، أن الآلات الموسيقية حين تنتقل من بلد إلى بلد لابد أن تنتقل معها موسيقاها أيضاً . وهكذا نجد أن أوروبا عن طريق انتقال العود إليها سرعان ما اهتدت إلى التدوين الجدولي المعروف باسم « تابولاتور Tabulatur » . وثرجع بداية هذا التدوين إلى ما كان العرب يصنعونه من الدساتين (ومفرده دستان) على رقبة العود .

وما شابهه مثل آلات الطانير والحيثار لبيان مواضع عفق الأصابع على الأوتار لتحديد مواقع النغمات . فقد عني العرب بتوضيح مواضع هذه الدساتين بغاية الدقة . وقد أفاض الفارابي في مصنفه « كتاب الموسيقى الكبير (١) » في ذكر دساتين العود (ص ٤٩٨ - ٥٠٢) ثم دساتين الطنبور البغدادي (ص ٦٣٢ و ص ٦٥٣ / ٦٥٤) ثم دساتين الطنبور الخراساني (ص ٦٩٨ و ص ٦٩٩ / ٧٠٠ / ٧٠١ / ٧٢٠) .

وقد تنبهت الدكتورة هونكا حيث تقول :

« وبينما نجد الموسيقيين الأوروبيين يعتمدون في ضبط الآلات الوترية على الأذن نجد طالب الموسيقى في مدرسة زرياب يتعلم العزف بالعفق على دساتين وضعت على رقبة العود والحيثار ، قيست عليها المسافات الصوتية قياساً دقيقاً . وتعد هذه من المزايا الكبرى التي حبيت الآلات الموسيقية العربية إلى الأوروبيين وبخاصة العود .

وكان أول ظهور التدوين الجدولي في أوروبا هو التدوين الجدولي للعود ذي الأوتار الخمسة فكان يرسم على خمسة خطوط متوازية قريبة الشبه بخطوط المدرج الموسيقي الحديث . وظل الحال كذلك في ألمانيا حينذاك ، بينما أصبح العود في فرنسا ذا ستة أوتار فكان التدوين الجدولي له يرسم على ستة خطوط ، وكذلك كان الحال في التدوين الجدولي للعود في إيطاليا . وهكذا عرفت أوروبا أنواعاً مختلفة من التدوين الجدولي للعود كان أهمها هذه الأنواع الثلاثة التي استعملتها فرنسا وألمانيا وإيطاليا .

وهذا التدوين الجدولي على اختلاف أنواعه يبنى على أساس التعبير عن النغمات ومواقعها بالحروف الهجائية والأرقام الحسابية . ولم تستخدم أوروبا هذا النوع من التدوين قبل بداية القرن الخامس عشر . وكان صفي الدين

(١) كتاب الموسيقى الكبير للفارابي صدر أخيراً تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة ومراجعة وتصدير دكتور محمود أحمد الحفني .

عبد المؤمن الأرموي (١٢١٦ - ١٢٩٤ م) أول من سجل التدوين اللغني للنغمات باستخدام الحروف الهجائية في بيان اختلاف وحدة الأصوات مقرونة بالأرقام الحسابية لبيان تقديرها الزمني . وقد أشار إلى ذلك هـ . ج فارمر في كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » (١) ونشر صورة زنكوغرافية لصفحة من مخطوط « الأدوار » أحد مصنفات الموسيقى المذكور .

وكان هذا التدوين الجدولي البداية التي أضاعت طريق أوربا إلى استكمال التدوين الذي تحدد به النغمات وتضبط الموسيقى زمنها وإيقاعها .

ومنذ ابتداء القرن السادس عشر ازدهر التأليف لآلة العود في أوربا ، فظهر في هذا القرن وحدة عشرات المبتودات وما لا يحصى من المقطوعات المخطوطة والمطبوعة والمؤلفات الخاصة بملك الآلة .

وظل استعمال العود منتشرآ في أوربا في جميع الأندية والمجتمعات والمنازل حتى بداية القرن الثامن عشر حيث أثر على ذبوعه انتشار آلة البيانو لمناسبتها للموسيقى الأوربية التي تعتمد في بنائها على تعدد التصويت (الهارموني) .
و حين تطورت أوربا بصناعة العود وصنعوا منه نوعاً كبير الحجم لأداء نغمات الباص ذا بنجقين (٢) للملاوى ورقبة عريضة مزدوجة وهو العود المعروف بعود الكونسرف أسموه «Toorbe» وقد أرجع بعض المستشرقين اشتقاق هذه الكلمة إلى اللفظ العربي « طرب » .

وكذلك انتقلت من العرب إلى أوربا آلات كثيرة بأسمائها العربية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : القيثارة Quitarra - الجيتار Guitar - النقارة Nacaire - Naker - الدف Adufe - الصنوج Sonajas - النفير Anafil وجمعه انفار Fanfare - الطبل Tabel و Taber -

(١) ترجمة دكتور حسين نصار ومراجعة دكتور عبد العزيز الالهواني ص ٢٣٨ .

(٢) البنجق : الجزء الذي يل نهاية رقبة العود وهو الذي ثبتت فيه الملاوى (المفاتيح)

القرن Horn و Corno — الشقير Echiquier الذى يقرر الأوربيون أنه كان بداية حلقات تطوير آلة البيانو .

وكان أول تعرف أوربا بالآلات الوترية ذات القوس حوالى القرن الحادى عشر حين انتقل إليها الرباب العربى . وقد ظهر أقدم آلات الرباب عند العرب فى القرن الأول بعد الميلاد وكانت ذات وتر واحد ثم ذات وترين ثم أربعة أوتار وتنوعت أشكالها فعرفت منها رباب الشاعر والرباب العادى الذى يعرفه الأوربيون باسم « كمنجة عجوز » والرباب التركى المعروف باسم « الأرنبه » والرباب المغربى .

وقد انتقلت تلك الآلة مع العرب إلى الأندلس ومن ذلك الحين فقط عرفت أوربا الآلات الوترية ذات القوس وبدأت تظهر فيها وبخاصة فى البلاد المتاخمة للأندلس وهى فرنسا وإيطاليا . فقد صنع الفرنسيون آلة تماثل الرباب العربية أسموها Rubella و Rubele كما صنع الإيطاليون نفس هذه الآلة وسموها Rubeca أو Rebec وظهر من كل هذه الألفاظ اشتقاقها من كلمة الرباب العربية . وانتشرت تلك الآلات بعد ذلك فعمت أوربا فى القرن الرابع عشر . وأخذ يتناولها التغيير شيئاً فشيئاً حتى آخر القرن الخامس عشر حيث سميت تلك الآلات Viola ومعناه الوتر . وقد تطورت على مرور الزمن حتى صار من أهمها نوعان سمنى الأول « فيولا » الذراع Viola da braccio وتحمل على ذراع العازف بها أثناء التوقيع . أما النوع الثانى فسمى فيولا الركبة Viola da Gamba يضعها العازف بين رجليه فى أثناء التوقيع على النحو الذى تستعمل فيه الآن آلة الفيوانشيل . وكانت أوربا قد صنعت كل هذه الآلات ذات ستة أوتار مشدودة فى مستوى واحد يتعذر معه على العازف أن يوقع على الأوتار الوسطى منها ، بل كان لابد له من العزف على ثلاثة أوتار فى وقت واحد . وبعد أن عاشت الفيولا بهذا الشكل ذات ستة أوتار أكبر من قرنين عدل الأوربيون عن ذلك ورجعوا

إلى فكرة العرب في وجوب عدم زيادة أوتار تلك الآلات على أربعة كما كان الحال في الرباب العربي .

ويؤيد عدم زيادة أوتار الرباب عند العرب على أربعة أوتار ما ذكره الفارابي في كتابه الموسيقى الكبير ص ٨٠٠/٨٠١ عن تلك الآلة إذ يقول « وهذه الآلة هي أيضاً من الآلات التي تستخرج نغمها بقسمة الأوتار (١) التي تستعمل فيها ، وربما تستعمل فيها وتر واحد ، وربما تستعمل اثنان متساويي الغلظ ، وربما تستعمل وتران متفاضلا الغلظ » . . . إلى أن قال وكثيراً ما يستعمل فيها أربعة أوتار ويجعل اثنان منها على غلظ مثاني (٢) العنان واثنان منها غلظهما قريب من غلظ مثالث (٣) العيدان .



ونجم عن انتقال تلك الآلات العربية إلى أوربا ما لا يقل أهمية عن تعرفهم إلى تلك الآلات . فلقد أفادت أوربا بما يضعه العرب من الدساتين على رقبة الآلات الوترية كالعيدان والطناوير وآلات الحيتار ، موضحة مواضع عفق الأصابع عليها لاستخراج النغمات المطلوبة في الأداء ، وتلك الدساتين في ذلك خاصة لحسابات دقيقة للنسب الصوتية بين تلك النغمات . فلما ذاع في أوربا استعمال تلك الآلات العربية ذات الدساتين وتعرفوا أبعادها ، تبينوا فيها نسباً صوتية جديدة في السلم الموسيقي لم يكن لهم بها علم من قبل في موسيقاهم العملية .

فقد كان السلم الموسيقي الذي تتبعه أوربا طوال العصور الوسطى هو سلم فيثاغورس ، وكانت تعتبر بعد الثالثة فيه بعداً متنافراً (dissenanz) سواء

(١) بقسمة الأوتار : أي باستخراج النغم من أجزاء الوتر بما يلى طوله المطلق .

(٢) المثني الوتر الثاني من العود من ناحية الحدة إذا كان العود ذا أربعة أوتار .

(٣) المثلث : الوتر الثالث من العود من ناحية الحدة إذا كان العود ذا أربعة أوتار .

في ذلك بعد الثالثة الكبيرة ونسبتها الترددية $\frac{4}{3}$ أو بعد الثالثة الصغيرة ونسبتها $\frac{3}{2}$ ، فلم يستطيعوا الإفادة من استعمال هذا البعد بنوعيه في تأليفهم الموسيقية . وكانوا يقصرون الأبعاد المتفقة على ما كانت نسبة محصورة بين ١ إلى ٤ أي ١ - ٢ - ٣ - ٤ ومعنى ذلك موسيقياً أن الاتفاق لا يكون إلا بين النغمة وجوابها أو النغمة وخامستها أو النغمة ورابعتها .

وبدأت أوروبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تعتبر بعد الثالثة بعداً نصف متفق . وظل الأمر كذلك حتى بداية القرن السادس عشر حيث ظهر الموسيقار الإيطالي جيوسيفو تسارلينو (Zarlino, Gioseffo) (١٥١٧ - ١٥٩٠ م) وهو عالم عالمي تتلمذ على الموسيقار أدريان ويلارت (Willaert, Adrian) ، وعمل رئيساً لفرقة الموسيقى والإنشاد بالكنيسة المرقسية في فينيسيا خلفاً لزميله الموسيقار سبيريانو دي رور (Cipriano de ror) وتعتبر أوروبا أن تسارلينو هو إمام الموسيقى النظرية في القرن السادس عشر قد ترجمت أهم أعماله إلى اللغات الأوروبية المختلفة . وقد ذكر هذا الموسيقار في مؤلفاته لأول مرة نظام أبعاد السلم الكبير (الماجير) وهو السلم الذي أطلقت عليه أوروبا فيما بعد السلم الهارموني الطبيعي ، ونسب أبعاده كالاتي :

| | | | | | | | |
|-------------|---------------|----------------|-----------------|---------------|----------------|---------------|-----------------|
| درجات صوتية | ١ | ٢ | ٣ | ٤ | ٥ | ٦ | ٧ |
| نسبة ترددية | $\frac{9}{8}$ | $\frac{10}{9}$ | $\frac{16}{15}$ | $\frac{9}{8}$ | $\frac{10}{9}$ | $\frac{9}{8}$ | $\frac{16}{15}$ |

ومن هذا السلم الكبير (الماجير) اشتق السلم الصغير (المنير) ، كما نتج السلم الكروماتي عن تصوير هذين السلمين على درجات صوتية مختلفة .

واستطاع تسارلينو أن يقرر في مؤلفاته أن بعد الثالثة الكبيرة في هذا السلم ونسبتها $\frac{5}{4}$ وكذلك بعد الثالثة الصغيرة فيه ونسبتها — أبعاد متفقة (Consonans) يمكن استخدامها في تركيب النوافات الثلاثية الصغيرة والكبيرة . ولذلك فإن أوروبا تعتبر هذا الموسيقار أول مؤسس لعلم الهارموني والكونتر بونت .

وقد نسب الكثيرون من معاصري تسارلينو إليه ابتكاره لهذه السلالم الحديدية . ولكن لم يفت العارفين المدققين منهم أنها ليست أعمالاً مبتكرة وأن نسبة ابتكارها لهذا الموسيقى نسبة خاطئة ترجع إلى ضعف ثقافة الموسيقيين وقتئذ . بل لقد عارضه الكثيرون من معاصريه في قبول هذه النسب الحديدية .

فهل كانت هذه النسب جديدة حقاً ؟

قد تكون جديدة لظهورها لأول مرة في الموسيقى العملية في أوروبا وتسجيلها لأول مرة في مؤلفات تسارلينو الذي لم يدع أنه مبتكرها . ولكن مما لا شك فيه أن أوروبا عرفت هذه الأبعاد في الموسيقى العملية حين انتقلت إليها في الدساتين الموضوعة على رقبة الآلات الوترية العربية كالعود والحيثار وأصناف الطنابير .

لقد عرف العرب أبعاد هذا السلم قبل ذلك بعدة قرون . وأسهب علماءها في توضيح نسب هذه التجنيسات الصوتية واستعمالها عملياً في العزف والتوقيع بالآلات .

فها هو ذات الفارابي الذي عاش في أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر للميلاد يردد في « كتابه الموسيقى الكبير » (ص ٣٠٠) ما نصه :
« ولنفصل منه مركب بُعدي كل وثمان كل ، وكل تسع كل ، فيبقى البقية كل وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل » (١)

وهذا معناه بالأرقام النسب : $\frac{9}{8}$: $\frac{1}{9}$: $\frac{17}{16}$ وهي نسب التراكورد الأسفل « الجذع » للسلم الكبير (الماجير) الأوربي .

وها هو ابن سينا الذي عاش في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن

(١) الرياضيات ، ٣ جوامع علم الموسيقى تحقيق زكريا يوسف ومراجعة دكتور أحمد فؤاد الأهواني والدكتور محمود أحمد الحفني طبعة ١٩٥٦ ص ٥٤ .

الحادى عشر للميلاد يذكر فى كتابه الشفاء (ص ٥٤) الجنس الذى تتفق أبعاده مع الأعداد : ١٥ - ١٦ - ١٨ - ٢٠ .

وهذا ما تترجم نسبة الترددية هكذا : $\frac{10}{9} \frac{9}{8} \frac{16}{15}$

وأخيراً ها هو صنفى الدين عبد المؤمن الأرموى الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد يذكر لهذا الجنس ستة أشكال ، إذ يقول فى « الرسالة الشرفية فى النسب التأليفية » نسخة فوتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٨ فنون جميلة (ص ٣٣) ما يأتى :

« وإن فصلنا منه كلا وتسع كل ثم قسمنا الباقي ثلاثة أقسام متساوية ترتبت أبعاده الثلاثة عن نسبة كل تسع وتسع كل ، ثم كل وثمان كل ، وكل جزء وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل . وترتبت أصنافه الستة وأعدادها على هذا المثال :

| | | | | | | | |
|-----|---------------------------------|-----|---------------------------------|-----|---------------------------------|-----|--------------|
| ١٥ | كل وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل | ١٦ | كل وثمان كل | ١٨ | كل تسع كل | ٢٠ | الصنف الأول |
| ١٢٠ | كل وثمان كل | ١٣٥ | كل وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل | ٤٤ | كل تسع كل | ١٦٠ | الصنف الثانى |
| ٢٧ | كل وتسع كل | ٣٠ | كل جزء من خمسة عشر جزءاً من كل | ٣٢ | كل وثمان كل | ٣٦ | الصنف الثالث |
| ٣٦ | كل وتسع كل | ٤٠ | كل وثمان كل | ٤٥ | كل وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل | ٤٨ | الصنف الرابع |
| ١٣٥ | كل وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل | ١٤٤ | كل وتسع كل | ١٦٠ | كل وثمان كل | ١٨٠ | الصنف الخامس |
| ٢٤ | كل وثمان كل | ٢٧ | كل وتسع كل | ٣٠ | كل وجزء من خمسة عشر جزءاً من كل | ٣٢ | الصنف السادس |

انتهى قول صنف الدين .. أى أن لنا أن نختار لكل من الجذع والفرع ما نشاء من هذه الأصناف الستة ، الفاصل بينهما قدره بعد طينى ($\frac{9}{8}$)
 لإكمال البعد الذى بالكل (الاكتاف $\frac{2}{3}$)

فإذا ما اخترنا الصنف الخامس للجذع والأول للفرع كان ترتيب النسب فى الجميع بين صنفى هذا الجنس كما يلي :

$$\frac{16}{15} \frac{9}{8} \text{ أى } \frac{18}{16} \text{ ، } \frac{10}{9} \text{ أى } \frac{20}{18} = \frac{9}{8} \quad \frac{16}{15} \text{ أى } \frac{144}{135} \text{ ، } \frac{10}{9} \text{ أى } \frac{160}{144} \text{ ، } \frac{9}{8} \text{ أى } \frac{180}{160}$$

الصنف الأول

بعد فاصل

الصنف الخامس

(الفرع)

(الجذع)

وهذا يتفق تماماً مع نسب السلم الكبير (الماجير) الأوربى ، وهو المعروف كما ذكرنا باسم السلم الطبيعى الهارمونى والذى يعتبر أساس كل السلام الغربية بما اشتق منه من قريبه الصغير (المينير) وما تفرع منهما بالتصوير .


أما عن تألف الأصوات وانسجامها وهو ما يعبر عنه الغربيون باسم « الهارمونى » فقد كان الأساس فى ذلك راجعاً أيضاً إلى ما سبقهم إليه العرب فى هذا الميدان . ولعل فيما ذكره ابن سينا فى كتاب النجاه (١) تحت عنوان « محاسن اللحن » ما يصنع أمام التاريخ صورة واضحة لمبادئ علم تعدد التصويت الذى وصف ابن سينا منه أنواعاً مختلفة ، نجتزئ منها قوله :
 « وأما التركيب فإن يخلط بالنعيمات الأصلية فى نقرة واحدة نغمة موافقة لها . وأفضل ذلك ما كان من الأبعاد الكبار ، وأفضله الذى بالكل ثم الذى بالأربع ! »

ولئن اعتبر ابن سينا تعدد التصويت من محاسن اللحن لا من أساسياته فكذلك كان الشأن فى استخدام أوربا لهذا النوع من تعدد التصويت إذ اعتبرته هى الأخرى فى بداية استخدامها له من محاسن اللحن .

(١) Ibn Sina's Musiklehre للدكتور محمود أحمد الحفنى طبع برلين ١٩٣١

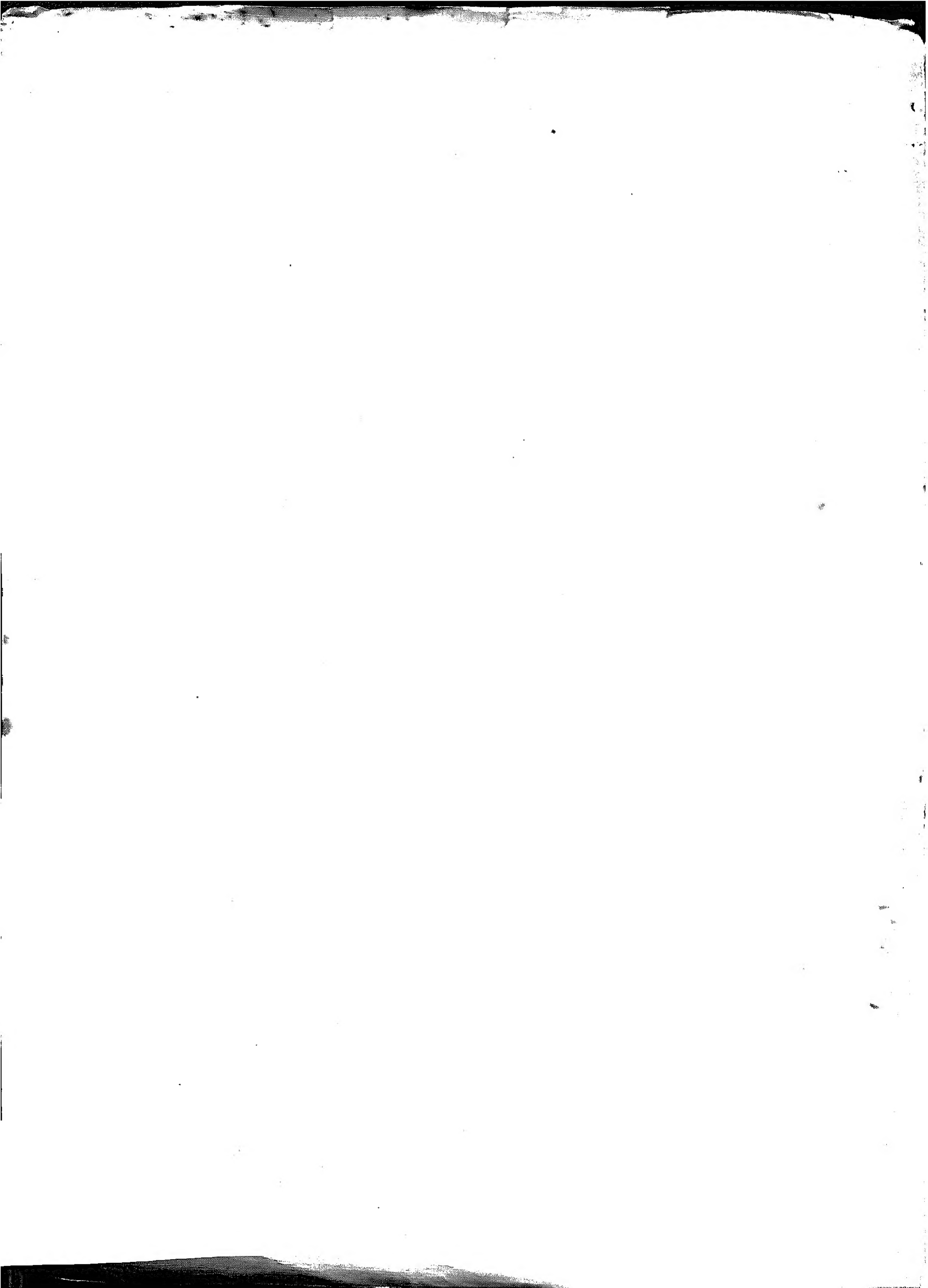
فهرس

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| مقدمة | ٣ |
| الفصل الاول : فى الادب | |
| اعداد : دكتور سهر القلماوى - دكتور محمود على مكى | ١٩ |
| الفصل الثانى : فى الفلسفة | |
| اعداد دكتور ابراهيم بيومى مذكور | ١٣٥ |
| الفصل الثالث : فى العلوم والطبيعة | |
| اعداد : دكتور عبد الحليم منتصر | ١٩٥ |
| الفصل الرابع : فى الطب والاقربازين | |
| اعداد : دكتور محمد كامل حسين | ٢٥٩ |
| الفصل الخامس : فى الجغرافيا | |
| اعداد : دكتور محمد محمود الصياد | ٣٠٥ |
| الفصل السادس : فى المعارف الملاحية | |
| اعداد : دكتور حسين فوزى | ٣٢٩ |
| الفصل السابع : فى التاريخ | |
| اعداد : الدكتور جمال الدين الشىال | ٣٥٥ |
| الفصل الثامن : فى العمارة والتحف الفنية | |
| اعداد : دكتور أحمد فكرى | ٤٠١ |
| الفصل التاسع : فى الموسيقى | |
| اعداد : الدكتور محمود أحمد الحفنى | ٤٥١ |


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٢٥ / ١٩٧٠



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المنف ٧٠ قرشا